العقيدة الإسلامية في مواجهة المذاهب الهدامة

تأليف

الدكتور محمد أبو الغيط الفرت
أستاذ العقيدة والفلسفة في جامعة الأزهر

الدكتور محمد رواس قلعه جي
أستاذ النظم الإسلامية في جامعة البترول والمعاد

دار البحوث العلمية


العقيدة الإسلامية
في مواجهة
المذاهب الهدامة


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

العقيدة الإسلامية
في مواجهة
المذاهب الهدامة

تأليف

الدكتور محمد أبو الغيط الفرت
أستاذ العقيدة والفلسفة في جامعة الأزهر

الدكتور محمد روّاس قلعه جي
أستاذ النظم الإسلامية في جامعة البترول والمعادن



دار البحوث العلمية

الطبعة الأولى

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع
الكويت - شارع فهد السالم - عمارة الأوقاف رقم ٤
ص.ب: ٢٨٥٧ - هاتف: ٤١٤٢٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

إن الحمد لله عزّ وجل، نستغفره ونتوب إليه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، فاللّهم علمنا ما ينفعنا ويرفعنا، وانفعنا بما علّمتنا، إنك على ما تشاء قدير. والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، داعياً إلى ربه على بصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن دعا بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد. . .

فإن علم العقيدة يحتل المكانة العليا بين العلوم المتصلة بدراسة الدين، والعلوم إنما تشرف بشرف موضوعاتها، وموضوع علم العقيدة أشرف الموضوعات، لأنه يختص بالبحث في ذات الله تعالى من حيث إثبات وجوده مدعماً بالدليل، ثم فيما ينبغي أن يتصف به سبحانه من صفات الكمال وما ينبغي أن يتنزه عنه من صفات النقص المحال.

كما يبحث فيما يجوز في حق الله من إرسال الرسل لطفاً بالعباد، وإظهار المعجزات على أيديهم، تأييداً لدعواهم وأدلة لهم عليها.

كما يبحث في أمور الآخرة من بعث وحشر، ونشر وحساب، وجنة

ونار . . . إلخ. وكل هذه المباحث يجمعها أبواب الإلٰهيات والنبوات والسمعيات .

وفي مسيرة التاريخ الإسلامي ظهر أناس من المسلمين تأولوا في دين الله . . فاغتر بقولهم بعض المسلمين فالتفوا حولهم، فكوّنوا فرقاً انشقت عن الإسلام الصحيح وشذّت عن جوهره، وجعلت لنفسها كياناً خاصاً متميزاً . .

وفي العصر الحديث ظهرت فلسفات وآراء لم يكن القصد من وضعها إلا إخضاع فئة من الناس لفئة أخرى، وألبست هذه الفلسفات أثواباً براقة فاغتر ببريقها كثير من المسلمين فدانوا بها، ونبذوا الإسلام وراءهم ظهرياً، فكان لا بد من التعرض لها وبيان أهدافها ومراميها، ليخلص الإيمان الحق من كل شائبة تشوب قلب صاحبه، معتمدين في بيان ذلك وشرحه ومناقشته على ما أقره العقل السليم والنقل الصحيح، ليتمكن المسلم من الدفاع عن عقيدته أمام التيارات الإلحادية والمذاهب الهدامة المعاصرة التي تزعم تفسيراً للكون وأصل الوجود بغير ما أنزل الله، متجافين في ذلك عن الحقيقية العليا ومجانبين الحق والصواب . .

وقد توخينا أن يكون ملائماً لمدارك طالبيه، متلائماً مع كل ذي فكر وثقافة مختلفة، فإن كيان المسلم بعقيدته الصحيحة، ولب العقيدة هو الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر عن يقين وبرهان، فإن من ليس له عقيدة صحيحة بالله لا كيان له.

هذا، وقد رجونا أن يكون هذا الكتاب إضافة جديدة للمكتبة الإسلامية، وأن يكون عوناً لدارس العقيدة على وجهها الصحيح، والله من وراء القصد، وهو المستعان على عظائم الأمور.

في ذي الحجة «شهر الله الحرام» ١٤٠٢ هـ — المؤلفان

الموافق أكتوبر ١٩٨٢ م — الظهران ـ المملكة العربية السعودية

جَامِعَة البترول والمعادن

مَدخل لِدِرَاسَةِ العَقيدَةِ الإسْلاميَّة

ويشمل ما يلي:

١ - معنى العقيدة.

٢ - معنى الدين.

٣ - نشأة الدين.

٤ - هل من بديل عن الدين؟.

٥ - ميزات العقيدة الإسلامية.

٦ - مصادر العقيدة الإسلامية.

العقيدة من «عقد» بمعنى لزم، يقال عقد قلبه على الشيء، بمعنى لزمه، واعتقد: بمعنى صدق، يقال: اعتقد فلان الأمر: أي صدقه وعقد عليه قلبه، أي آمن به والعقيدة تأتي بمعنيين:

الأول : العقيدة بمعنى الاعتقاد عن يقين، فهي التصديق والجزم دون شك، فهي بمعنى الإيمان، كما تقدم.

الثاني : العقيدة بمعنى ما يجب الاعتقاد به، ومن هنا يقولون الإيمان بالملائكة من العقيدة، أي مما يجب الاعتقاد به، ويقولون أركان العقيدة: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقضاء والقدر.

إن العقيدة الإسلامية هي الأصل الأول الذي تقوم عليه الشريعة الإسلامية وعنها تنبثق فروع الدين، ومفهوم العقيدة يتناول خمسة أمور:

أولاً : المعرفة بالله، والمعرفة بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، والمعرفة بدلائل وجوده، ومظاهر عظمته في الكون والوجود كله.

ثانياً : المعرفة بعالم الغيب، أو العالم غير المنظور وما فيه من الملائكة والجن، ومعرفة البرزخ وأحواله، والآخرة وعوالمها من بعث ونشور وحشر وحساب وعقاب وجنة ونار وغير ذلك.

ثالثاً : المعرفة بكتب الله التي أنزلها لتحديد معالم الحق والباطل والخير

والشر والحلال والحرام، والحسن والقبيح.

رابعاً : المعرفة بأنبياء الله ورسله الذين اختارهم ليكونوا أعلاماً للهدى وقادة الخلق إلى الحق..

خامساً : المعرفة بالقدر الذي يسير عليه نظام الكون في الخلق والتدبير، وبهذا المفهوم للعقيدة نستطيع أن نوقن بأنها واحدة لا تتبدل بتغير الزمان أو المكان، ولا تتغير بتغير الأفراد والأقوام، فهي التي أنزل الله بها كتبه، وأرسل بها رسله، وجعلها وصيته في الأولين والآخرين، كما جعلها ـ سبحانه ـ عامة للبشر، وخالدة على الدهر لما لها من الأثر البيّن، والنفع الظاهر في حياة الأفراد والجماعات.

فالمعرفة بالله، من شأنها أن تربي في النفس ملكة المراقبة، وتباعد بين الإنسان وبين الرديء من الأعمال.

والمعرفة بالملائكة: تدعو إلى التشبه بهم والتعاون على الحق والخير والوعي الكامل واليقظة التامة، فلا يصدر من الإنسان إلا ما هو خير ولا يتصرف إلا لهدف أسمى.

والمعرفة بالكتب الإلٓهية: إنما هي عرفان بالمنهج الرشيد الذي رسمه الله للإنسان كي يصل بالسير عليه إلى كماله المادي والأدبي.

والمعرفة بالرسل: إنما يقصد بها ترسم خطاهم والتخلق بأخلاقهم والتأسي بهم باعتبار أنهم يمثلون القيم الصالحة والحياة الطاهرة التي أرادها الله لبني البشر.

والمعرفة باليوم الآخر: هي أقوى باعث على فعل الخير وترك الشر.

والمعرفة بالقدر: تزوّد المرء بقوى وطاقات تتحدى كل العقبات والصعاب وتصغر دونها الأحداث الجسام.

وهكذا يبدو بجلاء ووضوح أن العقيدة إنما يقصد بها تهذيب السلوك

وتزكية النفوس وتوجيهها نحو المثل العليا فضلاً عن أنها حقائق ثابتة، ولهذا لم يخلُ جيل في الأرض ولا أمة من الأمم إلا وأرسل الله إليهم رسولاً يدعوهم إلى العقيدة السليمة الخالية من كل زيغ وتحريف، قال تعالى: ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾[١] وذلك ليبين لها أن هذه العقيدة هي الأساس الذي يجب أن يصدر عنه كل تصرف حتى يكون مقبولاً عند الله، قال تعالى: ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾[٢].

وكانت الرسل تعرض على الناس هذه العقيدة في سهولة وبساطة منطقية، فتلفت أنظارهم إلى ملكوت السموات والأرض، وتوقظ عقولهم إلى التفكر في آيات الله، وتنبه الفطر إلى ما غرس فيها من شعور بالتدين، وتطلع إلى عالم ما وراء هذا العالم المادي.

وعلى هذا النهج مضى رسول الله ﷺ يغرس العقيدة في نفوس أمته لافتاً الأنظار، وموجهاً الأفكار، وموقظاً العقول، ومنبهاً الفطر، ومتعهداً الغراس بالتربية والتنمية حتى بلغ غايته من النجاح، فكانت أمته خير أمة أخرجت للناس.

وهكذا لن تكون العقيدة عقيدة لها اعتبارها إلا إذا قامت على أعمال الفكر واقتناع العقل واطمئنان النفس إلى جميع قضاياها.

ولهذا فإن عقيدة التقليد والوراثة، والمناخ والبيئة، والتبعية والمحاكاة،

---

(١) فاطر/ ٢٤.
(٢) البقرة/ ١٧٧.

وترديد ما يقوله الكبار دون وعي ولا إدراك، لا تصلح أن تسمى عقيدة، ولا أن يكون لها اعتبار في نظر الإسلام، وهي غير منجية في الآخرة ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾[1]. ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾[2].

---

(١) البقرة/ ١٧٠.

(٢) البقرة/ ١٦٦، ١٦٧.

٢ ـ معنى الدين:

أ ـ الدين في اللغة:

تستعمل كلمة الدين في اللغة بمعانٍ كثيرة مردها كلها إلى معنى واحد هو الإلزام والإلتزام، فبالنسبة للمعبود: إلزام لعابده. وبالنسبة إلى العابد: التزام بالخضوع والطاعة.

وبالنسبة للعلاقة بينهما: هي تلك الشريعة والنظم والمبادىء التي تنظم هذا الالزام وذلك الالتزام وتبين كيفية تنفيذه.

ب ـ الدين في الاصطلاح:

اختلف علماء الأديان في تعريفهم للدين اختلافاً كبيراً سببه اختلاف تصورهم للدين وميادين عمله، وسببه أيضاً: اختلاف المصدر الذي استقى منه الدين أحكامه.

* أما تعريفه عند علماء المسلمين فهو: وضع إلهي يرشد إلى الحق من الاعتقادات والخير في السلوك والمعاملات[1].

فقولهم «وضع إلهي» ليخرج به الأديان الوضعية التي وضعها الفلاسفة، فهي وإن أطلق عليها أديان، فهي لا تسمى كذلك إلا مجازاً، وليخرج به أيضاً القوانين التنظيمية التي تصدرها الدول، والوضع الإلهي يشمل كل ما

(١) أنظر: الدين، دكتور محمد دراز ص ٢٩.

يصدر عن الله من وجوب الإيمان به وبملائكته وبكتبه وبرسله وباليوم الآخر، وبالقدر، وبما جاء في هذه الكتب وعلى لسان أولئك الرسل.

وأما الغربيون فلهم فيه تعريفات شتى منها:

* تعريف «كانت» الدين هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلْهية[١].
* وتعريفه عند «تايلور» الدين هو الإيمان بكائنات روحية[٢].
* وتعريفه عند ماكس مولر «الدين هو محاولة تصور ما لا يمكن تصوره، والتعبير عما لا يمكن التعبير عنه، هو التطلع إلى اللانهائي، هو حب الله»[٣].

مناقشة تعاريف الغربيين للدين:

١ ـ نستطيع القول بأن تعريف (كانت) انما نظر إلى الدين باعتباره مجموعة من الأوامر والنواهي، والتحذير من المحرم والدنو منه، وترك سائر القضايا التي يقوم عليها نظام الدين، في مثل حدود الحرب والسلام، وشؤون المعاملات، والجوانب الارشادية لحسن السلوك، وسياسة المجتمع على الفضيلة، ومحاسبة الخارجين عليه.

٢ ـ أما تعريف (تايلور): فإننا لا نوافق بحال على تعريف للدين قد حذف منه مبدأ الألوهية.

٣ ـ أما تعريف (ماكس مولر): فهو لا ينطبق إلا على نوع من الأديان، يفصل بين العقيدة والعقل فصلاً تاماً، ويفرض على من يعتنقه أن يؤمن بما لا يتصوره ذهنه ولا يقبله عقله[٤].

---

(١) الدين/ محمد دراز/ ٢٩.
(٢) المصدر السابق/ ٣٠.
(٣) المصدر السابق/ ٣٠.
(٤) السابق / ٣٣.

وتعريفـه هذا، ينطبق فقط على عقيدة التثليث المسيحية، وما تضمنته من معميات الاعتقاد ومبهماته، ولا ينطبق على العقيدة الإسلامية في جانبها الإلهي والسلوكي وسائر جوانبها.

والمختار: هو تعريف علماء المسلمين للدين، لأنـه تضمن مبدأ الألوهية المحذوف من تعريف (تايلور)، ولأنه لم يفصل العقيدة عن العقل تماماً كما ذهب (ماكس مولر) كما أنه تناول كل النظام العبادي والسياسي والاجتماعي فضلاً عن مجموعة الأوامر والنواهي التي اقتصر عليها تعريف (كانت).

٣ـ نشأة الدين

التدين قديم قدم الإنسان نفسه، أي أنه وجد منذ الـوجود الأول للإنسان على الأرض، وسواء دان الإنسان لله أم دان لغير الله في أول ما تدين الإنسان، فإنه لم توجد جماعة في التاريخ الإنساني بكل مراحله خلت من دين.

ولقد زعم بعض المفكرين بأن هناك مرحلة ما في تاريخ الإنسان سبقت مرحلة التدين، حيث كانت مطالب الحياة المادية تشغل الإنسان عن التدين كما شغلته عن أي تطلع آخر خارج مطالبه المادية..

لكن البحث العلمي الدقيق المعتمد على آثار الأمم التي اكتشفت، دلّت دلالة واضحة على أن التدين غريزة أصيلة في الإنسان لا تتخلف إلا في قلة من الناس، وذلك من قبيل الاستثناء الذي يثبت القاعدة وينفيها، ومعنى ذلك أن التدين فطري في الإنسان.

وإذا كان لنا أن نستشهد بآراء العلماء الذين اكتشفوا غريزة التدين من آثار الأمم فإن (هنري برجسون) يقول: «لقد وجدت وتوجد جماعات انسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ولكنه لا توجد قط جماعة بغير ديانة»[١].

ونحن لا نملك دليلاً واحد يقينياً على أن التدين قد تأخر عن نشأة

---

(١) انظر دراسات في العقيدة الإسلامية والأخلاق لمجموعة من علماء الأزهر.

الإنسان وكل ما قيل عن هذا التأخر إن هو إلا رجم بالغيب، وكل النصوص الدينية تؤكد أن آدم عليه السلام أول بشر مخلوق، وأنه أول نبي، يقول معجم (لاروس) للقرن العشرين: «إن الغريزة الدينية: مشتركة بين كل الأجناس البشرية، حتى أشدها همجية، وأقربها إلى الحياة الحيوانية... وان الاهتمام بالمعنى الإلٰهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية».

ويقول: إن هذه الغريزة الدينية« لا تخفى، بل لا تضعف ولا تذبل إلا في فترات الإسراف في الحضارة وعند عدد قليل جداً من الأفراد».

ويقول بارتيلمي سانت هيلير: «هذا اللغز العظيم الذي يستحث عقولنا: ما العالم؟ ما الإنسان؟ من أين جاء؟ من صنعهما؟ من يدبرهما؟ ما هدفهما؟ كيف بدآ؟ كيف ينتهيان؟ ما الحياة؟ ما الموت؟ ما القانون الذي يجب أن يقود عقولنا في أثناء عبورنا في هذه الحياة؟ أي مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة؟ هل يوجد شيء بعد هذه الحياة العابرة؟ وما علاقتنا بهذا الخلود..؟

هذه الأسئلة، لا توجد أمة ولا شعب ولا مجتمع، إلا وضع لها حلولاً جيدة أو رديئة، مقبولة أو سخيفة ثابتة أو منحولة...»(١).

ولقد تعددت أقوال مؤرخي الأديان في تبيين السبب في النشأة المبكرة للتدين بعد أن أجمعوا على أن التدين موجود منذ وجد الإنسان ذاته.

ولا يعنينا هنا الاسترسال في ذكر الآراء التي تبين سبب نشأة التدين ومناقشتها وتحليلها والحكم عليها إلا أنه في الوسع أن نقول: إن طبيعة الإنسان لا يمكن أن تكون هي المادة وحدها، ففي الإنسان قوى وملكات وعواطف، وأنه لذلك له مطالب مادية تتمثل في الحاجات الأساسية لاستمرار الحياة كالأكل والشرب مثلاً، ومطالب روحية لكي تستمر هذه الحياة متوازنة،

(١) د/ محمد دراز/ الدين ص ٨٤.

وبدون إرضاء هذه المطالب الروحية فإن الإنسان يظل قلق النفس متوتراً لا يطمئن إلى شيء وعلى رأس هذه المطالب الروحية مطلب التدين.

يقول عباس العقاد: «ففي الطبع الإنساني جوع إلى الاعتقاد كجوع المعدة إلى الطعام. ولنا أن نقول إن الروح تجوع كما يجوع الجسد وإن طلب الروح لطعامها كطلب الجسد لطعامه»[١].

وإذن فقد ثبت أن التدين راجع إلى نزعة أصيلة تستند إلى فطرة الإنسان نفسها وطبيعة تركيبه من مادة وروح.

(١) عباس العقاد/ الله ص ١٤.

٤ ـ هل من بديل عن الدين؟

يجول في بعض الأذهان سؤال مؤدّاه: هل هناك من بديل عن الدين ينظم حياة الأفراد والجماعات؟.

وهنا نترك الحكم مؤقتاً لنقوم بعملية استقراء لما قد تظنه بعض فئات من البشر أن هناك من النظم ما قد يقوم بتحقيق سعادة البشرية حالاً ومالاً، نشأة ومصيراً، ثم نقوم بالمقارنة والموازنة، ثم التصحيح والترجيح.

١ ـ العلم المادي:

أ ـ نستطيع القول بأن العلم المادي رغم نجاحه في حل الكثير من مشكلات البشرية حتى انبهر الكثير ببريق التقدم العلمي المعاصر، حتى حسبوا أن العلم هو العصا السحرية التي في مقدورها أن تحقق كل شيء، فإنه قد فشل حتى الآن في تقديم التفسير على الأسئلة الملحة على أفئدة البشرية منذ تفتحت عيناها على الوجود:

ـ لماذا هذا الوجود؟.

ـ إلى أين يمضي؟.

ـ ما حقيقة النهاية في مستقبلنا؟.

فهل مصيرنا إلى فناء بدون غاية معقولة؟ كما حكى القرآن عن بعضهم ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا

الدهر﴾[1] أم أن الحياة تسير إلى هدف وغاية؟ وما هو هذا الهدف وتلك الغاية؟ ومن الذي يحدد الهدف والغاية؟.

إن العلم حتى الآن لم يتعدَ في دوره دور الواصف للحاضر، المتعرف على تفاصيله على حسب حاله وواقعه، ولم يستطع أن يتجاوز هذا الحاضر إلى ما وراءه. إن حاجة الإنسان إلى التعرف على مستقبل الوجود ومستقبله هو أكثر بكثير من حاجته إلى معرفة حاضره على حسب واقعه.

إن معرفة الإنسان لحاضره تكفيه في بعض جوانب حياته الدنيا، وليست هذه هي الأمر الوحيد الذي يحوز اهتمام الإنسان وانشغاله، لأن ما بعد الحياة للإنسان أكثر إلحاحاً وأكثر شغلاً.

ب ـ إن العلم المادي ليس في وسعه أن يضع القوانين والتشريعات التي تكفل التنظيم المحكم لحياة البشر، لأن نطاق هذا العلم انما هو الماديات والجمادات وقوانينها التي تسيِّرها، والإنسان ليس جماداً ولا مادة خالصة، وإنما هو كيان مركب من المادة والعواطف والانفعالات والأحاسيس والوجدانات، وكلها ما عدا الجانب المادي فيه أمور لا مرئية ولا تخضع للقوانين الديناميكية التي ألفها هذا العلم، وهذا أكبر دليل على قصور القوانين الوضعية.

جـ ـ إن العلم بلا دين أخطر على الإنسانية من الدين بلا علم، ولنا على هذه القضية شاهد من المقارنة بين صفات الإسلام وأخلاقه الحضارية والحضارة المادية الغربية «فعندما أقام المسلمون علم الكيمياء عرفوا محاذيره وأخطاره في الوقت الذي عرفوا فيه منافعه، ولذلك حددوا تناوله في حدود الدين والخلق، وحذروا من أن يعرف أسرار الصنعة

---

(١) الجاثية/ ٢٤.

رجل لا يخاف الله ولا يخشاه، ووصايا جابر بن حيان في هذا الصدد أكبر وثيقة على نظرة المسلمين إلى العلم. أما الحضارة الغربية المادية فلم تلبث طويلاً حين عرفت أسرار العلم المادي ومخترعاته حتى ضربت بها البشرية ودمرت الحياة.

وهذا العلم المادي لدى الحضارة المادية يشكل المصدر الخطر على البشرية ويهدد وجودها من آن لآن وصدق الله إذ يقول: ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾[1].

فالعلم بلا دين وبلا خلق مصدر تهديد دائم لا مصدر نظام وأمن، فهل يصلح وهو بهذه المثابة أن يكون بديلاً عن الدين في تنظيم الحياة المثالية؟ بالطبع لا.

٢ ـ القوانين الوضعية:

أ ـ إن القانون البشري متغير بتغير الزمان، فكم من القوانين عصفت بها رياح الأيام وأثبتت فسادها. والقانون البشري يتغير كذلك بتغير البيئات، فما هو جريمة في مكان ما قد يكون شرفاً في مكان آخر في الوقت نفسه، هذا فضلاً عن تغيره بتغير العقول التي تصوغه وتنسجه، وهذا التغير يفسد القانون بين الحين والحين فلا يثبت له حال ولا يستقر له قرار فكيف نجعل ما من شأنه التغير أساساً لاستقرار الحياة البشرية وطمأنينتها وثباتها؟.

ب ـ إن القانون الوضعي لا يحصي إلا الجرائم الظاهرة في العلن، ومعلوم أن أرباب الجرائم الذين يجلبون الخلل إلى المجتمع إنما يعمدون إلى

---

(١) الروم/ ٤١.

جرائمهم في الخفاء بعيداً عن عين القانون ولا ينكشف منها إلا نسبة ضئيلة لحراس القانون البشري.

أما الدين ففيه وازع الضمير ورقابته الداخلية في الإنسان فتجعل فيه رقيباً سرياً على نفسه وعمله.

جـ - إن القانون البشري لا يخيف إلا الطيبين بطبيعتهم، الذين يحرصون على ألا يمسهم أذى في نفس أو دين. أما المجرمون الخطرون فهم يحتالون على القانون، وكثيراً ما يجدون فيه الثغرات التي يتسللون منها إلى أغراضهم.

د - إن القانون لا يتجه غالباً إلى الاصلاح بقدر ما يتجه إلى العقاب، وما تحتاجه البشرية إنما هو الاصلاح والتوجيه قبل العقاب، فالكفاية والكفالة أولاً، والعقاب عند الخروج على النظام ثانياً. ومعلوم أن الوقاية خير من العلاج، وليس في الامكان تحصيل الاصلاح والتوجيه الحسن من طريق أفضل من طريق الدين. ذلك أن الدين يتجه إلى الضمير ذاته ليربط بين الإنسان وبين ربه الذي يعلق رضاه على فعل الخير وسخطه على اقتراف الشر والآثام.

ثم إن الدين يربط بين الخير والسعادة في الدنيا والآخرة وبين فعل الشر وترقب وقوع العقاب على المرء في الحياة وبعد الممات.

هـ - إن مصدر الدين هو الله الذي لا حدود لقدرته، وهو الذي تثق وتؤمن الأفئدة كلها بعدالته، أما مصدر القانون فهو الإنسان الذي يشرّع للإنسان، وهو مصدر لا يمكن أن يكون معصوماً من الخطأ وعليه فلا يمكن أن يحوز الثقة التي يحوزها قانون الدين.

٣ - إذن لا بديل عن الدين لسعادة الإنسان في عاجله وآجله:

إن نظرة العقائد الاجتماعية ونظمها إلى الإنسان قاصرة بخلاف نظرة

الدين إليه، فإنها لا تُعنى إلا بمطالبه المادية دون أشواقه الروحية ومطالبه غير المادية من شفاء للنفس وطمأنينة للقلب، إن الإنسان في نظر الدين خليفة الله في أرضه خلق الكون وسخره من أجله ﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ﴾[١].

لقد فشلت العقائد الأخرى في علاجها لتحقيق سعادة الإنسان، لأنها خلت من الأخلاق ولم تجد الوازع من ضمير الإنسان وفطرته ومعلوم ألّا وازع لضمير أو فطرة إلا من الدين الإلهي الصحيح، وشواهد المستقبل كلها تنطق بأن المستقبل على أرض الله لدين الله ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[٢] ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾[٣].

---

(١) الجاثية/ ١٣.
(٢) فصلت/ ٥٣.
(٣) الأنبياء/ ١٠٥.

٥ ـ ميزات العقيدة الإسلامية

١ ـ عقيدة فطرية:

لقد عرفنا فيما سبق معنى الدين، ومعنى الدين السماوي على وجه الخصوص، أما معنى الفطرة، فهو الخلقة التي عليها خلق المولود من وقت تكوين ميوله وغرائزه في رحم أمه. وفطر الله الخلق: خلقهم وبرأهم[١].

وإذن فمعنى أن الإسلام دين الفطرة: انه الدين الذي خلق الله الخلق مفطورين عليه. وبعبارة أخرى، إن معنى الفطرة: مجموعة من المكونات الأخلاقية التي من مظاهرها محبة العدل وكراهية الظلم وإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وإيثار الرحمة إذا وجب العدل، وسيادة الفضيلة ومحق الرذيلة، وتحديد المسؤولية في كل ما كسبته يد الإنسان، كما أن من معاني الفطرة، مجموعة العواطف والغرائز التي تحكم الإنسان في إطار تحقيق عزة الإنسان ورفعة شأنه في ظل مجتمع عزيز الجانب ممسكاً بحبل الله المتين ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾[٢] فإن أساس هذه الفطرة هو ما يكمن في تكوين الإنسان من معرفة الله حق المعرفة بحسب العهد الذي أخذه الله على الإنسان والذرية جميعها في الأزل حين أخرجهم الله ذراً من الأصلاب، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على

---

(١) القاموس المحيط مادة فطر.

(٢) المنافقون/٨.

أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾[١] وليس من المحتمل تحرير الإنسان مما هو مركوز في فطرته من الغرائز والميول النفسية والعواطف الوجدانية الخيّرة إلا بمؤثر خارج عن نفسه من البيئة التي ينشأ فيها من أبيه وأمه والمحيطين به، يقول الرسول ـ ﷺ ـ «كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[٢].

ومن هنا كان قول الله تعالى: ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[٣] تقريراً شافياً لجعل الحنيفية السمحة هي الفطرة وأن الفطرة هي الخلقة، وأن هذه الخلقة هي الدين القيم، وهي ما يخلق عليه الإنسان من غرائز وطبائع وقوى وملكات تحدد منهج السلوك الطيب والاعتقاد الصحيح في حياته.

٢ ـ عقيدة وسط:

إن العقيدة الإسلامية وسط بين العقائد، فلم تجنح إلى التجسيد والتشبيه كما جنحت اليهودية والعقائد الوثنية، فإن اليهودية جعلت الخالق كالمخلوق من البشر، فوصفته بالتعب بعد فراغه من خلق العالم[٤] وأنه محب لليهود متحيز لهم، كما يصفونه بالعنف والقسوة على الشعوب غير اليهودية، وأنه يهبط ليصارع أحد الأنبياء حتى الفجر، ولما لم يتمكن من الإفلات منه بعد إصابته في فخذه أنعم عليه بتغيير اسمه[٥].

كما لم يكن الإله في الإسلام فكرة مجردة كالذي اعتقدته الفلسفة

---

(١) الأعراف ١٧٢.
(٢) أخرجه أبو داود.
(٣) الروم/ ٣٠.
(٤) التكوين ٢ : ٢، ٣.
(٥) تكوين ٣٢: ٢٤ ـ ٣٠.

الأفلوطينية، فقد وصفت الإِلّه بالسلب دائماً حتى صار فكرة مجردة فقالوا: إنه ليس عدماً، وليس جاهلاً، وليس عاجزاً، وليس متعدداً، وليس حادثاً، وليس أصم، وليس أبكم... إلى آخره، في مقابلة كونه موجوداً، عـالماً، قادراً، واحداً... إلى آخـره. حتى صار الإِلّه في تلك الفلسفة مجموعة من السلوب الصائرة به إلى كونه عدماً محضاً.

فمفهوم الإِلّه عند اليهود ومن على شاكلتهم يصيره محدداً، وإذا تحدد فقد وقع في دائرة الحس ومحيطه ولاحتواه مكان وخلت منه أمكنة، ولرآه خلق وغاب عن رؤية الآخرين، وكل ذلك نقص لا يليق بالكامل سبحانه.

ومفهومه عند من يصيره أمراً معنوياً، وفكرة مجردة تجريداً مطلقاً لا يدل عليها وصف ولا يدرك لها واقع تتجلى فيه، يجعل العقل لا يستطيع معرفته بهذا المفهوم ولا أن يتصوره تصوراً يستطيع معه أن يحكم عليه بالوجود أو أن يدرك له أثراً وفاعلية.

أما مفهوم الإِلّه في دين الإِسلام فلم يكن شيئاً مادياً تجسيدياً، كما لم يكن فكرة مجردة بعيداً عن الإِيجابية والواقعية، فإن المسلم يهدف في تقديسه للإِلّه إلى حقيقة خارجة عن نطاق الأذهان وان كانت تعبّر عنها الأذهان، فإنها في هذا التعبير تشير إلى ذات مستقلة قائمة بنفسها، ليست مجرد عرض من الأعراض أو لقب من الألقاب، يقول الدكتور دراز:

«إن التقديس الديني ليس تقديساً لأي ذات كانت، وانما هو تقديس لذات لها صفات خاصة، وأهم مميزاتها أنها ليست مما يقع عليه حس المتدين، ولا مما يدخل في دائرة مشاهداته، وإنما هي شيء غيبي لا يدركه إلا بعقله ووجدانه، فالذي تتميز به العقيدة الدينية... هو أن لها خاصية الإِيمان بالغيب أي بما وراء الطبيعة.

ثم إن هذا الغيب الذي نؤمن بوجوده من وراء الطبيعة، ليس من

جنس هذه الطبيعة المادية المنفعلة، بل هو شيء ذو قوة فعالة مؤثرة، وله أسلوب في تصرفاته مباين للطرائق التي تؤثر بها المادة فيما حولها، إذ أن هذه المواد يصدر عنها أثرها دون شعور منها، ولا اختيار لها في صدوره. أما القوة التي يخضع لها المتدين فإنه يفهمها على أنها قوة عاقلة تقصد ما تفعل، وتتصرف بمحض إرادتها ومشيئتها.

وأخيراً فإن هذه القوة العاقلة المدبرة في نظر المؤمنين لها ليست قوة منطوية على نفسها منعزلة عنه وعن العالم، بل يرى أن لها اتصالاً معنوياً به وبالناس، تسمع نجواهم، وتصغي لشكواهم وتعنى بآلامهم وآمالهم، وتستطيع إن شاءت أن تكشف عنهم ما يدعونها إليه.

من جملة هذه المعاني يتحدد على وجه الإجمال المعنى الإجمالي الذي يتعلق به الاعتقاد والتقديس... ولتلخيص هذه الاعتبارات في لقب واحد نقول: إن التقديس الديني «تأليه» وعبادة، وإن موضوعه «إله معبود»... ونقول: إن القوة التي يقدسها المتدين ليست فكرة مجردة، وصورة عقلية خالصة، بل هي خارجية، ونقول: إن هذه الحقيقة ليست مادة يقع عليها الحس، بل هي سر غيبي لا تدركه الأبصار، ونقول: إن هذه القوة الغيبية قوة عاقلة تتصرف بالإرادة، لا بالضرورة، كالمغناطيس والكهرباء، ونقول أخيراً: إن لهذه القوة عناية مستمرة بشؤون العالم الذي تدبره، وإن لها تجاوباً نفسياً مع نفوسه[١].

وبهذا نخلص في مفهوم الوسطية في العقيدة الإسلامية إلى أن الإله ذات غيبية متصلة بعابديها طليقة المشيئة ولها المشيئة العليا، ولما كان تصورنا لها عسيراً أسعفنا القرآن الكريم بالقدر الضروري من الصفات الذي يسد حاجتنا لإمكان تصورها، فأثبت لها من الصفات، العلم والقدرة والإرادة

(١) محمد دراز/ الدين ص ٣٧، ٣٨، ٤٠.

والحياة والسمع والبصر والحكمة، وغير ذلك مما عج به القرآن الكريم من صفات الكمال التي تليق بذاته الكريمة، فالله سبحانه ذات ولكن ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[١] ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم﴾[٢].

٣ ـ عقيدة بسيطة غير معقدة:

لقد بلغت العقيدة الإسلامية في بساطتها أن يدركها العام والخاص والعالم والجاهل، فلا لبس فيها ولا غموض، لأن من مكامن النفس أن تدرك أن وراء العالم البديع الصنع المحكم التنسيق واحداً خلقه وأحكم خلقه ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾[٣] فلا شريك له في خلقه، وأن الفطر السليمة تدرك ذلك ببداهة العقول إذا تخلت عن عصبية التقليد وغواشي الحياة ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله﴾[٤] وهذا يدل على فطرية العقيدة وأنها كامنة في النفوس بسيطة الادراك ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون، سيقولون لله قل أفلا تذكرون، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم، سيقولون لله قل أفلا تتقون، قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون، سيقولون لله قل فأنى تسحرون﴾[٥].

وهكذا يستنطق الله الفطر فتجيب ببساطة: إن الله خالق كل شيء

---

(١) الشورى/ ١١.
(٢) البقرة/ ٢٥٥.
(٣) الفرقان/ ٢.
(٤) العنكبوت/ ٦١.
(٥) المؤمنون/ ٨٤ ـ ٨٩.

ومليكه ومدبر الأمر في السماء وفي الأرض.

وليست العقيدة الإسلامية كغيرها من العقائد المبهمة المعقدة التي تدعو أصحابها إلى الإيمان الأعمى جاحدة ما في الإنسان من خصائص الفكر والفطرة المركوزة في صميم نفسه، يقول الداعون إلى تلك العقائد العقيمة «آمن أولاً ثم فكر» فإذا فكر بعد إيمانه بما دعوه إليه حكموا عليه بالطرد والحرمان من نعمة الرب ورحمته، وحتم عليه أن يسير في ركاب رؤساء الدين عنده.

أما الإسلام ـ وهو الدين الحق ـ إذا أراد صاحبه أن يخرج من دائرة المعرفة بالله المبنية على البداهة والفطرة إلى المعرفة المبنية على الدليل والبرهان، فإنه يشبع فكره وعقله دون ما حَجْر على الفكر الحر والعقل المستشرف للحقيقة العليا، ولهذا فهي عقيدة العقل الصحيح والمنطق السليم.

٤ ـ عقيدة لا تتناقض مع التفكير السليم:

لو استقرأنا كل ما جاء في العقيدة الإسلامية لما وجدنا فكرة واحدة تتناقض مع التفكير السليم، فالله سبحانه وتعالى حينما يستنطق الفطر بالسؤال عمن خلق السموات والأرض ومن يدبر الأمر، فمعنى هذا أن الله أودع في طبيعة الإنسان قوة قادرة على التعرف على من خلق الخلق وأبدع الوجود، وذلك بواسطة ما نصب للإنسان من أدلة كونية يستطيع الإنسان بالتأمل والتدبر فيها أن يعرف الخالق سبحانه، فيكون إيمانه بالدليل والبرهان لا عن عمى وتقليد، فلا تناقض العقل ولا التفكير الصحيح، وما أكثر ما ساق القرآن الكريم من هذه الأدلة المنتجة لليقين والمثبتة للقلوب والأفئدة، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾[١] وقوله: ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم

---

(١) آل عمران/ ١٩٠.

أفلا تبصرون ﴾[١] وقوله: ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾[٢] وقوله: ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إلّه إذن لذهب كل إلّه بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾[٣] والقرآن الكريم مليء بما يشير إلى ما نصب الله في الكون من أدلة وبراهين على وجوده سبحانه.

ومن ذلك يذهب جمهور العلماء إلى أن الإيمان المنجي في الآخرة ما كان ناشئاً عن دليل، أما ما كان عن تقليد فلا ينجو صاحبه في الآخرة وان عومل معاملة المسلمين في الدنيا.

---

(١) الذاريات/ ٢٠، ٢١.
(٢) الأنبياء/ ٢٢.
(٣) المؤمنون/ ٩١.

١ ـ العقيدة الدينية وحي إلهي:

جاءت العقائد الدينية في رسالات السماء بما يتفق وميول الإنسان وحاجاته، وكان أول تأسيس لها هو ربط الإنسان بخالقه عن طريق المعرفة، ففرضت على الإنسان معرفة الخالق وهدته السبيل إلى ذلك. ولما كان الإنسان بعد معرفة الله وتوحيده بحاجة إلى نظام في حياته واستقرار في عيشه، يسير فيه على مبادىء ثابتة يذعن لها العام والخاص، نزلت الشريعة السماوية ذات القوانين التنظيمية مع العقائد الإلهية... ولم يصح أن يأتي بهذه النظم وتلك القوانين والعقائد إلا نبي مرسل من قبل الله خالق البشر، حيث إن الجماعة البشرية لا تذعن لقوانين فرد منها كائناً من كان، اللهم إلا لفرد يتميز عليها بخاصيّة سماوية يعرف بها أنه نبي، وأنه يتلقى تلك التعاليم من قبل رب العالمين، فعندئذ يذعنون له ويلتزمون بما يأتي من عقائد وشرائع، وتلك الخاصية هي المعجزة التي هي دليل على صدق النبي في أنه رسول من الله الحق.

ولقد كانت رسالة الرسول الأول تتفق وحاجات الإنسان المحدودة، لأن تجاربه في الحياة كانت محدودة في مبدئها، وكان الوحي الذي نزل على ذلك الرسول يتضمن الحقائق الإلهية التي تكفي حاجة الإنسان وتتناسب مع ثقافته، وكلما زادت تجاربه واتسعت مداركه وتعددت حاجاته، احتاج إلى

الإلهية، سوف يكمل ويكون كله، بحيث يكون كائناً كاملاً قبل أن تزول السموات والأرض، فهو يبشر باكتماله على يد من يأتي بعده.

ويأتي رسول الإسلام محمد ﷺ بعده ليكون هو المكمل لهذا الدين، ويشير إلى ذلك في حديثه النبوي حيث يقول: «مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى داراً فأكملها وحسنها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يطوفون حولها ويقولون ما أجملها وأحسنها لولا هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[1].

والقرآن آخر حلقات الوحي ومراحله ينطق بأنه مصدق لما سبقه من كتاب فيقول سبحانه ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه.. ﴾ (المائدة ٤٨) فهو المهيمن أي المتضمن والمشتمل على ما سبقه ثم سيطر عليه، قال تعالى: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ (الشورى ١٣) كما يخاطب القرآن الناس عامة بأنه جاء بكمال الدين وتمام النعمة فقال عز وجل ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (المائدة ٣).

وخلاصة المقال في هذا: أن الداعي إلى بعثة الرسل سببان:

أحدهما : الارتقاء بمناهج الشرائع إلى الكمال المنشود تبعاً لكمال الإنسان وعمق مداركه وما يتناسب مع حضارته.

الثاني : ما قد يصيب عقائد الإيمان من انحراف عن الحق والصواب باختلاطها بزائف العقائد وباطلها، لنزوعها إلى الخرافات والأساطير الوهمية.

وإذن تكون وظيفة الرسول، تصحيحاً وتطهيراً لكل دخيل على الدين الإلهي، ثم تجديداً وارتقاء بالتصورات والمفاهيم الدينية عامة، وكل ذلك بوحي إلهي من الله تعالى.

(١) رواه البخاري.

فالوحي هو الحارس على سلامة العقيدة الدينية، بعكس غيرها من العقائد التي تطورت عن الأساطير والقصص والخرافات، كعقيدة ذبح الإلّه أو قتله فداء عن خطايا البشر ثم بعثه بعد موته، وعقيدة تقديس الأسلاف ثم الانحدار إلى عبادتهم ثم إلى تأليههم، كما نجد إحساس بعض الجماعات بروعة المجهول وجلاله قد دعاهم إلى عبادة قوى خفية، أعطوها تصورات أسطورية مختلفة. . . إلى غير ذلك.

فأمثال هذه العقائد التي لم تستند إلى وحي الله الحق هي عقائد باطلة وغير صحيحة، وهي خاضعة لنوع من التطور يناقض بعضه بعضاً ويبطل بعضه الآخر، بخلاف العقائد التي يمسك الوحي بزمامها، فإنها لا يبطل بعضها البعض، وكلما داخلها زيف تداركها الوحي بالتطهير والتصحيح، حتى كان آخر مراحل الوحي هو القرآن وتكفل الله بحفظه إلى يوم الدين ﴿ انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ﴾ (الحجر/ ٩).

٢ ـ القرآن هو المصدر الصحيح الأول للعقيدة الصحيحة:

أنزل الله سبحانه القرآن آخر فترات الوحي ﴿ هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾[١]، فقرر العقائد الصادقة في الله ورسله واليوم الآخر، وأثبت ربوبية الخالق ووحدانيته، وتنزيهه عن الند والشريك، وأوجب له الكمال المطلق، كما أوجب الإيمان بالرسل وبما جاؤا به من عند الله تعالى إلى البشر، كما أمسك بزمام الحياة كلها، فنظم للعقل تفكيره وتأملاته من أجل معرفة الله عن حقيقة ويقين، لا عن وهم وتقليد، وحفظ توازن الفكر أيضاً عن أن يضل في مهامة الخيال وأوهام الشيطان. . . فإذا حاول الشيطان أن يخلخل عقيدة المسلم في دينه أو ربه وجد في القرآن حبلاً متيناً يحجزه عن الخلل أو الزلل.

كما لقن الرسول المسلمين حقائق العقائد من غير زيغ أو انحراف،

---

(١) البقرة/ ١٨٥.

كشف وبيان لحقائق أخرى أكثر مما كان في عهده الماضي لتتناسب مع ازدياد ثقافته وتجاربه ونمو عقله، فيرسل الله بها من فضله رسولاً آخر.

وهكذا تتابعت الرسل في تعليم العقائد والحقائق الإلٓهية، فنزلت منجمة على مراحل متعددة يكمل اللاحق منها السابق دون إلغائه أو إخلال به، وكل مرحلة من تلك المراحل حق وكلها مجتمعة حق، حتى بلغت الرسالة العامة درجة الكمال المنشود، فكان ختامها بدين الإسلام مع نهاية كمال الإنسان على يد خاتم النبيين محمد ﷺ.

هذا النوع من التطور أحد الأسباب التي دعت إلى بعثة الرسل مع كل تطور للجماعة البشرية على ضوء التجارب والحاجات ونمو الثقافات. فهو تطور ارتقائي من كمال إلى أكمل، وهو تدرج بالإنسان في تعليمه الحقائق الإلٓهية من خاص إلى أعم منه، أو من بساطة إلى عمق، بحيث يتوفر له فيه السعادة في الدنيا والآخرة.

وهناك نوع آخر من التطور الانحطاطي كان سبباً في بعثة الرسل برسالات السماء، ذلك النوع هو نزول بالعقيدة ومنهج الدين عن المستوى الكمالي إلى نقضه، والتلفيق بين مبادئه ومستحدثات الفكر البشري ربما يسببه طول العهد بالرسول، فإن الرسول يقوم بتبليغ رسالة ربه كاملة حتى ترسخ العقائد ويلتزم الناس بالشريعة على الأقل في قلوب المؤمنين وتبليغها للجمهور ثم يمضي إلى ربه، ثم يطول العهد بالعمل بتلك الرسالة وتختلط العقائد المنزلة بالخرافات والأساطير، أو تتبدل بتحريف مقصود لأغراض شخصية، أو غير مقصود، وتصبح أقرب إلى الأوهام منها إلى الحقائق، ومع ذلك تبقى منسوبة إلى الإلٓه الحق، وهذا يستدعي إرسال الرسل ليحرروا العقول من الأوهام، ويطهروا العقائد الصحيحة مما علق بها من أباطيل وخرافات، وفي الوقت نفسه تكون الجماعة البشرية قد تطورت في مداركها وتصوراتها لأمور الحياة تبعاً لعمق معرفتها لما تعلق بالكون من حقائق وظواهر وأسرار، فيضيف

الرسول من التعاليم ما يكون ضرورياً لصلاح حال النوع الإنساني وما يتفق وآخر تصوراته.

فالرسل في حقيقتهم مطهرون قبل أن يكونوا مجددين، إذ لا يصلح التجديد قبل إزالة الرواسب الدخيلة التي زلزلت العقيدة الصحيحة عن مركزها.

وجملة القول في هذا: أن الله سبحانه أوحى إلى الإنسان أولاً من المعارف الصحيحة بالقدر الذي يكفيه في هدايته في حياته الضيقة المحدودة، وما يتناسب مع مقدرته العقلية وثقافته المكتسبة، ثم إنه عندما ترتقي مداركه وتزداد حاجاته يسمو الله في ذلك الايحاء نحو بلوغه الكمال من غير إلغاء لما سبق من العقائد، ـ لأن العقيدة لا تتبدل من نبي إلى نبي ـ ولكن مع تهذيب في الشرائع تبعاً لتهذيب الإنسان ونضجه، وعندما يكتمل ذلك النضج وتبلغ الإنسانية كامل رشدها تأتي آخر مرحلة من الدنيا، لتكون هذه المرحلة خاتمة الرسالات ونبيها خاتم النبيين، وبها يكتمل الدين في معناه العام.

فهذه المراحل المختلفة يكمل بعضها بعضاً، وليست مراحل يناقض بعضها بعضاً، بل كل مرحلة حق ومحتاج إليها، حتى المرحلة الأخيرة المكملة والمتضمنة لكل ما سبقها من مراحل، وهي رسالة الإسلام الأخيرة والخاتمة.

ولقد قرر هذا سيدنا عيسى عليه السلام حيث أتى بالمرحلة قبل الأخيرة فقال في كتابه الانجيل (لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل) (متى ٥ : ١٧، ١٨).

فهو يبيّن أن مهمة الرسول لا تبطل مهمة الرسول قبله، بل مرحلته مكملة للسابقة، ثم يقول إن الناموس وهو الدستور السماوي ذو الحقائق

والمسلمون يردون ذلك المنهل العذب غير مترددين ولا مختلفين في شيء من أمور الدين، فالقرآن وهو وحي إلهي بين المسلمين قد أتى بما يشفي الغليل ويريح القلوب والنفوس ﴿ ... قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ (المائدة ١٥، ١٦).

﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، قل بفضل وبرحمته فذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ (يونس ٥٧، ٥٨).

بهذا دعا القرآن حتى ملأت الدعوة قلوب الناس جميعاً، ولم تكن هناك أدنى إثارة حول العقيدة والإيمان أو السعي وراء متاهات العقل في استكناه حقيقة المطلق. وإذا ظهر شيء في ذلك ساندت السنّة المحمدية القرآن فينهى الرسول ﷺ ـ عنه موجهاً الفكر إلى التأمل الصحيح: فيما خلق الله من شيء، فكان ﷺ يقول: «تفكروا في الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكون»[1] وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ليسألنكم الناس عن كل شيء حتى يقولوا: الله خلق كل شيء فمن خلق الله؟؟» ولكن أبا هريرة يبين ما يجب على الإنسان إزاء هذا المنزلق فيروي عن النبي ﷺ قوله: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا وكذا حتى يقول له من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته»[2] فهذا هدى عظيم سد على الشيطان مسلكه وأمسك بالمسلم عن الزيغ والضلال.

والمسلمون الصادقون يسيرون على توجيه القرآن والسنّة، متوحدين في فهمهم للعقائد، عاملين بما في التعاليم من شرائع، متحلين بما فيها من أخلاق وفضائل. وأن ما حدث بين فرق المسلمين ـ غير المنحرفة التي لم تزغ

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) رواه أبو داود.

عن فهم الكتاب والسنّة ـ من خلافات: لا يعدو أن يكون حول فهم نص من الكتاب من غير تغيير أو تبديل أو تحريف، ولذلك ظلت عقائد الإسلام صحيحة وسليمة لم يتخللها خلط أو زيغ أو انحراف، لأن القرآن إمام الدين كله، ومعه سنّة النبي المصطفى، وهما الهاديان للناس عندما تضل العقول أو تميل النفوس، يقول الرسول الكريم ـ ﷺ ـ «لقد تركت فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدي. . . كتاب الله وسنتي»[1] كما تولت عناية الله سبحانه بحفظ كتابه عن العبث به أو تدميره. وهو حفظ دائم إلى يوم الدين ليكون نهاية مرجع المسلمين قال سبحانه ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (الحجر ٩).

ومن ذلك كان هو الفارق بين الحق والباطل، والصواب والخطأ، فلا تزيغ به الأهواء، ولا تضل به الأفكار، من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن هدى به سار على صراط مستقيم. .

هذا هو القرآن في حفظه لحقائق الدين في عمومه، أما غيره من الكتب السابقة عليه فإنها قد غيرت بعد تدميرها وضياعها، ثم ظهر غيرها يحمل عقائد وتعاليم لم يأذن الله بها في الأعم الأغلب.

فهاهم أتباع الدين اليهودي، قد ضلوا الطريق حيث زعموا أن الإلّه إلّه إسرائيل فحسب، دون من عداهم من شعوب الأرض، لأنهم شعبه المختار وغيرهم همل هامل، وجرهم هذا إلى زعمهم بأنهم أبناء الله وأحباؤه ذوو الحظوة الخاصة الممتازة، وكذلك قالت النصارى أيضاً. وصوّره القرآن في قوله: ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه. . ﴾ ولكن القرآن يرد عليهم زعمهم وعقيدتهم هذه فيقول: ﴿ قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق. . ﴾ (المائدة ١٨). كما انحرفوا أيضاً فتصوروا الإلّه مجسماً

(١) رواه البخاري.

وأنه يمشي على الأرض وقد يصارع بعض الناس إلى غير ذلك من أمور تنزل به إلى درجة المخلوق المادي، وقد ملئت بذلك توراتهم حتى لم يبق لهم من الدين إلا رسمه.

والسبب في ذلك فقدان كتاب التوراة في عهد الشتات ومن قبله، وحين منّ عليهم بعض الملوك بالعودة إلى وطنهم أعادوا كتابتها بعد قرون من الزمان وذلك من ذكرياتهم السابقة التي لا نستطيع أن نحكم بعصمتها عن النسيان أو التلفيق أو مراعاة الأهواء.

أما النصارى فهم على نفس الدرب.. ضلوا في معرفة الإلّه، فزعموه ثلاثة، وما كان الله إلا إلّهاً واحداً ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.. ﴾ وقالوا بتجسيد الإلّه في عيسى وموته فداء وكفارة عن خطايا البشر، كما زعموا في الدين أموراً كثيرة لا مجال هنا لذكرها، والسبب في كل هذا الزيغ أيضاً هو فقدان إنجيل المسيح عليه السلام - فهو لم يدون ولم يحفظ في الصدور بل نسوه كما يقول القرآن الكريم ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به.. ﴾ (المائدة ١٤) ثم ألفت أناجيل أخرى من ذكريات أتباع ربما لم ير بعضهم المسيح بعينه، ولذلك داخل الدين الكثير من عقائد الذين تولوا أمره ودعوا إليه ثم دسوا فيه ما قد ورثوه قديماً من دياناتهم السابقة.

ولذلك نرى النصارى، يمقتون اليهود وينعتونهم بالانحراف عن الكتاب وهم لذلك ليسوا عندهم على شيء.

واليهود يصفون النصارى بأنهم كذلك ليسوا على شيء لأنهم لا يعترفون بعيسى ولا بإنجيله.

ولكن القرآن حين جاء عرف كلا الفريقين بأنهم ليسوا على شيء. والسبب في ذلك هو ترك كل منهم كتابه وإيمانه بالبديل المزيف والمحرف، قال

سبحانه يحكي مقالة كل فريق في الآخر: ﴿وقالتِ اليهودُ ليستِ النَّصارى على شيءٍ وقالتِ النَّصارى ليستِ اليهودُ على شَيءٍ﴾[١] ثم جاء القرآن ليعلن إلى الجميع أنهم جميعاً ليسوا على شيء، فقال سبحانه ﴿قل يا أهْلَ الكتابِ لستم على شيءٍ حتى تُقيموا التوراةَ والإنجيلَ وما أنزل إليكم من ربّكم..﴾ (المائدة ٦٨) ﴿ولو أنهم أقامُوا التوراةَ والإنجيلَ وما أنزل إليهم من ربّهم لأكَلُوا من فَوقِهم ومن تحتِ أرجُلِهم..﴾ (المائدة ٦٦) ثم يدعو القرآن كلا الفريقين إلى تصحيح العقيدة وتطهيرها من زيف تخللها واعتقاد أن الله واحد لا شريك له، وهو إلّه الناس جميعاً بلا تخصيص أو استثناء فيقول سبحانه ﴿قل يا أهل الكتاب تعَالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكُم ألّا نعبُدَ إلّا الله ولا نُشرِكَ به شيئاً ولا يَتَّخِذَ بعضُنا بَعْضاً أرْباباً من دونِ الله فإن تَوَلَّوا فقُولوا اشْهَدَوا بأنّا مُسلِمون﴾ (آل عمران ٦٤) وأنه متى صححت العقيدة في الله فإن سلامة سائر العقائد تكون سهلة وميسورة لأنها مبنية عليها... ولكن الجميع في غيِّهم يعمهون.

وبهذا نرى أن القرآن هو المصدر الأصيل لكل عقيدة صحيحة لأنه الوحي الإلّهي الخالص عن شوائب التغيير أو التبديل وهو في العقيدة والشريعة فَيْصَلُ صدق بين الحق والباطل.

٣ ـ السنّة النبوية هي المصدر الصحيح الثاني للعقيدة الصحيحة:

يتفق علماء المسلمين بوجه عام على أن السنّة النبوية ـ وهي ما صح عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة ـ هي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم في قضايا العقيدة والشريعة الإسلامية. فالكتاب والسنّة أصلان متلازمان لهذا الدين، من جحد واحداً منهما فقد جحد الآخر وكذب به، وذلك كفر وضلال وخروج عن دائرة الإسلام بإجماع أهل العلم والإيمان، يقول السيوطي في رسالته المسماة مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنّة ما نصه «إعلموا رحمكم الله أن من أنكر أن كون حديث النبي ـ ﷺ ـ قولاً

(١) البقرة/ ١١٣.

كان أو فعلًا بشرطه المعروف في الأصول حجة كفر، وخرج عن دائرة الإسلام، وحشر مع اليهود والنصارى، أو مع من شاء من فرق الكفرة».

ويقول موفق الدين ابن قدامة في كتابه (روضة الناظر وجنة المناظر) في بيان أصول الأحكام ما نصه: «والأصل الثاني من الأدلة سنة رسول الله ـ ﷺ ـ وقول رسول الله حجة، لدلالة المعجزة على صدقه وأمر الله بطاعته وتحذيره من مخالفة أمره».

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ فليحذَرِ الذينَ يُخالفونَ عن أمره أن تصيَبهم فِتْنَة أو يُصيبَهم عذابٌ أليم ﴾ أي عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله، كائناً من كان كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ـ ﷺ ـ «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» والمعنى، فليخش وليحذر من خالف شريعة الرسول باطناً أو ظاهراً «أن تصيبهم فتنة» أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة ﴿ أو يصيبهم عذابٌ أليم ﴾ أي في الدنيا بقتل أو حد أو حبس.

والسنة النبوية هي في حكم الموحى به من عند الله تعالى ـ أو هي وحي مآلا ـ لأن الله سبحانه أقر رسوله ﷺ عليها، والله سبحانه لا يقر رسوله على خطأ لأن كلامه تشريع، وفعله تشريع، ولذلك وجب العمل والاعتقاد بما جاءت به السنة، كما يجب العمل والاعتقاد بما جاء به القرآن، فقد أخرج البخاري أن النبي ﷺ قال في حجة الوداع «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله وسنتي» وقال تعالى موجباً العمل بالسنة ﴿ من يطع الرَّسولَ فَقَدْ أطاعَ الله ﴾[1] وقال: ﴿ وأطيعوا الله والرسُول لعلكم تُرْحَمون ﴾[2].

وطاعة الله هي الأخذ بما جاء في كتابه، وطاعة الرسول هي الأخذ بما

(١) النساء/ ٨٠.
(٢) آل عمران/ ١٣٢.

بيّن لنا من عقيدة وشريعة، بل أمرنا الله أمراً مطلقاً عن كل قيد أن نأخذ ما أتانا به الرسول وأن ننتهي عما ينهانا عنه وذلك في قوله تعالى ﴿ وما آتاكُم الرسولُ فخُذوهُ وما نَهاكُم عنه فانْتَهوا ﴾(١) وما ذلك إلا لأن السنة مكملة للكتاب، وهما أصل الدين ومصدره.

ولقد أكد النبي - ﷺ - ذلك بقوله (ألا واني أوتيت القرآن ومثله معه)(٢).

ثم حذر النبي - ﷺ - من أن ينحدر الناس إلى هذا المنزلق الخطر فقال فيما رواه الترمذي وأبو داود عن أبي رافع - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال: «لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه أمري مما أمرت أو نهيت عنه فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه».

شروط النص الذي تثبت به العقيدة:

١ - أن يكون ثابتاً ثبوتاً قطعياً - أي متواتراً - إن كان الثابت به أصلاً من أصول العقيدة كالإيمان بالله تعالى وصفاته، والنبوات والملائكة، والكتب، والحشر، والجنة، والنار، والحساب ونحو ذلك.

فإن كان الثابت به فرعاً من فروع العقيدة فيشترط فيه أن يكون صحيحاً فقط، ولا يشترط فيه التواتر. كإثبات كلاليب الصراط، وبعض ما يتعرض له أهل النار وبعض نعيم أهل الجنة ونحو ذلك.

٢ - أن يكون ظاهراً لاخفاء فيه، ولا يقبل التأويل، لأن أمور العقيدة يجب أن تكون من الظهور بحيث لا تخفى على العالم ولا على الجاهل، ولا على المدني ولا على الضارب في بطون الصحراء.

﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾(٣).

---

(١) الحشر/ ٧.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والحاكم بإسناد صحيح عن المقداد عن رسول الله ﷺ.

(٣) يوسف/ ١٠٨.



البَابُ الأوّلُ

الالهيّاتُ

ويشتمل على الفصول الآتية:

* تقديم
* الفصل الأول : العالم بين القدم والحدوث أو قصة الخلق بين الماديّة والإسلام
* الفصل الثاني : مسلك العقل في إثبات وجوده تعالى
* الفصل الثالث : صفات الله تعالى
* الفصل الرابع : القضاء والقدر



الله سبحانه وتعالى هو المعبود بحق، وهو المستحق للشكر والثناء، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، قال سبحانه، ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾.

وكما تنزه سبحانه عن الند والشريك، والصاحبة والولد، فقد تنزه أيضاً عن النظير والشبيه «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» ويجب له كل ما تقتضيه ذاته من كمال، فهو الحي القيوم وهو البارىء المصور الفعال لما يريد ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾[1].

وحيث إن البحث هنا يجري حول إثبات الحقيقة العليا ـ حقيقة الذات الإلٰهية ـ والإثبات بالضرورة إنما يكون لما هو معلوم، لاستحالة طلب النفس لما هو مجهول جهلاً مطلقاً. ناسب أن نتقدم بين يدي البحث ببيان المعلوم وخاصة ما يتعلق منه بعلم العقيدة فنقول:

أقسام المعلوم:

المعلوم هو كل ما يعلم، أو هو كل ما يمكن أن يتعلق به علمنا. وموضوع العقيدة هو المعلوم الذي يتعلق به إثبات عقيدة دينية، أو ما هو وسيلة إلى اثبات عقيدة دينية مثل: «الله تعالى عالم» فهذا مثال للمعلوم الذي يتعلق به إثبات عقيدة دينية هي علم الله سبحانه وتعالى، (ومثل دلالة العالم

---

(١) القصص/٦٨.

على وجود خالقه)، وهذا مثال لما هو وسيلة إلى إثبات عقيدة دينية.

فإذا عرفنا أن موضوع علم العقيدة هو المعلوم من هذه الحيثية المذكورة، فإن المعلوم ثلاثة أقسام.

فهو إما أن يمتنع عدمه لذاته أو لا يمتنع عدمه لذاته، فالذي يمتنع عدمه لذاته هو الله سبحانه وتعالى، وما دام يمتنع عدمه لذاته فوجوده واجب لذاته، وما دام وجوده واجباً لذاته، فيكون موجوداً بالضرورة.

والذي لا يمتنع عدمه لذاته، إما أن يمتنع وجوده لذاته أو لا يمتنع وجوده لذاته، فالذي يمتنع وجوده لذاته هو المستحيل، فالمستحيل لذاته إذن هو الذي لا يتحقق له وجود أصلاً، وبالضرورة يكون معدوماً.

أما القسم الثالث، وهو الذي لا يمتنع وجوده لذاته، هو ما يسمى بالممكن، فالممكن لذاته، ما لا تقتضي ذاته الوجود ولا العدم، فقد يكون موجوداً وقد يكون معدوماً.

والفرق بين المعدوم المستحيل الوجود والمعدوم الممكن الوجود، أن الأول يستحيل في العقل وجوده، مثل اجتماع الحركة والسكون في جسم واحد في زمان واحد، فاجتماع الضدين يستحيل وجوده، ومثل شريك الباري أيضاً، فإنه معدوم يستحيل في العقل وجوده، لأنه إن وجد للباري وهو الله تعالى شريك للزم عليه ألا يكون الإلّه إلّهاً، ولذلك يستحيل وجوده على ما ستعرفه عند الكلام على وجوب صفة الوحدانية له تعالى.

أما المعدوم الممكن فإنه جائز الوجود إذا تعلقت به إرادة الموجد، مثل وجود محمد مثلاً في زمن كذا عند تعلق إرادة الله تعالى بوجوده.

وينتج من هذا أن المعلوم أقسامه ثلاثة:

١ ـ واجب الوجود.

٢ ـ مستحيل الوجود.

٣ ـ ممكن الوجود.

ولكل من هذه الأقسام الثلاثة أحكام تتعلق به ولا بد من معرفتها:

فالمستحيل: حكمه، ألا يطرأ عليه وجود أصلاً، لأنه لو طرأ عليه وجود لخرج عن طبيعة كونه مستحيلاً فلم يعد مستحيلاً، لأن العدم لازم لماهيته لزوماً ضرورياً، وبعبارة أخرى، هو ما لا يتصور العقل وجوده مثل الواحد ضعف الاثنين والأمثلة السابقة.

أما الممكن، فقد عرفنا أنه ما يصح في نظر العقل وجوده وعدمه، أو هو ما اقتضت ذاته الوجود والعدم، أو هو ما تساوى وجوده وعدمه بالنظر إلى ذاته. ومن أحكامه.. أنه لا يوجد إلا إذا كان هناك سبب أو موجد أو فاعل يرجح وجوده على عدمه، ولا بد أن يكون ذلك السبب هو غير الممكن، وكما يحتاج الممكن في وجوده إلى سبب أو مرجح يرجح الوجود فيه على جانب العدم، فكذلك يحتاج في عدمه إلى سبب أو مرجح يرجح عدمه على وجوده.

فتلخص بأن الممكن لا بد في وجوده من سبب يعطيه الوجود، كما لا بد في عدمه من سبب يسلبه الوجود، كما أن من أحكامه أن الامكان هو علة في احتياج الممكن إلى مرجح، ومعنى الإمكان هو عدم اقتضاء ذات الممكن الوجود والعدم.

والقول باحتياج الممكن إلى مرجح قول بديهي يدركه الأطفال والحيوان، وهو الرأي الراجح، فإنك لو أخبرت صبياً بأن إحدى كفتي الميزان رجحت على الأخرى بدون مرجح لما صدّق ذلك.

لأن الذي تركز في طبعه هو أن كل حادث لا بد له من محدث يحدثه، فالذي رجح رجحان إحدى كفتي الميزان على الأخرى مرجح آخر.

هذه هي أقسام المعلوم وأحكام كل قسم وان كان للواجب الوجود أحكام أخرى سنعرفها عند بحثها إن شاء الله.

هذا، ولما كنا قد نصادف بعض الملحدين الذين ينكرون وجود الخالق، وهو الله واجب الوجود أو يمارون في وجوده، فاننا نتكلم على اثبات وجوده، وما يجب له تعالى وما يجوز في حقه بعد دحض حجج الملحدين في الله وآياته ثم نتابع الحديث عن قضايا الألوهيةوالله المستعان.

العالم بين القدم والحدوث
أو قصة الخلق بين المادية والإسلام

تقديم:

بين العدم والوجود

إن البحث في موضوعنا هذا يتطلب قبل كل شيء إثبات الموجود، ومن خلال ذلك يمكن إثبات الوجود، ثم ننظر بعد ذلك في أنواع هذا الوجود لنصل في النهاية إلى معرفة موجد هذا الوجود.

وقضية إثبات الوجود وإن كانت نظرية فلسفية تحتاج إلى البرهنة عليها في مجال البحث الفلسفي، إلا أنها في الوقت نفسه بدهية بالقياس إلى الإدراك الحسي.

ومع كل هذا وذاك فإنه لا مفر من التعرض لبحثها لكي نقطع جذور الشك من البداية ليصل البحث في النهاية سليماً عن اقتناع.

اننا إذا أدركنا الوجود فإننا في الوقت نفسه ندرك العدم، وحين ندرك العدم نكون بين حالين.

إما أن ننفي العدم فنكون قد أثبتنا الوجود، وإما أن نثبته فنكون قد أثبتنا حقيقةً ما، وإذا أثبتنا هذه الحقيقة أثبتنا الوجود.

ويمكننا أن نستنتج من هذا أن العدم المطلق محال.

وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول: إذا أثبتنا أو نفينا فقد أثبتنا أنفسنا

وهذا معنى وجودنا. لأن المثبت والنافي كائن ذو فكر والفكر لا يقوم إلا بموجود.

ويمكننا أن نستنتج من هذا أيضاً أن الوجود قائم وثابت وأن العدم المطلق محال.

وهذا هو المنهج الذي جاء به (ديكارت) حينما قال ليثبت أن الوجود حاصل (أنا أفكر، إذن أنا موجود) وذلك لأن الفكر شيء، وعليه يمكن وصفه بالوجود، لأنه انتهى إلى أن الفكر بلا مفكر ضرب من الخيال.

ومن الوجود وجود مطلق ومنه وجود إضافي، كما أن العدم منه مطلق وهو محال ومنه إضافي وهو واقع وحاصل.

فالمطلق من الوجود ما لا بداية له ولا نهاية، وهو الوجود الأزلي الأبدي.

أما الوجود الإضافي فهو ما كانت له بداية واقترن بنهاية، وكان محلاً للتغير، ولما كان العدم المطلق محالاً، فإن العدم الإضافي هو المقابل للوجود الإضافي، وكل من الثلاثة المذكورة تحتاج إلى بحث وتفصيل ليس هنا محله.

قيمة العلم بطريق الحواس:

والحواس لها دخل كبير في نقل الصور الحسية إلى المخيلة لتكون طريقاً إلى إدراك الوجود، إلا أنه ينبغي أن نبين أن الحواس قاصرة قصوراً كبيراً عن إدراك كثير مما في الوجود بعد أن ثبت وجوده وجوداً علمياً لا محل لإنكاره، **فالعين** مثلاً ترى الظل ويخيل إليها أنه ثابت لا يتحرك عن مكانه بينما بمرور بعض الوقت تراه قد انقشع عن محله الذي رأته في المرة السابقة بزمن يسير، كما أن العين ترى الألوان، إلا أنها تقف عند حد معين محصور في الطيف الضوئي، ولا ترى ما تحت الأحمر ولا ما فوق البنفسجي.

أما الأذن فإنها تسمع الأصوات، ولكنها لا تسمع إلا ما وقع تردده بين حدين معينين فضلاً عن أنها تعجز عن تقدير الصوت نظراً لبعده أو قربه.

وقد يكون الإنسان وحيداً في حجرة مغلقة تماماً ويظن بل يعتقد أن لا شيء يقتحم عليه وحدته، فلا شيء هناك يراه أو يسمعه أو يحس به.

ولكن سرعان ما يتبدد ذلك الوهم ويتبدل الاعتقاد بفضل الأجهزة التي هي نتاج الفكر والنظريات العقلية، فإن الإنسان إذا عمد إلى فتح جهاز الرائي (تلفزيون) وأداره على موجات ذات ذبذبات خاصة، فإنه يرى صوراً ويسمع أصواتاً في حجرته لم يكن ليدركها لولا فتح ذلك الجهاز. وكان يعتقد عدم وجودها، وظل الناس ردحاً من الزمن يؤمنون بعدمها قبل اكتشاف هذه التجارب العلمية.

وقس على ذلك الكائنات الدقيقة التي لا تدركها العين المجردة لولا الأجهزة المكبرة التي يستعان بها، كما أن عجز الحاستين المذكورتين (العين والأذن) يثبت عند قصد الادراك عبر أبعاد لا تستطيع هاتان الحاستان إحضار المبصر أو المسموع.

أما حاسة الذوق فقد تدرك طعم المرارة في شراب حلو المذاق لسقم يقوم لها، وقد تتعطل تماماً حاسة الشم لما يصيبها من علل مختلفة فلا تكاد تدرك شيئاً يمكن الحكم عليه.

على أن هناك حقائق أخرى هي نتاج نظريات علمية وتجارب واقعية، وهذه الحقائق ثابتة ثبوتاً قطعياً لا سبيل إلى انكارها، ومع ذلك فهي غير خاضعة لحكم الحواس الصرفة من حيث الادراك المادي، مثل الكهرباء، فحقيقتها لا يمكن تكييفها على طريقة مادية خالصة، كما أن هناك العقل، فإن الإنسان يدركه من غير طريق الحواس، ومثله الكثير من الحياة الوجدانية والعاطفية ووظائف الذاكرة والشعور، فهذه وغيرها وجودها لا شك فيه من

غير أن يكون سبيل ادراكها الحواس الظاهرة.

وبهذا التتبع البسيط نجد أن الحواس وهي منافذ الإدراك الأولى لا تحيط علماً بجميع الموجودات، وأن النسبية تلحقها في كثير من الادراكات وهذا يجعلنا نلفت النظر إلى أن الحواس وحدها لا تكفي لمعرفة الوجود والاحاطة الشاملة بكل موجود، ويجعل تحصيل قضايا العلم عن طريقها وحدها ظنياً وليس باليقيني، وبالتالي يتهافت قول من يقول انه لا يؤمن إلا بما يراه أو يقع تحت حسه.

وإذا كنا نلاحظ هذه المآخذ على الحواس، وأن الإدراك عن طريقها وحدها غير مأمون النتائج على الوجه الأكمل: فإن من قصر المعرفة على الحواس يكون قد حرم المعرفة. بل لا بد أن يعضدها العقل الواعي أو المهتدي بالوحي ليتأكد اليقين.

مبدأ السببية وحدوث العالم

خلق الإنسان متميزاً عن سائر الكائنات بميزة العقل، ومنه كان الفكر والإدراك، وحين أشرق عقله ووجه فكره إلى الوجود تساءل بفطرته عن مبدئه ومنتهاه.

فأخذ يتساءل: من أين؟ وإلى أين؟ وهو وإن كان يرى أن وجوده المباشر قد كان من رحم أمه أو من نطفة أبيه، إلا أنه لم يكتف بهذا، لأنه يستشعر أن وراء ذلك مبدأ أول، ترجع إليه جميع الأسباب لهذه المسببات التي يقع عليها حسه وإدراكه آناء الليل وأطراف النهار، فإذا نظر إلى جو السماء وأديم الأرض رأى أن المطر ينهمر من السماء فتعانقه الأرض وفيها البذر الجامد الصلب فينبت شجراً، ثم يؤتى ثمراً طيباً وشهياً من بين الماء والتراب.

ثم أن الماء - كما أثبتت النظريات العلمية - يتكون من عنصرين

ضرورين للحياة هما (الأوكسجين) و(الأيدروجين)، وكل شيء في الوجود يقع عليه حس الإنسان ويدركه بفكره إلا تعلق وجوده بسبب.

فليس هناك حادث من غير سبب يحدثه، ولا ينكر ذلك إلا مكابر مغالط، ولهذا نرى ذلك العربي الذي أطل عقله من ربوة الجاهلية الجاحدة على قبس من الهداية، والتماس بعض جوانب الحقيقة من خلال المتاهات التي كان يعيشها بنو جلدته فيقول: البعرة تدل على البعير وأثر السير يدل على المسير» ويقول قس بن ساعدة شاعر الجاهلية: ليل داج ونهار ساج وسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وجبال مرساة وأرض مدحاة. ما بال الناس يموتون فلا يرجعون ويذهبون فلا يعودون؟ أرضوا فأقاموا أم تركوا فناموا. إن في السماء لخيراً وإن في الأرض لعبرا».

وبشيء من الاستقراء لكل ما يتكلم به الإنسان وما يحكم به في شؤون حياته في يومه وليلته، لوجد أنها في كل مراحلها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمبدأ ارتباط الأسباب بمسبباتها، وهذا هو ما يسمى في قانون الفكر وفي كتب الفلسفة بمبدأ السببية، وهو من مسلمات الحركة الفكرية وأساس الأحكام العقلية وأول مبادىء المعرفة.

ولكن مشيئة الله العليا قد تخلف بعض المسببات عن أسبابها بيـاناً للخلق بأن الارتباط بين الأسباب والمسببات ليس مطلقاً ولا نهائياً، بل مبني ذلك على مشيئته تعالى وإرادته التي أوجبت ذلك الارتباط وحتمته.

كل حادث له محدث:

وإذا سلمنا بمبدأ ارتباط الأسباب بمسبباتها نستطيع بعد كل هذا أن نقول إن كل حادث لا بد له من محدث، وعلى ذلك يستحيل أن يوجد شيء من لا شيء، أو من غير موجد يوجده، وكذلك محال أن يحدث حادث بذاته بل لا بد أن يكون حدوثه من غيره، وهو أمر مسلم من العقل عن يقين.

وهذا هو ما يقرره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾ (الطور ٣٥) وعلى ذلك نستطيع أن نقول: بأنه وإن كان السبب الحقيقي لكل ما في الوجود هو الله سبحانه وتعالى، إلا أنه خلق أسباباً مقارنة للمسببات، كما نستطيع القول بأن ما نشاهده في عالمنا من أرض وسماء، وجبال وأنهار، وشجر ودواب، وشمس وقمر ونجوم، لا بد أن يكون وجودها عن محدث أحدثها، والأسباب الفرعية وإن كثرت وتعددت إلا أنها ترجع في النهاية إلى سبب واحد كما ترجع الأغصان الكثيرة لشجرة هائلة إلى أصل واحد هو جذعها المكين في الأرض وهو واحد.

ذلك الموجد لهذه الكائنات الحادثة المتكون منها العالم الحادث هو ما يسميه المفكرون المسلمون بواجب الوجود. إذ يستحيل أن يحدث حادث عن حادث مثله أو أن ينبثق وجوده عن عدم، فإنكار واجب الوجود تناقض محض وإقامة على الخطأ والضلال لأن العقل يمليه والواقع يؤيده.

فثبت إذن أن لكل حادث **محدثاً**، ولكل موجود **موجداً**، ولا بد لهذا العالم المتغير من موجد لا يتغير. وذلك الموجد هو الله سبحانه وتعالى.

حدوث العالم:

هذا، وقد ينفلت بعضهم من القول بحدوث العالم كيلا يقر بأن له إلهاً خالقاً محدثاً فيقول: لا نسلم بحدوث العالم، بل نقول بقدمه وأزليته وعدم أوليته، لأننا نؤمن بالطبيعة.

ولكن نستطيع إبطال قوله هذا بما قاله الإمام الغزالي، وأبداه عن ملاحظة الحركة والسكون في دورة الفلك التي من خلالها ألزم هذا الخصم بحدوث العالم وإبطال القول بقدمه فقال رحمه الله:

إن دورة الفلك إما أن تكون شفعاً أو وتراً، فإن كانت شفعاً فقد أتمت عدداً فردياً، وإن كانت وتراً فقد أتمت عدداً زوجياً، إذن فالعدد السابق على

كلا الحالين محدود، ولما كان محدوداً فهو حادث قطعاً(١).

ولعل من يقول هذا يعود فيقول: إن المادة الأولى للعالم قديمة والحركة طارئة عليها، ونقول له: من أين طرأت الحركة على المادة؟ أما طروها من ذاتها فمحال لأنها غير ذات حياة بالاتفاق، وإذن فلا بد أن يكون طرو الحركة عليها من خارج عنها هو الذي رجح وجودها على عدمها وهذا لا يكون إلا واجب الوجود سبحانه وتعالى.

والقائلون بقدم العالم بعضهم من الهاربين من الإقرار بوجود إله خالق ـ وهم أصحاب المادية الجدلية ـ وقولهم هذا متهافت باطل لا يستند إلى برهان أو دليل قطعي. وعليه نعيد ذكر النتيجة السابقة: إن هذا العالم حادث وكل حادث لا بد له من محدث، كما تشهد به فطرة الصبيان وهو المركوز في طباعهم. وهذا المحدث هو الخالق الحكيم، وحدوث العالم يتمثل في عرضته للتغير والظهور والأفول، وهذا ما حاج به نبي الله وخليله ابراهيم عليه الصلاة والسلام قومه، حينما أراد أن يستنطق منهم الفطرة بأن موجد العالم خالق، حكيم، قديم ليس حادثاً ولا متغيراً، لأن من شأن المتغير ألا يكون خالقاً ببداهة العقل، وقد سجل القرآن مناظرته في ذلك لقومه فقال تعالى: ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ (الأنعام ٧٦، ٧٩).

(١) يقول الإمام الغزالي رحمه الله في دليله على حدوث العالم سماه برهان التطبيق: إن العدد الفردي هو (٦١) والعدد الزوجي هو (٦٠) فالعدد الفردي لم يصبح (٦١) حتى سبقه العدد (٦٠) والعدد الزوجي لم يصبح (٦٠) حتى سبقه (٥٩) وطالما كان العدد مسبوقاً، فقد صار محدوداً، ولما كان محدوداً فهو حادث قطعاً لوجود السابق عليه. (انظر تهافت الفلاسفة ـ برهان التطبيق).

والمتأمل في محاجة ابراهيم لقومه يستخرج منه قياساً عقلياً منطقياً في منتهى القوة الجدلية إذيصير برهانه هكذا: الكوكب آفل، وربي ليس بآفل إذن الكوكب ليس ربي، وهو قياس من الشكل الثالث، استنبط من تغير العالم من خلال الظهور والأفول، وفي كون الصفات الطارئة على العالم تتحكم فيه بالقهر والإلزام وفي تطوره ومصيره، ولم يستطع أي حادث أن يدفع ذلك عن نفسه أو يتجرد عنه، دلالة واضحة على أن العجز والنقص صفة الحوادث دائماً.

هل من خالق غير الله؟.

وتحقيقاً لذلك، نجد الإنسان الذي هو أكمل الكائنات مقهوراً لأسباب كثيرة منها: ولادته ومعاناته للآلام وصيرورته إلى الموت، وكل هذا وأمثاله يجري عليه رغماً عنه دون ما اختيار ولا إرادة، فهذه حقيقة أكمل الكائنات من جهة امتيازه بالعقل والإدراك الواعي واصطناع القدرات، ومع ذلك لم يخرج عن دائرة العجز والاحتياج وهو المعنى المقصود بالحدوث.

فالإنسان يدرك تماماً أنه لم يخلق من لا شيء أو أنه يستطيع أن يخلق أي شيء ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون﴾ (الطور: ٣٥ ـ ٣٧).

﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وأن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾ (الحج ٧٣).

وكفى بهذا بياناً لعجز الإنسان وتحدياً لقوته وقدرته، وإذا عجز بذاته عن أن يكون مؤثراً في شيء ما إيجاداً أو عدماً فمن الأولى ألا يستطيع إدارة فلك من أفلاك الكون العظيم ليجعل للناس ضياء أو ليلاً يكون لهم فيه

راحة وسكون: ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إلّه غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إلّه غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴾ (القصص ٧١ ـ ٧٢).

وكون الله هو الخالق وأنه إلى مشيئته تنتهي أحداث الكون أمر فطري لدى الإنسان وبدهي بالنسبة إليه. فإذا سئل عن هذه الحقيقة. ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ﴾ (العنكبوت/ ٦١).

﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله ﴾ (العنكبوت/ ٦٣).

فالجواب من أعماق الإنسان ـ إذا ما تجرد عن العناد ـ بأن الخالق المدبر هو الله، والجواب واحد لم يتخلف على أي حال، وهو بدهي، لأن هذه الموجودات خارجة عن نطاق قدرة الإنسان، فهو جواب الفطرة المستكنة في داخل الإنسان.

فالخالق المدبر الحكيم لكل الحوادث فوقها علماً وقدرة، وهو غير الحوادث وفوق الحوادث، إذ لو كان حادثاً لاعتراه الفناء والعدم، ولكان العدم هو أصل الوجود، ومستحيل أن يكون العدم المطلق أصلاً للوجود.

هذا، ولا نود أن نذكر ما قاله السابقون من التدليل على أن الذي أحدث العالم ليس بحادث وذلك ببرهان التسلسل الذي يثبت استحالة حوادث لا أول لها.

ونكتفي بالقضية المذكورة وهي أن محدث العالم لو كان حادثاً لكان محلاً لطروء الفناء والعدم، وبذلك يصير العدم المطلق أصلاً للعالم وهو محال، ونكتفى في ذلك أيضاً بما سقناه من قول الإمام الغزالي السابق، فبرهان

التطبيق أحد وجهي برهان بطلان التسلسل.

على أنه لا يفوتنا أن نقول إن التسلسل المطلوب إبطاله نوعان:

أحدهما المذكور وهو المفترض فيه عدم اللانهائية في جانب الماضي **والثاني** الدور، وهو ما يسمى أحياناً بالتسلسل المستدير، وذلك بالتقاء طرفي دائرته، وهو يفضي إلى أن النتيجة هي كون الحادث عين المحدث وهذا أمر باطل، ويسمى هذا الدليل في اصطلاح علماء الكلام بالدور.

ونخلص من ذلك إلى أن السبب الذي تنتهي إليه سلسلة الموجودات الحادثة لا بد أن يكون:

١ ـ قديماً لا أول لوجوده وهو الله سبحانه وتعالى.

٢ ـ وهو كامل يتصف بالكمال المطلق لأن كماله لو كان نسبياً لكان محدوداً والمحدودية من صفات الحوادث، فإن لها مبدأ ونهاية وصغراً وكبراً وقلة وكثرة إلى غير ذلك، وإذا كان كل حادث محدوداً وكل محدود حادثاً، وإذا كنا أقمنا الدليل على أن موجد العالم ليس حادثاً، إذن فهو ليس محدوداً، لا في العلم، ولا في القدرة، ولا في غيرهما من صفاته الأخرى، فوجب اتصافه بكل صفات الكمال المطلق.

المخلوق لا يحيط إدراكاً بالخالق:

أما مسألة إدراك الخالق إدراكاً كاملاً فهذا مستحيل بحكم العقل والنقل.

أما بالعقل فلأن الإنسان المحدود ذا الوجود النسبي لا يمكن أن يحيط على وجه الشمول بذي الكمال المطلق، فالمحدود في كل صفاته لا يستوعب اللامحدود في كمالاته، وليس معنى هذا استحالة معرفته بالكلية.. كلا، وإلا لما صح لنا أن نحكم له بالوجود المطلق والكمال المطلق، ولكن المستحيل هو استحالة الإحاطة بمعرفته معرفة كاملة شاملة، ولهذا قيل: (العجز عن درك الإدراك إدراك).

وأما استحالة إدراكه إدراكاً كاملاً بحكم النقل فلقوله تعالى ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ (الأنعام ١٠٣) فالإدراك على وجه الإحاطة من خصائص المدرك الأكبر بالنسبة للأصغر وهو ليس موجوداً في الأصغر بالنسبة إلى الأكبر.

نعم قد يدرك الأصغر مثله إدراكاً كاملاً ولكن لا يتعداه إلى الأكبر قال سبحانه: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ (الشورى ١١).

ومن المعلوم ضرورة أنه لا بد من إدراك الصانع سبحانه بوجه ما، ليصح الحكم عليه بالوجود وبالصفات المحققة لكماله المطلق، إذن لا ينبغي أن يفهم من قولنا باستحالة إدراكه إدراكاً كاملاً أن يكون مجهولاً جهالة كاملة، يصير بها إلى لا شيء أو إلى عدم مطلق، فهذا لم يقل به عاقل ونحن لا ندعيه أبداً.

فالله سبحانه يمكن معرفته من خلال آثاره، ولكن لا تحيط به المعرفة على وجه الكلية والشمول.

وإذا كان الله هو الخالق وهو الكامل المطلق المستغني بذاته عمن سواه، فليس إذن محتاجاً إلى موجد يوجده لأن وجوده من ذاته، والذي وجوده من ذاته لا يحتاج إلى غيره لكن يحتاج إليه كل ما عداه.

الطّبيعيّون وَمَوقِف الإسْلام مِنهُم

عرض ومناقشة:

إن الطبيعيين وإن اتفقت مذاهبهم على أن الطبيعة هي مصدر الخلق لهذا الكون والمدبرة له، إلا أن اتجاهاتهم قد تعددت واختلفت حول تفسير ظاهرة الخلق ومنح الحياة، فمنهم من ذهب إلى أن الخالق هو الطبيعة على وجه الإجمال، ومنهم من زاد في التفسير فقال: إن الصدفة هي فاعلة الخلق.

أما خلق الحياة ففسرها بعضهم بسقوط جرثومة من كوكب آخر إلى الأرض، وبعضهم يرجح أصل الحياة إلى التوالد الذاتي الذي نشأ من مادة صماء كالطين العطن والماء الآسن، ومع كل هذه البراهين المثبتة أن هناك إلَهاً للكون، خالقاً كاملاً كمالاً مطلقاً، غير محتاج إلى من عداه، قديماً لا أول لوجوده، وأن وجوده من ذاته.. مع كل هذا لا نعدم أن يكون في عصرنا أصحاب نغمة عجيبة، وهم أناس يزعمون إلَهاً للكون غير الله يتمثلونه في (الطبيعة)، فالطبيعة إلَههم المزعوم، وهي التي خلقت السموات والأرض في نظرهم، وخلقت النبات والحيوان، خلقت الإنسان والجماد وتدير الأفلاك وتمنح الحياة.

وإننا إذ نطرح ـ هذه القضية على بساط البحث للمناقشة وبيان الحق فيها، والحق أحق أن يتبع، نستطيع أن نبدأ القول بالسؤال عن ماهية هذه الطبيعة المزعومة إلَهاً. وما مفهومها، وما حقيقة تأثيرها في الوجود؟

قال أهل اللغة: إن الطبيعة معناها، الخُلُق والسجية، وعند الزاعمين إلَهيتها لا يخلو مفهومها من خلال كلامهم من أحد مفهومين:

الأول : إنها عين الأشياء ـ أي عين ذواتها ـ فالحيوان والنبات والجماد، كل هاتيك الكائنات هي ذات الطبيعة.

الثاني : إنها عبارة عن الخصائص المستكنة في الأشياء، والصفات الظاهرة منها، ومن هذه الصفات: الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، والملاسة والخشونة، ومن خصائصها خصائص القابلية من حركة وسكون وكون وفساد، ومن تزاوج وتوالد، واغتذاء ونمو وغير ذلك.

فهذه الخصائص وتلك الصفات هي الطبيعة، ولا تخرج عن أي من التفسيرين، فهي إما ذوات الأشياء وإما خصائص وصفات الأشياء.

فإذا قلنا بالأول لم نزد على أن قلنا، إن ذات الشيء أوجدت نفس الشيء، وهذا كلام شبيه بكلام غير كاملي العقول من البلهاء والصبيان الذين لا يفقهون ما يقولون، وهو مثل من فسر الماء بعد الجهد بالماء، **فكأننا نقول**: إن الأرض خلقت الأرض، وأن السماء خلقت السماء، وأن كل كائن أوجد نفسه، وبوسعنا أن نقول في كل شيء: إنه الخالق والمخلوق والحادث والمحدث، وهذا تناقض في الفكر وعدم استقامة في المنطق، لا يحتاج في بيانه إلى دليل، لأن الخالق لا بد من تقدمه على المخلوق، وقولنا هذا يوجب تقدم الشيء على نفسه، وهو محال في نظر العقل.

وإذا قلنا بالمفهوم الثاني لمعنى الطبيعة، فإن ما نسوقه من القول: هو أن الخصائص والصفات لا تعدو أن تكون ظواهر الطبيعة، لا ذاتاً لأي طبيعة، والطبيعة المدعاة، أسرار خاصة مودعة في الكائنات الموجودة، أودعها من جعل فيها هذه الخصائص، فإن المهايا والحقائق مخلوقة لسبب خالق. لا أنها خلقت نفسها.

فإن الحبة إذا وضعت في التراب ثم سقيت بالماء ترى أنه يحصل فيها انتفاخ إلى حد معين، ثم تنفلق ليظهر من جهة معينة فيها لسان ذو شقين، أحدهما يتجه بخاصية فيه إلى أسفل ليكون الجذور التي عليها فيما بعد حياة النبات وقوامه، والأخرى تتجه إلى السماء لتكوّن الجذع والساق والأغصان والأوراق ثم الثمار، فمن الذي جعل فيها هذه الخصائص: أهي بذاتها؟ هذا احتمال غير صحيح، لأنها لا تملك لنفسها البقاء ولا الحياة، أو أن الذي وهبها هذه الخصائص هو أمر خارج عن ذاتها وصفاتها وهو المؤثر فيها بهذه الانفعالات؟ أم أنها الصدفة التي فعلت بها هكذا؟

وفي الحق أن الصدفة غير عاقلة فهي بكماء عمياء صماء لا تستطيع التدبير والإبداع والخلق، وكذلك الحبة ليست عاقلة ولا مدبرة، وإلا فلماذا لا تدفع عن نفسها ضر من يقطعها أو يفتك بها؟ ثم لماذا لا تنتفخ أكثر من

الحجم اللازم للإنبات، أو لماذا لا تضمر وتجمد بدلاً من أن تنمو وتكبر، ولكن لعل هناك من يقول إن الماء هو الذي نفخها، وهنا نستطيع أن نقول: لماذا لا ينفخ الماء الحديد حتى يفلقه أو يجزئه؟ إننا نلمس بالفطرة أن وراء هذه الظاهرة وكل مثيلاتها عقلاً مدبراً حكيماً، ومدركاً خفياً لطيفاً خارجاً عن ذات الحبة، أودع عن قصد خصائص الكائنات لغاية مقصودة معينة.

ولعل هناك من يقول إن النبات طبع هكذا.. تنتفخ الحبة ثم تنفلق ثم تنقسم خلاياها بميل فيها إلى التوالد والانقسام.

ولكن هذا الزعم يرد عليه عدة استفهامات منها: ما السبب أو الأسباب التي جعلت الحبة تسير إلى هذه الأطوار المنتظمة من طور الإنبات إلى مرحلة الطفولة؟ ـ ثم (أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع) إلى تمام النضج والإثمار؟ ولماذا لا يصلح فيه عكس ما يصلح لأثماره؟ إن صاحب هذه النظرة قد اقتصر في نظره على وصف الظاهرة دون إدراك المؤثرات والأسباب، ثم إنه قد جعل الصفة سبباً فاعلاً، والقابلية للتأثير أمراً مؤثراً، والظاهرة المجهولة ـ وهي كونها جبلت هكذا ـ عاملاً مكوناً، فإن الانتفاخ صفة وجدت عن مؤثر خارج عن ذات الحبة وكان التأثير بعد قبولها لذلك، أما الانفلاق والامتداد في الجهات المختلفة ومرورها بأطوار نموها، كل هذه صفات في حياة النبات، والذين يزعمون الطبيعة إلّهاً لم يزيدوا على أن جعلوا الخصائص والصفات والأعراض سبباً في الخلق، وجعلوا مقولة الانفعال سبباً فاعلاً ومدركاً واعياً لتكوين الأشياء، وإذا كانت الطبيعة لا تدرك ولا تعقل فهذا من القول بالمصادفة البحتة، والمصادفة من غير شك ليس لديها إدراك ولا عقل.

وإذن فلا بد من التساؤل عن الذي أودع الحياة فضلاً عن التنظيم المحكم لهذا الكون في جميع مظاهره العلوية والسفلية، فمن البذور بذر الحنظل ومنه بذر التفاح، وإنا لنضع كلتا البذرتين في أرض واحدة، وتسقيان

بماء واحد في مناخ وظروف واحدة، ومع ذلك فإن كل واحدة منهما تنتج ثمراً يختلف في لونه وطعمه ورائحته عن الآخر فضلاً عن الاختلاف في الشكل والثمر لكلتا الثمرتين. فمن الذي مايز بين خاصتيهما؟

وفي نهاية هذه المناقشة أردف الحديث بما قاله سانتلانا في رده على القائلين بأن الطبيعة هي الخالقة فيقول:

«أما القول بالطبيعة وألَّا شيء غيرها فهو لا يرضي العقل المتبصر»... فلو لم يكن هناك إلا مادة تتحرك من الأزل إلى الأبد فمن أين حصل لهذا العالم هذا النظام العجيب والترتيب الغريب الذي حارت فيه العقول... وكيف اجتمعت تلك الأجزاء وكيف تألفت على اختلاف أشكالها وتباين موادها، وكيف بقيت على تآلفها؟ وكيف تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة...؟

هذا، وإذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة ولا شيء سواها، فمن أين هذه القوة العقلية التي يجدها كل واحد من نفسه؟ وهي مع ما فيها من العجز والقصور وكثرة الخطأ من أظهر الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة في هذا العالم... هل يحتمل أن ما تضمنته عقولنا من الأبحاث الدقيقة والمآخذ العميقة وما خفقت به القلوب أصله من تلك الأجزاء...؟

إن المادة غير قادرة لأن تكون علة نفسها فمن باب أحرى أنها لا تكون علة لما هو أعلى منها مكاناً وأهم شأناً في درجة الوجود، وإلا كان الأخس أصلاً لما هو أرفع، وهذا ما يستبعده العقل وتأنفه الفطرة السليمة[1].

وهناك طائفة من الطبيعيين تذهب إلى أن الحياة على وجه الأرض بدأت بجرثومة سقطت إلى الأرض من كوكب آخر.

---

(١) المذاهب الإسلامية، تأليف المستشرق سانتلانا ـ مخطوط بدار الكتب المصرية.

يقول الدكتور يوسف كرم «وبدا لبعض العلماء المعاصرين وأشهرهم (هلمولتز) أن الجراثيم الحية هبطت إلى الأرض من بعض الكواكب الطبيعية وما بعدها»، ثم يلفت الدكتور كرم النظر إلى أن هذا الكلام لم يحل أصل المشكلة فيقول:

«ولكن هذا الرأي يدع المسألة حيث هي، إذ أننا نفحص عن أصل الحياة. . . وكان يتعين عليهم أن يفسروا «أصل الحياة في تلك الكواكب»[١].

نَقدُ رَأيِ وُجُودِ الحَيَاةِ مِنَ الجُرثومَة

ولكن كريس موريسون يأتي على قواعد هذا المذهب لينقضه من أساسه فيقول:

«لقد كان من العسير على تلك الجرثومة أن تبقى حية في درجة حرارة الصفر المطلق في الفضاء، وإذا استطاعت البقاء رغم ذلك فإن الإشعاع الكثيف للموجة القصيرة كان يقتلها. . . وفضلاً عن ذلك يعود بناء هذا الغرض خطوة أخرى فيما نحن بصدده، لأننا يمكننا أن نسأل: كيف بدأت الحياة على أي كوكب من الكواكب؟»[٢].

نعم هناك تساؤلات كثيرة يثيرها العقل، ولا يستطيع أحد أن يكفه عن ذلك، فيمكن أن يقال: كيف تمتص جذور النبات الماء وتصطفي ذرات بعينها وتنضجها وتسوقها إلى الثمر وتكون العصارة وتنشىء الحلاوة في بعض والمرارة في بعض آخر؟ فما هو سبب هذا وغيره؟ ولا ينبغي أن نقف عند الوصف أو الخاصة، وكل ذلك أعراض لا ذاتية فيها وليس في أي منها خاصية الخلق، ثم ما هي حقيقة تلك الطبيعة، ومن الذي طبع الأشياء فيها وكيف هو

---

(١) الطبيعة وما بعدها/ ٥٠، يوسف كرم.

(٢) العلم يدعو للإيمان ص ٩٨.

تأثيرها؟ وهل هي تبدع أم تصنف وتركب؟ وهل هي فاعلة بذاتها أو منفعلة بغيرها؟

إننا نرى الطبيعيين قد نقلونا من مجهول واحد إلى مجاهيل عدة، ونقلونا من أصل ترجع إليه جميع الأسباب وهو مصدرها إلى أمور لا تحسم الأمر، فبدلاً من أن نصوب النظر إلى خالق للحبة والحيوان والنبات جعلونا نقصر النظر على صفات منفعلة ليس لها من القدرة على الخلق أقل نصيب.

موقف القرآن الكريم:

إن الأمر يحسم بقوة إذا نظرنا عن وعي إلى آيات كريمة من كتاب الله العزيز منها قوله تعالى: ﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون ﴾ (الأنعام ـ ٩٥).

وبذلك نخرج من النظر في أمور مجهولة إلى أمر واضح معلوم هو الله الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو على كل شيء قدير وبكل شيء عليم، فما في الطبائع من أوصاف وخصائص لا تعدو أن تكون أسباباً تعضد الأسباب المذكورة في سلسلة الأسباب والمسببات، إن الذي ضم الصفات في الكائن والخصائص إلى بعضها البعض، وظن أن مجموعها يكون في خياله إلّه الموجودات فأقبل عليه طائعاً، وأسلم له خاضعاً من بعد أن صنعه بيده كما يفعل عابد الوثن، يصنعه ثم يتخيل أنه ينفع ويضر ثم يعبده. لهو مختل النظر سقيم الفكر.

وما أشد التشابه بين من كانوا يعبدون الأصنام من قبل وينافحون عنها، ومن يعبدون الطبيعة اليوم ويجادلون عنها، فالدوافع النفسية واحدة ونوعية الخطأ واحدة، وهو الاصطناع في أول الأمر وتوهم الاستقلال والتأثير في آخره.

والقرآن الكريم يشير إلى أن هؤلاء جميعاً وإن تعددت نظرياتهم في

ادعاء إلهية الطبيعة ما هم في كل ذلك إلا مبتدعي أسماء يخترعها الملحدون، ولكنها لا قيمة لها ولا فاعلية ولا تأثير، يقول الله تعالى: ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وأباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا الله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾. (يوسف ـ ٤٠).

﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وأباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ (الأعراف ٧٠/٧١).

﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾ (الجاثية ٢٤).

وهكذا نجد بعض طوائف البشرية تتوارث الضلال، فالذين من قبل قد ضلوا من ناحية، وبعض آخر من خلفهم يضلون اليوم، والقضية في عمومها لم تكن إلا أسماء يسمونها في بادىء الأمر ثم يجادلون عنها كحقيقة واقعة في نهاية الأمر.

ونستطيع أن نوجز القول في الطبيعة المزعومة (إلهاً) بأنها إما أن تكون حدثت بذاتها وهذا يتناقض مع ما سبق أن قررناه من أن كل حادث لا بد له من محدث، على أن كثيراً من المحققين ذهبوا إلى أن هذه القضية وهي قضية احتياج الحادث إلى محدث ـ بديهية.

وإما أن صفاتها تخلق ذاتها، وهذا بين البطلان، حيث إن الذات قد عجزت عن خلق نفسها، فهل الصفة تخلق الذات؟ إنه لا يقول بذلك عاقل.

أو نقول إن وجودها من خارج عنها وهو مصدر كل أسبابها وإليه ترجع

جميع الأسباب وهو الله الخالق سبحانه، وهو الذي نقول به ويوجب الإسلام معرفته، فالله موجد وفاعل والطبيعة مخلوقة منفعلة.

وهكذا نجد أن الطبيعة إلّه العصر المزعوم لم تثبت دعائم الاستدلال على «إلهيتها» أمام العقل وقضاياه المنطقية والإثباتات العلمية، وأنه لم يكن هناك إلا الصفات والخصائص المحكومة بنواميس الكون الذي نظم وجوده وأبدعه بديع السموات والأرض.

المصادفة لا تنشىء حياة:

ما كيفية الخلق بالمصادفة؟ يقولون إن الجزئيات الصغيرة واللطيفة قد تجمعت لتكون الذرة مصادفة، وتجمعت الذرات على اختلاف بينها في النسب والأوضاع المخصوصة لتكون العناصر الأصلية مصادفة كذلك، ثم تلاقت العناصر الأصلية وتجمعت بنسب صالحة وفي مدد كافية وأجواء ملائمة، فكان منها الإنسان والحيوان والنبات والجماد وكل المخلوقات، وأن كل هذا حدث مصادفة.

هذا، وإذا كنا قد استقرأنا من الموجودات حال النبات كمثال بطلان فاعلية الطبيعة بذاتها، فإنه لا بأس أن نتبع ذلك باستقراء حال الحيوان كمثال آخر على عدم فاعلية الطبيعة بذاتها مع ذكر آراء بعض الباحثين في الطبيعة كشواهد على أن الحق هو ما قرره القرآن وأثبته الإسلام.

إنه لا يقدر على أن ينشىء الحياة منذ البدء من الموات إلا الله، ولا يقدر إلا الله على أن يهب الكائن الحي القدرة على إحالة الذرات الميتة إلى خلايا حية...

كما لا يقدر غيره على تحويل الخلايا الحية مرة أخرى إلى ذرات ميتة. وفي ذروة العلم لم يسلّم أحد يقيناً بعد متى بدأت الحياة ولا كيف تتم.. وإن هذه إلا فروض ونظريات واحتمالات.

لقد عجزت كل محاولة لتفسير ظاهرة الحياة على غير أساس أنها من خلق الله، ومنذ أن شرد الناس من الكنيسة في أوربا كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة «وهم يحاولون تفسير نشأة الكون بدون الالتجاء إلى الاعتراف بوجود الله، ولكن هذه المحاولات كلها فشلت جميعاً، ولم تبق منها في القرن العشرين إلا محاكاة تدل على العناد ولا تدل على الإخلاص».

وأقوال بعض علمائهم الذين عجزوا عن تفسير وجود الحياة إلا بالاعتراف بالله تصور حقيقة موقف علمهم نفسه من هذه القضية. ونحن نسوقها لمن لا يزالون يقتاتون على فتات موائد القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من الأوربيين، عازفين عن هذا الدين، لأنه يثبت (الغيب) وهم «علميون لا غيبيون» ومن هؤلاء العلماء الذين نختار لهم «فرانك ألن» أستاذ الطبيعة الجوية بجامعة مانيتوبا بكندا، وأحد مؤلفي كتاب (الله يتجلى في عصر العلم): يقول:

«فإذا لم تكن الحياة قد نشأت بحكمة وتصميم سابق، فلا بد أن تكون قد نشأت عن طريق المصادفة، فما هي تلك المصادفة إذن؟ هل نتدبرها ونرى كيف تخلق الحياة»؟.

إن لنظرية المصادفة والاحتمال الآن من الأسس الرياضية السليمة ما يجعلها تطبق على نطاق واسع حينما انعدم الحكم الصحيح المطلق، وتضع هذه النظريات أمامنا الحكم الأقرب إلى الصواب ـ مع تقدير احتمال الخطأ في هذا الحكم ـ ولقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدماً كبيراً حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر التي نقول: إنها تحدث بالمصادفة والتي نستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة أخرى (مثل قذف الزهر في لعبة النرد).

ولقد صرنا بفضل تقدم هذه الدراسات قادرين على التمييز بين ما يمكن

أن يحدث بطريقة المصادفة[١]، وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة، وأن نحسب احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر في مدى معين من الزمان، ولننظر الآن إلى الدور الذي تستطيع أن تلعبه المصادفة في نشأة الحياة.

«إن البروتينات من المركّبات الأساسية في جميع الخلايا الحية، وهي تتكون من خمسة عناصر هي: الكربون، والايدروجين، والنيتروجين والأوكسجين، والكبريت، يبلغ عدد الذرات في العدد الواحد ٤٠,٠٠٠ ذرة، ولما كان عدد العناصر الكيماوية في الطبيعة ٩٢ عنصراً، موزعة كلها توزيعاً عشوائياً[٢]، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة، لكي تكون جُزَيْئاً من جزيئات البروتين، يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطاً مستمراً لكي تؤلف هذا الجزىء، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء، الواحد».

ولقد قام العالم الرياضي السويسري «تشارلز يوجين جاي» بحساب هذه العوامل جميعاً فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة ١ إلى $١٠^{١٦٠}$، أي بنسبة واحد إلى رقم عشرة مضروباً في نفسه مائة وستين مرة وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات.

وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيئاً واحداً أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات.

---

(١) نحن بتصورنا الإسلامي لا نعرف أن هناك (مصادفة واحدة) في هذا الوجود، وإنما هو قدر الله يخلق به كل شيء «إنا كل شيء خلقناه بقدر» وهناك سنن مطردة هي النواميس، وفي كل مرة تنفذ فيها السنة فإنها تنفذ بقدر بدون جبرية آلية، وكذلك يقع أن يجري قدر الله بالخارقة لتلك النواميس ـ في ظروف معينة لحكمة خاصة. فالقانون والخارقة كلاهما يمر بقدر خاص في كل مرة يجري فيها. ونحن حين نقتطف من حديث العلماء فإن هذا لا يعني الموافقة على كل ما يقولونه.

(٢) هذا من خلط العلماء فليس هناك توزيع عشوائي، إنما هناك توزيع مرسوم بقدر معلوم.

ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها ـ عن طريق المصادفة ـ بلايين لا تحصى من السنوات (قدرها العالم السويسري بأنها عشرة) مضروبة في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين. إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية، فكيف تتألف ذرات هذه الجزيئات؟ إنها إذا تألفت بطريقة غير التي تتألف بها تصير غير صالحة للحياة، بل تصير في بعض الأحيان سموماً.

وقد حسب العالم الانجليزي . ج. ب . ليثر. الطرق التي يمكن أن تتألف بها الذرات في أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات فوجد أنها عدد يبلغ الملايين (١٠ مضروباً في نفسه ٤٨ مرة) وعلى ذلك فإنه من المحال عقلاً أن تتألف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئاً بروتينياً واحداً.

ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيماوية عديمة الحياة ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب الذي لا ندري من كنهه شيئاً، إنه العقل اللانهائي[١]. وهو الله وحده الذي استطاع أن يدرك[٢] ببالغ حكمته أن مثل هذا الجزيء البروتيني يصلح لأن يكون مستقراً للحياة، فبناه وصوره وأغدق عليه سر الحياة[٣]. إنتهى فرانك ألن.

ويقول إيرفنج وليم في كتابه «المادية وحدها لا تكفي» (إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية في صغرها والتي لا يحصيها عد، وهي التي تتكون منها جميع المواد، كما لا تستطيع العلوم أن تفسر لنا ـ بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها ـ كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكي تكون الحياة). ولا شك أن النظرية التي تدعي أن جميع

---

(١) هذا التعبير (العقل اللانهائي) من رواسب الفلسفة يستخدمة من عنده هذه الرواسب في ثقافته، والمسلم لا يعبر عن الله ـ سبحانه ـ إلا بما سمى به نفسه من أسمائه الحسنى.

(٢) وهذه من خليط العلماء أيضاً.

(٣) من كتاب الله يتجلى في عصر العلم/٩، ١٠.

صور الحياة الراقية قد وصلت إلى حالتها الراهنة من الرقي بسبب حدوث بعض الطفرات العشوائية والتجمعات والهجائن، نقول: «إن هذه النظرية لا يمكن الأخذ بها إلا عن طريق التسليم. فهي لا تقوم على أساس المنطق والإقناع»[١].

ويقول (البرت ماكودقب وتشنر) في كتابه (العلوم تدعم إيماني بالله). (وقد اشتغلت بدراسة علم الأحياء، وهو من الميادين العلمية الفسيحة التي تهتم بدراسة الحياة، وليس بين مخلوقات الله أروع من الأحياء التي تسكن هذا الكون). أنظر إلى برسيم ضئيل وقد نما على أحد جوانب الطريق، فهل تستطيع أن تجد له نظيراً في روعته بين جميع ما صنعه الإنسان من تلك الْعِدَد والآلات الرائعة؟ إنه آلة حية تقوم بصورة دائبة لا تنقطع آناء الليل وأطراف النهار، بآلاف من التفاعلات الكيماوية والطبيعية. ويتم كل ذلك تحت سيطرة البروتوبلازم وهو المادة التي تدخل في تركيب جميع الكائنات الحية، فمن أين جاءت هذه الآلة الحية المعقدة؟ إن الله لم يصنعها هكذا وحدها، ولكنه خلق الحياة وجعلها قادرة على صيانة نفسها وعلى الاستمرار من جيل إلى جيل مع الاحتفاظ بكل الخواص والمميزات التي تعيننا على التمييز بين نبات وآخر ـ إن دراسة التكاثر في الأحياء تعتبر أروع دراسات علم الأحياء وأكثرها إظهاراً لقدرة الله ـ إن الخلية التناسلية التي ينتج عنها النبات الجديد تبلغ من الصغر درجة كبرى بحيث يصعب مشاهدتها إلا باستخدام المجهر المكبر.

ومن العجيب أن كل صفة من صفات النبات، كل عرق، وكل شعيرة، وكل فرع على ساق، وكل جذر أو ورقة يتم تكوينها تحت إشراف مهندسين قد بلغوا من دقة الحجم مبلغاً كبيراً، فما استطاعوا العيش إلا داخل

(١) وقد أشار في مقاله من قبل إلى قول برتراند راسل بنشأة الحياة مصادفة وزوالها كذلك بجبرية آلية.

الخلية التي ينشأ منها النبات، تلك الفئة من المهندسين هي فئة الكروموسومات[١] (ناقلات الوراثة)[٢].

وبعد...

فإن الجامع لما قاله العلماء في علوم الأحياء والنبات والبيولوجيا هو قول الله الحكيم: ﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون ﴾ (الأنعام ٩٥).

(ذلكم الله) مبدع هذه المعجزة المتكررة المغيبة السر - هو الله - وهو ربكم الذي يستحق أن تدينوا له وحده بالعبودية والخضوع والاتباع[٣].

(فأنى تؤفكون) أي فكيف تصرفون عن هذا الحق الواضح للعقول والقلوب والعيون، إن معجزة انبثاق الحياة من الموات يجيء ذكرها كثيراً في القرآن الكريم. كما يجيء ذكر خلق الكون ابتداء في معرض التوجيه إلى حقيقة الألوهية وآثارها الدالة على وحدة الخالق لينتهي منها إلى ضرورة وحدة المعبود الذي يدين له العباد بالاعتقاد في ألوهيته وحده، والطاعة لربوبيته وحده. والتقدم إليه وحده بالشعائر التعبدية والتلقي منه وحده في منهج الحياة كله والدينونة لشريعته كذلك وحدها.

وهذه الدلالات لا تذكر في القرآن الكريم في صورة قضايا لاهوتية أو نظريات فلسفية.

إن هذا الدين أكثر جدية من أن ينفق طاقة البشر فيما يقصر العمر فيه عن الوصول إلى نتائجه، فأعطاهم العقيدة الصحيحة لينتهي بهم إلى تقدم حياة البشر الباطنة والظاهرة.

---

(١) هذا باذن الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وبقدر الله الذي تتم به كل حركة في الوجود كله.

(٢) من كتاب: الله يتجلى في عصر العلم/١٠٥، ١٠٦.

(٣) راجع كلمة (الرب) في كتاب المصطلحات الأربعة في القرآن لأبي الأعلى المودودي.

وذلك لا يكون أبداً إلا بردهم إلى عبادة الله وحده وإخراجهم من عبادة الطبيعة أو العباد، ولهذا كان التعقيب في الآية الكريمة بقوله عز وجل ﴿ ذلكم الله فأنى تؤفكون ﴾ ذلكم الله الذي يستحق الربوبية عليكم، والرب هو المربي والسيد والحاكم، ومن ثم يجب ألا يكون الرب إلا الله.

وفي هذه التأملات في كتاب الله الحكيم يجمل بنا أن نسترسل في هذه التأملات في الآيات الكونية، المبهرة للأنظار، والموقظة للقلوب، أن الله يقول بعد الآية الكريمة سالفة الذكر ﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾.

إن بين انفلاق الحبّ والنوى وانفلاق الإصباح وسكون الليل صلة أخرى، إن الإصباح والإمساء والحركة والسكون في هذا الكون ـ أو في هذه الأرض ـ ذات علاقة مباشرة بالنبات والحياة.

إن كون الأرض تدور دورتها هذه حول نفسها أمام الشمس، وكون القمر بهذا الحجم، وبهذا البعد من الأرض، وكون الشمس كذلك بهذا الحجم وهذا البعد، وهذه الدرجة من الحرارة: هي تقديرات من «العزيز ذي السلطان القادر: العليم»، ذي العلم الشامل، ولولا هذه التقديرات: ما انبعثت الحياة في الأرض على هذا النحو ولما انبثق النبت والشجر من الحب والنوى.

إنه كون مقدر بحساب دقيق، ومقدر فيه حساب الحياة، ودرجة هذه الحياة، ونوع هذه الحياة، كون لا مجال للمصادفة العابرة فيه.

وهذا الذي يسمونه المصادفة خاضع لقانون ومقدر بحساب.

والذين يقولون إن هذه الحياة فلتة عابرة في الكون، وأن الكون لا يحفلها، بل يبدو أنه يعاديها، وأن ضآلة الكوكب الذي قام عليه هذا النوع من الحياة توحي بهذا كله، بل يقول بعضهم: إن هذه الضآلة توحي بأنه لو

كان «إله» ما عنى نفسه بهذه الحياة إلى آخر ما يقولون من لغو يسمونه أحياناً «علماً» ويسمونه أحياناً أخرى «فلسفة»، وهو لغو لا يستأهل حتى مناقشته.

إن هؤلاء إنما يحكّمون أهواء مستقرة في نفوسهم، ولا يحكّمون حتى نتائج علمهم التي تفرض نفسها عليهم، وإذا قرأت كلامهم تجد كأنهم هاربون من مواجهة حقيقية قرروا سلفاً ألا يواجهوها:

إنهم هاربون من الله الذي تواجههم دلائل وجوده ووحدانيته وقدرته المطلقة في كل اتجاه، وكلما سلكوا طريقاً يهربون بها من مواجهة هذه الحقيقة وجدوا لله في نهايتها.

فعادوا في ذعر إلى طريق آخر ليواجهوا الله ـ سبحانه في نهايتها كذلك، إنهم يائسون، لقد فروا ذات يوم من الكنيسة وإلهها الذي تستذل به الرقاب، فروا (كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة) ثم ما زالوا في قرارهم التقليدي حتى أوائل هذا القرن، دون أن يلتفتوا وراءهم ليروا إن كانت (الكنيسة ما تزال تتابعهم أم انقطعت منها، كما انقطعت منهم الأنفاس).

إنها يائسون لأن نتائج علومهم ذاتها تواجههم اليوم أيضاً... فإلى أين الفرار؟؟.

يقول: «فرانك ألن» العالم الطبيعي الذي اقتطفنا فقرات من مقاله في الفقرة السابقة عن نشأة الحياة:

يقول: «إن ملاءمة الأرض للحياة تتخذ صوراً عديدة لا يمكن تفسيرها على أساس المصادفة أو العشوائية. فالأرض كرة معلقة في الفضاء تدور حول نفسها، فيكون في ذلك تتابع الليل والنهار، وهي تسبح حول الشمس مرة في كل عام، فيكون في ذلك تتابع الفصول الذي يؤدي بدوره إلى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكنى من سطح كوكب الأرض، وينمي من اختلاف الأنواع النباتية أكثر مما لو كانت ساكنة، ويحيط بالأرض غلاف غازي يشتمل على

الغازات اللازمة للحياة ويمتد حولها إلى ارتفاع كبير (يزيد على ٥٠٠ ميل).

ويبلغ هذا الغلاف الغازي من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة يومياً إلينا، منقضة بسرعة ثلاثين ميلاً في الثانية، والغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة، ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات، حيث يمكن أن يتكاثف مطر يحيي الأرض بعد موتها:

والمطر مصدر الماء العذب، ولولاه لأصبحت الأرض صحراء وجرداء خالية من كل أثر للحياة:

ومن هنا نرى أن الجو والمحيطات الموجودة على سطح الأرض تمثل عجلة التوازن في الطبيعة.

إن الأدلة (العلمية) تتكاثر في وجوههم وتتجمع لتعلن عجز المصادفة عجزاً كاملاً عن تعليل نشأة الحياة، بما يلزم لهذه النشأة ـ وللنمو والبقاء والتنوع بعدها ـ من موافقات لا تحصى في تصميم الكون: منها هذه الموافقات التي ذكرها العالم الطبيعي السابق، ووراءها من نوعها كثير.

فلا يبقى إلا تقدير العزيز العليم، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، والذي خلق كل شيء فقدره تقديراً:

وإننا في الحق نريد أن ننهي الكلام في هذا البحث، إلا أن آيات القرآن الكونية تشد القلب والوجدان إلى استكناه معانيها الداعية للجاحدين إلى الإيمان بالله الواحد، المذكرة للمؤمنين ليزدادوا على إيمانهم إيماناً.

فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾. (سورة الأنعام: ٩٦).

فإن القرآن الكريم يمتاز منهجه بمزية تبقى في مخاطبة الفطرة بالحقائق الكونية، ليس في صورة (نظرية) ولكن في صورة (واقعية)، صورة تتجلى: من ورائها يد المبدع، وتقديره، ورحمته، وتدبيره، صورة مؤثرة في العقل والقلب، موحية للبصيرة والوعي، دافعة إلى التدبر والتذكر، وإلى استخدام العلم والمعرفة للوصول إلى الحقيقة الكبرى المتناسقة، فكأن قوله عز وجل: تعقيباً على آية النجوم: أنه جعلها للناس ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، والاهتداء: إنما هو في الظلمات الحسية الواقعية، وفي ظلمات العقل، والضمير والبصيرة:

هذا ما قصدنا بحثه ووفق الله إليه وهو الذي يقول الحق وهو يهدي السبيل، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

مسلك العقل والنقل في إثبات وجوده تعالى

تقديم :-

هل تجب معرفة الله تعالى؟

قبل البدء في بيان الأدلة على وجوده تعالى نعرض سؤالاً قد يلح على الخاطر، وربما حارت بعض الأفهام في الاهتداء إلى جوابه، وإني أعرضه هنا مع جوابه مستعيناً بالله عز وجل.

والسؤال هو: هل تجب علينا معرفة الله تعالى؟ أم أن هذه المعرفة مبنية على اختيار العبد. . إن شاء عرف الله وإن شاء ألا يعرف مع استواء أمره في الحالين؟ . .

وقبل الإجابة عن هذا التساؤل نستطيع أن نقدم لذلك بمقدمات بدهية هي كما يلي:

١ ـ يشعر العبد بفطرته باحتياجه في الدنيا إلى قوة عليا يرى تأثيرها في الكون وسيطرتها عليه، كما يستشعر وجودها في داخل نفسه، هذه القوة هي مناط سرائه وضرائه.

﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين، بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون ﴾[١].

---

(١) الأنعام/ ٤٠، ٤١.

الله إلَهاً آخر لا إلَه إلا هو﴾[١] ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك﴾[٢].

فعلم من كل ما تقدم أن معرفة الله واجبة، وأن أصل الوجوب فيها هو أمر الشرع الحكيم، وصريح العقل السليم، (ومن نكث فإنما ينكث على نفسه)، ومن تول فإن الله هو الغني الحميد.

الأدلة على إثبات وجوده تعالى من العقل والنقل

لقد سلك العلماء في إثبات وجوده تعالى طريقين:

الأول : الاستدلال بالبراهين العقلية ذات المقدمات اليقينية المنتجة لليقين.

الثاني : الاستدلال بأدلة اقناعية شرعية سبيلها النظر في نفس الإنسان أو فيما حوله من ظواهر كونية، فيستنتج منها الدليل الذي يثبت بالضرورة وجود صانع لطيف خبير، ومدبر حكيم.
والقرآن الكريم قد أسهب كثيراً في عرضه للطريق الثاني لعموم نفعه، فهو صالح لتأمل العوام والخواص، فالعوام يأخذون دليل الصنعة من الظواهر المصنوعة.

أما الخواص فإنهم ينظرون بعين اليقين إلى ما وراء هذه الظواهر، مستنتجين منها المقدمات والبراهين اليقينية، وقد تضمن القرآن منها بعض القياسات وإن شاركوا العوام في النوع الآخر من الاستدلال.

---

(١) القصص/٨٨.

(٢) يونس/١٠٦.

١ ـ الأدلة العقلية

الدليل الأول: دلالة وجود الإنسان على خالق واجب الوجود

أنا لم أكن ثم كنت، وكل من لم يكن ثم كان فله موجد أوجده فأنا لي موجد أوجدني.

شرح الدليل: من المقطوع به يقيناً أني كنت في العدم قبل أن أوجد، ولا بد لإخراجي من حالة العدم إلى حالة الوجود من مرجح يرجح وجودي على عدمي وهو المراد من نتيجة الدليل المذكور التي هي (أنا لي موجد أوجدني).

لا جائز أن أكون قد أوجدت نفسي، وإلا لكنت على إيجاد غيري أقدر من إيجادي لنفسي لأن إيجاد الغير أهون عليّ من إيجادي لنفسي وأنا لم أستطع إيجاد غيري فأنا إذن أشد عجزاً عن إيجادي لنفسي.

ولا جائز أن يكون قد أوجدني آخر مثلي، لأنه حادث مثلي فيحتاج إلى من يحدثه، اتباعاً للقاعدة القائلة «ما جاز على أحد المثلين يجوز على الآخر» فيعجز عن مثل ما عجزت عنه.

إذن فليس الغير الذي أوجدني إلا واجب الوجود وهو الله سبحانه وتعالى. لأنه ليس في الوجود إلا ممكن الوجود، وهو كل ما عدا الله، وواجب الوجود، وهو الله سبحانه وتعالى، وليست الموجودات الممكنة موجودة بالطبع ـ أي بالطبيعة ـ لأن فعل الطبيعة يأتي على طريقة واحدة من غير تصنيف وتنويع وتفاوت للمخلوقات، حيث لا عقل لها تفعل به ذلك، وما دامت المشاهدة قاضية بأن الموجودات الممكنة مختلفة الأشكال، مصنفة الأنواع والفصائل في العالم العلوي والسفلي، فإن فاعلها وخالقها مختار في فعله عالم بخلقه، وليس هو إذن، (طبيعة ولا صدفة ولا غيرهما).

﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءلَهٌ مع الله قليلاً ما تذكرون ﴾(١).

فليس هناك من يلجأ الإنسان إليه ساعة الشدة والحرج إلا الجناب الأعلى ﴿ وإذا مسّكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾(٢).

٢ ـ يشعر العبد بفطرته أيضاً بالرجاء بعد موته وفي آخرته في أن يرد موارد السعادة والمنزلة الأسمى في دار الخلود مع رجاء الأمن من الشقاء والعذاب في دار الحساب والجزاء، تحقيقاً للعدل المطلق للقوة التي استشعر المرء هيمنتها وسيطرتها.

ولا عجب في ذلك، فقد حكى التاريخ أن بعض الأمم القديمة على فترة من الرسل ـ وإن أساءت التصور في الكيفية والوسيلة والغاية ـ أمثال قدماء المصريين وغيرهم، قد توصلت إلى قريب من هذا، وإن كان ذلك على سذاجة وبدائية لا على وفق شريعة الإسلام، والمهم أن هذا يدل على أن العقل والفطرة يمكن أن يستشعرا ذلك.

٣ ـ تأسيساً على الفقرتين السابقتين فإن الضرورة تقضي باحتياج العبد إلى أن يدين لتلك القوة بالخضوع والخشوع، وتقديم الطاعات والتقرب إليها بالصالحات الطيبات، ليستجلب نفعها ويستدفع ضرها وعذابها، فوجب إذن أن تتعرف النفس على ذلك المعبود، وفي هذا يتم الجواب عن التساؤل الوارد.

٤ ـ عندما تحس النفس وتطمئن إلى وجود من بيده ضرها ونفعها، ومن يعرف سرها ونجواها، فإنه يستحيل أن تتوجه في دينونتها بالطاعة والعبادة إلى مجهول مطلق، بل لا بد أن يكون المقصود بذلك معلوماً في ذاته وصفاته وكمالاته على وجه اليقين، هذا المعلوم المقصود بالطاعة هو الخالق

---

(١) النمل/٦٢.

(٢) الأسراء/٦٧.

الباريء المصور الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، والذي بيده الثواب والعقاب والمنع والعطاء.

﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله ﴾[١].

ومن هنا يبدأ طلب معرفته تعالى بالدليل اليقيني لإثبات وجوده إثباتاً واجباً لا يقبل الانتفاء أصلاً لذاته.

وإذن فمعرفة الله واجبة على كل إنسان بالغ عاقل، على أن تستتبع هذه المعرفة العلم بما يجب لله من كمالات وما يتنزه عنه من كل نقص على وجه الإجمال للعوام والتفصيل للخواص.

وهذا الوجوب ناشىء من جهة العقل بعجز الإنسان عن تحقيق نفع أو دفع ضر في حاله وماله، ومن جهة الشرع حيث أمرنا الله سبحانه بمعرفته بما دعانا إليه الكتاب المبين والذكر الحكيم.

وقد تقرر هذا الوجوب بأصرح عبارة حيث يقول الله تعالى: ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾[٢] أي يجب أن تعلم أيها الإنسان أن الله موجود، وأنه ليس هناك ما يعبد غيره، فلا إله إلا الله وحده لا شريك له.

والأمر للوجوب وهو ما أجمع عليه كافة العلماء. ومثله قوله تعالى: ﴿ وليعلموا أنما هو إله واحد ﴾[٣]. ﴿ فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو ﴾[٤]. ﴿ لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ﴾[٥] ﴿ ولا تدع مع

(١) المؤمنون/٨٨، ٨٩.
(٢) محمد/١٩.
(٣) إبراهيم/٦.
(٤) هود/١٤.
(٥) غافر/٦٥.

يقول الله تعالى في بيان المقدمة الأولى من الدليل ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾(١).

وفي بيان المقدمة الثانية قال سبحانه ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾(٢).

وفي بيان هذا الدليل إجمالاً يقول تعالى: ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾(٣).

الدليل الثاني: دليل الصنعة على وجود الصانع:

وكيفية الاستدلال بهذا الدليل: أنه بالنظر إلى العالم نجد أنه لا يخرج في تكوينه عن نوعين من الموجودات.

الأول : الجواهر، ومفردها الجوهر، وهو ما تألف منه ومن غيره الجسم.

والثاني : الأعراض، ومفردها الْعَرَضُ.

فالجوهر، هو ما قام بنفسه واحتاج إلى حيز يشغله.

والعرض، هو ما قام بغيره واحتاج إلى محل يقوم به - مثل: الكمية والكيفية والحركة والسكون، والوجود والعدم، والألوان والطعوم، والمكانية والزمانية، والبعد والامتداد، وكل ما يمكن أن يكون صفة للجوهر، أو للجسم مع التوسع في العبارة، هذا العالم المكون من الجواهر والأعراض يتغير ويتبدل من حال

(١) أول سورة الإنسان/١.
(٢) المؤمنون/١٢ - ١٤.
(٣) الطور/٣٥.

إلى حال، والمشاهدة تحكم بذلك.

فأما تغير الأعراض، فمنها ما نشاهد وجوده بعد العدم، كالحركة بعد السكون، والضوء بعد الظلمة، والعلم بعد الجهل، وهذا هو حدوث الأعراض، لأنه لا معنى للحدوث إلا الوجود بعد العدم.

ومن الأعراض ما يزول ويطرأ عليه ضده، كالطول بعد القصر، وكتفريق أجزاء الجسم بعد تأليفها وتركيبها، فيستدل على حدوث هذا النوع بقولنا:

لو كان قديماً ـ كما يزعم الزاعمون ـ لما جاز عدمه، لكنه جاز عليه العدم، بل وقع فعلاً بدليل المشاهدة، فثبت أنه غير قديم، لأنه قد علم أن القديم يمتنع عدمه لأن وجوده من ذاته، ولا يعدم إلا الممكن الذي وجوده معلول لغيره.

وكل ما طرأ عليه العدم فهو أثر لفاعل مختار، سواء النوع الذي شوهد وجوده بعد العدم أو الذي زال وطرأ ضده عليه.

وما دام هو أثر لفاعل مختار فبالضرورة أوجده من العدم، لأنه يستحيل أن يكون موجوداً ثم تتوجه الإرادة إلى إيجاده، لأن إيجاد الموجود تحصيل للحاصل، وهو محال.

وعليه فإن الأعراض كلها حادثة، لأن معنى الحدوث عند علماء العقيدة هو الوجود بعد العدم كما مر سابقاً.

هذا هو دليل حدوث الأعراض.

أما دليل حدوث الجواهر، فهو أن الجوهر لا يخلو من الحوادث مثل الحركة والسكون والاجتماع والافتراق، واحتياجه إلى حيزه الذي يحل فيه، وكل ما كان محتاجاً ولم يخل من الحوادث فهو حادث، لأنه لو كان قديماً

وبنينا فوقكم سبعاً شدادا وجعلنا سراجاً وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضبا[٢] وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلبا[٣] وفاكهة وأبا[٤] متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ (عبس وتولى ٢٤ ـ ٣٢).

وقوله عز وجل ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون، وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون، أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾[٥].

---

(١) عم يتساءلون/٦/١٦.
(٢) أي رطبا، يقال قضبه إذا قطعه لأنها تقضب مرة بعد أخرى.
(٣) جمع أغلب، وهو غليظ العنق، ومعناها بساتين ذات أشجار غليظة.
(٤) أي فاكهة ومرعى من (أب) إذا (أم) لأنه يؤم وينتجع.
(٥) النحل/٥ ـ ١٨.

وبالجملة فإن الله سبحانه قد بيّن في كتابه أن كل شيء في الأرض قد خلق من أجل الإنسان فقال سبحانه: ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾(١).

وقوله ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾(٢) إلى غير ذلك من آيات كثيرة دالة على العناية البادية في مخلوقاته، وحكمته وحسن تدبيره، مما يدفعنا إلى معرفة الله تبارك وتعالى من غير تعقيد أو تفكير عميق.

فهذا الدليل عقلي وشرعي معاً، إذ لكل منهما فيه مجال.

فالعقلي ـ إنما يكون لأرباب النظر والفكر، وربما يحفز العامة عن طريقه إلى الرغبة في المعرفة من الأدلة العقلية، إذ هي خاصة بالعلماء والمفكرين، ففي هذا الدليل استنباط المقدمات العقلية بانتقال الفكر من المحسوس إلى المعقول.

أما الشرعي فهو للعامة غير المعنيين بالتأمل والفكر، لأن آيات القرآن كثيرة في لفت الأنظار والبصائر إلى مضمونه، فهو يتجه إلى جميع المستويات العقلية العوام منها والخواص، بمعنى أن العلماء يدركون بحواسهم وعقولهم أنه لا بد من وجود صانع حكيم لما يرونه من آثار الصنعة، ويلمسونه من علامات الحكمة في الكون.

أما العوام فتكفيهم الأدلة القرآنية، لأن الواقع يشهد بصدقها، والفرق بين الإدراكين كالفرق بين رجلين يرى أحدهما الشيء فيسلم بأنه مصنوع فقط دون أن يدري كيف صنع ولا كيف يستخدم.

أما الآخر فيرى حقيقة الصنع وطرق الاستخدام، فيكون علمه أتم وأكمل.

---

(١) البقرة/٢٩.

(٢) الذاريات/٢٠.

إننا نشعر دائماً بحاجتنا إلى الظهير والمعين في الشدة والرخاء، ومن غير مقدمات نلجأ إلى القوة العليا، عندما تحيط بنا الأهوال المفزعات أن تكشف عنا الشدائد وتزيح الأخطار، وهذا شعور فطري يشعر به المؤمن والملحد على سواء، وهذه النزعة في الإنسان قد بيّنها القرآن الكريم في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾[١].

وهذا فرعون ذو الأوتاد الذي طغى وقومه في البلاد فأكثروا فيها الفساد، والذي بلغ من قوته وجبروته أن نادى في الناس أني أنا ربكم الأعلى، وأطاعه قومه، وطالما أقام له نبي الله موسى دلائل النبوة الحقة الفعلية والوجدانية فلم يرجع عن غيّه ولم يمتثل، ولكنه حين وقع في الأخطار وأحاط به الموج والموت من كل جانب، نادى بصوت العقل والوجدان الذي لم يستطع أن يكتمه فقال: ﴿آمنت أنه لا إلّه إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾[٢].

وبذلك نستطيع أن نقول هنا أيضاً: إن دليل الوجدان دليل شرعي وعقلي معاً بالإضافة إلى دليل العناية فالوجدان هو الموجّه لإرادة الإنسان والدافع لها نحو المعرفة بعد أن يرتب العقل مقدماته اليقينية، وإن الوجدان المتحرر من التقليد وتأثير البيئات والموروثات لمليء ومفعم بمعرفة الله عن يقين بدهي ثابت.

وهذا ما جعل ابن عطاء الله السكندري يهتف ببداهة المعرفة الإلّهية قائلاً:

«إلّهي.. كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون

---

(١) يونس/٢٤.

(٢) يونس/٩٠.

لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك»[١].

جـ ـ دَلِيلُ الكَمَالِ المُطْلَق

هذا الدليل في جوهره يدل على أن للكون خالقاً وأنه لا يجوز أن يكون ناقصاً ولو كان النقص نسبياً، فلا يصح أن يكون مثل أحد المخلوقات في نقصه أو أن يكون هو جملة المخلوقات كما يذهب الطبيعيون، أو يكون الخالق هو كل الوجود متمثلاً في موجوداته كما يذهب أصحاب مذاهب وحدة الوجود.

ونقتصر في هذا الدليل على ما ساقه فيلسوف النهضة الأوربية (رينيه ديكارت ١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) في المرحلة التي يبنى فيها الإيمان والمعرفة بالله على أساس قوي وثابت بعد أن رفض كل مبدأ أو كل عقيدة معروفة في إثبات وجود الله قد بنيت على الظواهر المادية المتغيرة، فشك في وجود كل متغير، ولكنه لم يشك في وجوده ككائن مفكر، فرأى أن وجدانه عامر دائماً بالفكر والتأمل في المعقولات، وهذا أمر ثابت في حياته الوجدانية غير مفارق، ولم يستطع أن ينكره أو يشك في وجوده، لذلك كان هذا أثبت دليل عنده في إثبات وجود الله تعالى فقال:

(أنا أشك إذن فأنا أفكر، وما دمت أفكر إذن فأنا موجود، وأنا موجود الآن بعد أن لم أكن..)

ثم أنطلق من هذه النقطة إلى الاستدلال على وجود الله، فذكر دليلين على إثبات وجوده كاملاً كمالاً مطلقاً فوق كل ما في الوجود من كمال، وإني

---

(١) الحكم لابن عطاء الله السكندري.

والحال أن الحوادث تقوم به، فإنه يلزم عليه قدم الحوادث تبعاً له، أو حدوثه تبعاً لها، وكون الشيء حادثاً قديماً في نفس الوقت محال في نظر العقل.

إذا تقرر حدوث الأعراض والجواهر، وعلمنا أن العالم يتكون منهما ولا شيء غيرهما. . . نستطيع أن نسوق الدليل العقلي على حدوث العالم فنقول:

العالم بجميع أجزائه ـ أي جواهره وأعراضه ـ حادث، وكل حادث لا بد له من محدث ـ فالعالم لا بد له من محدث، ثم نعود فنقول: إن محدث العالم لا يصح أن يكون حادثاً مثله، وإلا احتاج هو الآخر إلى من يحدثه، ومحدثه إلى من يحدثه، وهكذا حتى يتسلسل الأمر أو يدور والدور والتسلسل باطلان في نظر العقل كما مر.

إذن لم يبق إلا أن يكون محدث العالم قديماً لا أول لوجوده، ووجوده من مقتضى ذاته، وليس من غيره، أي هو واجب الوجود وهو الله تعالى.

يقول الله تعالى مبيّناً حدوث العالم علويه وسفليه بحدوث التغير في مادته وصورته ـ عرضه وجوهره ـ ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ﴾ وقال سبحانه: ﴿ وآيةٌ لهمُ الليلُ نسلخُ منه النهارَ فإذا هم مُظْلِمون، والشمسُ تجري لمستقرٍّ لها ذلكَ تَقديرُ العزيزِ العليم، والقمرَ قدرناهُ منازِلَ حتَّى عادَ كالعُرجُونِ القديم، لا الشمسُ ينبَغي لها أن تُدرِكَ القَمَرَ ولا الليلُ سابِقُ النهارِ وكلٌّ في فَلَك يَسْبَحون ﴾[1].

٢ ـ الأدلة الكونية

الدليل الكوني هو الذي أخذت مقدماته من كتاب الكون المفتوح المتمثل في العالم العلوي من سماء وكواكب وأفلاك وغيرها، وما لهذه

---

(١) ياسين/٣٣، ٣٧، ٤٠.

المخلوقات من خصائص أحكم وصفها، وترابطت غاياتها، وانسجمت عناصرها بحالة تفوق حد الوصف والتصور، كما تتمثل هذه المقدمات أيضاً في العالم السفلي ـ الأرض ـ وما فيه من حيوان ونبات وجماد، وبحار وغير ذلك، وما لكل من هذه الأشياء من خصائص أودعها إياها الخالق الأعظم المتعال.

وإننا نكتفي هنا من الأدلة الكونية بذكر دليل العناية، إذ فيه غناء لمستفيد.

أ ـ دليل العناية

إن النظر في طبيعة الكون وما يحتويه من ظواهر تجعلنا ندرك أن كثيراً من الأشياء والكائنات كأنما قصد بها منفعة الإنسان وخدمته، وذلك لأن هذه الكائنات أو هذه الأشياء تلائم حياته، ولكنه ليس من الممكن أن تكون هذه الملاءمة وليدة الصدفة والاتفاق.

ذلك، أن العلم الحديث قد أثبت أن هذا الخلق المحكم على حالة من الإبداع لا يمكن أن يصدر إلا عن علم وتدبير وحكمة، فإن وجود الليل والنهار، والشمس والقمر، والفصول الأربعة، والحيوان والنبات والماء والهواء... كل هذه توافق حياة الإنسان، وكأنما خلقت من أجله، وإن حواسنا تشهد بذلك.

ثم إن العناية والحكمة يظهران أيضاً بشكل واضح وملموس في جسم الإنسان، بل وفي جسم الحيوان والنبات أيضاً، فهذه بعض لمسات العقل فيما خلق الله من شيء.

وفي نفس الوقت يقرر القرآن الكريم وجهة هذه النظرية ويؤيدها بآياته، من ذلك قوله تعالى: ﴿ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا

ب - الدَّليـلُ الوجْـدَاني

هذا الدليل يأتي بتصور آخر لينتهي بالإنسان إلى معرفة الله عن طريق التأمل الوجداني، وهو حس الإنسان بنفسه من خلال مشاعره الداخلية.

وتعتبر المعرفة من هذا الطريق بديهية، لأن المعارف المكتسبة عن طريق الحس تكتسب صفة البداهة، وهذا طريق يغاير الطريقين السابقين، إذ النظر من خلال داخل الإنسان غير النظر من خلال ما حوله، وإن كانت النتائج والغايات واحدة في كلا المسلكين، وهي إثبات الوجود الأعلى له سبحانه وتعالى، فإنه لا شك أن الوجدان من العوامل الهادية إلى معرفة الله تعالى، بل إن العقائد الدينية لا تتكون في جملتها إلا نتيجة لاتجاه الوجدان والشعور النفسي الذي يغزو القلب من غير أن يعرف له سبب، وأن الطمأنينة القلبية والشعور بالرضا لا يكون إلا عند الإيمان بالله تعالى، لأن ذلك وليد الشعور النفسي باحتياج الإنسان إلى من أوجده، وليس هـو في الحقيقة الشعـور الخاضع والخاشع لمن هو أقوى منه، وشعور بالخوف من قوته التي تسخر الطبيعة من حوله، فتثير السحاب وتسبب الرعد والبرق وتنزل الصـواعق وتسير البحار فحسب، ولكنه خوف مشرب بتقديس وتعظيم واعجاب بتلك القوة الخفية، ويقين باستحقاقها للطاعة والعبادة.

والشعور بهذا شعور يملأ القلب والوجدان، ويدفع بإرادة الإنسان نحو التعلق بهذه القوة الخفية العظمى، ويجذبه ما فيها من عظمة وجلال.

ولتنمية هذا الشعور الوجداني، ولتحريك إرادة الإنسان نحو تحقيقه كان الترغيب والترهيب، والتبشير والتحذير، والمواعظ، من وسائل تربيـة النفس وإثارة الوجدان في الدعوة الإسلامية، ليزداد المؤمنون إيماناً، وليتوجه غيرالمؤمنين إلى الإيمان رغبة في الثواب من الله وما وعد به المؤمنين فتبتهج به النفس ويسر الفؤاد. والمعرفة في هذا الدليل ليست في حاجة إلى أدلة خارجة

عن داخل الإنسان لتبرهن له على وجود الله، بل الدليل ملازم للإنسان لأنه في الإنسان، فكما أن الإنسان ليس في حاجة إلى أدلة أخرى لتعرفه أنه موجود كإنسان، كذلك ليس هو في حاجة إلى مثل ذلك في معرفته ربه، لأن ذلك موجود عنده وحاضر في نفسه، يشهد به عقله وقلبه وغرائزه ووجداناته وكل ما فيه من قوى، ولعل هذا هو ما يعنيه الرسول - ﷺ - بقوله: «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

فمعرفة الرب لازمة بالضرورة لمعرفة النفس، وبعبارة أخرى: إن معرفة الرب سبحانه وتعالى تكون بعد الشعور بالنفس معرفة بديهية، لا ينتقل فيها الذهن من دال إلى مدلول.

وإنه لمن اليسير أن ندرك هذا المعنى في القرآن الكريم حين يوجهنا إلى النظر في نفوسنا لننتقل من ذلك إلى الإيمان بالله تعالى وذلك في قوله تعالى: ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾[١].

وأود أن أشير هنا بالإعجاب والتقدير بقول نقله بعض المحققين عن أحد رجال إيطاليا المعدودين في القرن التاسع عشر حين كان يتحدث عن الله فيقول:

(إن الله موجود ولست اليوم أحاول البرهنة على وجوده، فقد يستلزم ذلك كفراً وإلحاداً. والله موجود لأننا موجودون، وهو موجود فينا وفي شعور الإنسانية جمعاء وفي كل ما يحيط بنا من عوالم، وإننا لنشعر بذلك في كل الأوقات، في ساعات الضيق والشدة، كما نشعر به في حالات السرور والنعمة. . .)

وهكذا إذا ما خلا الإنسان بينه وبين نفسه فإن الجذب ينبعث من داخله ليربطه بأعظم قوة في الوجود وليصله بربه الذي لا تحصى نعمه عليه والذي بيده ملاك نفسه.

---

(١) الذاريات/٢١.

أكتفي بذكر أول الدليلين، قال ديكارت مسترسلاً في استدلاله:

(حيث إني موجود فمن الذي أوجدني؟ إنني لم أخلق نفسي بنفسي، وإلا لوهبت نفسي كل الكمالات التي تنقصني والتي أصبو إليها، فإن إيجاد الكمال أيسر من تحقيق الوجود، كذلك أنا لم يخلقني مخلوق ناقص مثلي وإلا لقامت نفس المشكلة، وهي أن ذلك المخلوق الناقص كان الأيسر له أن يكمل نفسه بدلاً من اعطاء غيره الوجود. فتقوم المشكلة بعينها ويقال: من الذي أوجد ذلك المخلوق الناقص؟ إذن لقد خلقني إلّه كامل الصفات، وبمقتضى كماله المطلق هو دائم الوجود، وإلا لأمكن أن يصور العقل أكمل منه..)[1].

وهكذا ينتهي ديكارت إلى الإيقان بوجود الكامل المطلق دون شك أو ريبة، لأن الفكرة عن الإلّه غزت قلبه وألقت في روعه أنه ما دام يفكر فهو موجود، وكل موجود محتاج إلى موجده، والموجد لا بد أن يكون كاملاً مطلقاً عن كل حد وعن كل قيد وهو الله سبحانه وتعالى.

وفي هذا الجانب يمنّ الله على الإنسان بخلقه له على أحسن ما يمكن من الكمال النسبي بين الأحياء في أحسن خلق وأتم بناء وأكمل تصوير، فنوه بخلق أصله من أنقى مادة طينية، فقال سبحانه: ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سُلالةٍ من طينٍ ﴾[2]. ثم بين خلقه في أكمل بناء وأعدل تناسق واتساق وتوازن بائتلاف أعضائه وأجزائه في أداء وظائفها على أحسن نظام، فقال عز وجل: ﴿ يا أيها الإنسانُ ما غرَّكَ بربِّكَ الكريمِ الذي خَلَقَكَ فسوَّاكَ فعدَلَكَ في أيِّ صورةٍ ما شاءَ ركَّبكَ ﴾[3] ﴿ لقد

---

(١) المنهج/رينيه يكارث

(٢) المؤمنون/١٢.

(٣) الانفطار/٦ ـ ٨.

خلقَنا الإنسانَ في أحسنِ تَقْويم ﴾(١) وأيضاً فإن الله أكمل تصويره في أبهى شكل وأبدع تركيب، فقال تعالى: ﴿هو الذي يُصَوِّرُكم في الأرحامِ كيفَ يَشاء﴾(٢) ﴿ وصَوَّرَكُمْ فأحسَنَ صُوَرَكُم ﴾(٣).

وفي تمام الخلق يقول الله تعالى: ﴿ إنا خلقْنَا الإنسانَ من نُطْفَةٍ أمْشاجٍ نبتَليهِ فجَعَلناهُ سميعاً بصيراً. إنّا هَدَيناه السَّبيلَ إمّا شاكِراً وأما كَفوراً ﴾(٤) ﴿ ألم نجعَلْ له عينَيْن ولِساناً وشَفَتَين وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْن ﴾(٥).

---

(١) التين/ ٤.
(٢) آل عمران/ ٦.
(٣) غافر/ ٦٤.
(٤) الإنسان/ ٢، ٣.
(٥) البلد/ ٨ ـ ١٠.



صِفَاتُ الله تعالى

تقديم :

بعد الفراغ من إثبات الوجود الأعلى لله سبحانه وتعالى.. لا بد من إثبات ما تتصف به ذاته العلية من الصفات، لأن وجود موجود غير موصوف بما يميز حقيقة وجوده يصيره إلى مجهول لا يستطاع تصور ذاته، أما تصوره بالصفات التي بيّنها لنا فإنه يتيح لنا التعرف على موجبات الألوهية من خلق وهيمنة وتدبير ونحو ذلك.. فتلك أفعال لا يمكن الحكم باقتضاء ذات الله تعالى لها إلا إذا تصورناه سبحانه بصفاته، إذ الحكم على الشيء فرع عن تصوره كما يقول الحكماء.

والذي يتناسب مع ذات الله تعالى من الصفات هو كل ما يُبْلَغُ به الكمالُ الأعلى، والكمال الأعلى هو فوق كل ما نتصوره من كمالات، فكمالاته تعالى لا تتناهى، ولا يحيط بها عقل المخلوق، لأن هذا العقل من صنعة الخالق، والمصنوع لا يحيط علماً بصانعه، ولكن الله بفضله جلى لنا من الصفات ما نستطيع به تصوره، وإن كان الواجب علينا أن نعتقد اتصافه بكل كمال، وتنزيهه عن كل نقص لا يليق بذاته تعالى.

فمن الصفات ما مفهومه تنزيه ذات الله تعالى عن نقائص لا تليق به، فاتصافه سبحانه بالوحدانية هو تنزيه له عن نقيضها، وهو الشرك في الألوهية، واتصافه بالقدم تنزيه له عن نقيضه وهو الحدوث، واتصافه بالبقاء تنزيه له عن نقيضه وهو الفناء، واتصافه بالمخالفة للحوادث تنزيه له عن

مشابهته للحوادث، وتسمى هذه الصفات بالصفات التنزيهية لله تعالى.

وقد أخبر الله تعالى عن اتصافه بهذه الصفات بقوله عزوجل ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

وهكذا نجد أن الله سبحانه الواجب الوجود قد أعطى كمال الخلق ومقومات الوجود للإنسان الناقص المحتاج إلى من يكمله بعد ما يهبه الوجود وهكذا من الأدلة القوية على أن للإنسان خالقاً غير مخلوق.

ومن الصفات التي وصف الله بها نفسه في كتابه العظيم أو على لسان رسوله الكريم صفات يثبت بها الكمال المطلق له تعالى، وتسمى صفات الكمال، ككونه تعالى: عالماً، قادراً، مريداً، متكلماً، حياً، سميعاً بصيراً.

وسنتكلم بشيء من الإيجاز عن هذين النوعين من صفات الله تعالى.

١ ـ صفات التنزيه

﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ (الشورى/١١).

أ ـ الوحدانية:

الله ـ سبحانه وتعالى ـ واحد، والوحدانية معناها: الوحدانية البسيطة، أي التي ليس فيها تركيب ولا تجزؤ.

والوحدانية في جانب الله تعالى، لا تعطي في معناها إلا التوحيد الخالص الذي يشمل توحيد الذات، وتوحيد الصفات، وتوحيد الأفعال.

ـ أما وحدانية الذات:

فإنها تعني نفي الشريك عن الله تعالى، وانفراده سبحانه وتعالى بالألوهية، ومن الأدلة على وحدانية الله تعالى:

أولاً: لو وجد إلهان متصفان بجميع صفات الألوهية وأرادا إيجاد

العالم.. فإما أن يتفقا أو يختلفا..

فإن اتفقا، فإما أن يوجداه معاً بأن يوجده كل منهما جميعه بالاستقلال فيلزم وقوع أثر واحد بمؤثرين، وهذا محال، لأنه يلزم عليه أن يكون الأثر الواحد (العالم) أثرين وهو محال.

وإما أن يوجداه متعاونين كما يتعاون صانعان على صناعة ثوب واحد، وهذا أيضاً باطل، لأن الشريك لا يقبل من يشاركه في مكرمة إلا لعلة العجز والاحتياج، والاحتياج والعجز نقص لا يليق بالإله.

وإما أن يوجداه مرتباً، بأن يوجده أحدهما ثم يوجده الآخر، وهذا يلزم عليه تحصيل الحاصل وهو محال.

وإما أن يوجد أحدهما بعض العالم والآخر البعض الثاني، وهذا أيضاً باطل، لأنه يقال: لماذا قصرت همة كل منهما عن التصرف فيما تصرف فيه الآخر؟ ولأنه كما قلنا لا يقبل أي كائن مشاركة أحد في مكرمة إلا لعلة العجز والاحتياج، والاحتياج والعجز لا يليق بالإله كما مر.

هذه هي احتمالات الإتفاق.

أما إذا اختلفا: فإنه يمكن أن يحصل التمانع بينهما، وذلك كأن يريد أحدهما وجود العالم، والآخر يريد إعدامه، أو يريد أحدهما حركة جسم ويريد الآخر سكونه.

ولو أمكن التمانع للزم أحد أمرين يمتنع حصولهما:

إما اجتماع الضدين أو المتناقضين إن نفذ مرادهما.

وإما عجز أحد الإلهين إن نفذ مراد الآخر، وعجز أحدهما يؤدي إلى عجز الآخر، لأن المفروض أنهما متماثلان في جميع خصائص الألوهية وصفاتها، ومن المعلوم بداهة أن ما جاز على أحد المثلين يجوز على الآخر،

وعجزهما يؤدي إلى عدم وجود شيء من العالم، وهذا باطل بالمشاهدة لأن العالم موجود فعلاً، فبطل إذن تعدد الإله، وثبت أنه واحد في ذاته سبحانه وتعالى.

وهذا هو ما قرره القرآن الكريم في سورة (الأنبياء) من قوله تعالى: ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾[1] أي لو كان في السموات والأرض أكثر من إله للزم أن يفسد وجودهما فلا يوجدان.

وقوله تعالى في سورة (المؤمنون) ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾[2].

وهذا الدليل باحتمالاته وتشقيقاته كما يثبت الأحدية في الذات يثبت كذلك الأحدية في الأفعال.

ذلك أنه لو جاز أن يكون لغيره فعل يشبه فعله كالخلق والأحياء والإماتة مثلاً، لكانت ذاته مثل ذاته، ويلزم عليه إن اتفقا مبطلات الاتفاق وإن اختلفا مبطلات الاختلاف، سبحانه وتعالى: ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون ﴾[3].

ـ أما وحدانيته تعالى في صفاته فلها معنيان:

الأول: أنه ـ تعالى ـ ليس لغيره صفة تشبه صفته تعالى، والدليل على

---

(١) الأنبياء/٢٢.

(٢) المؤمنون/٩١.

(٣) الأنبياء/٢٣.

ذلك: أن الصفة تتبع الموصوف في مرتبة وجوده.. ولما كان الله تعالى واجب الوجود، والمخلوقات ممكنة الوجود، فلا يمكن أن تتماثل صفاتهما، لاختلاف مرتبة الوجود بينهما، إذ لا يعقل أن صفة الوجود أو القدرة لله تعالى واجب الوجود، مثل صفة الوجود أو القدرة للمخلوق الممكن الوجود، لأن وجود الله تعالى هو وجود ذاتي، أما وجود المخلوق فإنه مستمد من وجود الله تعالى.

المعنى الثاني لوحدانيته في صفاته: إنه ليس له صفتان أو أكثر من نوع واحد كقدرتين وعلمين مثلاً ونقول: لو كانت له صفتان من نوع واحد.. فإما أن تكون من صفات التأثير أو صفات الكمال، فإن كانت الصفة المتعددة من صفات التأثير كالقدرة مثلاً، فالتعدد باطل، لأن الصفة الواحدة إن كانت كافية في التأثير كان وجود الثانية عبثاً.

وإن كانت غير كافية بل محتاجة لأخرى من نوعها كانت كل منهما ناقصة، وكون صفة الباري ـ تعالى ـ ناقصة محال، لأن ذلك يقتضي نقصه وهذا باطل، لأنه كامل، فصفاته كاملة.

وإن كانت الصفة المتعددة من صفات الكمال، فالأمر لا يخلو، إما أن يكون الكمال بها عين الكمال الحاصل بالأخرى أو غيره.

فإن كان غيره فلا تعدد، بل هما صفتان مختلفتان، وإن كان عينه كان وجودهما عبثاً لا فائدة فيه وهو محال.

وبهذا تم الاستدلال على وجوب الوحدانية لله تعالى في الذات والصفات والأفعال.

ب ـ القدم:

تبين مما سبق أن خالق العالم واجب الوجود لذاته، وأنه مستغنٍ في وجوده عن الغير استغناء تاماً، وإذن فهو لم يسبق بعدم، فيجب أن يكون قديماً.

والقدم هو عدم أولية الوجود، ومعنى كونه تعالى قديماً، أنه لا أول لوجوده، وعليه فيكون وجوب الوجود الذاتي والقدم متلازمين، قال تعالى ﴿ هو الأول ﴾[1] وفي المأثور (هو الأول فلا شيء قبله).

والقديم بهذا المعنى يرادفه (الأزلي) فهما بمعنى واحد، والقدم يكون لصفاته تعالى كما هو لذاته، فصفاته قديمة قائمة بذاته، وهذا هو مذهب أهل السنّة والجماعة.

هذا، ويمكن أن نستدل على ثبوت القدم له تعالى بقولنا: لو لم يكن قديماً لكان حادثاً، ولو كان حادثاً لافتقر إلى محدث، والافتقار ـ وهو الاحتياج ـ يتنافى مع كونه واجب الوجود، وإذن فيجب له القدم.

جـ ـ البقاء:

البقاء معناه استمرار الوجود إلى ما لا نهاية، أي أنه تعالى ليس لوجوده آخر، فهو عبارة عن عدم العدم اللاحق للوجود، والبقاء والأبد مترادفان، فالأبد في اللغة ـ معناه «الدائم»، فالأبدية صفة من صفات الله تعالى، إذ أنه سبحانه وتعالى لو لم يكن متصفاً بالبقاء ـ أعني الأبدية ـ لجاز عليه العدم، ولو جاز عليه العدم لما كان واجباً، بل ممكناً ـ جائز الوجود ـ وهذا محال في حقه تعالى، فمتى وجبت له صفة البقاء استحال عليه الفناء، والله سبحانه يقول: ﴿ هو الأول والآخر ﴾[2] وفي المأثور (هو الآخر فلا شيء بعده) وقال جل شأنه ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾[3].

د ـ المخالفة للحوادث:

الخالق سبحانه لا تماثل ذاته ذاتاً أخرى، لأن حقيقته تخالف سائر

---

(١) الحديد/٣.
(٢) الحديد/٣.
(٣) الرحمن/٢٧.

الحقائق. فإنه لو ما ثلث ذاته ذاتاً أخرى من الحوادث لصارت ذاته التي هي واجبة الوجود ممكنة الوجود، والمفروض أنها واجبة الوجود، أو صار ممكن الوجود واجب الوجوب، والمفروض ـ أنه ممكن الوجود، لأن وجوب الوجود من خصائص الله الخالق، والإمكان ـ جواز الوجود ـ من خصائص المخلوق، فلو ما ثلث ذات واجب الوجود أي ذات من الممكنات لكانت حقيقتهما واحدة، وهذا يؤدي إلى كون الواجب ممكناً، والممكن واجباً ما داما قد تماثلا، ويلزم على هذا اجتماع النقيضين، لأن وجوب الوجود يعني عدم الاحتياج، أما إمكان الوجود فيعني الاحتياج إلى الغير، فإذا كان الواجب ممكناً كان غير محتاج ومحتاج في آن واحد، وكذلك الشأن، إذا كان الممكن واجباً، وهذا محال باطل.

وإذا ثبت أن حقيقة الخالق تعالى مخالفة ومباينة لجميع الحقائق كما هو ثابت بالدليل، فيلزم ألّا يكون جوهراً ولا جسماً ولا عرضاً، لأنه لو كان مماثلاً لإحداها لم تكن حقيقته مخالفة لجميع الحقائق المحدثة.

والخلاصة في ذلك: أنه لو جاز عليه تعالى ما يجوز على المخلوقات لجاز عليه ما يجوز عليها من الحدوث والفناء وغير ذلك، ولكنه قد سبق ثبوت قدمه، فاستحال حدوثه، وصدق الله إذ يقول: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

وما يوجد من تشابه بين صفات الخالق والمخلوق مثل العلم والحياة والسمع والبصر وغير ذلك، فإنما هو تشابه في الاسم فقط مع ملاحظة الفوارق الأخرى، لكون هذه الصفات ذاتية بالنسبة لله تعالى، وهي مفتقرة إلى موجد يوجدها في المخلوق، وكونها غير محدودة بالنسبة لذات الله تعالى، ومحدودة بالنسبة للمخلوق.

هـ ـ قيامه تعالى بنفسه

قيام الله تعالى بنفسه معناه: عدم الاحتياج لما عداه، فهو سبحانه لا يحتاج إلى محل يقوم به كما تقوم الأعراض بالأجسام، ولا يحتاج إلى أجزاء يتركب منها وتقوم الذات بها، بل ويتنزه عن الاحتياج أيا كانت صوره وتصوراته، فهو الغني المطلق عن كل ما سواه ومحتاج إليه كل ما عداه، لأنه لو كان محتاجاً لكان حادثاً، وهو محال، كما تقدم أكثر من مرة، ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ والقرآن الكريم يقول ﴿ الله الصمد ﴾ أي المستغني بذاته استغناءً تاماً عن كل ما عداه.

٢ ـ صفات الكمال الأعلى

لقد أثبت الله لنفسه صفات الكمال بقوله سبحانه ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ (الأعراف/ ١٨٠).

لقد أثبت الشرع الحكيم لله تسعاً وتسعين اسماً ـ هي أسماؤه الحسنى ـ تدل على صفات قديمة قائمة بذاته تعالى مثل: عالم، قادر، ومريد، ومتكلم، وغيرها، وهذه الصفات تمثل المثل الأعلى، أو الكمال المطلق الذي وصف الله سبحانه وتعالى به نفسه.

قال شارح العقيدة الطحاوية: «وقد وصف الله تعالى نفسه بأن له المثل الأعلى فقال تعالى: ﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿ وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[٢] فجعل سبحانه مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال لأعدائه المشركين وأوثانهم، وأخبر أن المثل الأعلى المتضمن لإثبات الكمال كله لله وحده، فمن سلب صفات الكمال عن الله تعالى، فقد جعل

---

(١) النحل/ ٦٠.
(٢) الروم/ ٢٧.

له مثل السوء، ونفى عنه ما وصف به نفسه من المثل الأعلى، وهو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل، كان بها أكمل وأعلى من غيره ـ ولما كانت صفات الرب سبحانه وتعالى أكثر وأكمل كان له المثل الأعلى، وكان أحق به من كل ما سواه، بل يستحيل أن يشترك اثنان في المثل الأعلى المطلق. . . »(١).

هذا وسنتكلم فيما يلي عن بعض الصفات التي تدل عليها بعض أسماء الله الحسنى، والتي تثبت الكمال الأعلى لله سبحانه وتعالى.

أ ـ العلم:

١) تعريفه:

العلم صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ينكشف بها المعلوم كله واجباً كان أو ممكناً، أو مستحيلاً، ويستحيل على الله تعالى ضده وهو الجهل، لأنه نقص لا يليق بذاته عز وجل.

وعلم الله تعالى بجميع الأشياء ـ ما ظهر منها وما بطن ـ متساوٍ بلا تفاوت، لأن تخصيص علم الله تعالى بالبعض دون البعض لا بد له من مخصص وهو محال، لأن ذلك يعني أن الله تعالى يحتاج إلى مخصص يخصص به دائرة عمله، وذلك محال، لاستغناء الله تعالى عن غيره كما تقدم.

٢) إثبات صفة العلم له تعالى:

لقد ثبتت صفة العلم لله تعالى بالعقل والنقل.

أما العقل: فلأن الله تعالى خلق الأشياء مرتبة أحسن ترتيب، متقنة أحسن اتقان، وكل فاعل متقن لفعله ومحكم له يكون عالماً، فالله تعالى عالم.

أما كون الأشياء مرتبة ومتقنة أحسن إتقان فظاهر لمن تأمل في خلق السموات والأرض وما بينهما، فإنه يرى أن بعضها صنع من أجل بعض،

---

(١) شرح الطحاوية ص ٦٤.

وأنها موافقة كلها للمنفعة المقصودة من ذلك الصنع، مما يدل على أن ذلك قد صدر عن عالم، فالإنسان إذا نظر إلى البيت فأدرك أن الأساس إنما صنع من أجل الحائط، وأن الحائط صنع من أجل السقف، تبين له أن البيت إنما وجد عن عالم بصناعة البناء.

فإذا كان البيت البسيط يدل على علم صانعه، فما بالك ببيت السماء سقفه والكواكب ثرياته؟ ألا يكون ذلك دليلاً على علم صانعه وحكمته؟ ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون ﴾[١].

قد يقول قائل: إن دليلكم العقلي هذا غير صحيح في كل أحواله، فقد يتخلف في بعض مواده، فإننا نشاهد النحل والعنكبوت تبني بيوتها بإتقان يفوق إتقان الإنسان العاقل، مع أنها لا تتصف بالعلم، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن دقة الصنع لا تدل على لزوم العلم إذ قد يصدر العمل الدقيق عن غير عالم.

ولكننا نقول إن هذا الاعتراض مدفوع وباطل، لأن النحل والعنكبوت وغيرهما قد وهبه الله من العلم ما يفي بهذا الصنع، وهو بهذا القدر قد فطر على عمله بدون تكلف أو عناء، وهي مخلوقات قد سخرت لأداء وظائف خاصة بأصل خلقتها، بل إن خلق هذه الحيوانات هو صنع محكم، وإيجاد العلم والإلهام بها أحكم من إيجاد تلك الأفعال بواسطتها.

وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾[٢].

---

(١) النمل/٨٨.

(٢) النحل/٦٨/٦٩.

تأمل قوله تعالى: ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾[١].

وأما النقل: فقد ذكر علم الله تعالى في آيات كثيرة في القرآن الكريم نذكر منها قوله تعالى: ﴿ ألا يَعلَمُ من خَلَق وهو اللّطيفُ الخَبير ﴾[٢] وقوله: ﴿ وعندَه مفاتِحُ الغيبِ لا يعلمُها إلا هو، ويعلمُ ما في البرِّ والبَحْر وما تسقُطُ من وَرَقةٍ إلا يعلمُها ولا حَبَّة في ظُلُماتِ الأرضِ ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلا في كتابٍ مبين ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿ يعلمُ ما يَلِجُ في الأرضِ وما يخرجُ منها وما ينزِل من السماء وما يَعْرُج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾[٤] وقوله: ﴿ ألم يعلموا أن الله يعلمُ سرَّهم ونجْواهم وأن الله علامُ الغيوب ﴾[٥].

٣) ما يتعلق به علمه تعالى:

إن علم الله يتعلق بالمعلومات تعلقاً قديماً منجزاً في الأزل يكون به انكشاف ما وجب وما جاز وما استحال، فالله يعلم في الأزل، الممكن لذاته قبل حدوثه ووقت حدوثه وبعد حدوثه، ويعلم الممكن الذي لم يحدث، وليس هناك بالنسبة لعلمه تعالى بالممكن تغير في ذاته ولا في صفة العلم، لأنه تعالى يعلم أن الممكن متصف بصفات متغيرة، فهو متصف في الأزل بأنه سيوجد ومتصف فيما لا يزال بأنه في وقت معين سيوجد، والله سبحانه ليس بساهٍ ولا غافل.

---

(١) البقرة/١٦٤.
(٢) الملك/١٤.
(٣) الأنعام/٥٩.
(٤) الحديد/٤.
(٥) التوبة/٧٨.

ب ـ الإرادة:

١) تعريف الإرادة:

من أسماء الله تعالى «المريد» وهذا الاسم يدل على اتصاف الله تعالى بالإرادة منذ الأزل ويمكننا أن نعرّف الإرادة بقولنا:

الإرادة: صفة أزلية قائمة بذاته تعالى يخصص بها الممكن ببعض ما يجوز عليه من وجود أو عدم وزمان ومكان وجهة وصفة ومقدار.

لقد تقدم معنا أن الممكن ما استوى بالنسبة إلى ذاته الوجودِ والعدم، والموت والحياة، والسكون والحركة، وسائر الصفات الممكنة.

كما أن حصول أي شيء من ذلك له في أي وقت من الأوقات بالنسبة إلى ذات الله سواء، فلا امتياز لوقت على وقت في حصول شيء من الأشياء المتقابلة فيه، وإذا كان كذلك فلا بد من مرجح ـ أي مخصص ـ يرجح فيه صفة على أخرى، كترجيح الوجود على العدم مثلاً، وبغير هذا المرجح يلزم الترجيح بلا ترجح، إن ذلك المرجح الذي يرجح صفة على أخرى هو (الإرادة).

٢) ما تتعلق به الإرادة:

مما تقدم يظهر لنا أن الإرادة تتعلق بجائز الوجود، ولا تتعلق بمستحيل الوجود، لأن وظيفتها: تخصيص الممكن ببعض ما يجوز عليه، كما جاء في التعريف، قال تعالى: ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾. (ياسين/٨٢).

٣) فإن قيل:

ألا يغني العلم عن الإرادة؟

قلنا: لا، لأن العلم يتعلق بالشيء على أنه سيقع، أو أنه لن يقع، ولخروجه من العلم بالوقوع إلى الوقوع بالفعل لا بد من توجه الإرادة

لتخصص هذا الوجود على صفات معينة، ثم تكون القدرة لتبرزه إلى الوجود الفعلي.

الدليل النقلي على وجوب صفة الإرادة له تعالى:

لقد ورد في القرآن الكريم الكثير من آياته الدالة على أنه تعالى مريد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾[١] وقوله ﴿ إن الله يفعل ما يريد ﴾[٢] وقوله ﴿ فعال لما يريد ﴾[٣] فكل هذه الآيات وغيرها تدل على ثبوت صفة الإرادة له تعالى.

جـ - القدرة

١) من أسماء الله تعالى «القادر» وهذا الاسم يدل على اتصاف الله تعالى بالقدرة المطلقة منذ الأزل ويستحيل عليه سبحانه ضدها وهو العجز، لأن العجز نقص يتنزه الله تعالى عنه.

٢) **ما تتعلق به قدرة الله تعالى**: تتعلق قدرة الله تعالى بجائز الوجود، ولا تتعلق بمستحيل الوجود، فإذا ما أراد الله شيئاً من الجائزات توجهت قدرته تعالى لإيجاده فيوجد على وفق ما أراده الله تعالى، دون أن يكون هناك سهل وصعب بالنسبة إليه تعالى، لأن السهولة والصعوبة مقاييس بشرية يتنزه الله سبحانه عنها قال تعالى: ﴿ يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير ﴾[٤] وقال ﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان علياً قديراً ﴾[٥].

---

(١) هود/١٠٧.
(٢) الحج/١٤.
(٣) البروج/١٦.
(٤) المائدة/١٧.
(٥) فاطر/٤٤.

د ـ الكلام

إتفق العقلاء على أنه تعالى متكلم، فإنه قد تواتر عن الأنبياء قولهم: أمر الله بكذا، وأخبر بكذا، ونهى عن كذا، وكل هذا كلام فثبت أنه تعالى متكلم.

وقد أيد الله الأنبياء في هذه الدعوى بالمعجزة، من حيث إنها أمر خارق للعادة متحدي به، وهذه الصفة هي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى تتعلق بالواجب والممكن والمستحيل، فإن كلامه سبحانه يدل على كل ما هو واجب وجائز ومستحيل، وقد جاء القرآن الكريم بالآيات الدالة على كونه تعالى متكلماً منها قوله تعالى: ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي باذنه ما يشاء ﴾[٢] وقوله عز وجل: ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وإيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾[٣].

هـ ـ السمع والبصر والحياة

لقد جاء في الكتاب الكريم أن الله تعالى سميع بصير، فقال تعالى: ﴿ ليس كمثلِه شيءُ وهو السميعُ البصير ﴾ وقال ﴿ إنه هو السميعُ البَصير ﴾.

كما انعقد إجماع أهل الأديان على ذلك بحيث لا يمكن إنكاره ولا تأويله، فوجب أن الله تعالى سميع بصير، ولأن إطلاق الأسمية يوجب أن يكون متصفاً بها، وهو السمع والبصر كما تقدم، وهذا هو المعوّل عليه في إثبات هاتين الصفتين.

---

(١) النساء/١٦٤.

(٢) الشورى/٥١.

(٣) آل عمران/٧٧.

وقد استدل الإمام الغزالي عليهما عقلاً بقوله: إن المتصف بهما أكمل من العاري عنهما، فلو لم يتصف بهما الواجب الوجود سبحانه لكان المتصف بهما من الحيوان والإنسان أكمل منه، وهذا باطل قطعاً، وهما صفتان قائمتان بالذات تنكشف بهما المسموعات والمبصرات، وهما غير العلم، كما يجب الإيمان بأن هذا الانكشاف ليس بآلة ولا جارحة ولا باصرة، لأن ذلك من صفات الحوادث، والله منزه عن الاتصاف بصفات الحوادث.

وسمعه وبصره قديمان، كما أن لكل منهما تعلقاً بالمسموع الحادث والمبصر فلا تتعلقان بالمعدومات، هذا ما عليه أهل السنّة.

أما صفة الحياة: فلا نزاع بين العقلاء في ثبوتها لمن قامت به صفة الوجود والعلم والقدرة، ولا تعلق لها إلا بذاته، فحياته تعالى تابعة لذاته المخالفة للحوادث، فخالفت أيضاً حياته حياة الحوادث، لأن الحياة في الممكن صفة طبيعية هي منشأ الحس والحركة بخلافها في ذات الباري عز وجل. وأيضاً فحياة الحوادث قابلة للفناء بخلافها في ذات الباري سبحانه.

وهذه الصفات ثابتة بالشرع في كثير من آيات القرآن، فقد تقدم ذكر آيات دالة على إثبات السمع والبصر، أما في الدلالة على صفة الحياة فمثل قوله تعالى: ﴿ هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ﴾[١] وقوله: ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾[٢].

فاتفق العقل والنقل على أنه تعالى متصف بهذه الصفات.

---

(١) غافر/٦٥.

(٢) البقرة/٢٥٥.



القضاء والقدر

تقديم:

إن الكلام في القضاء والقدر وما يتعلق به من وضع الإنسان بين الجبر والاختيار، من المسائل التي اختلفت فيها أنظار المحققين من علماء العقيدة، واضطربت فيها أدلتهم، ولا شك أنهم لا يريدون فيما قصدوا إليه من تحقيقات في هذه المسألة إلا تنزيه الإله ـ سبحانه وتعالى ـ وأفعاله، وتمحيص الدين من شوائب الشبه، والسمو به عن معارضة أدلته وتناقضها، ولم تكن المباراة بين العلماء إلا لأجل الوصول إلى هذه الغاية السامية.

هذا، وإن مسألة صدور الفعل الاختياري من العبد متشعبة الجذور في جوانب الإنسان، فمن حيث ما يودعه الله في الإنسان من الاستعدادات الفطرية، الفكرية والحركية في رحم أمه فإنها تتوقف على ما يأتي:

١ ـ صحة التكوين الجسدي وسلامته.
٢ ـ صحة مراكز التأثير العصبي والحسي.
٣ ـ سلامة الأعضاء والآلات التي يمكن أن يتم بها تحصيل الفعل مستقبلاً.

أما بعد الولادة فإن الفعل يرتبط بالملابسات الآتية:

١ ـ السلامة من العلل والآفات.
٢ ـ مدى تأثير البيئة الدينية والاجتماعية والثقافية.
٣ ـ مدى القدرة على التصرف الملائم أمام الأحداث. وهو مبني على الاستعداد الفطري أيضاً. فهذه ينابيع الفعل والأسس الكلية للاختيار.

ولهذا ينبغي الحذر عند الحديث عن القدر، لأن المرء ربما يعالج مسألة ما من جهة فتغلب عليه الجهة الأخرى بسبب عدم ملاحظة أي من الملابسات السابقة.

وإذن فيجب مراعاة هذه الملابسات جميعها عند التعليل لفعل ما حتى لا يقع في الجبر وهو يعالج الاختيار، أو يقع في الاختيار وهو يعالج مسألة الجبر.

ومن هنا كان خطأ المعالجين لهذا الموضوع الحساس من الإسلام.

والدين الإسلامي دين العقل والتفكير ولا تتعارض مع العقل قضاياه. ولذلك فإننا نخوض غمار هذه المسألة على ما فيها من معضلات نعرض فيها وجهات نظر العلماء في إيجاد فعل العبد ومسؤوليته عنه، مبيناً ما قد أراه صواباً والله المستعان.

١ ـ معنى القضاء والقدر

إن القرآن الكريم هو المصدر والأساس في تعرفنا على معنى القضاء والقدر، وما علينا إلا أن نرجع إلى قوانين اللغة وأساليبها في التعبير لفهم هاتين الكلمتين.

أ ـ القضاء في اللغة:

القضاء في اللغة هو: إتمام الشيء قولاً أو فعلاً، وهذا يشمل الأمر والإعلام والتبيين والخلق. وقد وردت مادة القضاء في القرآن مستعملة في المعاني المذكورة لغة.

فمثال الأول قوله تعالى: ﴿ وقضَى ربُّك ألا تَعبُدوا إلا إيّاه وبالوالدين إحْساناً ﴾[1] فإن معناه: حكم وأمر وحتم، وهذا هو إتمام الشيء قولاً.

---

(١) الاسراء/ ٢٣.

ومنه قوله تعالى: ﴿ فلا وربِّكَ لا يُؤمنون حتّى يُحكّموكَ فيما شجَرَ بينهم ثم لا يَجدوا في أنفُسِهم حَرَجاً مما قَضَيتَ ويُسلموا تسليماً ﴾[١] أي مما حكمت وأمرت.

ومثال الإعلام والتبيين قوله تعالى: ﴿ وقضينـا إلى بني إسرائيـل في الكتـابِ لتُفسِدُنّ في الأرضِ مـرَّتينِ ولتعْلُنّ عُلُواً كبيـراً ﴾[٢] فإن معنـاه: أعلمناهم وأخبرناهم وبيّنا لهم، وهو إتمام الشيء قولاً، ومنه قوله تعالى: ﴿ وقَضَيْنا إليه ذلكَ الأمر ﴾[٣] أي أنهيناه إليه وأبلغناه به. وهذا النوع من إتمام الشيء قولاً أيضاً.

ومثال الخلق قوله تعالى: ﴿ فقَضَاهُن سبعَ سمَوات في يَوْمين ﴾[٤] فإن معناه: أتم خلقهن وإتقانهن، وهذا هو الإتمام فعلاً، ومنه قوله تعالى: ﴿ فلما قَضَيْنا عليه الموتِ ﴾[٥] أي أتممنا عليه الموت، أي خلقناه، وقوله تعالى: ﴿ فاقضِ ما أنتَ قاضي ﴾[٦] أي اعمل ما أنت عامل.

فنخلص من هذا إلى أن معنى القضاء لغة: إتمام الشيء، ثم يُعبر عنه بعبارات مختلفة بحسب المقام.

قال ابن منظور: قضى في اللغة على ضروب ترجع كلها إلى معنى انقطاع الشيء وتمامه، ومنه قوله تعالى: ﴿ ثم قَضَى أجلاً ﴾ معناه أتمه، ومنه القضاء للفصل في الحكم، وهو قوله تعالى: ﴿ ولولا أجلٌ مسمىً لقُضِيَ بينهم ﴾ أي لفصل الحكم بينهم، ومنه قولهم «قد قضى القاضي بين الخصوم» أي قطع بينهم في الحكم.. وكل ما أحكم فقد قضي.

(١) النساء/ ٦٥.
(٢) الاسراء/ ٤.
(٣) الحجر/ ٦٦.
(٤) فصلت/ ١١٢.
(٥) سبأ/ ١٤.
(٦) طه/ ٧٢.

كما ينقل عن الزهري قوله القضاء في اللغة على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه، وكل ما أحكم عمله، أو أتم، أو ختم، أو أدى أداء، وأوجب، أو أعلم، أو أنفذ، أو أمضى.. فقد قضى[١].

ب ـ القدر في اللغة:

١) جاءت مادة (قدر) في التنزيل بمعنى التحديد والترتيب، قال تعالى: ﴿ وجعل فيها رواس من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام ﴾[٢].

والمعنى تحديد الله وترتيبه وتقسيمه للأشياء أزلاً، وفق علمه السابق، ومنه قوله تعالى: ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾[٣].

٢) جاءت هذه المادة بمعنى الكتابة في اللوح المحفوظ، قال تعالى: ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾[٤].

ويكاد المعنيان يلتقيان على معنى تحديد الخلق وترتيبه وإثبات ذلك في اللوح المحفوظ.

ومن هذه الدراسة اللغوية لمعنى القضاء والقدر نجد أنهما:

أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه، وقضى الشيء، معناه: صنعه وقدره.

انهما متلازمان بحسب اللغة، فيذكر لسان العرب أن القدر: القضاء الموفق.

---

(١) انظر لسان العرب مادة (قضى).

(٢) فصلت/ ١٠.

(٣) الفرقان/ ٢.

(٤) الواقعة/ ٦٠.

والقَدَر والقَدْر: القضاء والحكم، وهو ما يقدره الله عـز وجل من القضاء ويحكم به من الأمور.

قال عز وجل: ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾[١] أي الحكم، كما قال أيضاً ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾[٢].

جـ ـ تعريفهما في الاصطلاح:

القضاء هو: إرادة الله الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه فيما لا يزال.

ومعنى هذا أنه: إرادة الله التي لا أول لها في جانب الماضي، المتعلقة بإيجاد الممكنات أو إعدامها في المستقبل. وعرفه بعضهم بأنه: علم الله في الأزل بما ينبغي أن يكون عليه الوجود على أحسن نظام وأبدعه.

أما القدر فهو: بروز الأشياء إلى الوجود على وفق العلم السابق مقترناً وجود الشيء بوجود سببه.

وقد عكس بعض العلماء التعريفين فجعل ما لأحدهما للآخر فيكون تعريفهما كالتالي:

القضاء هو: خلق الأشياء وإيجادها على وجه الإحكام والاتقان على وفق علمه الأزلي.

والقدر هو: تحديد الأشياء (المخلوقات) وترتيبها في الأزل حسب علمه بما ستكون عليه من الوجود في مدة وجودها.

والتعريف الثاني هو الذي نميل إليه حسبما رجحته اللغة.

وأيا ما كان اختلاف نظرة العلماء في تحديد أي من المعنيين يكون تعريفاً للقضاء أو للقدر. . .

---

(١) القدر/ ١.

(٢) القمر/ ٤٩.

فقد عرفنا آنفاً أنهما متلازمان في اللغة فلا يبعد أن يصلح تعريف القضاء للقدر، والذي يصلح تعريفاً للقدر يصلح للقضاء، وهذا أمر لا يضير العقيدة في شيء ما دام الاعتقاد سائداً على أن كل المخلوقات إنما وجودها بحسب تحديد الله وترتيبه لها أزلاً حسب علمه المحيط الكاشف لكل ما كان وما سيكون، ثم إبرازها إلى عالم الوجود حسبما تحدد لها أزلاً، وإيضاحاً لذلك نقول:

يذهب **أهل السنّة** إلى أن علم الله سبق في البشر، فعلّم كفر من كفر منهم كما علّم إيمان من آمن، فأثبت الله علمه السابق في الخلق وكتبه عليهم، وكل ميسر لما خلق له وكتب عليه.

وتقدير الله الخلق.. تيسيره كلا منهم لما علم أنه صائر إليه من السعادة والشقاء.

٢ ـ الإنسان بين الجبر والاختيار:

لقد عرفنا أن الله سبحانه وتعالى متصف بكل كمال يليق بذاته العلية، ومن صفات كماله قدرته الشاملة لكل ما هو مقدور، وأن له إرادة تخصص الموجودات بكل ما يجوز عليها، وأن علمه محيط إحاطة كاملة، وكاشف كشفاً كاملاً تاماً.

وأيضاً فإن من صفة الله العدل، فلا يظلم مثقال ذرة، وهو أعدل الحاكمين، بل هو العدل المطلق. والإنسان أمام كل هذه الصفات كائن مخلوق بالقدرة العليا والإرادة المخصصة، وتحت مصباح العلم الكاشف لكل ما هو كائن يتساوى فيه الماضي والحاضر والمستقبل، لأنه ليس في زمان.

أسس الجبر ومعالمه:

الإنسان مخلوق يشترك مع الحيوان في أمور مثل الحركة والاحساس والتزاوج والموت والحياة، والتصرف بالغريزة.

كما يشترك مع النبات في النمو والتغذي والتلقيح وغير ذلك.

فالإنسان ليس له إرادة ولا اختيار في كل ما من شأنه مشاركة الأجسام النامية مثل: اختيار الوالدين، وما يتكون فيه من عوامل الوراثة والميول والغرائز، وطول القامة أو قصرها، وتحديد العمر، والقبح والجمال، وسمت الخلقة ومشخصاتها، والصحة والمرض، والموت والحياة، والزمان والمكان اللذين يولد فيهما، وانتمائه الجنسي، وكونه ذكراً أو أنثى، ومقدار العقل وما يخصصه الله من ذكاء أو غباء أو فقه للأمور.

كل ذلك وغيره مما يكون فعله اضطرارياً لا إرادة للإنسان فيه ولا اختيار ليس محل مؤاخذة ولا حساب من الله لعباده، لأنه لا سبيل للعبد إلى عمل البديل عنه، يقول سبحانه ﴿هو الذي يصورُكُم في الأرحام كيفَ يشاءُ﴾[1] وهذا هو المعنى بقوله تعالى: ﴿وربُّك يخلُقُ ما يشاء ويختارُ ما كان لهم الخِيَرَةُ﴾[2] والإيمان بهذا النوع من القدر واجب باعتباره محل تعلق المشيئة العليا وحدها ولا مفر من وقوعه. ﴿قل لن يُصيبنا إلا ما كتَبَ الله لنا هو مَوْلانا وعلى الله فليتوَكَّلِ المؤمنون﴾[3].

٣ ـ أساس الاختيار وآثاره:

لقد اختص الله الإنسان بالعقل أحد مكرماته للإنسان، فقد كرمه به على سائر المخلوقات الحيوانية والنباتية والجمادية.

وبالعقل والفكر يحس الإنسان بأنه يستطيع أن يختار الفعل أو ترك الفعل، مع الاستقلال في حريته وإرادته واختياره. وكل إنسان يحس ويشعر باختياره في أن يأكل وألا يأكل الآن، وأن يقوم أو يقعد، إلى غير ذلك مما

---

(١) آل عمران/ ٦.

(٢) القصص/ ٦٨.

(٣) التوبة/ ٥١.

يقع في دائرة اختيار الإنسان السوي العقل والتفكير، الصحيح الأعضاء والحواس.

وعلى هذا القدر من الحرية في اختيار الفعل، يقع التكليف للعبد، وعليه تكون المؤاخذة والحساب على الأعمال، يقول سبحانه:

﴿ قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل ﴾[١] ويقول سبحانه ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[٢] وقوله: ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾[٣]. وقوله: ﴿ ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين ﴾[٤]. وقوله: ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾[٥].

وفي القرآن آيات كثيرة شاهدة بحرية الإنسان واختياره فيما هو تحت دائرة فكره وتدبيره لا يتسع المقام لسردها.

وإنما تعلق التكليف والثواب والعقاب بهذا النوع من الأفعال لأن الإنسان فيها حر في اختيار البدائل المطروحة أمامه مع سلامة عقله وآلات الفعل وأسبابه، فله أن يختار الخير أو الشر، والفضيلة أو الرذيلة.

٤ ـ المذاهب في خلق فعل العبد:

المشهور من هذه المذاهب ثلاثة:

الأول : مذهب الجبرية.

الثاني : مذهب المعتزلة.

الثالث : مذهب أهل السنّة والجماعة.

---

(١) يونس/ ١٠٨.
(٢) الكهف/ ٢٩.
(٣) الشمس/ ٧ ـ ١٠.
(٤) البلد/ ١٠٨.
(٥) الإنسان/ ٣.

المذهب الأول: مذهب الجبرية.

فأما الجبرية فيذهبون إلى أن الإنسان مجبور لا تأثير له في عمله مطلقاً، لا خلقاً ولا اكتساباً، سواء منه الفعل الاضطراري أو غير الاضطراري، والإنسان في ذلك كالريشة المعلقة في الهواء يحركها الريح كيف شاء، أو هوبمنزلة الجماد الذي لا حراك له، والله يجري عليه الحركات والسكنات فتظهر عليه آثارها، والله هو الذي خلقها، سواء كانت خيراً أم شراً.

وهذا المذهب كفر، لأنه ينسب إلى الله فعل الموبقات، مثل الكفر والقتل، والسرقة والفحش وغير ذلك، ثم يعذب عليها، وعلى ذلك ينسبون الظلم إلى الله تعالى.

والظلم صفة ذميمة، وهي نقص لا يليق بذاته، ولهذا أجمع علماء الإسلام على اختلاف مذاهبهم على إنكار هذا المذهب بالكلية، وعدوا من يعتقده من الكافرين، لأن الله نفى عن نفسه الظلم في غير موضع من القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفي كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[2] ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾[3] ونسبة الظلم إلى الله تعالى معناه إنكار لهذه الآيات وأمثالها، وإنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة كفر بواح، فضلاً عن تكذيب الله في خبره ـ تعالى الله علواً كبيراً.

كما أن هذا خروج عن إجماع العلماء على أن للعبد عملاً يستحق عليه الثواب والعقاب، والمدح والذم، وأنه ليس مجبراً كالجماد الملقى في اليم، وهذا معلوم بالضرورة والبداهة، فإننا نفرق بين حركة اليد المرتعشة بمرض

(١) النحل/ ١١١.
(٢) الأنبياء/ ٤٧.
(٣) النساء/ ٤٠.

الفالج مثلاً واضطراب حركتها، وبين حركة اليد السليمة، فإنها تتحرك في انتظام وترتيب على حسب قصد المرء وإرادته، وذلك حاصل بداهة.. فلا بد إذن أن يكون للإنسان عمل صادر باختياره يكون عليه مدار المسؤولية الكاملة عن عمله، ولولا ذلك لبطلت التكاليف الشرعية، ولم يكن لإرسال الرسل معنى، ولا لإنزال الكتب فائدة.

المذهب الثاني: مذهب المعتزلة:

يذهب المعتزلة إلى أن أفعال العبد قسمان:

القسم الأول: لا اختيار للعبد فيه أصلاً، ولا تتعلق به إرادته وهي الأفعال الإرادية التي ليس للعبد فيها اختيار، وهذا ليس مسؤولاً عنه وغير مكلف به بتاتاً.

القسم الثاني: صادر عنه بإرادته واختياره، وهذا القسم هو مناط التكليف، وبه يكون الثواب والعقاب، وهذا القسم من الأفعال مخلوق للعبد لا لله، وعليه فليس العبد مجبراً.

وهنا نقول لهم: إن هذا نقص في جانب الله يلزم عنه أمران محظوران هما:

١ ـ أن يكون هناك بعض المخلوقات ـ وهي الأفعال التي خلقها العبد ـ مخلوقاً لغير الله عزّ وجل.

٢ ـ أن يقع في ملك الله ما لا يريده. وهذا ما يتنافى مع معنى الألوهية، وهو التفرد بالسلطان المطلق، ومحال أن يشذ عن قدرته شيء.

قالوا: إن هذا يصح لو كان واقعاً رغماً عن إرادة الله تعالى الجازمة، لكنه واقع بإرادة الله التي رجحت منح العبد إرادة وقدرة يوقع بهما الفعل، وجعل نظامه في خلقه مبنياً على أن يكون لهما تأثير في بعض أعمال العباد، وليتحقق معنى الثواب والعقاب، ففي النهاية قد وقع كل شيء في الكون ـ ومنه عمل العبد الاختياري ـ بإرادته تعالى.

ولكنا نعترض عليهم بما جاء في القرآن الكريم من أن الله خالق كل شيء في الوجود ومنه فعل العبد هذا.

قال تعالى: ﴿ذلكُم الله رَبُّكُم لا إلَهَ إلاّ هوَ خالِقُ كُلِّ شيءٍ﴾[1] وفعل العبد شيء فيكون خالقه.

هذا، وفي المقام مجال واسع لمناقشة مذهبهم بأكثر من هذا.

المذهب الثالث: مذهب أهل السنّة والجماعة:

ذهب أهل السنّة والجماعة إلى أن الخلق والإيجاد للفعل إنما هو لله سبحانه وتعالى، وليس للعبد في فعله إلا الكسب فقط، كما قال سبحانه: ﴿كلُّ نفسٍ بما كَسَبْتَ رَهينة﴾[2] ﴿لها ما كسَبَتْ وعليها ما اكتسَبَتْ﴾[3] فنفوا عن العباد الخلق وأسندوا لهم الكسب، ويترتب على ذلك أنه لم يشذ عن قدرة الله شيء من المخلوقات، وفي الوقت نفسه لم يكن الناس مجبرون، والكسب كاف في جريان أحكام التكليف وكاف في ترتيب الثواب والعقاب عليه.

ولكن ما الكسب عند أهل السنّة والجماعة..؟

إن الكسب عبارة عن صرف الإرادة من العبد إلى الفعل وتعلقها به (يعني: الاختيار) وعند ذلك يخلق الله في العبد القدرة التي تتعلق بالفعل ويترتب عليها وجوده في ظاهر الأمر، ولكنها لم تؤثر فيه، وإنما المؤثر في الحقيقة قدرة الله تعالى.

فمثلاً إذا أراد العبد الصلاة، فإنه يصرف إرادته إلى فعلها ـ بمعنى أن إرادته تتعلق بها ـ أي يختارها ـ وعند ذلك يخلق الله له قدرة على الفعل يترتب عليها وجوده في العادة ظاهراً فقط..

---

(١) الأنعام/ ١٠٢.

(٢) المدثر/ ٣٨.

(٣) البقرة/ ٢٨٦.

أما الذي خلق الصلاة من قيام وقعود وحركة وسكون فهو الله سبحانه وتعالى، إذ ليس في مقدور العبد خلق حركة أو سكون في الصلاة أو في غيرها.

وكما يخلق الله الفعل للعبد عند تعلق إرادته به وصرف همته إليه في الطاعة كما ذكَرنا، كذلك يكون خلقه لفعل غير الطاعة عند صرف الإرادة إليه وتعلقها به.

والمفهوم المخالف لهذا، انه إذا لم تتعلق إرادة العبد بالفعل لم يوجد ولم يخلقه الله تعالى.

بقي أن يقال: كيف توفق بين الآيات الدالة على أن الله خالق كل شيء، وبين الآيات الدالة على أن للعبد فعلاً يترتب عليه المسؤولية والجزاء؟ فمثال ذلك من النوع الأول: قوله تعالى: ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾[1] أي وخلق عملكم، أو الذي تعملونه، وهذا الخلق شامل للفعل الاضطراري والاختياري، فالله تعالى خلق الأعراض والجواهر، أي الصفات وموصوفاتها، فخلق مواد السرير الذي يعمله النجار، وخلق الأثر الذي أوقعه النجار على المراد. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ الله خالق كل شيء ﴾[2] والقضية هنا كلية، أي خلق كل ما في الوجود من كائنات وفعل العبد شيء، فهو مخلوق لله تعالى.

ومثال النوع الثاني: قوله تعالى: ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾[3] وقوله: ﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾[4] وقوله: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة

(١) الصافات/ ٩٦.
(٢) الرعد/١٦ والزمر /٦٢.
(٣) التوبة/ ٧٩.
(٤) الزخرف/ ٧٢.

شراً يره ﴾[١] وغير ذلك من الآيات الدالة على إسناد الفعل إلى العبد صراحة وجعله مناط تكليفه.

وللإجابة على هذا نقول:

إن الله سبحانه وتعالى لما كان خالقاً لآلات الفعل وأسبابه، التي يقع بها الفعل، من قدرة منبثة في الأعضاء، وإرادة بها يترجح الفعل، وسلامة عقل وحواس، صح نسبة خلق الفعل إليه تعالى، ولما كان الفعل صادراً عن العبد مباشرة ورأى العين، نتيجة توجه إرادته إليه، صح نسبة الفعل إلى العبد، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذا من عندك ﴾[٢] ثم قال بعد ذلك ﴿ قل كل من عند الله ﴾ ثم قال الله تعالى: ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ـ أي فبتوفيق الله ـ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾[٣] ـ أي فسببها من نفسك. بعد تخلي الله عن العبد ـ وعليه تحمل الآيات التي تسند الفعل إلى العبد.

٥ ـ العلم الإلهي والجبر والاختيار:

يقول بعض المشتبهين على القدر: إن العبد لا يخلق أفعال نفسه، وذلك لأن علم الله تعالى متعلق بالفعل في الأزل على أنه سيقع أو لا يقع، فما علم الله وقوعه لا بد أن يقع، وما علم عدم وقوعه لا بد ألا يقع، فالعبد مجبر على كل حال، فكيف بعد ذلك يقال: إن العبد يتمتع بحرية الإرادة؟.

والجواب على ذلك: أن علم الله تعالى لا يدخل في جبر العباد على الأعمال، لأنه يعلم أن هـذا الفعل يقـع منهم باختيـارهم، فتعلق علمه بأفعالهم دليل على أن صفة العلم تامة في الواجب الـوجود، فهي تتعلق بجميع الأشياء، ما كان منها وما يكون وما هو كائن، على وجه الإحاطة

---

(١) الزلزلة/ ٧، ٨.

(٢) النساء/ ٧٩.

(٣) النساء/ ٧٨، ٧٩.

والشمول كليها وجزئيها، صغيرها وكبيرها، لأنه إذا جهل شيئاً ما، ولو ذرة واحدة منها لكان نقصاً فيه، والنقص ينافي الألوهية، ولكن العلم بالأشياء قبل وقوعها، هو كالعلم بها بعد وقوعها تماماً، لأن علمه لا يتغير، وإن شئت مثالاً لذلك.. فافرض أن رجلاً انكشف له حقائق الأمور فعلم أن خادمه سيطيعه في إحضار مطلبه، فهل علم السيد بذلك جبر للخادم على الفعل؟ بالطبع لا.

وبذا نعلم، أن علم الله في الأزل هو علم يصور ما سيفعله الناس باختيارهم بالضبط والدقة كما هو الشأن في العلم القديم.

يقول الشيخ الغزالي في تشبيه صلة العلم الإلَهي بأفعال العباد: قف أمام مرآة مجلوة صافية وأنت عابس الوجه مقطب الجبين فماذا ترى؟ سترى صورتك كما هي عابسة مقطبة، أي ذنب للمرآة في ذلك؟ إن مهمتها أن تصف وأن تكشف، وهي قد صدقت فيما أثبتت ذلك؟ ولو كنت ضاحك الوجه لأثبتت لك على صفحتها خيالاً ضاحكاً لا شك فيه.

كذلك صفحات العلم الإلَهي ومرائيه لا تتصل بالأعمال اتصال تصريف وتحريك، ولكنه اتصال انكشاف ووضوح فهي تتبع العمل ولا يتبعها العمل، غاية ما يمتاز به العلم الإلَهي أنه لا يكشف الحاضر فقط، ولكنه يكشف ـ كذلك ـ الماضي والمستقبل ـ فيرى الأشياء على ما كانت عليه، وعلى ما ستكون عليه، كما يراها وهي كائنة سواء بسواء[١].

فإذا كان العلم من مهمته كشف ما سيفعله الإنسان من مبدئه إلى منتهاه، فإن هذا لا يعني الجبر كما قلنا، إن القرآن الكريم يذكر لنا عن فئة من المشركين ظنهم أن العلم والإرادة الإلَهيين المتعلقين بالأفعال إلزام لهم بالشرك قال تعالى: ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا

---

(١) محمد الغزالي: عقيدة المسلم/ ١٠٨.

آباؤنا ﴾ ولكنه في الوقت نفسه يرد عليهم زعمهم فيقول سبحانه: ﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ﴾[١] أي هل علمتم ما كتبه الله عليكم حتى تتعللوا بمشيئته؟.

جاء في صحيح البخاري ومسلم أن عمر ـ رضي الله عنه ـ خرج إلى الشام مع بعض أصحابه، فلما جاء (سرغ) بلغه أن الوباء قد وقع بالشام، فأخبره عبد الرحمن بن عوف أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إذا سمعتم به بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه» فرجع عمر من (سرغ)، فقيل له أفراراً من قدر الله يا عمر؟ فقال عمر: نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، وقال للذي سأله مستنكراً فراره: أرأيت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟.

فعمر ـ رضي الله عنه ـ يعلم أن كل شيء مكتوب وهو في علم الله تعالى، وفي نفس الوقت يعلم أن علمه تعالى لا يجبر أحداً، وأن أحداً لا يعلم ما هو في علمه تعالى، وأن الإنسان أمام البدائل حر، وهذه البدائل لا تخرج عن إرادة الله وما على الإنسان إلا أن يأخذ بالأسباب.

يروى عن جعفر الصادق قوله: (إن الله تعالى أراد بنا شيئاً وأراد منا شيئاً، فما أراد منا أظهره لنا، وما أراده بنا طواه عنا، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا)[٢]؟.

أراد جعفر الصادق ـ رضي الله عنه ـ أن نوجه طاقتنا إلى معرفة ما أراده الله منا، وهو أن نعرفه ولا نشرك به شيئاً، وأن نخلص له العبادة، وأن نؤمن بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقضاء والقدر مع الالتزام

---

(١) الأنعام/ ٤٨.
(٢) نهاية الأقدام للشهرستاني/ ٢٥٩.

بالأوامر واجتناب النواهي، وأن نتخلق بالأخلاق الفاضلة، من كل ما يحقق السعادة في الدنيا والآخرة ويقع في دائرة تكليفنا، آخذين بالأسباب من غير نظر إلى ما هو في علم الله، فهو غيب من الغيب.

٦ ـ مكانة الإيمان بالقضاء والقدر في الإسلام:

الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإسلام من جحده فقد كفر، لحديث جبريل الذي رواه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بقوله «كنا جلوس عند رسول الله إذ أقبل علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر. . .» الخ.(١).

وهذا عبدالله بن عمر وقد جاءه اثنان من الصحابة وقالا له: إن بعض الناس يزعمون ألاَّ قدر وأن الأمر أُنُفُ، قال: إذا لقيت هؤلاء فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم بـراء مني، والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر، ثم استدل بقوله ـ ﷺ ـ «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخـر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»(٢).

وعن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ أنه قال لابنه: «يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم فقال: أكتب، فقال: رب ماذا أكتب؟ قال: أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة، يا بني: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «من مات على غير ذلك فليس مني»(٣).

وفي رواية لأحمد (إن أول خلق الله تعالى القلم، فقال له أكتب فجرى

(١) رواه مسلم. باب الإيمان.
(٢) من حديث عمر السابق.
(٣) الاعتقاد للبيهقي/ ٥٦.

في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة) وفي رواية لابن وهب قال رسول الله - ﷺ - «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بناره».

وفي القرآن كثير من الآيات التي تبين أن كل ما في الكون لا يوجد إلا بقضاء الله وقدره، يقول سبحانه: ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾[1].

وقوله سبحانه ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾[2] وقوله عز وجل ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾[3].

٧ - الإيمان بالقضاء والقدر لا ينافي الأخذ بالأسباب:

إن الدين الإسلامي لا يتنافى مع العقل ولا يتعارض معه، ودليلنا على ذلك أن معجزته الكبرى (القرآن الكريم) حكّمت العقل في أصل العقيدة، وهو الإيمان بالله تعالى، فقد حث القرآن على النظر فيما خلق الله من شيء، لينتهي المرء إلى الإيمان بالله عن يقين، ولم يرض الإسلام إيماناً عن تقليد أو تعصب لباطل الآباء والبيئات.

ومنهج الإسلام قد راعى في الإنسان جانبيه: الروحي والمادي معاً، كما تعامل معه كفرد، وكجماعة صغيرة، وكأمة وجعله خليفة في الأرض يسعى في كل اتجاهاتها بالعمل الهادف إلى سعادة الجماعة البشرية، سياسية كانت أو

---

(١) الأنعام/ ٥٩.
(٢) الحديد/ ٢٢.
(٣) الرعد/ ٨ - ١٠.

اجتماعية أو اقتصادية، ووفر له أسباب العمل والقوة والنشاط لإنماء الحياة، ولذلك كان التفاضل بين الناس بحسن التعامل مع الله والعمل الصالح المتلائم مع جماعته.

وقد علمتنا المشيئة العليا أن خروج الأشياء إنما يكون بأسبابها حكمة منه سبحانه وتعالى، وأن النتائج إنما تكون بمقدماتها، كما علمتنا المشيئة العليا أن نأخذ بالأسباب التي وجهنا الله إليها، ثم الرضا الكامل بالنتائج مهما كانت، حتى لو خرجت على غير ما نتمنى، إيماناً منا بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وتصديقاً لقول الرسول ـ ﷺ ـ «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، إحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[١].

والقوة المرغوبة للمؤمن في الحديث هي على إطلاقها، أي أنها تتناول قوة الجسم والعقل والنفس وصفاء الروح، ثم يدعوا الحديث إلى الحرص على الحياة وعدم إهمالها بإهمال أسبابها (إحرص على ما ينفعك) وخوفاً من الإسلام على الإنسان ألا يرتكس لو تخلفت النتائج عن مقدماتها لفت نظره إلى اللجوء إلى قوة الله العليا مع الاستمرار في نشاط الحياة المثمر «استعن بالله ولا تعجز» وليعلم الإنسان عند تخلف النتائج أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وفي هذا المعنى يقول ﷺ لابن عباس وقد أركبه ردفه «يا غلام.. ألا أعلمك كلمات.. إحفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء تجده في الشدة، جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك، لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه، فاعمل لله بالشكر

---

(١) رواه مسلم.

واليقين، واعلم أن مع الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا»[١].

وحين يأخذ العبد بالأسباب تاركاً النتائج إلى مشيئة الله العليا يصبح قوة دائبة، لأنه يعلم أن أحداً لا يملك خيراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة إلا الله، فيؤدي واجبه على أتم وجه في وجدانه توجيه العلي الأعلى ﴿ قلْ لنْ يُصيبنَا إلا ما كَتَبَ الله لنا هو مَوْلانا وعلى الله فليتوكَّلِ المؤمنون ﴾[٢].

وهذا ما كان عليه الرعيل الأول من المسلمين، وكان ما كان من تأسيس الدولة الإسلامية، فملكوا الدنيا بفضل جهودهم وضربهم في الأرض ذات الطول وذات العرض، متمثلين قول نبيهم «إذا قامت القيامة وبيد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر»[٣] أي يكون العبد متشبثاً بأهداب الحياة آخذاً بأسبابها إلى آخر رمق في حياته.

والقرآن رائد المسلمين في دفعهم إلى الحياة بالأخذ بأسبابها، فقال تعالى: ﴿ وقل اعملوا فسَيَرى الله عملكم ورسولُه والمؤمنون ﴾[٤] وقوله سبحانه ﴿ فامشُوا في مناكِبها وكُلُوا من رِزْقهِ وإليه النُّشور ﴾[٥] وقوله عز وجل ﴿ فإذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فانْتَشِرُوا في الأرْضِ وابتَغُوا من فَضْلِ الله ﴾[٦] ﴿ واعدُّوا لهم ما استطَعْتُم من قُوَّةٍ ومن رِبَاطِ الخَيْل ﴾[٧].

وهذا المربي الأول محمد ـ ﷺ ـ يأمر أحد أصحابه بالكف عن المسألة، مستبدلاً بها السعي واتخاذ الأسباب في طلب الرزق بالاحتطاب، ويقول

---

(١) الاعتقاد للبيهقي/ ٥٨.

(٢) التوبة/ ٥١.

(٣) عمدة القاري للعيني: باب الحرث والزراعة.

(٤) التوبة/ ١٠٥.

(٥) الملك/ ١٥.

(٦) الجمعة/ ١٠.

(٧) الأنفال/ ٦٠.

لأصحابه «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده»[١] وأن رسول الله ليفضل العمل على العبادة في رجل قالوا عنه إنه يصوم النهار ويقوم الليل، فيسأل النبي عمن يكفله، فيقولون: كلنا يا رسول الله فيقول النبي الكريم «كلكم خير منه»[٢].

وهكذا يقر الإسلام في أذهان أصحابه أن العمل حياة وحركة، وأن الاسترخاء في إنماء الحياة بالعمل سكون وموت، وما أكثر ما احتواه الكتاب العزيز والسنّة المطهرة من دفع الناس إلى الأخذ بأسباب الحياة، كما وفر في القلوب الإيمان بقضاء الله وقدره فيما يتحقق من النتائج، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

٨ ـ شبهات حول القدر:

أ ـ يستغل بعض المشتبهين على القدر إطلاق المشيئة العليا في هداية الناس وإضلالهم، زاعمين أنه تعالى يضل العبد أو يهده كما يشاء، مهما كان من العبد من سعي للتقوى والصلاح، متخذين دليلهم في ذلك قوله تعالى: ﴿ يُضِلُّ من يَشاءُ ويهدي من يشاء ﴾[٣].

والجواب عن ذلك:

إن مشيئة الله إذا كانت مطلقة في مثل هذه الآية فإنها مقيدة بآية أخرى، بيّن الله فيها اختيار الإنسان في صراحة ووضوح، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ فلما زَاغُوا أزاغَ الله قلوبَهم والله لا يَهدي القومَ الفاسقين ﴾[٤].

والمعنى: إن الله سبحانه وتعالى يعلم بعلمه الأزلي السابق على الخلق ـ العبد الذي سيختار الزيغ والضلالة على الاستقامة والهداية فيشاء الزيغ لمن

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط.

(٣) النحل/ ٩٣. فاطر/ ٨.

(٤) الصف/ ٥.

اختاره أزلاً ـ أي يخلق له القدرة والإرادة، وكل الآلات التي يوقع بها زيغه وضلاله ـ ولا يخلق له أسباب الهداية لأنه لم يردها.

يستبين ذلك من قول الله سبحانه في حق من اختاروا الكفر على الإيمان فكتبه عليهم أزلاً من قبل الخلق ﴿ إن شرَّ الدوَابِّ عندَ الله الصُّمُّ البكمُ الذين لا يعْقِلون ولو عَلِمَ الله فيهم خَيْراً لأسمَعَهم ولو أسمَعَهم لتولَّوا وهم مُعْرِضون ﴾ (الأنفال ٢٢، ٢٣).

فقد علم الله منهم صمم الآذان عن سماع الحق وغلف القلوب عن الاذعان له، فلم يوفقهم إلى ذلك ولم يخلق فيهم أسباب الهداية ولم ييسرها لهم، وإنما خلق فيهم ما يحققون به الكفر الذي اختاروه أزلاً، فيسرهم للعسرى، لعلمه ألاّ فائدة فيهم، ولذلك يقول فيهم ﴿ ولو أسمَعَهم لتَوَلَّوا وهم مُعْرِضون ﴾.

وكما يستبين ذلك من قوله تعالى: ﴿ ومن يُشاقِق الرَّسولَ من بعدِ ما تَبَيَّن له الهُدى ويَتَّبع غيرَ سبيل المؤمنين نُوَلِّه ما تَوَلّى ونُصْلِه جهنمَ وساءت مَصيراً ﴾[1] والمعنى ظاهر في أن من وجه إرادته إلى مخالفة الرسول وجهه الله إلى ما يريده وشاءه له، فخلق له كل ما يحقق له كسب الفعل وإبرازه للوجود.

هذا فضلاً عن أن الآية الأولى تقيدها آية أخرى هي قوله تعالى: ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين الذينَ ينقُضون عهدَ الله من بعدِ ميثاقه ويقْطَعون ما أمرَ الله به أن يُوصَل ويفسِدون في الأرض ﴾[2] أي لم يشأ الله الإضلال إلا لمن اختار وسائله من نقض عهد اللهوقطع ما أمر الله بوصله والإفساد في الأرض.

---

(١) النساء/ ١١٥.

(٢) البقرة/ ٢٦، ٢٧.

وكما تبين الحال بالنسبة لمن يشاء الله إضلالهم، كذلك تكون المشيئة بالهداية لمن وجه إرادته وهمته لكسب موجبات الهداية، فالبداية من العبد، وتحقيق الأسباب وسلامة الآلات من الله تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾[1].

﴿ قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[2].

فالله يهدي إلى طريقه من آثر الإيمان على الكفر، واطمأن قلبه عامراً بذكر ربه، وكل من اختيار الضلال أو الهداية يعلمه الله أزلاً قبل خلق الكون، فيحقق للعبد الوسائل التي يستطيع بها كسب اختياره.

يقول الشيخ الغزالي: «فازرع عمرك أيها الإنسان ـ إن شئت ـ خيراً، فإن يد القدرة تنميه لك ورداً يانعاً، أو ازرعه ـ إن شئت ـ شراً، فإن يد القدرة تنميه شوكاً رائعاً»[3] أي مروعاً.

ب ـ هناك سؤال حائر في أذهان الكثير من الناس، إذ يزعمون أن الله قدر وكتب على الناس كل شيء «جف القلم وطويت الصحف» ثم يقولون: لو أراد الله هدايتي لهداني، وما أستطيع أن أغير ما أنا فيه ما دام قد كتبه عليّ وشاءه لي.

وإن الإجابة على هذه الشبهة قد مرت في أكثر من موضع من هذا البحث، ومع ذلك فإني أسوق ما ذكره القرآن في الإجابة عليها حين أثارها أسلافهم، يقول الله تعالى: ﴿ سيقولُ الذين أشْرَكوا لو شاءَ الله ما أشرَكْنا ولا آباؤُنا ولا حَرَّمنا من شيءٍ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا

(١) العنكبوت/ ٦٩.
(٢) الرعد/ ٢٧، ٢٨.
(٣) عقيدة المسلم ص ١١١.

بأسَنا، قل هل عندكم من عِلْم فتُخرجوه لنا، إن تَتَّبعون إلا الظَّنَّ وإن أنتم إلا تَخْرصون ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ وقال الذين أشركُوا لو شاءَ الله ما عبدنا من دونه من شيءٍ نحنُ ولا آباؤنا ولا حرَّمنا من دونه من شيءٍ، كذلك فَعَلَ الذين من قبلِهِم فهل على الرُّسُل إلا البلاغ المبين ﴾[٢]. والآية الأولى تبين أن زعمهم هذا مبني على الظن وعدم اليقين، وما هو إلا تخمين أساسه التضليل، فمن أين لهم العلم بأن الله كتب وقدر عليهم الشر دون الخير، أو الخير دون الشر؟ هل اطلعوا على الغيب فعلموا أن الله قدر عليهم الشر ففعلوه؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

٢ ـ وفي الآية الثانية بين الله أن رسله أبانوا للناس حقيقة موقفهم من القدر، وموقف القدر منهم، وقد بلّغوا الرسالة وأدّوا الأمانة، ولم يعد هناك مجال لمثل ما يثيرون من شبهات.

ويقول الله أيضاً كاشفاً تلاعبهم في القول: ﴿ وقالوا لو شاءَ الرحمنُ ما عبدناهُم ما لهم بذلك من عِلم إن همْ إلا يَخْرصون أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ﴾[٣].

وهكذا يتجاهل الإنسان قديماً وحديثاً ما زوده الله به من قوى وملكات، وقدرة، وإرادة، وتفكير واختيار يؤهله إلى التوجه إلى الخير أو الشر دون أي ضغط أو اضطرار، وعلى كل فهذه مكابرة لا تعفي الإنسان من المسؤولية الملقاة على عاتقه في تحمله جزاء عمله وكسبه، ولكن الإنسان كما يقول العليم بخلقه ﴿ وكان الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جَدَلا ﴾[٤].

---

(١) الأنعام/ ١٤٨.
(٢) النحل/ ٣٥.
(٣) الزخرف/ ٢٠.
(٤) الكهف ٥٤.

جـ ـ يقول الله تعالى: ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾(١).

يقول بعضهم: إن هؤلاء الكفرة طبعهم الله على الكفر بحيث لا تقبل نفوسهم الإيمان، فهم كفرة على الرغم منهم. وهذا تصور باطل.

إنما المعنى هو: صرف همةالرسول عن رجاء إيمانهم بعد بذل الجهد لانقاذهم، فأخبره الله بأنهم مصرون على الكفر باختيارهم مهما بذلت من جهد وحرص على إيمانهم.

د ـ يدعي بعض الناس أن الله خلق خلقاً للنار دون اختيـار منهم لمصيرهم مستشهداً بظاهر قوله تعالى: ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والأنس لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾(٢).

والمتأمل قليلاً يرى أن الآية الكريمة تحمل علة دخولهم النار، فإن الله قال ـ لهم قلوب لا يفقهون بها ـ فهذا يدل على أنهم السبب في خلقهم للنار، وذلك بعلم الله بانغلاق قلوبهم، وهذا كاف في ذلك، لأنهم الذين رشحوا أنفسهم للنار باختيارهم الضلالة على الهدى.

هـ ـ عن علي كرم الله وجهه قال: (كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ـ ﷺ ـ فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة فجعل ينكث بمخصرته ثم قال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة، فقالوا يا رسول الله... أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل..؟

قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له. أما من كان من أهل السعادة فيصير لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فيصير لعمل أهل

(١) البقرة/ ٦.
(٢) الأعراف/ ١٧٩.

الشقاوة ثم قرأ: ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾[١].

يقول الشيخ الغزالي معلقاً على هذا الحديث: (فأما أن الله عالم بما سيعمل الناس في الدنيا وما يصيرون إليه في الآخرة من ثواب أو عقاب، فهذا مما لا شك فيه).

وأما أن سبق العلم هو ما يرغم الناس على العمل بما كتب أزلاً فباطل - فإن العلم نور يكشف وليس قوة ترغم، والبشر من تلقاء أنفسهم يتوجهون إلى ما يريدون من أهداف والله يتمم للعبد مراده.

فمن تعلق بأسباب الخير - من عطاء وتقوى وتصديق - أكمل له غايته ويسره للحسنى. ومن تعلق بأسباب الشر - من بخل وفجور وتكذيب - أتم له قصده وأملي له في غيه ويسره للعسرى[٢].

و- هناك حديث آخر يثيره العامة وكثير من المثقفين يزعمون في معناه: أن الإنسان مرهون بما كتب الله عليه، والنتيجة من هذا الزعم.. هي أن الإنسان مسيّر في الحياة لا مخيّر. وهذا الحديث هو ما ورد عن النبي - ﷺ في قوله: (والذي لا إله إلا هو إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها).

وجوابنا عن ذلك هو أن الحديث الشريف يشرح لنا خواتيم الأعمال لدى بعض الناس، وأنها تتغير بتغاير مسالكهم في الحياة، فإنه قد يكون هناك

---

(١) الليل/ ٥،٦.
(٢) عقيدة المسلم/ ١٢٠، ١٢١.

إنسان صالح بار طول حياته، ولكنه يجد نفسه أمام دنيا عريضة وجاه عظيم، فيغتر بدنياه فيقع في حبالها، وما شأن ثعلبه وما صار إليه بخاف على المتقين.

وقد يكون هناك من عاش غارقاً في المعاصي فإذا به يتوب في آخر حياته إلى ربه، ويؤدي ما عليه من حقوق للآخرين، ثم يموت على هدى وتقوى من الله.

وليس القدر هو الذي غير مسلكهما، ولكن الله علم ما ستكون عليه خاتمتهما فكتب عليهما بعد علمه بحالهما، وهذا هو ما يراد من معنى الحديث والله أعلم.

البَابُ الثّاني

في مَباحِث النبوّة وَالرّسَالة

ويشمل على الفصول الآتية:



حاجة الإنسان إلى الرسول

١ ـ أسس المعرفة في الإنسان:

لقد خلق الله الإنسان وزوده بوسائل المعرفة التي بواسطتها يعرف أن له خالقاً كاملاً كمالاً مطلقاً، له من القوة والسلطان ما يليق به كإله، ولقد بيّن الله سبحانه أن هذه الوسائل منها ما هو ظاهري كالحواس الخمس، السمع والبصر واللمس والشم والذوق، ومنها ما هو باطن ووجداني كالذاكرة والحس المشترك والإدراك العقلي، فقال سبحانه ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[1] ثم بيّن الله سبحانه أن العقل هو عماد المعرفة والفهم والنظر المنتج لتمام المعرفة والإيمان فقال عز وجل: ﴿ قل أنظروا ماذا في السموات والأرض ﴾ والنظر هنا بصيري ووجداني لا بصري، ولذلك كان العقل هو مناط التكليف، فخاطب الله تعالى أولي الألباب والعقول بما أراد من تكليف بالعقائد والشرائع، ولم يخاطب غير العقلاء، لأن خطابهم بالتكليف عبث لا يليق بالحكيم، ومن هنا نرى أن العقل هو رسول المعرفة في الإنسان، ويمكن أن يعتمد الإنسان عليه في معرفة الله عز وجل، لأن معرفة الله كامنة في داخل الإنسان منذ خلقه، إذا هي بديهية إذ نظر الإنسان إلى ذاته، فمنها يستطيع الوصول بسهولة إلى وجود خالق يحتاج الإنسان إليه، لأن الإنسان

---

(١) النحل/٧٨.

فانٍ، ولا بد له أن يعتمد في وجوده على باق يعطيه كل مقومات وجوده، ولذلك يقول الرسول ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» ولعل هذا هو ما أراد الله سبحانه أن يلفت نظر الإنسان إليه في قوله عز وجل ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ وهذا أيسر الطرق وأبسط المناهج في السير إلى معرفة أن هناك إلٰهاً واحداً أحداً يتصف بكل كمال ويتنزه عن كل نقص.

٢ ـ محدودية العقل:

ولكن قد يضل الإنسان وينحرف في سيره العقلي لسبب ما، يصبح حجاباً للعقل عن أن يدرك الرؤية واضحة حين يتوجه إلى معرفة الله عز وجل، فقد يتأثر بوراثة، أو يميل به هوى، فيضل الطريق وهو يسعى للوصول إلى هذه النتيجة، وهي معرفة الله تعالى، لكنه في الجملة لا بد أن يعرف ولو على وجه غير مستقر أن له إلٰهاً، بيد أنه يمكن القول بأنه قد يوجد ذو عقل محايد وغير متحيز فيصل إلى معرفة الله معرفة صادقة وصحيحة ومطمئنة، بل قد أتى التاريخ بمثل هذا كأفلاطون الذي عرف الإلٰه وأعطاه من التنزيه والوصف ما بلغ به غاية الكمال .

ولكن هل يدرك العقل بنفسه شيئاً وراء ذلك من العقائد الدينية؟ وهل يعرف شيئاً عن صفات الله الذي أدركه أكثر من هذه الصفات؟ نعم قد يعرف أن الله منزّه عن شوائب النقص ومتصف بكل كمال، ولكن الذي لا يعرفه ولا يمكن أن يعرفه بنفسه هو اتصافه بما وراء هـذه الأوصاف التي أدركها. فقد يكون متصفاً بما لا يحصى من الصفات التي لا يعرف العقل منها إلا ما كان هو أثراً له، وهل يعرف العقل أيضاً خصائص الإلٰه التي تميزه عن سائر الموجودات؟ وهل يعرف مدى صلته بالإنسان وبسائر الموجودات؟ وهل يستطيع أن يحدد ما الذي ينبغي أن يكون عليه الإنسان نحو هذا الإلٰه الذي عرفه؟ وأخيراً هل يستطيع أن يحدد ما يجب أن تكون عليه علاقة الإنسان بالإنسان أو علاقة الإنسان بالجماعة أو علاقة الجماعة بمثلها؟.

كل ذلك من وسائل العقيدة الدينية، وليس من الهيّن. أن يقال إن العقل يتمكن من معرفتها بنفس السهولة وبنفس الطريق الذي عرف به الإله، فإن التفكير في ذات الإنسان يستدعي بالمباشرة التفكير في الله كما سبق، نظراً لاحتياجه إليه في كل صغيرة وكبيرة، وهمسة ولمسة من حياته، وأما هذه التساؤلات المشار إليها فلا ترتبط بذات الإنسان هذا الارتباط الوثيق.

وإذن فكمال المعرفة محال بالنسبة للإنسان الذي هو محدود العقل والتفكير والتي ألقت غواشي الحياة المادية على عقله حجاباً حجب عنه حقائق الأمور ومقدراتها.

٣ ـ الغيب لا يدركه العقل إلا برسول:

تبين لنا أن العقل عاجز بنفسه عن الوصول إلى تفاصيل المسائل الدينية باستثناء معرفته لله سبحانه وما يليق به من كمالات على وجه الإجمال، كما أنه عاجز أيضاً عن إدراك ما في الحياة الثانية وما فيها من رؤية الله ومن ثواب وعقاب، وجنة ونار، وحساب وميزان، وإن شعر المرء بها في وجدانه، كما يعجز العقل عن معرفة أنواع العبادات وكيفياتها وشروطها وأوقاتها، كما يتردد في كثير من الأمور. وأيضاً فالعقول متفاوتة في الإدراك، فقد يستحسن جماعة فعلاً ويستقبحه آخرون تبعاً لإيثار المصالح الخاصة واتباع الأهواء، فالتفويض إلى العقول يؤدي إلى النزاع واختلال النظام، بيد أنه لا نستطيع أن نقول إنه عاجز كذلك عن فهم كل ما ذكرنا إذا ما وجد من يوجهه إليها ويبصره بها، ولذلك كان الإنسان في حاجة إلى من يظاهره حتى يبلغ غاية المعرفة، وهذا الظهير هو الرسول الذي ينقاد له العام والخاص، وبه ينحسم النزاع ولا يكون فساد ويسود الأمن والاستقرار.

فالعقل في الإنسان هو القوة المعدة لفهم كل ما يشير إليه الرسول الموجه إلى المعرفة وإلى الحق والخير العام، وهو قادر على أن يفهم ما يقرره

الرسول الحق من قبل الله الحق. ولذلك لم يكن الرسول في الحقيقة إلا مذكر للإنسان ومنبه لعقله، فقال الله مخاطباً رسوله في كتابه الحق ﴿ فـذكِر إنما أنْتَ مُذَكِّر ﴾ وقوله ﴿ إن عليكَ إلا البَلاغ ﴾ ﴿ كلا إنها تَذْكرة ﴾.

فمهمة الرسول هي التنبيه والتذكير، ومهمته هذه ضرورية، إذ هو الذي يوجه العقل ويهديه إلى الصراط المستقيم بعد حيرته وتردده، فالرسالة والرسول هما الموعظة من الله، وهما الشفاء لما في الصدور، وهما الهدى والرحمة والنور، قال عز من قائل ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾[1].

وبعد...

فإنه يتحتم بعد ذلك أن نبين حقيقة النبي والنبوة والرسالة والرسول.

النبوة: هي إنباء الله بعض عباده بشرع يعمـل به دون أن يؤمـر بالتبليغ، وذهب بعضهم إلى أنه يؤمر بالتبليغ للمؤمنين به دون المخالفين في العقيدة.

والرسالة: هي بعث الله من اصطفاهم من عباده إلى المكلفين ليبلغوهم عنه تعالى ما أراد تبليغه، ليزيح بها عللهم فيما قصرت عنه عقولهم، من مصالح الدنيا والآخرة، وهي تكون بواسطة ملك أو بدونه.

الرسول والنبي:

لقد اختلف العلماء في بيان المعنى للرسول والنبي. فقال بعضهم: إنهما متساويان في المعنى، فالرسول: هو إنسان حر ذكر بعثه الله إلى الخلق لتبليغ الأحكام إليهم ومثله النبي.

أما جمهور أهل السنّة فيقولون بأن النبي أعمّ من الرسول لأنه يشترط في الرسول أن يكون صاحب كتاب وشريعة متجددة، بخلاف النبي فإنه

(١) يونس/٥٧.

لا يشترط فيه ذلك، كما يشترط التبليغ في الرسول أيضاً بخلاف النبي فهو أعم من الرسول، فكل رسول نبي ولا عكس.

جاء في شرح الطحاوي «وقد ذكروا فروقاً بين النبي والرسول، وأحسنها أن من نبأه الله بخبر السماء إن أمره الله أن يبلغ غيره فهو نبي رسول، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره فهو نبي وليس برسول، فالرسول أخص من النبي، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً، ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها، فالنبوة جزء من الرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف الرسل، فإنهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم، بل الأمر بالعكس فالرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها..»[1].

هذا، ويذهب الإمام ابن تيمية إلى قول آخر في بيان المعنى للنبي وللرسول فيقول في: كتابه «النبوات» إن النبي، هو الذي ينبئه الله تعالى، فإن كان مع إنبائه بما أنبأه الله قد أرسل إلى قوم خالفوا أمر الله ليبلغهم رسالة من الله إليهم فهو رسول، وأما إن كان يعمل بشريعة الرسول قبله ولم يرسل هو إلى أحد ليبلغه عن الله رسالة، فهو نبي وليس برسول، قال تعالى: ﴿ وما أرسلْنا من قبلِكَ من رسولٍ ولا نَبِيّ إلا إذا تَمَنَى أَلْقى الشيَّطانُ في أمْنِيته ﴾[2]. فقال (من رسول ولا نبي) فذكر الارسال الذي عم النوعين ولكنه خص أحدهما بأنه رسول، وإذن فهو الرسول المطلق الذي أمر بتبليغ رسالته إلى من خالف الله تعالى كنوح عليه السلام.

أما الأنبياء، فإنهم يأتيهم وحي من الله تعالى يتضمن ما يفعلونه، ومع ذلك يأمرون به المؤمنين الذين عندهم لكونهم مؤمنين بهم، وذلك مثل أهل الشريعة الواحدة الذين يأخذون عن العلماء ما يبلغونهم عن الرسول، وذلك

---

(١) راجع شرح الطحاوية/٨٢.

(٢) الحج/٥٢.

مثل أنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يأمرون بشريعة التوراة، ولا يمنع هذا أن يوحي الله إلى أحدهم وحياً خاصاً في قصة معينة، ذات معنى خاص من شريعة التوراة، كالعالم الذي يفهمه الله في قضيـة ما، معنى يطابق نصاً من القرآن الكريم، كما أفهم الله سبحانه سليمان حكم القضية التي حكم فيها هو وداود عليهما السلام ومع ذلك فهما مبعوثان على شريعة التوراة.

فالأنبياء هم الذين ينبئهم الله تعالى فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره، ثم هم ينبئون المؤمنين بهم بما أنبأهم الله به من الخبر والأمر والنهي، فإن أرسلوا إلى كفار يدعونهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له كانوا رسلاً، وقد جرت العادة في الرسول أن يكذبه قوم، قال تعالى: ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾[١] وقال: ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾[٢] فإن الرسل ترسل إلى مخالفين في العقيدة غير مؤمنين بهم ولا بد أن يكذبه بعضهم[٣].

وتحقيق القول في هذا أن في قول الله تعالى في الآية السابقة ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ دليل على أن النبي مرسل، ولكنه لا يسمى رسولاً على وجه الإطلاق، لأنه لم يرسل إلى قوم لا يعرفونه، بل كان يأمر المؤمنين به بما يعرفون أنه حق، كالعالم في أهـل ملّته.. ولهـذا قال النبي ﷺ «العلماء ورثـة الأنبيـاء». أو كـما قيـل «علماء أمتي كـأنبيـاء بني إسرائيل».

كما أنه ليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة، فإن يوسف عليه السلام كان رسولاً ولكنه على ملّة إبراهيم عليه السلام قال تعالى عن مؤمن آل فرعون ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما

(١) الذاريات/٥٢.
(٢) فصلت/٤٣.
(٣) راجع النبوات لابن تيمية فقرة الرسول والنبي.

جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾[1] فسماه الله رسولاً، وكان داود وسليمان عليهما السلام رسولين وكانا على شريعة التوراة فبين الله أنهما من الرسل في قوله تعالى: ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وأتينا داود زبورا ﴾[2].

هذا، والمختار هو ما ذهب إليه الإمام ابن تيمية توافقاً مع معنى الآية الكريمة، فقد نصّت على أن النبي مرسل من قبل الله تعالى مثله مثل الرسول إلا أن الذهاب إلى كون الرسول هو ما كان مكلفاً بالرسالة على وجه الإطلاق هو الأوجه، لتشمل رسالته المخالفين في العقيدة والمشركين في الوحدانية، كما تشمل المؤمنين والموحدين ممن أرسل إليهم، بخلاف النبي فإن رسالته لا على وجه الإطلاق وإنما هي رسالة محدودة إلى قوم مؤمنين به غير مكذبين له، كما يتفق هذا الرأي أيضاً مع ما جاء في القرآن من وصف أنبياء بني إسرائيل بالرسالة مع كونهم مبعوثين على شريعة موسى عليه السلام وكتابه، وإذن فلا يشترط أن يكون للرسول كتاب أو شريعة معتمدة على رأي الإمام ابن تيمية.

٤ ـ الحكمة من بعثة الرسول:

إن بعثة الرسول ـ أيّ رسول ـ لطف من الله بعباده ورحمة، وقد اقتضت حكماً ومصالح لا تحصى، منها مؤازرة العقل فيما يمكن أن يستقل بمعرفته مثل وجود الله وعلمه وقدرته، فيؤكده النبي، ويكون ذلك بمثابة تضافر الأدلة العقلية والنقلية على مدلول واحد تأكيداً للإلزام بحد أقصى، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

ومنها: إستفادة الحكم من الأنبياء فيما لا يستقل العقل به، ويعجز عن إدراكه، مثل مبحث الكلام، وعالم الجن والملائكة والبرزخ والمعاد الجسماني

---

(١) غافر/٣٤.

(٢) النساء/١٦٣.

وما بعده من حساب وصراط وجنة ونار. . . الخ، وكون الصوم حسناً في يوم كذا وقبيحاً في يوم كذا وغير ذلك، فيبينه الرسول ويدل عليه ويرشد إليه، وما تردد فيه العقل دون رجحان لأحد الطرفين عنده فإن الرسول يرفع الاحتمال فيه ويزيل الإبهام عنه، فإن كان حسناً أوجب فعله وإن كان قبيحاً أوجب تركه.

ومنها: إزالة الخوف الحاصل عند إتيان العبد بالحسنات، لكون إتيانه بها تصرفاً في ملك الله بغير إذنه، فلو لم يعلم العبد أن الله راض عنها، طالب لها، لم يأمن أن يكون آتياً بغير ما يرضاه الله سبحانه، ولا سبيل إلى علم رضاه سبحانه بفعل ذلك إلا من طريق الرسل.

ومنها: تعليم الأخلاق الفاضلة الراجعة إلى الأشخاص والسياسات الكاملة العائدة إلى الجماعات في المنازل والمدن.

ومنها: الإخبار بتفاصيل ثواب المطيع وعقاب العاص ترغيباً في الحسنات وتحذيراً من السيئات، وأصول التعامل المثالي بين الناس والله، وبينهم وبين بعضهم، إلى غير ذلك من الفوائد العظيمة وهي كثيرة.

وبعد هذا التحقيق في هذه الفقرة، فإن الحق ما ذهب إليه أهل السنّة، من أن البعثة لطف من الله تعالى ورحمة كما هو مذهبهم في سائر الألطاف، وتكون لمن يختصه الله بفضله ويشاؤه من عباده، وهي منحة من الله تعالى للنبي والرسول وليست أمراً مكتسباً خلافاً للفلاسفة، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

٥ ـ حكم إرسال الرسل:

اختلفت المذاهب في حكم إرسال الله للرسل، فذهب أهل السنّة إلى أن إرسال الرسل جائز عقلاً وواقع فعلاً. أما أنه جائز عقلاً، فلأنه فعل من

أفعال الله تعالى، وقد ثبت أن أفعال الله لا يجب ولا يستحيل شيء منها عليه تعالى.

وأما أنه واقع فعلاً، فلأنه قد ثبتت رسالة سيدنا محمد ﷺ وصدقه فيما أخبر به، وقد أخبر عليه الصلاة والسلام بأن الله أرسل رسلاً كثيرين وبيّن لنا بعضهم، والرسالة منحة من الله تعالى للنبي والرسول وليست أمراً مكتسباً كما سبق بيانه.

٦ ـ حكم الإيمان بالرسل والأنبياء:

الإيمان بالأنبياء والرسل ركن من أركان الإيمان، من أنكره فقد كفر، لأن الله تعالى يقول: ﴿ آمَنَ الرَّسولُ بما أنزل إليه من ربِّه والمؤمنونَ كلٌّ آمَنَ بالله وملائكته وكُتُبه ورُسُله لا نُفَرِّقُ بين أحدٍ من رُسُله ﴾[١].

ويقول: ﴿ إن الذين يكفرون ويُريدون أن يفرقوا بين الله ورسُلُه ويقُولُونَ نؤمِنُ ببعضٍ ونكفر ببعضٍ ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً ﴾[٢].

وقوله ـ ﷺ ـ في جوابه لجبريل حين سأله عن الإيمان فقال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله»[٣].

٧ ـ هل يجوز حصر الأنبياء في عدد:؟

هذا، ولا يجوز حصر الأنبياء والرسل في عدد، لأن بيان عددهم لا يعلم يقيناً إلا من الشرع الحكيم، ولم يرد في بيان عددهم دليل قاطع من كتاب أو سنّة، ولأن حصرهم في عدد قد يؤدي إلى أن يدخل في عدادهم من ليس منهم في الواقع، أو يخرج منهم من هو منهم حقيقة، ولأن الله تعالى قال في كتابه مخاطباً نبيه ﴿ ولقد أرسلنا رسُلاً من قبلِك منهم من قصَصْنا عليك ومنهم من لم نَقْصُص عليك ﴾[٤].

---

(١) البقرة/٢٨٩.
(٢) النساء/ ١٥٠، ١٥١.
(٣) رواه البخاري في باب الإيمان.
(٤) غافر/٧٨.

وإذن فيجب الإيمان بأن الله بعث إلى خلقه رسلاً وأنبياء كثيرين هداية لهم وإرشاداً، فمن لم يثبت تعيينه منهم وجب الإيمان به إجمالاً، ومن ثبت تعيينه منهم وجب الإيمان به على التعيين، والذي ثبت تعيينه منهم خمسة وعشرون نبياً ورسولاً، ورد منهم ذكر ثمانية عشر في آية من كتاب الله هي قوله تعالى: ﴿ وتلك حُجَّتُنا أتيناهَا إبراهيمَ على قَومِهِ نَرْفَع درجاتٍ من نَشاءُ إن ربك حَكيمٌ عليم ووهبْنا له إسْحَق ويعقوبَ كلاً هَدَيْنا ونوحاً هَدَيْنا من قبلُ ومن ذرِّيتِه داودَ وسليمان وأيوبَ ويوسفَ وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين. وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كلٌّ من الصالحين وإسماعيل واليسعَ ويونس ولوطا وكلاً فضَّلنا على العالمين ﴾.

والسبعة الباقون هم: ادريس، هود، شعيب، صالح، ذو الكفل آدم، محمد خاتم النبيين والمرسلين.

وترتيبهم الزمن كالآتي: آدم، إدريس، نوح، هود، صالح، إبراهيم، لوط، إسماعيل بن إبراهيم، إسحق بن إبراهيم، يعقوب بن إسحق، يوسف بن يعقوب، أيوب، ذو الكفل بن أيوب، شعيب، موسى، هارون، إلياس، إليسع، داود، سليمان بن داود، يونس، زكريا، يحيى بن زكريا، عيسى، محمد.

وقد نظمهم البعض في قوله:

حتم على كل ذي التكليف معرفة ... بأنبياء على التفصيل قد علموا
في تلك حجتنا منهم ثمانية ... من بعد عشر ويبقى سبعة وهم
إدريس هود صالح شعيب وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

أولو العزم من الرسل:

وإذا كنا نؤمن برسل الله جميعاً إيماناً واحداً متساوياً دون تفريق ﴿لا نفرق بين أحد من رسله ﴾[1] فإننا نؤمن أيضاً بأن بعض الرسل أفضل من

---

(١) البقرة/٢٨٥.

بعض لأن المصاعب التي اعترضتهم ليست واحدة. ووقوفهم في وجه المصاعب ليس واحداً، ولذلك فإن فضلهم يتناسب مع الجهود التي بذلوها لنشر دين الله، مع تصميمهم على تخطي العقبات لإيصال الناس إلى شاطىء الأمن والسلام، والسعادة الدنيوية والأخروية قال تعالى: ﴿ تلكَ الرّسُلُ فضّلنا بعضَهُم على بَعْضٍ ﴾[١] والذين بلغوا القمة منهم في ذلك خمسة هم نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ويسمون بـ «أولي العزم» وقد نوه الله عنهم بقوله ﴿ فاصبرْ كما صَبَرَ أولو العَزْمِ من الرُّسُل ﴾[٢].

كما جاء حصرهم في قوله تعالى: ﴿ وإذا أخذنا من النبيين ميثاقَهم ومنكَ ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لكم من الدين ما وَصّى به نوحاً والذي أوحينا إليكَ وما وصَّيْنا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدينَ ولا تَتَفَرَّقوا فيه ﴾[٤].

---

(١) البقرة/٢٥٣.
(٢) الاحقا/٣٥.
(٣) الأحزاب/٧.
(٤) الشورى/١٣.



الوحي

الوحي هو الركن الأساسي في النبوات وبغير الوحي لا تكون نبوة.

١ ـ تعريف الوحي وبيان أنواعه:

الوحي في اللغة: الإعلام في خفاء، وبالمعنى الحاصل بالمصدر يقال: وحيت إليه، وأوحيت، إذا أسررت إليه بما تخفيه عن غيره.

والوحي أعم من أن يكون بكتابة أو إشارة أو إلهام، وهو بمعناه المذكور لا يختص بالأنبياء، كما لا يتحتم أن يكون من قِبَل الله إلى أنبيائه.

أما معناه في الشرع فهو: إعلام في خفاء صادر من الله تعالى بواسطة أو بغير واسطة.

وقد يطلق الوحي ويراد به الموحى به فيكون معناه: كلام الله المنزل على نبي من أنبيائه. قال تعالى: ﴿إن هُوَ إلا وَحْيٌ يُوحى﴾[1].

والفرق بين الوحي والإلهام الذي هو لغير الأنبياء، أن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب في داخلها من غير شعور بمصدره، وهو أشبه بوجدان الحزن والسرور والجوع والعطش.

أما الوحي فمصحوب بيقين النبي بأنه من قبل الله تبارك وتعالى،

---

(١) النجم/٤.

وتلك حالة يعرفها الأنبياء جيداً ولا اختلاط عليهم فيها.

٢ ـ أنواع الوحي:

الأول : أن يكلم الله سبحانه نبيه من غير واسطة، وقد حصل هذا لنبينا محمد ﷺ ليلة المعراج، كما حصل لسيدنا موسى عليه السلام عند المناجاة بالوادي المقدس، ولا يعني هذا أن كلامه بصوت أو بحرف، وإنما يكون بأن يدركه النبي بكليته من غير كيف ولا تحديد، لخاصة يخصه الله بها دون سائر البشر.

الثاني : ما يلقنه ملك الوحي المرسل من الله إلى رسول الله فيراه متمثلاً بصورة رجل أو غير متمثل، ويسمعه منه أو يعيه بقلبه، وقد أوحى الله بالقرآن إلى نبينا محمد ـ ﷺ ـ بهذا النوع، قال تعالى: ﴿ نَزَلَ به الرُّوحُ الأمينُ على قَلْبِكَ لتكونَ من المنذِرين بلسانٍ عربيٍّ مبين ﴾ (الشعراء ١٩٣ ـ ١٩٥).

الثالث : الإلهام، وهو أن يلقى في روع النبي وقلبه ما أراده الله من المعارف مع يقين النبي بأن هذا من قبل الله تعالى كما قال عليه الصلاة والسلام «إن روح القدس نفث في روعي: أحبب من أحببت فإنك مفارق وعش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزى به»[١] والجدير بالذكر أن هذا النوع من الإلهام هو غير الإلهام الذي يجده غير الأنبياء، إذ أن إلهام غير الأنبياء يكون خفي المصدر، أما الإلهام الذي هو الوحي فإن النبي يستيقن أنه من عند الله.

الرابع: الرؤيا في المنام:

فإن رؤيا الأنبياء حق وصدق، لأنها من قبل الله ويعملون بمقتضاها، قال ﷺ «رؤيا الأنبياء حق» وقد حصل ذلك لسيدنا إبراهيم عليه الصلاة

(١) ذكره الشيرازي في الألقاب والطبراني في الأصغر والأوسط.

والسلام، فقد رأى في المنام أنه يذبح ولده إسماعيل ولما استيقظ علم أنه مأمور بذلك من الله تعالى، ولما شرع في تنفيذ الأمر أكرمه الله برحمته ففدى ابنه بذبح عظيم ويروي القرآن هذه القصة في قوله تعالى: ﴿ فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم ﴾ (الصافات ١٠١ ـ ١٠٧).

وقد كانت الرؤيا الصادقة في النوم هي أول ما بدىء به الوحي لنبينا محمد ﷺ ـ فقد روي عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ ـ من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[١].

كما أن النبي ﷺ ـ رأى في منامه أنه وأصحابه داخلون المسجد الحرام معتمرين بعد طول غيبتهم عنه في المدينة بعد الهجرة، فندب الرسول أصحابه لأداء العمرة، وهي الرحلة التي كان على أثرها صلح الحديبية بين النبي والمشركين من قريش، وقد سجل القرآن ذلك فقال ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ﴾ (الفتح ٢٧).

٣ ـ إمكان الوحي:

إتفق العقلاء على أن الوحي ممكن عقلاً ولا استحالة في ذلك، لأن العقول السليمة لا تجد مانعاً من أن يصطفي الله من البشر أفراداً يظهر

---

(١) رواه البخاري في باب كيف بدأ الوحي.

نفوسهم ويزكي أرواحهم ويعدّهم إعداداً فطرياً خاصاً لتلقي وحيه تعالى ثم يوحي إليهم.

بيان ذلك:

فإن البديهة تقضي بأن درجات العقول متفاوتة، بعضها يعلو بعضاً، وأن الأدنى منها لا يدرك ما يدركه الأعلى إلا على وجه من الإجمال، وليس ذلك لتفاوت في مراتب التعليم والتهذيب فقط، بل لا بد معه من التفاوت في أصل الفطرة التي جبل الله الإنسان عليها، حتى إن أعقد النظريات عند بعض العقلاء تكون عند غيره من أجلى البديهيات بما أودع الله في الشخص من الاستعداد ما لا مدخل فيه لاختياره ذلك لنفسه، فإذا تحقق ذلك كان من الممكن أن تكون هناك نفوس بشرية خصها الله بكمالات تهيئوها لعلم حقائق الأشياء وإدراكها، ويكون لها من الصفاء ونقاء الجوهر بأصل الفطرة ما يجعلها مستعدة لتلقي الفيض الآلهي فتتصل بالملأ الأعلى، ويكون لها من القوة أن ترى الملك في صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها، وتسمع صوته وتفهم ما يوحي به إليها وتنتهي إلى أن تشهد من أمر الله بالعيان ما لم يصل إليـه أقل منها قوة عن طريق التعقل والبرهان، ثم يجعلها ذلك أهلاً لأن تتلقى من العليم الحكيم ما هو أجلى وضوحاً مما يتلقاه أحدنا عن المعلمين ثم تدعو الناس إلى ما تلقته وحملته لتبليغه إليهم.

هذا الإعداد وذاك الصفاء هو الركن الأول في إمكان الوحي.

أما الركن الثاني فهو وجود الملائكة وظهورهم لمن اختصه الله تعالى بالرسالة، وهذا أمر ممكن وليس مستحيلاً، فقد أثبت العلم أن من الموجودات ما هو ألطف من المادة وإن كنا لا ندرك حقائقه كالكهرباء مثلاً، ومع ذلك لا ننكر وجوده، فأي مانع من أن تشرق نفس الملك ـ وهو الموجود اللطيف ـ بشيء من العلم الإلّهي، ويكون للأنبياء اطلاع عليه بحسب استعدادهم الفطري ـ سيما وأن القرآن والسنّة النبوية قد أثبتتا وجود الملائكة في كثير من

المواضع فقال تعالى: ﴿وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾[١] إلى غير ذلك وقال ﷺ «إن الملائكة تنزل في العنان - وهو السحاب - فتذكر الأمر قضى في السماء، فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»[٢] - وقال الله في شأن نزول الوحي على النبي بواسطة الملك ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾[٣] ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبّت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمؤمنين﴾[٤].

وما دام قد توفر الركنان فأي مانع يمنع من إمكان الفعل، وهو الوحي، فالركن الأول، وجود النفس الطاهرة الزكية التي بقوة ترى ما لا يراه الناظرون، والركن الثاني، هو وجود الملك كنوع من الخلق يكون واسطة بين الرسول كبشر ومعرفة مكنون الأسرار القدسية.

٤ - وقوع الوحي:

أجمعت الشرائع والأديان السماوية على وقوع الوحي من الله تعالى لمن اختاره الله واختصه بنبوته، فيكون واسطة بين الله تعالى وبين المكلفين من خلقه في تبليغ أحكامه إليهم، ولم ينكر هذا إلا مكابر أو معاند.

أما دليل وقوعه من الله تعالى لأي من أنبيائه فله طرق ثلاثة:

الأول : المعجزة التي ظهرت على يد النبي.

الثاني : الخبر المتواتر.

الثالث : إخبار الرسول بأمور لا يعرفها إلا الله تعالى، وهو الصادق فيما أخبر من تحقق وقوع الوحي له.

---

(١) البقرة/٣٠.

(٢) رواه البخاري في باب بدء الخلق من حديث عائشة.

(٣) الشعراء/ ١٩٣ - ١٩٥.

(٤) النحل/١٠٢.

أما دلالة المعجزة على وقوع الوحي، فهي دليل بالنسبة لمن حضر زمن النبي - ﷺ - وشاهد المعجزة التي ظهرت على يديه، وشهودها يفيد من شاهدها اليقين بصدق من ظهرت على يديه في دعواه الرسالة وأن الله أوحى إليه.

وأما الخبر المتواتر بوقوع الوحي، فهو دليل بالنسبة لمن لم يحضر زمن النبي ولم يشاهد ما ظهر على يديه من المعجزات.

والتواتر: هو نقل أخبار الوحي بطريق الجمع الكثير في كل جيل، بأن يكون النقل من جمع إلى جمع يؤمن معه عدم اتفاقهم على الكذب.

وهو يفيد اليقين لمن سمع بوقوع الوحي وحصوله للنبي المخبر عنه، وهناك كثير من الأنبياء تواتر الخبر برسالتهم، وأن الوحي وقع لهم، كسيدنا إبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام.

وأما خبر الصادق المعصوم ﷺ بذلك الوقوع، وبعبارة أخرى، إخباره بأمور لا يطلع عليها ولا يعرفها إلا الله، وأنه أوحى إليه بها.

وإخبار النبي بوقوع الوحي له من الله دليل على ذلك الوقوع لمن لم يحضر زمن النبي المخبر بوقوعه، واخباره هذا يفيد اليقين أيضاً بالمخبر به لمن سمعه وحضر زمنه كسابقه، وذلك مثل اخبار النبي محمد ﷺ بأن الله بعث رسلاً كثيرين وأنبياء، وأنه أوحى إليهم وأيدهم بمعجزاته، فهذا يفيدنا اليقين بوقوع الوحي لهؤلاء الأنبياء، كما يدلنا القرآن الكريم، معجزة النبي الخالدة بأن الوحي وقع له، وهو يفيدنا اليقين، لأنه خبر الصادق المعصوم ﷺ الذي أخبرنا بما لا يعلم إلا عن طريق علّام الغيوب سبحانه وتعالى.

صفات الرسل

تقديم:

يجب أن يتصف الرسل إجمالاً بصفات، كما يجب أن يتصفوا تفصيلاً بصفات أخرى.

أما إجمالاً فإنه يجب أن يتصفوا بكل كمال بشري، سواء كانت هذه الصفات خَلْقية أو خُلُقية. فالخُلُقية مثل العدل، والشجاعة، والوفاء بالعهود، وحسن الخلق وعلو في النسب، والعفّة، والكرم، وغير ذلك، وأما الخَلْقية، فهي سلامة أبدانهم مما تتقزز منه النفوس وتنفر منه الطباع والأذواق السليمة، كالبراءة من النقائص والعيوب المرضية، كالعمى، والعرج، والشلل، والبكم، والصمم، والجذام والبرص، ودمامة الوجه، وكذلك الأمراض العقلية، إلى غير ذلك مما يعد نقصاً في هذا الباب.

وأما تفصيلاً فإنه يجب لهم الصدق، والأمانة، والتبليغ والفطانة، وإليك بيان كل صفة ودليل وجوبها للأنبياء.

١ - صفة الصدق:

يجب اتصاف الأنبياء والمرسلين بهذه الصفة، **والصدق**: مطابقة الخبر للواقع، ولو أن تكون هذه المطابقة بحسب ما يعتقده النبي، وذلك ليدخل فيه قول النبي - ﷺ - لذي اليدين «كل ذلك لم يكن» حينما سأله قائلاً:

«أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله؟» وذلك لأن النبي كان يصلي الظهر فسلّم من ركعتين ناسياً، فالواقع بحسب اعتقاده أنه لم ينس ولم تقصر الصلاة، فقوله «كل ذلك لم يكن» صادق بهذا الاعتبار.

والصدق في حقهم إما أن يكون في دعوى الرسالة وفي كل ما يبلغونه عن الله من أحكام شرعية وغير شرعية، أو يكون في الإخبارات الأخرى التي لا تتعلق بالبلاغ عن الله، وهي الإخبارات العادية مثل مجيء فلان أو قيامه، **فدليل صدقهم** هو المعجزة في دعوى الرسالة وتبليغ الأحكام الشرعية، لأنها مسوقة للتدليل على صدقهم في دعوى الرسالة وفي كل ما يبلغونه عن ربهم، فلو جاز كذبهم في ذلك لجاز الكذب في خبر الله تعالى، لأنه صدقهم بالمعجزة التي هي بمنزلة قول الله ﴿ صدق عبدي في كل ما يبلغ عني ﴾ فلو كذبوا لأدى ذلك إلى كذب الله تعالى في مثل القول المذكور، والكذب على الله تعالى محال، فاستحال إذن عليهم الكذب، ووجب لهم الصدق قال تعالى: ﴿ وصدق الله ورسوله ﴾ (الأحزاب/٢٢) وقال ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ (النجم/٣).

وأما دليل صدقهم في الإخبارات غير البلاغية فسيأتي عند الحديث عن عصمة الأنبياء.

٢ ـ صفة التبليغ:

تعريفه ودليل وجوبه:

فهو توصيل الرسل جميع ما أمروا بتبليغه إلى من أرسلوا إليهم، فلو جاز عليهم أن يكتموا شيئاً مما أمروا بتبليغه لكان ذلك جناية عظمى مضيعة لفائدة الرسالة، ونكون نحن أيضاً مأمورين بكتمان العلم لأن الله تعالى أمرنا بالاقتداء بهم، لكن أمرنا بكتمان العلم باطل لأن كاتم العلم ملعون كما يقول القرآن الكريم ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من

بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾[1] وإذن فكتمان الأنبياء شيء وجب عليهم تبليغه باطل وثبت وجوب التبليغ لهم قال تعالى: ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾[3] ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾[4] ثم إن الرسل شهداء على الأمم يوم القيامة، وكيف تقوم شهادتهم عليهم إذا كتموا ما أمروا بتبليغه؟.

٣ ـ صفة الفطانة

تعريفها ودليل وجوبها:

الفطانة عبارة عن حدة العقل، وصفاء الذهن، وسرعة الإدراك، وحضور البديهة، وقوة الحجة، ولو لم تجب صفة الفطانة للرسل لكانوا عاجزين عن إقامة الحجة على خصومهم، وما استطاعوا أن يبطلوا الشبه الواردة عليهم من هؤلاء الخصوم، فتضيع بذلك فائدة الرسالة، لأن الله ما أرسلهم إلا للإرشاد بالأدلة القاطعة، وإقامة الحجة الواضحة لإثبات دعواهم وإبطال شبه المنكرين، وإذا ثبت وجوب هذه الصفة لهم فإنه يستحيل عليهم ضدها وهو الغفلة وبلادة الذهن.

ولو لم تجب لهم صفة الفطانة لكانت بلادتهم من العوامل التي تنفر منهم أذكياء قومهم وأن يحرجوهم ويسخروا منهم، وهذا مما يتنافى مع الهدف والغاية من الرسالة وهي هداية الناس إلى الحق.

٤ ـ صفة الأمانة:

تتناول هذه الصفة معنيان **الأول**: الأمانة بمعنى أن يحفظ الأنبياء ما

---

(١) البقرة/١٥٩.
(٢) المائدة/٦٧.
(٣) النحل/٣٥.
(٤) النور/٥٤.

ائتمنهم الناس عليه من حقوق واختصاصات، الثاني عصمة الأنبياء من الخيانة في الرسالة وتمام أدائها، وعصمتهم كذلك من ارتكاب ما يخل بكرامتهم من التلبس بمحرم أو عمل دنيء، وإليك بيان كل من هذين المعنيين:

أما المعنى الأول: فإنه لو لم يكن الرسول أميناً على ما تحت يده من حقوق الآخرين واختصاصهم لما ائتمنهم الناس على الدعوة، ولا نتزعت منهم ثقة الناس على دينهم وشهروا بهم، وشنعوا عليهم، لأنهم إذا لم يكونوا أمناء على أعراض الدنيا وهي فانية زائلة، فلا يكونون أمناء على دين الله وشرعه، فتضيع الفائدة من البعثة، ولذلك كانت صفة الأمانة بمعناها العام هي سيما الأنبياء وأساس دعوتهم، وصيغة موحدة جاءت على لسان كل نبي حال عرضه لدعوته، ودليل على حرصه الحاني في ترغيب قومه في الإيمان والثقة في كل ما يدعوهم إليه، يقول القرآن الكريم عن نوح عليه السلام ﴿ إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون، إني لكم رسول أمين ﴾[1] ويقول عن هود ﴿ إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون إني لكم رسول أمين ﴾[2] وعن صالح يقول الله تعالى: ﴿ إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إني لكم رسول أمين ﴾[3] وهذا لوط يقول الله عنه ﴿ إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إني لكم رسول أمين ﴾[4] وهذا شعيب يقول: ﴿ إذ قال لهم شعيب ألا تتقون إني لكم رسول أمين ﴾[5] وفي نبي الله موسى يقول الله تعالى: ﴿ إن أدوا إليَّ عباد الله إني لكم رسول أمين ﴾[6] وأما خاتم النبيين

---

(١) الشعراء/١٠٦، ١٠٧.

(٢) الشعراء/١٢٤، ١٢٥.

(٣) الشعراء/١٤٢، ١٤٣.

(٤) الشعراء/١٦١، ١٦٢.

(٥) الشعراء/١٧٧، ١٧٨.

(٦) الدخان/١٨.

محمد ـ ﷺ ـ فكان يلقب قبل البعثة في قومه (بالأمين) وهكذا تكون الأمانة هي الصفة العامة المشتركة بين جميع الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم.

أما المعنى الثاني: وهو عصمتهم مما يخل بالرسالة من خيانة وتلبس بالمعاصي، فقد عرفنا فيما سبق أن الله تعالى اختار أنبياءه من صفوة خلقه وجعلهم واسطة بينه وبين عباده في تبليغ شرائعه، لذلك فضلهم على سائر مخلوقاته، فطهرهم وأتم خلقهم، وصفى أرواحهم، وبرأ خلقهم من المعايب وخلقهم من المعاصي والدناءات، ومساوىء الأخلاق ورذيل الخصال، ثم أيدهم بالمعجزات، وصرفهم عن شواغل الدنيا.

كما خصهم بكمال الفطنة وقوة الرأي، وتبعاً لذلك فقد عصمهم من المعاصي الفعلية والقولية والقلبية، فحفظهم ظاهراً وباطناً حتى ظهروا في ثوب الفضيلة، ليكونوا قدوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وإليك التفضيل لصفة العصمة.

٥ ـ صفة العصمة

أ ـ معنى العصمة

العصمة هي حفظ الله ظواهر الأنبياء والرسل وبواطنهم من التلبس بمحرم أو مكروه من قول أو فعل.

ومعنى حفظ ظواهرهم من التلبس بمحرم أو مكروه: أنهم لا يرتكبون معصية كالزنى والسرقة ونحو ذلك.

ومعنى حفظ بواطنهم من التلبس بمحرم أو مكروه: أن بواطنهم محفوظة من الكبر والعجب والحسد وسائر الأمراض القلبية ولا تتوجه إرادتهم إلى شيء من ذلك.

وبعبارة أخرى: العصمة عبارة عن عدم خلق الله تعالى ذنباً في النبي،

بمعنى أن إرادة النبي لا تتعلق بذنب، فيترتب على تعلقها خلق ذلك الذنب، فقد عرفنا أن الأشياء مخلوقة لله مكسوبة للعبد.

ب ـ دليل العصمة:

أما دليل عصمتهم: فلأنه لو لم تجب لهم العصمة لجاز أن يكون المحرم أو المكروه طاعة وهو تناقض، ولأن الله تعالى أمرنا بالاقتداء بهم في أقوالهم وأفعالهم وجميع أحوالهم، فقال تعالى في لزوم طاعة النبي ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾[١] وقال ﴿ واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾[٢] وقال سبحانه ﴿ أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده ﴾[٣] والله سبحانه لا يأمر إلا بما هو طاعة، قال تعالى: ﴿ إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾[٤].

وجواز كون المحرم أو المكروه طاعة باطل، لما يلزمه من اجتماع النقيضين، وهما: الإذن بالشيء من جهة أنه طاعة ـ وهو وجوب اتباع الرسول في فعل المحرم أو المكروه ـ وعدم الإذن به من جهة أنه معصية، فكون العصمة منفية عن الأنبياء باطل، وثبت لهم وجوبها، كما أن وجوب عصمتهم ثابت بالإجماع.

جـ ـ آراء العلماء في عصمة الأنبياء:

وقد اختلف العلماء في أمر العصمة، فقال بعضهم: إن الأنبياء معصومون عن الذنوب الكبائر عمداً، قبل البعثة وبعدها، وذلك لأن الكبائر إما أن تكون شركاً، وهو أكبر الكبائر، وإما أن تكون غيره، كالقتل، والزنى، والسرقة، وغير ذلك من الكبائر، ولا ريب في أن الأنبياء الذين اصطفاهم الله

---

(١) آل عمران/ ٣١.
(٢) الأعراف/١٥٨.
(٣) الأنعام/ ٩٠.
(٤) الأعراف/ ٢٨.

من خلقه لا يصح أن يدنسوا بشيء من هذه القاذورات، لا قبل البعثة ولا بعدها، أما بعد البعثة فالأمر ظاهر، وأما قبلها فلأنه يوجب تحقيرهم في أعين الناس، وعدم الإصغاء إلى ما يدعون إليه، فلذا كان من الضروري أن يعصمهم الله من الذنوب الكبيرة قبل البعثة وبعدها.

كما أنهم غير معصومين عن الخطأ والنسيان في غير التشريع الذي يوحيه الله إليهم، لأنهم بشر يجوز عليهم ما يجوز على غيرهم، على أن الله تعالى يحفظهم من كل شيء ينافي الدعوة إلى الله تعالى، كالأمراض المنفرة، وأما ما يقصه بعض المفسرين من أن الله تعالى قد ابتلى أيوب بمرض أكل جسمه حتى لم يبق منه سوى القلب واللسان، فهو غير صحيح قطعاً، وغير مقبول، والذي يدل عليه كتاب الله أن الله تعالى قد ابتلى أيوب بمرض في بدنه، وضياع لماله وتفرقة بينه وبين أهله، فأما نوع المرض فينبغي أن لا يكون منافياً للدعوة، ومنفراً للناس، لأن الأنبياء يحفظهم الله من الأمراض المعدية المنفرة للناس، كالجذام، والبرص وسائر الأمراض الجلدية، خصوصاً التي يترتب عليها تشقق الجسم، وتولد الديدان فيه، لأن تلك حالة تعافها الناس، نعم يصح أن يصابوا بها زمناً يسراً، ثم يبرؤا منها، ليزيد اعتقاد الناس فيهم، ولكن المولعين بالمبالغة والإغراق في القصص الخيالية قد نسبوا إلى أيوب المرض الجلدي العضال، الذي ترتب عليه تناثر الدود من بدنه، وسقوط لحمه حتى لم يبق منه سوى قلبه ولسانه، وأنه مكث على ذلك سنين طوالاً، وفي هذا زيادة على ما في كتاب الله بلا دليل عليها، بل العقل يكذبها قطعاً.

وأما ضياع المال، والتفرقة بين الإنسان وأهله فذلك أمر عادي كثير الوقوع، فلا يحتاج إلى تعليل، وقد أخبر الله أنه صبر على بلائه، وأنه قد عافاه، ورد له ما فقد من مال، وجمع بينه وبين أهله، وأما ما حكاه الله عنه من قوله: ﴿ مسني الشيطان بنصب وعذاب ﴾[1] فمعناه: أن الشيطان كان

---

(١) ص/ ٤١.

يوسوس له ليصرفه عن الصبر الذي به يعظم الأجر، وكان يجد لمقاومة هذه الوسوسة عناء وتعباً، فشكا إلى الله تعالى ليصرفها عنه، ومما لا شك فيه أن الشكاية لله تعالى لا تنافي الصبر، بل هي جزء من الصبر، لأنها خشوع لله ورجوع إليه، فالمس: معناه الوسوسة وقد عبر عنها بالمس، لأن الموسوس يخالط الإنسان، ويتصل به.

هذا هو رأي بعض علماء المسلمين، وهو أن الأنبياء معصومون عن الكبائر مطلقاً عمداً أو سهواً قبل البعثة وبعدها، وهو القول الحسن الجميل، لأن ارتكابهم لذلك يكون طريقاً إلى إقامة الحجة عليهم بعد البعثة، والطعن عليهم إن كانت قبل البعثة.

أما بعد البعثة فهم معصومون أيضاً عن الكذب فيما دلت المعجزة على صدقهم فيه، وهو دعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى.

أما الصغائر فإن كانت من صغائر الخسة التي تدل على دناءة النفس وضعف الشخصية كسرقة لقمة أو تطفيف الكيل بحبه، فهم معصومون عنها عمداً أو سهواً قبل البعثة وبعدها، لسمو نفوسهم وعلو هممهم لأنها منفرة.

أما إن كانت غير خسيسة فتمتنع عليهم عمداً، أما سهواً فتجوز عليهم قبل البعثة أو بعدها.

ونحن نميل إلى أنه يمتنع عليهم كل ما يستلزم النفرة ولو كان ذلك قبل النبوة، سواء كان منشأ ذلك في الخِلْقة مثل الجذام والبرص والجنون وغير ذلك، أو كان ذلك في الخُلُق كالحمق وارتكاب الكبائر والمعاصي وكذلك فجور الآباء والأمهات.

وبعضهم يرى أن العصمة ضرورية بعد البعثة فقط أما قبلها فلا، لأنه لا دليل على امتناع صدورها منهم، واستدلوا على رأيهم بما ذكره القرآن عنهم مما يفيد أنه كبيرة ولأن الأنبياء معذورون بالبيئة التي نشأوا فيها، خصوصاً أن

الله تعالى لم يكلف أحداً منهم في مثل هذا الوقت، فإذا وقعت منهم ذنوب شائعة في بيئتهم فإنهم لا يكونون معصومين عنها، فما نسب إليهم من الذنوب الكبيرة يحمل على أنه قبل البعثة لا بعدها، وهذا القول هو المعروف عند الجمهور.

ولكن الرأي الأول الذي رجحناه وملنا إليه هو الأحسن والمختار، لأن الذين يصطفيهم الله من خلقه ليرسلهم إليهم لا بد أن يكونوا محل عناية الله سبحانه وحفظه، فهو القادر على أن يعصمهم من الكبائر، وهو القادر على أن يجنبهم ما انغمست فيه البيئة من الفساد، كما وقع ذلك لسيدنا محمد ـ ﷺ ـ فالله قد حفظه من كل نقائص بيئته، وحماه من كل صغيرة وكبيرة تنقص قدره الكريم.

أما القول بأنهم غير معصومين بعد البعثة إلا في شيء واحد هو التبليغ عن الله تعالى، فانهم معصومون فيه عن الكذب والخطأ والنسيان، وما عداه فهم غير معصومين عنه، فهو غير سديد، لأن الرسول الذي يرتكب الكبيرة ويحرمها على الناس محال أن يكون محل تكريم الناس، فإذا وقع من الرسول أمر حرام، فمعناه الترخيص للناس في فعله كما مر في الدليل على العصمة، فلا يصح أن يكون حراماً عليهم، إذ كيف يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم؟

د ـ عصمتهم عن السهو والنسيان:

أما التحقيق في مسألة عصمتهم من السهو والنسيان، فإنه يستحيل عليهم السهو والنسيان فيما أمروا بتبليغه، سواء كان خبراً أو إنشاء، كما يستحيل عليهم السهو في الإخبار بخبر غير بلاغي كالإخبار بأن فلاناً قام أو أن فلاناً حضر.

أما السهو في الأفعال البلاغية من أجل التشريع فجائز لبيان الحكم،

كما في حديث ذي اليـدين المتقدم، إذ دلالة الفعل أقوى من دلالة القول.

والنسيان وهو مخالفة الصواب من غير رجوع له أصلاً فهو مستحيل في حقهم في البلاغيات قبل تبليغها قولية كانت أو فعلية. . . أما نسيان المنسوخ فيصح منهم قبل التبليغ ما دام لم يتقرر أو بعد التبليغ ما دام قد نسخ.

وبالجملة: فالله يعصم الأنبياء عما ينافي الدعوة إليه حساً ومعنى وما يقال غير ذلك فهو غير سديد.

هـ ـ دفع شبهات توهم عدم عصمة الأنبياء:

هذا، وقد يعترض على عصمة الأنبياء بأمور:

أحدها: ما وقع من آدم من العصيان الذي عبر الله عنه بما يفيد أنه كبيرة، حيث قال تعالى: ﴿ وعَصَى آدمُ ربَّه فغوى، ثم اجتباه ربُّه فتاب عليه وهدى ﴾، فالغواية والتوبة يدلان على أنه ارتكب كبيرة.

ويجاب على ذلك بأن هذه المعصية التي ارتكبها آدم عليه السلام هي معصية صُوريّة ـ أي هي قد جاءت في صورة معصية من حيث الظاهـر، والحقيقة أنها لا معصية في ذلك وبيان ذلك: أن الله تعالى أحب أن تعمر هذه الأرض بذرية آدم، وجعل الوسيلة لذلك مخالفة آدم أمر الله تعالى، وأحب آدم عليه السلام أن لا يفقد القرب من الله وسكنى جنته، ولما وسوس له إبليس بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها، وأدخل في روعه أن الله إنما نهاه عن الأكل من الشجرة لأن أكله منها يجعله خالداً في الجنة، وصدق آدم إبليس فأكل من الشجرة.

فأكل آدم من الشجرة لم يكن المقصود منه معصية الله، بل المقصود منه الحفاظ على القرب من الله، وهذا ليس بمعصية ثم ان الله تعالى لم يغضب

من هذا الأكل لأنه قد تحقق، ما يحبه، ولذلك قلنا أن هذه المعصية هي معصية صورية وليست حقيقية.

وبالجملة فما وقع من آدم حكاية لصورة حقيقية تصور ما سيكون عليه ذلك النوع، وما سيلاقيه في حياته الدنيا، وذلك أمر لا بد منه، سنة الله تعالى في عباده، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، فآدم وإن عصى الله في الظاهر، لكنه فعل ما لا بد منه في الواقع، حتى قال بعض الصوفية: إنه مأمور في الباطن، وقال بعضهم: لو كنت منه لأكلت الشجرة كلها، وذلك حسن.

ثانيها: ما نسب إلى آدم وحواء من أنها لما حملت حواء أتاها إبليس في صورة لا تعرفها، وقال لها: إني أخاف أن يكون في بطنك بهيمة، فلما أثقلت، خافت من قوله، وظنت أنها تحمل بهيمة حقاً، فأتاها إبليس ثانياً، وقال لها: إن دعوت لك فولدت إنساناً تسميه باسمي «عبد الحارث»؟ فرضيت وعرضت الأمر على آدم فرضي، فلما ولدت سمت ولدها ـ عبد الحارث ـ «والحارث» اسم إبليس، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ هو الذي خلقكم من نَفْسٍ واحدةٍ وجعَلَ منها زَوْجَها ليسكُن إليها، فلما تَغَشاها حملتْ حملاً خفيفاً فمرت به، فلما أثقلَت دعوَا الله ربَّهما لئن أتينا صالحاً لنكونَن من الشاكرين ﴾[1] الآية، فقد سمى الله فعلهما شركاً، وهو كبيرة بلا شك.

الجواب: عن هذا من وجوه:

١ ـ أن الخطاب لقريش لا لبني آدم كلهم، والمراد بالنفس الواحدة «قصى» رأس القبيلة، ومعنى (منها زوجها) أنه جعل زوج قصى من جنسه: عربية، قرشية، لا أنه خلقها منه، ومعنى قوله: ﴿ فلما أتاهما صالحاً

---

(١) الأعراف ١٨٩، ١٩٠

جَعلا له شُركاء فيما آتاهما﴾ أنهما قد أشركا بالله في تسمية أبنائهما «بعبد مناف، وعبد العزى» إلخ، فليس الضمير في قوله تعالى: ﴿جعلا له شُرَكاء فيما آتاهما﴾ راجعا إلى آدم وحواء، بل هو راجع إلى قصى وزوجه، رأس قبيلة قريش.

٢ ـ أنه على فرض أن المراد آدم وحواء، ولكن القصة التي ذكرت ليس فيها شيء من الاشراك بالله، لأن إبليس جاءهما متنكراً لا يعرفانه، ولم يسميا ابنهما بهذه التسمية إشراكاً منهما في الألوهية، وإنما المراد بالشرك الشرك الصوري، وهو أنهما في الصورة رضيا بتسمية ابنهما عبد الحارث، مع أن العبودية يجب أن تكون لله وحده لفظاً ومعنى، وإلا فلو قال رجل لآخر: إنني عبدك هل يكون مشركاً؟ كلا، نعم كان ينبغي لهما أن لا يغترا به ويصدقاه في أنه هو الذي دعا الله تعالى لهما. ولكن الخطأ ليس بجريمة بلا نزاع.

٣ ـ أن الضمير في قوله تعالى: ﴿جعلا له شركاء﴾ يعود على أولاد آدم وحواء، فالذي جعل الشركاء هم المخاطبون من أولادهم، وإنما أعاد الضمير بلفظ المثنى، لأن الأولاد من زوجين ذكر وأنثى، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ بواو الجماعة، ومن هذا تعلم أن آدم لم يرتكب كبيرة لا قبل البعثة ولا بعدها.

ثالثها: ما نسبه الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام من أنه قال للكواكب: ﴿هذا ربي﴾[١] وظاهر هذا يقتضي أنه مشرك، فلو كانوا **معصومين عن الشرك والكبائر قبل النبوة لما قال إبراهيم ذلك. وهذه شبهة سخيفة.**

(١) الأنعام / ٧٦ ـ ٧٨.

والجواب: أن إبراهيم يريد أن يقيم الحجة على قومه بـأبلغ عبارة وأحسن بيان، فإنه قد جاراهم في اعتقادهم ليستدرجهم إلى سماع الدليل القاطع الذي ذكره لهم، وهو أنه لو كان إلهاً، كما يزعمون لما عرض له التغير من حال إلى حال، وأنه إنما يعبد إلهاً لا يتغير أبداً، وقد وافقهم على ما يزعمون، فمن الحق أن يوافقوه فيما يدعيه بعد أن قامت الحجة على بطلان ما يدّعون.

رابعها: ما نسبه إلى إبراهيم أيضاً من أنه قال: ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾[١] الآية، فإنها تفيد بحسب الظاهر أن إبراهيم يشك في قدرة الله على إحياء الموتى، والشك في قدرة الله تعالى كفر.

وهذا الإيراد أيضاً واهٍ لا قيمة له، لأن إبراهيم وغيره من المخلوقات لم يكن يعلم علم اليقين كيفية إحياء الله الموتى، وإن كان يجزم بأن الله قادر على أن يحيي الموتى، بدليل إجابته عن سؤال الله إياه بقوله: ﴿ أولـم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ لأن الحالة النفسانية التي كانت عنده من الحيرة في كيفية إحياء الموتى تسكن بالعلم بها، وكيف يتصور غير ذلك، والآية تفيد أنه متصل بالإله الذي يوحي إليه، وعالم بعظمته وقدرته، وإذا كان يخاطبه ربه شاكاً فيه، فما هو حال الآخرين المكلفين بالنظر في الدلائل الكونية من غير أن يتصلوا بربهم؟! لا شك أن نسبة التكذيب إلى إبراهيم في هذه الحالة مما لا معنى له.

خامسها: ما نسب إلى سيدنا إبراهيم أيضاً من أنه كذب على قومه حين سألوه عمن فعل تكسير آلهتهم، فإنه قال لهم: ﴿ بل فعله كبيرهم ﴾[٢]

---

(١) البقرة / ٢٦٠.
(٢) الأنبياء / ٦٣.

مع أنه هو الذي فعل، وهذا الإيراد أوهى من بيت العنكبوت، كما يقولون، لأن الإخبار بغير الواقع لا يكون كذباً مذموماً إلا باعتبار ما يترتب عليه من المساوىء، أما إذا كان للمتكلم غرض شريف من الإخبار بغير الواقع، وقامت القرينة على ذلك الغرض، فإنه لا يكون كذباً، بل يكون بلاغة ممدوحة، كالتعريض.

وظاهر أن إبراهيم ما قال لهم ذلك إلا توبيخاً لهم، وسخرية بهم، حيث يعتقدون أن هذه الأصنام آلهة، ومن يقدر على إتلاف الآلهة إلا كبيرهم؟ وهل يصح أن يعبد الناس إلَهاً عاجزاً، هذا هو الذي يريده إبراهيم، والدلائل قائمة عليه، وعلى فرض أن إبراهيم تعمد الإخبار بغير الواقع من غير أن يقصد ذلك، فهل يعد كبيرة؟ كلا، لأنه لم يترتب عليه شيء من المضار، بل لو صدقوه لما ترتب عليه إلا الخير، وهو الكراهية الكبيرة للآلهة، والشك فيهم، وانصرافهم عن عبادتهم، وليس لإبراهيم غرض سوى هدايتهم وصرفهم عن عبادة الأوثان؟.

سادسها: ما نسبه الله إلى موسى عليه السلام من أنه قتل القبطي، وقال إن قتله من عمل الشيطان: وقال: ﴿ رب إني ظلمت نفسي ﴾[١]، وقال: ﴿ فعلتها إذاً وأنا من الضالين ﴾[٢]، وذلك يفيد أنه قتله عمداً لا خطأً.

والجواب: أن الذي فعله موسى هو ما قصه الله تعالى، وهو أنه وكز القبطي، والوكز في اللغة معناه «دفعه بيده بضرب، أو هو أن يجمع يده ويضربه بها على ذقنه» وبديهي أن الضربة بهذه الحالة لا تفضي إلى الموت عادة، ولا يقصد صاحبها أن يقتل بها إنساناً، لأنها لا تكفي لقتل حيوان

(١) القصص / ١٥، ١٦.
(٢) الشعراء / ٢٠.

صغير ضعيف كالأرنب، فضلاً عن قتل الإنسان الذي قد يضرب بالهراوة وبالحجر الكبير مرات ولم يمت.

وإذا كان ذلك كذلك، فيكون الذي فعله موسى هو ما يقع عادة بين المتنازعين من الملاكمة الخفيفة، وهو ذنب صغير إذا لم يكن صاحبه متعدياً، وموسى لم يكن متعدياً، لأنه لم ينتقم لنفسه، ولا لغرض شهوي، وإنما أراد أن ينتصر لرجل مؤمن من شيعته مظلوم ولم يرد قتل الرجل بهذه الوكزة، ولكن اتفق أن القبطي الذي وكزه كان ضعيف القلب مريضاً، فتأثر ومات، ولا معنى لهذا إلا القتل خطأ، وهو غير كبيرة.

وأما ما قاله موسى من أن ذلك من عمل الشيطان، وأنه فعله وهو من الضالين، فإنه ناشىء من تأثر نفسه الكريمة بما ترتب على فعله = وبأنه يلوم نفسه على العمل الصغير الذي وقع منه، وهو وكزه لأن التسامح في مثل هذه الأحوال قد يكون أنفع أثراً.

سابعها: ما نسبه الله إلى داود من قوله تعالى: ﴿فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب، فغفرنا له ذلك﴾[1] وهذا يدل على أنه ارتكب جريمة فتنه الله بها، فاستغفر منها.

وقد ذكر الحشوية لذلك قصة خبيثة لا يليق وقوعها من شرار الناس فضلاً عن الأنبياء، **وحاصلها**: أنه كان لداود قائد اسمه أوريا، وكان لذلك القائد امرأة جميلة، فعشقها داود، فقصد أن يتخلص منه بالقتل فأخذ يرسله إلى الحرب مرة بعد أخرى حتى قتل، فأخذ زوجه، فكان من أمره ما قصه الله عنه في القرآن الكريم من إرسال ملكين في صورة خصمين الخ.

والجواب: أن هذه القصة مكذوبة يتنزه كتاب الله عنها، لأن الله قد

---

(١) ص / ٢٤، ٢٥.

امتدح داود في هذه الآية بأجلّ المدائح وأجملها، ووصفه بأنه أواب، وأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب، وبديهي أن الحكمة اسم جامع لكل أعمال الفضائل الإنسانية، فهل يليق بالحكيم أن تدفع به شهوته إلى قتل قائده بوسيلة سخيفة طمعاً في أمرأته؟ ألا إن هذا لو فعله أحد من الناس لحكم عليه بالدناءة، والشره والخسة التي لا حد لها، فضلاً عمن يؤته الله الحكمة، إن هذا ضرب من ضروب المحال.

وهل يليق لأحد أن يفهم في كتاب الله الذي هو المثل الأعلى في البلاغة والفصاحة، والآية الكبرى في تنسيق القول ووزنه بموازين الكمال، أن يمدح شخصاً بمثل هذه المدائح العالية مع كونه شهوياً شرهاً، لا يستنكف عن أن يقصد قتل قائده الذي يناضل عنه طمعاً في الاستمتاع بزوجه؟ إن ذلك لهو البلاء المبين، فكذب هذه القصة بديهي لا يحتاج إلى نظر كثير.

أما تفسير الآية فإنه يحتمل أمرين:

الأولأن داود كان يقضي بين الناس، وقد رأى أن يكثر حرسه ليكون فيه إرهاب للأعداء، كما قال تعالى في الآية: ﴿ وشَدَدْنا ملكه ﴾ فكان ذلك سبباً في تعَطيل القضاء بين الناس الذين لهم قلوب ضعيفة يرهبون القوة، فلم يتمكنوا من عرض قضاياهم، فأراد الله تعالى أن يلفت نظره بمثال لما عساه أن يقع بسبب إهمال القضاء، والترفع عن مستوى الناس الضعاف، فكان موجوداً بالمسجد والحرس يحدقون بالمسجد، فجاء ملكان في صورة خصمين وتسوروا المحراب الخ، ولهذا لما سمع من أحدهما قصته تسرع في الحكم، وقال: ﴿ لقد ظَلَمَك ﴾ الخ، فلما انصرف الملكان ظن داود أن هذه فتنة، فاستغفر ربه.

فالاستغفار كان من تسرعه في الحكم، ومن الغفلة عن أمر القضاء، وهو ليس بكبيرة، كما لا يخفى، وإنما هو غير لائق بمقام النبوة، فهو ذنب،

وما يرد على هذا من نسبة الكذب للملائكة غير سديد، لأن الغرض تمثيل الوقائع بصورة مؤثرة، ولا ريب في أن تمثيلها بمثل هذه الصورة له قيمته في نفس سيدنا داود، ومن يسمعها بعده من الناس، وإن من المبادىء الأخلاقية «أن الإخبار بغير الواقع لا يكون مذموماً على إطلاقه، بل إذا ترتب عليه مصلحة، أو كان لغرض سام، أو قامت قرينة على أنه ليس مقصوداً لذاته، فإنه لا يسمى كذباً، وقد يكون ضرورياً في بعض الأحيان.

الوجه الثاني: أن المحراب هو قصر داود، وقد تسوره جماعة من اللصوص بقصد السرقة، فلما رأوه مستيقظاً اخترع اثنان منهم الخصومة المذكورة، على أنه فزع منهم، وأساء الظن بهم، ومعنى فتنته اختبار حلمه حين خاف منهم، فهل يتعجلهم بالعقوبة مع القدرة، أو يعفو عنهم فلما عفا عنهم برهن على أنه في غاية الحلم، ومعنى (فاستغفر ربه) استغفره لهم ليعفو عنهم، شفقة على خلق الله، وخوفاً عليهم من عذاب الله، كما هو شأن قلوب الأنبياء الرحيمة.

ومن ذلك تعلم أن المراد بالنعاج الغنم حقيقة، وليس المراد بها النساء، وأن داود لم يرتكب الذنب الفاضح، حماه الله منه، كما عصم سائر أنبيائه ورسله.

ثامنها: ما قصه الله تعالى عن سليمان بقوله: ﴿ولقد فَتَنّا سليمان، وألقَيْنا على كرسِيّه جَسَداً، ثم أنابَ﴾[1]، وقد فسرت هذه الآية بأن سليمان كان مولعاً بأمرأة تزوجها بعد أن قتل أباها، وكان ملكاً محارباً، فكانت لا ترقأ لها عين من البكاء على والدها، فصنع له بعض الجن تمثالاً على صورة أبيها، فكسته كسوة نفيسة، وكانت تسجد له هي وخدمها في بيت سليمان، وكان في يد سليمان خاتم يسخر به الجن والريح، فسقط الخاتم من يده فقال

---

(١) ص / ٣٤.

له آصف: إنك مفتون بذنبك فتب إلى الله، فخرج إلى فلاة وقعد على التراب تائباً إلى الله تعالى، فغفر الله له ذنبه.

والجواب: أن تفسير الآية بهذه القصة كذب لا شك فيه، وجريمة من الجرائم التي أدخلها الحشوية في تفسير كتاب الله للنيل من الأنبياء.

أما الآية فقد فسرت بحديث صحيح، حاصله: أن سليمان قال ليلة: أنه يطوف بأربعين امرأة من زوجاته، لتأتي كل منها بغلام يجاهد في سبيل الله ولم يقل: إن شاء الله: فلم تحمل سوى واحدة منها جاءت بغلام ناقص، فذهبت به القابلة، وألقته على كرسيه بين يديه، وقيل إن الملك هو الذي ألقاه، فاستغفر ربه من تركه قول إن شاء الله، فهذه فتنة سليمان.

وقد قال بعضهم: إن الحديث أيضاً خارق لطبيعة البشر، فإنه ليس من الممكن أن يأتي الرجل الواحد أربعين أمرأة في ليلة واحدة، ثم إن الزمن أيضاً لا يحتمل أن ينتقل الرجل من فراش امرأة إلى فراش أخرى، ثم يأتيها، وهكذا إلى أربعين مرة، وفي بعض الروايات سبعون وقيل مائة امرأة.

والجواب: أن الحديث قد ورد فيه أنه أتاهن بالفعل ولكنه لم يقل: إن شاء الله، ولم يحمل ممن أتاهن إلا واحدة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن من الناس من يشذ عن الطبيعة المعتادة في مثل هذا، فيمكنه أن يأتي النساء كثيراً بدون مشقة، والمعروف أن السوداء إذا استحكمت في شخص فإنه يستطيع أن يفعل ذلك بدون نزاع، على أن الأنبياء لهم خوارق كثيرة وإنكارها مصادمة للحس الذي لا ينكره إلا جاهل بطبائع الكائنات، ونسبتها إلى قدرة الإله الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

وبالجملة فالأنبياء معصومون عن الكبائر قبل البعثة، وبعدها، وما ورد من نسبة الكبائر إليهم، فهو إما مكذوب لا أصل له، كما في قصة داود،

وسليمان، وإما محمول على الخطأ، كما في قصة موسى، أو محمول على أنه معصية ظاهراً، كما في قصة آدم.

تاسعها: وأما ما ورد من نسبة الذنب إلى سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين في قوله تعالى: ﴿ليغفرَ لكَ الله ما تَقَدَّم من ذَنْبِكَ وما تَأخَر﴾[١] فليس معناه ثبوت ذنب له، بل هو تعداد لنعم الله سبحانه عليه، وإعلان لرفعة منزلته عند ربه في الدنيا والآخرة، فكما أنه سبحانه قد فتح له مكة ونصره على أعدائه الأشداء نصراً عزيزاً، ومكّن له من هؤلاء الأعداء الذين كانوا حجر عثرة في سبيل الدعوة إلى الله، فكذلك رفع منزلته عنده في الآخرة، ولما كان الإنسان باعتبار كونه إنساناً قد يفرط منه ذنب، والذنوب من شأنها أن تنقص منازل درجات الجنة، بشّره الله تعالى بأنه حتى على فرض وقوع ذنوب منه فهي مغفورة لا تؤثر في منزلته الأخروية، فهو عزيز في الدنيا عزيز في الآخرة على أي حال، وذلك واضح لاخفاء فيه، ألا ترى أنه لم يقع منه ذنب حين أخبره الله تعالى بأنه قد غفر له ذنبه المتأخر، فلا ريب أن معناه على فرض وقوع ذنب، فكذلك ما قبله من قوله ﴿ما تقدم من ذنبك﴾ فإن الغرض من العبارة شيء واحد، وهو أن منزلتك الرفيعة في الآخرة ثابتة لا يؤثر عليها شيء، حتى الذنوب التي من شأنها الإقصاء عن نعيم الآخرة، فإنها بالنسبة لك لا تؤثر، وذلك منتهى الحب والرضا، وغاية القرب من رب العالمين.

على أنه ﷺ كان أكثر الناس خشية من الله تعالى، وأكثرهم عبادة له. فقد روى البخاري ما معناه: أنه كان يقوم الليل ويجهد نفسه بالعبادة، وكان ينهي أصحابه عن أن يقلدوه في عمله، فقالوا له: كيف، ونحن أحوج إلى العبادة منك، لأن الله تعالى أخبرك بأنه قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال لهم عليه الصلاة والسلام: إنني أقربكم من الله وأكثركم تقديراً لعظمته وجلاله، فما أفعله من العبادة لا يشق علي، كما يشق عليكم، ولقد

(١) الفتح/٢.

عبّر الشيخ الأبوصيري عن هذا المعنى بقوله:

وإذا حلت الهداية قلباً نشطت للعبادة الأعضاء

فإذا عرف الإنسان ربه حق المعرفة، وقدره حق التقدير، وأخلص له كل الإخلاص تمكنت محبته من نفسه، ولا ريب في أن الحبيب يتلذذ بخدمة من يحب، فلا يجد فيها مشقة ولا نصباً، بل يجد فيها كمال اللذة وتمام السعادة، فلا يتأثر بدنه بضرر، ولا يشق عليه عمل، ونستطيع القول بأن هذا بالنسبة لمحمد - ﷺ - من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين وهكذا كلما نسبه إليه أعداؤه عليه الصلاة والسلام من الذنوب، فإنه هراء من القول، منشوءة الجهل بقدسية نفسه الكريمة، وطهارتها التي كانت مثلاً بين أعدائه، فهو مبرأ من كل عيب منزّه عن كل نقيصة قبل البعثة وبعدها عليه الصلاة والسلام.

ومن الأوهام الباطلة ما استدل به بعضهم من قوله تعالى: ﴿ووجدك ضالاً فهَدى﴾[1] لأن الضلال قبل البعثة ظاهر، فإنه عليه الصلاة والسلام كان في بيئة فاسدة تعبد الأصنام، وكان أبو طالب مربيه يعبدها معهم، ومع ذلك فقد كان عليه الصلاة والسلام بعيداً عنهم، ناقماً عليهم وعلى آلهتهم، حتى أنه لم يحضر لهم مجلساً من مجالس المجون، ولم يخالطهم في عمل من أعمال الفوضى، على أن من يكون في بيئة كهذه لا مناص من أن يكون حائراً في أمره، ضالاً في طريقه، لا يدرك ماذا يصنع بنفسه وبهم، فالوحي هو الذي أرشده إلى ما يعمل معهم، وهداه إلى ما يسلكه من السبيل في إخراجهم من الظلمات إلى النور، وهل يفهم من الآية سوى ذلك، بعد أن ثبت أنه ﷺ لم يتأثر بمربيه أبي طالب حتى في زمن الصغر؟. ولم يعظّم صنماً من أصنامهم قط، وبعد أن ثبت أنه حضر مجلساً من مجالسهم التي كانوا

(١) والضحى / ٧.

يتخذونها للهو والتفاخر فألقى الله عليه النوم، فلم يدرِ ما وقع فيها، فأين الضلال الذي يريده الأعداء المضلّون؟!.

نعم يصح أن يكون الرسول مختصاً بأمور اقتضتها الضرورة، كتعدد زوجات النبي ﷺ، ولكن ذلك كان بالوحي، وكان من أجل الدعوة نفسها، لأن الدعوة محتاجه إلى الربط بالقبائل، ومحتاجة إلى نساء ينقلن التشريع الخاص بهن، فمن أجل ذلك أباح الله له أن يتزوج أكثر من أربعة، على أنه قيده أخيراً بهن، حيث قال له: ﴿لا يَحِلُّ لك النساءُ من بَعد، ولا أن تَبدلَ بهن من أزواج﴾[1] فكان هو أقل من آحاد أمته في هذا الموضوع، لأن لكل واحد أن يتزوج أربعة ويبدلهن بمن شاء، بخلافه عليه الصلاة والسلام، على أن تعدد الزوجات في الشريعة الإسلامية مقيد بإقامة العدل بينهن، وهو متعذر إلا على من له الغلبة المطلقة والسلطان التام على شهوته، ومن أولى به من الرسول عليه الصلاة والسلام؟ فهو وحده الذي يستطيع إقامة العدل بين نساء كثيرات، كاللاتي جمع بينهن عليه الصلاة والسلام، ولن يستطيع عاقل أن يقول إن النبي ﷺ أكثر من النساء لمجرد الشهوة، كيف! وهو الذي كان يعصب بطنه من الجوع؟ وهو الذي كان مشغولاً بعبادة ربه وإصلاح البشر؟ وهو الذي كان لا يفرغ لحظة من تدبير شؤون العالم وتبليغ رسالة ربه؟ فهل الذي يكون على هذا الحال يصح أن يعنى بأمر النساء؟ كلا، فإنه لم يعدد أزواجه إلا لغرض معنوي، وهو الذي أشرنا إليه.

أما الشهوة فهي أمر ثانوي تقتضيه الفطرة الإنسانية، وليست مقصودة له عليه الصلاة والسلام.

وليس الأنبياء معصومين من الخطأ في الأمور الدنيوية، فقد يخبرون بأمر يظهر خلافه كإشارته على أصحابه بعدم تأبير النخل فلم يثمر في عامه.

---

(١) الأحزاب / ٥٢.

٦ ـ شروط النبوة:

هناك شروط شرعية يجب توافرها فيمن اختارهم الله للنبوة منها: البشرية، والحرية، والذكورة، وكمال العقل، والذكاء، وقوة الرأي، ولو في الصبا كعيسى ويحيى ـ عليهما السلام ـ والسلامة من كل منفر من الاتباع حين النبوة، كزنى الآباء، والغلظة، والفظاظة، والعيوب المنفرة، والحرف الدنيئة، كالحجامة.

كما يشترط كونه أعلم بأحكام الشريعة المبعوث بها من الذين أرسل إليهم.

واختلفوا في اشتراط البلوغ ـ مع اتفاقهم على جواز أن يبعث الله نبياً صغيراً ـ لكنهم اختلفوا في الوقوع وعدمه، فذهب الفخرِ الرازي إلى الوقوع، مستدلاً بآيتي عيسى ويحيى، ومنعه ابن العربي وآخرون، وحملوا الآيتين على الإخبار عما سيجب حصوله لهما لاعما حصل لهما بالفعل.

٧ ـ بشرية الرسل:

لقد اختص الله من ملائكته من يقوم بحمل وحيه إلى أنبيائه ورسله وهو «جبريل» الأمين ـ عليه السلام ـ وفي الإمكان أن يقوم ملك الوحي بالتبليغ للناس مباشرة من غير حاجة إلى رسول أو نبي، بل لقد طلب الكافرون ذلك من قبل فقالوا «لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً»(١) وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا» ولكن الله عز وجل يوحي إلى رسوله بتصحيح هذه المفاهيم بهذا الرد السماوي كاشفاً عنت قلوبهم بقوله تعالى ﴿ لقد استكبَروا في أنفُسِهم وعَتَوْا عُتُواً كبيراً ﴾(٢) ويقول سبحانه في بيان استكبارهم لاتباع رسول منهم ﴿ وما منَعَ الناسَ أن يُؤمِنوا إذ

---

(١) الفرقان / ٧.

(٢) الفرقان / ٢١.

جاءَهم الهُدى إلا أن قالوا أبَعَثَ الله بَشَراً رسولاً ﴾[١].

كما يبين سبحانه في رده على هذا المطلب الجريء بأن الملك لو أرسل إليهم لاستحال ظهوره إلا في صورة الإنسان ليتم التجانس والاطمئنان إليه وإلى لقائه ولينطق بلسانهم ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾[٢].

وإذن فلا بد من تحوله إلى إنسان لو كان أصله الملك، وحينئذٍ سيقولون . . لو كان المرسل إلينا ملكاً لآمنا، ويعود الأمر إلى الدور السابق.

فلذلك جاء القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ ولو جعلناه مَلَكاً لجعلناه رجُلاً وللبَسْنا عليهم ما يَلْبِسُون ﴾[٣] ويقول سبحانه ﴿ قل لو كانَ في الأرض ملائكةٌ يمشونَ مطمئِنين لنزلنا عليهم منَ السماءِ مَلَكاً رسولاً ﴾.

وإذن فلا مناص من أن يكون الرسول بشراً من جنس البشر لا ملكاً ولا جناً ولا خلقاً آخر.

---

(١) الإسراء / ٩٤.
(٢) الأنعام / ٩.
(٣) الإسراء/ ٩٥.



المعجزة

١ ـ تعريف المعجزة:

المعجزة مأخوذة من الأعجاز وهو إظهار العجز في الغير وهي عند علماء العقيدة: أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعي النبوة على وفق مراده تصديقاً له في دعواه، مقروناً بالتحدي مع عدم المعارضة. ويظهر من هذا التعريف الأمور التالية:

١ ـ أن المعجزة من فعل الله تعالى وليست من فعل الإنسان، فلا يد للنبي فيها وإن كانت قد جرت على يديه.

٢ ـ أن تكون مخالفة لما اعتاده الناس، وخارقة لكل القوانين العلمية والطبيعية.

٣ ـ أن تكون مصاحبة لدعوى النبوة، فلا تكون متقدمة عليها ولا متأخرة عنها.

٤ ـ أن تكون موافقة لدعوى النبي، فإن خالفت الدعوى لا تكون معجزة كما إذا قال: آية صدقي انفلاق هذا الجبل فانفلق غيره كالبحر مثلاً، أو إذا قال آية صدقي نطق هذا الحجر فنطق وقال: لا تصدقوه أيها الناس فإنه كذاب.

٥ ـ أن يكون ظهورها على يد مدعي النبوة، فإذا ظهرت على يد ولي فكرامة

وليست معجزة أو على يد رجل صالح فمعونة، أو على يد مدعي الألوهية فاستدراج وليست معجزة.

٦ ـ أن تكون حال ادعائه النبوة، فإن ظهر الخارق قبل النبوة فليس معجزة.

٧ ـ أن تكون مقرونة بالتحدي مع عدم معارضتها، والتحدي إما أن يكون بلسان الحال أو بلسان المقال، فنبع الماء من بين أصابع الرسول ـ ﷺ ـ إذا أخذناه بظروفه نجد فيه التحدي بلسان الحال لا بلسان المقال.

هذا، وتعتبر هذه الأمور المذكورة شروطاً للمعجزة.

٢ ـ الفرق بين المعجزة وغيرها

أ ـ الفرق بين المعجزة والارهاص:

هو أمر خارق للعادة يظهره الله على يد من سيختاره في المستقبل نبياً، تأسيساً للرسالة وتمهيداً ولفتاً للأنظار إليه، ولما سيدعو الناس إليه من دين الله كإظلال الغمام لنبينا محمد قبل تكليفه بالرسالة.

أما المعجزة فإنها تكون بعد التكليف بالرسالة.

ب ـ الفرق بين المعجزة والكرامة:

هي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد ظاهر الصلاح غير مدعٍ النبوة إكراماً له، أما المعجزة فإنها تظهر على يد مدعي النبوة.

جـ ـ الفرق بين المعجزة والمعونة:

هي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مستور الحال من بعض العوام غير مدعٍ للنبوة تخليصاً له من شدة مثلاً.

أما المعجزة: فهي خارق للعادة يظهر على يد مدعي النبوة مع التحدي به.

د ـ الفرق بين المعجزة والإهانة:

هي أمر خارق للعادة يظهر على يد كاذب مدعي النبوة، وتأتي على خلاف مطلوبه إهانة له، مثل ما حصل لمسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة كذباً فتفل في عين أعور لتشفى فعميت الأخرى، وتفل في بئر ليزاد ماؤه فغار الماء.

هـ ـ الفرق بين المعجزة والاستدراج:

هو أمر خارق للعادة يظهر على يد فاسق مدع للألوهية على وفق مطلوبه، خديعة له وإمداداً له في الطغيان حتى إذا أخذه الله لم يفلته، قال تعالى في حق الطاغين ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين ﴾[1]، أما المعجزة فهي خارق للعادة على يد من كلفه الله بالرسالة واطاع تكليفه ولم يدعِ الألوهية.

والخارق يظهر على يد مدعي الألوهية لأن كذبه يعرفه الجميع فلا يعتبر في الخارق على يديه تصديقاً له، ولكنه لا يظهر على يد من يدعي النبوة كذباً، لأنه بظهور الأمر الخارق عليه يؤدي إلى تصديق الكاذب، لأن النبوة تكون في البشر ولا تكون الألوهية فيهم، فهذا هو السبب في جواز ظهور الخارق على يد مدعي الألوهية وعدم ظهوره على يد مدعي النبوة.

و ـ الفرق بين المعجزة والسحر والشعوذة وغرائب المخترعات هو أن:

السحر: قواعد يقتدر بها على أفعال غريبة بالنظر لمن جهل قواعده، ويمكن اكتسابه بالتعلم.

والشعوذة خفة في اليد، بواسطتها يرى الشخص أشياء على أنها حقيقة، ولا حقيقة لها في الواقع كما يفعل الحواة.

---

(١) الأعراف / ١٨٢، ١٨٣.

غرائب المخترعات: هي ناشئة عن معرفة بعض خصائص المادة كالراديو، والفيديو، والتليفزيون والكمبيوتر وغير ذلك.

٣ ـ حقيقة المعجزة:

المعجزة ممكنة عقلاً وقد وقعت فعلاً.

أما أنها ممكنة عقلاً، فإن الله سبحانه وتعالى خلق الكون وسيّره حسب قوانين أخذت فيها الأسباب بمسبباتها دون أن تتخلف المسببات عن الأسباب، والله سبحانه قادر على إخلاف هذه القواعد والقوانين، لأن مشيئته مطلقة وغير مقيدة بهذه النظم وتلك القوانين الناموسية أو الطبيعية، لأنها في الحقيقة لا تخرج عن أن تكون أمراً نسبياً لا مطلقاً ولا نهائياً في جانب المشيئة الإلّهية.

وإذا تقرر هذا فإن في استطاعة القدرة الإلّهية أن تخلق أشياء على غير المألوف للبشر فتتخلف المسببات عن أسبابها لتظهر على غير ما اعتاده الناس من الناموس الطبيعي، ويكون هذا على يد النبي تصديقاً له في كونه مبعوثاً من الله تعالى إلى الخلق، لأن الله الذي خلق الكون ورتب الناموس هو الذي يخلق الخوارق من غير أسباب أو قوانين، وليس في هذا ما يحيله العقل ويمنعه.

وقد أخبرنا الله تعالى بطائفة من المعجزات وقعت لرسل الله السابقين، ولرسولنا محمد ـ ﷺ، كانفلاق البحر، وانشقاق القمر، وغير ذلك، وأخبرنا جموع من صحابة رسول الله عن كثير من المعجزات شاهدوها بأم أعينهم تجري على يد رسول الله محمد ﷺ، وقد جمع هذه المعجزات التي وقعت لرسولنا ﷺ أبو نعيم الأصبهاني في كتابه، دلائل النبوة.

٤ ـ حكم الإيمان بالمعجزة

من المعجزات ما ثبت بالقرآن والأخبار المتواترة ـ وهو ثبوت قاطع لا

شك فيه ـ ولذلك يجب الإيمان بها ومنكرها كافر لإنكاره أمراً ثبت من الدين بالضرورة، وذلك مثل القرآن الكريم والاسراء، وانشقاق القمر.

ومنها ما ثبت بطريق الآحاد ـ والثبوت بطريق الآحاد لا يفيد القطع بل الظن ـ ولذلك فإنه يجب الإيمان بها، ولكن منكرها لا يعتبر كافراً، بل يعتبر فاسقاً، لأن الكفر لا يكون إلا بأمر قطعي الثبوت وقطعي الدلالة، أما ظني الثبوت أو ظني الدلالة فإنه لا يثبت به الكفر لقول رسول الله ﷺ «ادرءوا الحدود بالشبهات» وعدم القطع بثبوت الشيء، أو عدم دلالته على المراد، يعتبر ضعفاً فيه، والضعف شبهة، والشبهة دارئة للحد الواجب على الكفر.

٥ ـ أنواع المعجزات:

ونحن لو استقرأنا المعجزات التي أجراها الله تعالى على أيدي رسله الكرام لأمكننا تصنيفها إلى صنفين.

الأول : المعجزات المادية: وهي المعجزات المرئية أو الملموسة كانشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابع رسول الله ﷺ، ورده لقتادة العين المقلوعة سليمة ونحو ذلك، وهذا النوع من المعجزات يحدث وينقضي، فلا تتجاوز أثاره الزمن الذي حدثت فيه، ولا تبقى بقاء الأيام.

الثاني : المعجزات المعنوية: وهي المعجزات التي لا تقع تحت بصر الإنسان أو حسه، ولكن يتم إخبار الرسول بها.

ويأتي القرآن الكريم في قمة المعجزات المعنوية فهو أعظمها أثراً، وهو المعجزة الباقية لرسول الله ﷺ. ثم يتلوها معجزة الإسراء والمعراج التي أخبر رسول الله ﷺ بحدوثها، وقد كان لها أثر كبير في رسم البرنامج الجديد للحياة الإنسانية المستقبلة.

٦ ـ هدف المعجزة:

كل معجزة تحدث لنبي لا بد وأن يكون لها هدفان: هدف عام، وهدف خاص.

أما الهدف العام: فهو إقامة الدليل على أن الرسول الذي ظهرت على يديه المعجزة فيما يدعيه، ويدعو إليه، وبذلك تكون المعجزة قائمة مقام قول الله تعالى: ﴿ صدق عبدي في كل ما يبلغ عني ﴾.

لأنه لو كان مدعي الرسالة كاذباً لما أيده الله تعالى بالمعجزات، لأن تأييد الكاذب تصديق له، وتصديق الكاذب كذب، والكذب محال على الله تعالى.

وأما الهدف الخاص: فيتمثل في الأثر الذي تتركه هذه المعجزة، وبقدر ما يعظم الأثر بقدر ما تعظم تلك المعجزة.

وقد سبق أن ذكرنا أننا لو رجعنا إلى المعجزات التي أمد الله بها محمداً ﷺ لوجدنا أن أعظمها أثراً «القرآن الكريم» ثم يتلوه «الإسراء والمعراج» فمعجزة الإسراء والمعراج تأتي في ترتيب المعجزات ـ في نظري ـ بعد القرآن الكريم. فما هي أبعاد معجزة الإسراء والمعراج؟

نستطيع أن نقول ـ وبإصرار ـ إن حادثة الإسراء والمعراج حادثة (مبرمجة) أعني أنها داخلة ضمن برنامج خاص أحكمه رب العزة جلّ وعلا، يكشف هذا البرنامج من درس بإمعان سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وسنتحدث عن معجزة الإسراء والمعراج ضمن معجزاته ـ ﷺ ـ إن شاء الله.

محمد رسول الله وخاتم النبيين

إن الحديث عن النبوات يستلزم الحديث عن رسالة سيدنا محمد ﷺ وعمومها لجميع الإنس والجن على طول الزمان وامتداد المكان إلى يوم الدين، وذلك لأننا استقينا منهل المعرفة والعلم بتفاصيل النبوات السابقة من فيض شريعته ومنهاج رسالته التي حفظها الله سبحانه من التغيير والتبديل.

١ ـ إثبات رسالته ﷺ

لقد ادعى محمد ـ ﷺ ـ النبوة، وأيده الله سبحانه بالمعجزات التي كان أعظمها القرآن الكريم تصديقاً لدعواه، وكل من كان كذلك فهو رسول الله حقاً. فمحمد رسول الله حقاً.

أما دعواه الرسالة: فالبتواتر الذي وصل إلى حد الوضوح حتى لحق بالعيان والمشاهدة، فهو قطعي لا يحتمل الشك.

وأما اظهار المعجزة على يديه، فلأنه أتى بأمور خارقة للعادة مقرونة بدعوى الرسالة تصديقاً من الله له فيما يدعيه، وإظهار هذه المعجزات على يديه بلغ حد التواتر، فقد أظهر الله على يديه معجزات كثيرة أعظمها القرآن

الكريم، وسوف نتحدث عن هذه المعجزة الكبرى وبعض من معجزاته في هذه الفقرة إن شاء الله.

كما أنه يمكن الاستدلال على رسالته ـ ﷺ ـ من أحواله التي كان عليها قبل البعثة وبعدها، وما كانت تحتويه نفسه من عظيم الخصال وكريم الفعال وعظيم الأخلاق، وما تحلى به من الكمالات العلمية والمعارف الهادية إلى صلاح حال النوع على الإطلاق، وكل هذه الكمالات لم يكسبها بماله، لأنه نشأ فقيراً، ولم يتعلمها من أبويه لأنه شب يتيماً، ولم يتلقنها من معلم لأنه عاش أمياً، ولم تمنحها له بيئته لأن بيئته كانت في ضلال وفساد، كل عشرائه أهل وثنية وكل خلطائه أولياء أصنام.

فعظمة النبي ﷺ مستمدة من صميم قلبه ومشتقة من طبيعة نفسه التي صاغها الله بيديه، واصطفاها لنفسه وصنعها على عينه.

وبالجملة فقد بلغ في كرم النفس وسمو الأخلاق الذروة العليا، فأيقنت العقول بسموها وأمنت الشرائع بوجودها فأصبحت حياة للأمم ومناراً للخلق وقبلة تتجه إليها الأنظار من كل صوب، كأنها كوكب دوى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء..

فهذه الهمم العالية التي كان عليها ﷺ مع وجود ما يعوقها في البيئة والنشأة ـ ولم تعوق ـ دليل صدق على أن صاحبها ليس كسائر البشر، وإنما هو مختار ومصطفى من جهة العناية العليا التي تكلوءه بالحفظ والرعاية، والتدرج به من كمال إلى أكمل، وكل هذه من سمات الرسالة وبعض من دلائلها.

هذا. ومما يستدل به على رسالته من القرآن الكريم قوله تعالى ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾[١] ومن السنة المطهرة، قوله عليه

---

(١) آل عمران / ١٤٤.

الصلاة والسلام: « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ».

٢ ـ معجزات النبي ﷺ

أما معجزات النبي ـ ﷺ ـ فتتمثل أعظم ما تتمثل في القرآن الذي أتى به من عند الله تعالى، وأنه أخبر عن المغيبات، كما تتمثل معجزاته في أفعال أظهرها على خلاف المعتاد، وكل هذه متواترة ومشهورة، والمعجزات التي أيد الله بها نبيه محمداً بعضها حسي وبعضها عقلي وإليك تفاصيل كل منها:

أما المعجزة العقلية فهي القرآن الكريم، وأما المعجزات الحسية فكثيرة يمكن أن تستوعب كتاباً، ولكننا نشير إلى نماذج منها، لكن مع الاختصار والإيجاز بعد الكلام عن معجزة القرآن الكريم.

أ ـ معجزة القرآن.

القرآن الكريم هو كتاب الله المنزل على سيدنا محمد ـ ﷺ ـ بلفظ عربي مبين، المتعبد بتلاوته، المتحدي بأقصر سورة منه، المنقول إلينا بالتواتر.

روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال في وصف القرآن الكريم:

«عليكم بكتاب الله، فإن فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جهار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، والذكر الحكيم لا تزيغ به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق ومن حكم به عدل، ومن خاصم به أفلح، ومن دُعي أليه هدي إلى صراط مستقيم».

فأنعم بهذا من وصف بلغ قمة التأمل والفكر في خصائص القرآن الكريم ممن خوطب به من لدن رب العالمين.

لقد قطع به الشوط على كل مفكر وفيلسوف ولا نملك إلا أن نتناوله قبساً من ضياء النبوة الهادية.

١ ـ أما كونه معجزاً، فلأن النبي ﷺ تحدى به ودعا إلى الإتيان بسورة مثله مصاقع البلغاء والفصحاء من العرب مع كثرتهم وشهرتهم بغاية الحمية والعصبية الجاهلية، وتهالكهم على الدفاع عن الأحساب فعجزوا، ولو قدروا على المعارضة لعارضوا، ولو عارضوا لنقل إلينا لتوفر دواعي النقل، وهي المباهاة، والمباراة في مغالبتهم لمثله، ولأنه لم يكن هناك صارف لهم عن نقل هذه المعارضة، والعلم بذلك قطعي كسائر العلوم العادية.

٢ ـ وأما وجه أعجازه:

فلأنه جاء في الطبقة العليا في الفصاحة والدرجة القصوى من البلاغة مع كون فصحاء العرب قد وصلوا بسليقتهم إلى قمة من البيان وأحاطوا بجميع أساليب الكلام، أضف إلى ذلك اشتماله على الإخبار عن الغيبيات الماضية والآتية، وعلى المعارف الإلٰهية الدقيقة، وأحوال المبدأ والمعاد ومكارم الأخلاق، والإرشاد إلى المصالح الدينية والدنيوية، والحكمة العلمية والعملية، مما تظهر حقيقته للمفكرين والمتأملين.

وقد ذهب بعض المتكلمين والشيعة إلى أن أعجاز القرآن بالصرفة ـ أي أن الله سبحانه صرف همم المتحدين بالقرآن عن معارضته مع قدرتهم على تلك المعارضة لولا صرف الله هممهم ـ بأن سلب عنهم الدواعي والعلوم التي بها يتأتى إمكان المعارضة، سواء بعدم خلقها فيهم ابتداء أو أنها كانت حاصلة فيهم ثم أزالها عنهم.

وهذا مذهب باطل: لأنه يجعل وجه أعجاز القرآن ليس ذاتياً فيه، ولأن فصحاء العرب كانوا يتعجبون من حسن نظمه وعلوه في بلاغته وسلاسة ألفاظه وجزالة معانيه، وكانوا يمتلئون نشوة لهذه الجزالة عند سماع قوله تعالى

﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾ وهذا لا يتأتى إلا إذا كانت المعارضة سهلة في نفسها ولكنهم لم يستطيعوها لإعجاز القرآن الذاتي، ثم إنه لو كان الأعجاز بالصرفة لما كان هناك حكمة في بلوغه هذا المبلغ من البلاغة حتى فاق فيها مقدور البشر، لأنه لو خلا من البلاغة واتسم بالركاكة ثم تحداهم به ولم يستطيعوا الإتيان بمثله أو بسورة مثله لكان هذا أبلغ في خرق العادة، حيث لم يستطيعوا الإتيان بما هو أيسر ومقدور لهم، وبذلك يندفع احتمال أن يكون إعجازه بالصرفة كما زعموا.

هذه هي طبيعة القرآن في كونه معجزة النبي العظمى والخالدة، وموقف العرب منه هو موقف العاجز عن معارضته، رغم كمال فطرتهم في البلاغة والفصاحة، وكمال عداوتهم للإسلام ومكيدتهم له، وشدة رغبتهم في دحضه وإبطاله ومع كل ذلك فلم يجدوا للطعن عليه سبيلاً، وغاية ما قالوه عنه، إنه سحر يؤثر، وهذا جواب المقل العاجز المبهوت بالحجة وهو في الوقت نفسه مليء بالعجب من جمال معانيه وجزالة مبانيه، ومع كل هذا فلم يمنع فحول البلاغة ورؤساء العناد من أن يقولوا فيه شهادة حق، فقالوا: بأنه ليس من جنس خطب الخطباء أو شعر الشعراء، بل إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى.

٣ ـ دفع مطاعن على القرآن الكريم:

ومن أجل ذلك لم يكن هناك مفر من إعلان حربه بالمقاتلة والمجالدة بعد فشلهم في مجال المقاولة باللسان والمقارعة بالحجة والبيان.

ثم خلف من بعد هؤلاء العرب خلف لبسوا ثوب الاحتيال، يريدون أن يصلوا إلى غاياتهم من الكيد للقرآن، باختراع مطاعن لا تعدو أن تكون مثاراً للسخرية بهم من المنصفين، والهزء بأفكار هؤلاء المضلين ثم تنتهي بهم

إلى قصور أمالهم أمام شامخ البنيان وكامل البيان فيرجعون وقد كلّت هممهم أمام عظيم القرآن . .

- **ومن هذه المطاعن** قولهم إن القرآن يحتوي على كلمات غير عربية، كالأستبرق والقسطاس، فكيف يقال إنه عربي؟

ورد هذا بأنه من الألفاظ التي توافقت معانيها في اللغتين، أو المعنى أنه عربي في نظمه وتركيبه.

- **ومما قالوا أيضاً**: إن القرآن تضمن ما يكذبه، فقد أخبر بأنه لا يتيسر أن يأتي الجن والإنس بمثل سورة منه، وأقل سورة فيه ثلاث آيات، وقد حكى عن موسى اعتذاره إلى ربه بأن أخاه هارون أفصح منه لساناً، ثم عرض مقالته في إحدى عشرة آية في قوله تعالى ﴿ ربِّ اشرَحْ لي صَدْري ويَسِّر لي أمْري ﴾ إلى قوله ﴿ إنك كُنتَ بنا بَصيراً ﴾.

وهنا نقول: بأن القرآن إنما يحكي المعنى القائم بنفس موسى والذي قاله بلغته العبرانية وذكره في القرآن باللسان العربي المبين فليس هذا إياه.

- **كما قالوا**: بأن في القرآن كذباً محضاً مثل قوله تعالى ﴿ ولقد خَلَقْناكُم ثم صَوَّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجُدوا لآدم ﴾ ومما هو مقطوع به أن الأمر بالسجود لم يكن بعد خلقنا وتصويرنا كما هو ترتيب الألفاظ في الآية.

والجواب عن ذلك أيسر من سابقه، فإن المراد بخلقناكم وصورناكم، خلقنا أباكم آدم وصورناه، على إرادة الأصل في الخلق وإن كان الخطاب للذرية.

إلى غير ذلك من إيرادات أوردوها ودفعها أهون من إيرادها، وما هي في الحقيقة إلا آثار لظلام في القلوب، تنم عن حقد وعداوة للإسلام وكيد لكتابه العزيز ولكن أين كل ذلك من شامخ البنيان.

٤ ـ القرآن هو المعجزة العقلية الخالدة:

لقد كانت معجزات الأنبياء السابقين مادية لتلائم مرحلة الطفولة الإنسانية، فمعجزة نبي الله صالح ناقة لها شرب يوم ولقومه شرب الماء يوماً.

ومعجزة موسى عليه السلام من باب قلب الحقائق، وهو نوع من المستحيل فانقلبت العصا له حية.

ومعجزة عيسى عليه السلام شفاء المرضى والمعوقين وإحياء الموتى.

وكل هذه المعجزات كانت أجنبية عن دعوى النبوة، فالدعوة في جانب والمعجزة في جانب آخر، جاء في عقيدة المسلم: «كانت معجزات الأنبياء شيئاً آخر غير الرسالات التي يبشرون بها ويدعون إليها، فطب عيسى غير أنجيله، وعصا موسى غير توراته»[1].

وينقل الشيخ الغزالي تصويراً لهذا المعنى عن ابن رشد بتصرف فيقول: (إن دلالة القرآن على نبوة محمد ـ ﷺ ـ ليست كدلالة انقلاب العصا حية، ولا إحياء الموتى، وإبراء المرضى فإن تلك وإن كانت أفعالاً لا تظهر إلا على أيدي الأنبياء، وفيها ما ينفع الجماهير من العامة إلا أنها مقطوعة الصلة بوظيفة النبوة وأهداف الوحي ومعنى الشريعة).

أما القرآن فدلالته على صفة النبوة وحقيقة الدين مثل دلالة الإبراء على الطب.

ومثال ذلك: لو أن شخصين ادعيا الطب فقال أحدهما: الدليل على أني طبيب أني أطير في الجو. وقال الآخر: دليلي أني أشفي الأمراض وأذهب الأسقام. لكان تصديقنا بوجود الطب عند من شفى من المرض قاطعاً وعند الآخر مقنعاً فقط.

---

(١) عقيدة المسلم / ٢١١. محمد الغزالي.

فالمعجزات إذن قد تكون ذاتية في الرسالة، وقد تكون خارجة عن جوهرها، والتفاوت بينها واسع النطاق...[١].

ولكن الإنسانية لما بلغت الرشد بفكرها ونضح عقلها جعل الله معجزة ختم النبوات عقلية احتراماً للعقل وتقديراً لمكانته وعزته.

يؤكد الشيخ الغزالي ما ذهب إليه ابن رشد فيقول: «إلا أن الله شاء أن يجعل معجزة الرسالة الأخيرة شيئاً لا ينفصل عن جوهرها، فجعل حقائق الرسالة ودلائل صحتها كتاباً واحداً، وجعل من أصول الدعوة وأساليب عرضها، البرهان الأكبر لدعوى الرسالة والستار الأعظم لصدق صاحبها فأتى القرآن الكريم بما تضمن من دساتير العدالة الخلقية والاجتماعية والسياسية، وبما تغرس في الطبائع من آثار الأدب والتربية والاستقامة.. هي رسالة الإسلام ومعجزته... ومن ثم كان القرآن كتاباً إنسانياً، وكان نبي الإسلام إنساناً كاملاً، وكانت رسالة الإسلام في موضوعها وأهدافها إنسانية بحتة... ولذلك توجه القرآن مباشرة إلى العقل البشري يخاطبه ويفك عنه آصاره ويرد له اعتباره...» أفمن يعلم «إنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب»[٢].

فلتكن معجزة نبي الإسلام عقلية. وما دام البشر يحترمون عقولهم فستبقى لهذه المعجزة قيمتها. أجل، ستبقى لهذه المعجزة قيمتها ما بقي العقل أنفس شيء في الحياة، وما استلهم الناس عقولهم في الحكم على الأمور، وفي قيادة الإنسانية إلى آفاق الترقي والكمال»[٣].

ولكن الإنسان مع استواء عقله، وارتقائه بخبراته إلى درجة الكمال قد ارتكس إلى طفولته الأولى وخضع لمطالب البداوة فطالب الناس الرسول

(١) المرجع السابق / ٢١٠.
(٢) الرعد / ١٩.
(٣) عقيدة المسلم /٢١١، ٢١٢. محمد الغزالي.

بمعجزات مادية كمعجزات السابقين، يقول الله تعالى: ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً»(١).

والله عزيز والله قدير، فلن يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، ويمكن أن ينزل عليهم من المعجزات ما طلبوا، إلا أنه يعلم أن تلك مطالب الطفولة والسذاجة العقلية، كما يعلم أن المعجزات المادية لم تمنع الأمم القديمة من التكذيب بها، فلم يعد صالحاً أن تعتمد الرسالة الأخيرة على الأعجاز المادي «وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً»(٢) ولذلك لما عرج برسول الله إلى السماء وآتاهم منها بكتاب تشريع الصلاة لم يؤمنوا واتخذوا من ذلك مجالاً للهزء والسخرية به.

والله ـ سبحانه ـ الذي يعلم طبائع البشر، يعلم أنه لو فتح لهم باباً في السماء، وأعطاهم القدرة على الصعود إليه، والسير في السماء ليدركوا عظمة الألوهية، عن مشاهدة حسية لكذَّبوا ولم يؤمنوا «ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون»(٣).

ولذلك شاءت الإرادة العليا ألا تظل الإنسانية في عبثها الطفولي بعد ما نضجت منها الأفهام وصقلتها التجارب، بل عليها أن تستثمر مواهبها

---

(١) الإسراء / ٩٠ ـ ٩٣.
(٢) الإسراء / ٥٩.
(٣) الأنعام / ١٠٩، ١١٠.

الفكرية، ولتتعرف على الصواب والخطأ ولتقتحم المستقبل، وتتحمل أعباء تبصرها وتقدمها وحضارتها، فاحترمت مشيئة الله في الناس العقل وقدرت له قدره.

يقول صاحب عقيدة المسلم «ولكن حكمة الله أبت إلا أن تعـالي بقيمة العقل الإنساني الذي أرخصوه، وإنه لعزيز على هذه القدرة العليا أن تعطي الإنسان عقلاً يصنع المعجزات إذا ما اعتنى به والتفت إليه، ثم تترك هذا الذي أعطيت يضيع عبثاً، وتستجيب لرغبات الجاهلين الذين سفهوا أنفسهم وأفكارهم وأبوا تحكيم مشاعرهم وعقولهم، وطالبوا بمعجزات مادية لتصديق نبيهم... ولذلك تقرر أن تكون المعجزة الكبرى لمحمـد ـ ﷺ ـ هي هذا القرآن الكريم، فبه كان التحدي وعليه كان الرسول يعتمد في سيرته مع خصومه وأصحابه طول حياته، ومن بعده ظل القرآن كتـاب الله الناطق بدعوته وحجته معاً»(١).

ولئن جاء بالإسلام نبي عربي إلا أن الدين الذي جاء به لا جنسية له، وأي جنسية لدين يخاطب العقل حيث كان، ويبني أدلته على النظر في فجاج الأرض والسموات(٢)؟

ب ـ معجزة الإخبار عن المغيبات:

ومن معجزاته «إخباره ﷺ عن غيوب ماضية ومستقبلة جاء بعضها في القرآن وبعضها لم يرد فيه.

فمما جاء من القرآن من الأمور الماضية ذكره قصص موسى مع فرعون، ويوسف وتنظيمه لاقتصاد الممالك المعاصرة له والعامرة من حوله مع رسالته أيضاً، وقصص ابراهيم وابناه إسماعيل وإسحق والأنبياء من بعدهم، كما

---

(١) محمد الغزالي ـ عقيدة المسلم ص ٢١٣.

(٢) المرجع السابق ص ٢١٧.

قص قصة نوح عليه السلام مع قومه، مع أن محمداً ﷺ - لم يلقن ذلك من معلم، اللهم إلا من وحي رب العالمين كما قال تعالى ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾(١).

وأما الأمور المستقبلة.... فمنها ما ذكره القرآن في قوله تعالى ﴿ الٓمٓ: غُلِبَتِ الرومُ في أدنىٰ الأرضِ وهم من بعدِ غَلَبِهم سيغلبون ﴾ إلى قوله: ﴿ وعدَ الله لا يُخلِفُ الله وعْدَه ﴾(٢) وقد تحقق هذا كما وعد سبحانه ويعلم تفاصيله من كتب التاريخ.

وقوله سبحانه: ﴿ ستُدْعَوْن إلى قومٍ أولي بأسٍ شديدٍ تُقَاتِلونهم أو يسلمون ﴾(٣) وقد حصل هذا اللقاء مع الأمم غير العربية وتم قضاء لله كما وعد.

وقوله تعالى: ﴿ لتدخلُنّ المسجدَ الحرامَ إن شاءَ الله آمنين مُحلّقين رؤوسَكم ومُقَصّرين لا تَخافون فعَلِم ما لم تَعْلموا فجعَلَ من دونِ ذلك فَتْحاً قريباً ﴾(٤).

وقد تم ذلك الدخول إلى المسجد الحرام في عمرة القضاء، ثم أعقب ذلك الفتح المبين، وهو فتح مكة المنيعة في السنة الثامنة من الهجرة.

إلى غير ذلك من إخبارات وهي كثيرة في القرآن الكريم.

ومن الأمور المستقبلة التي أخبر عنها رسول الله وليست من القرآن قوله لعلي رضي الله عنه: (تقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين) وقوله لعمار - (تقتلك الفئة الباغية) - وقوله: (الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون

(١) هود / ٤٩.
(٢) الروم / ١ - ٦.
(٣) الفتح / ١٦.
(٤) الفتح / ٢٧.

ملكاً عضوداً) أي يعضد بعضهم بعضاً. . إلى غير ذلك وهو كثير ذكر في مطولات الكتب.

جـ ـ بعض المعجزات المادية الأخرى

من هذه الأنواع، أفعال ظهرت على يديه ﷺ وهي كثيرة نذكر منها:

إظلال الغمام عليه، وانشقاق القمر له، ونبع الماء من بين أصابعه حتى روى الجيش والدواب.

وشهادة الشاة يوم خيبر بأنها مسمومة، ودرور الضرع من شاه أم معبد حين مسح بيده عليها وقد كانت عجفاء وضرعها يابسة، وتسبيح الحصى في كفه ﷺ، وحنين الجذع الذي كان يستند إليه وهو يخطب حين انتقل منه إلى المنبر.

ومن معجزاته أيضاً: رد عين قتادة بن النعمان، فقد أصيبت عينه في غزوة أحد، حتى وقعت على وجنتيه، فردها النبي ﷺ، فكانت أحسن عينيه وأحدهما نظراً.

د ـ معجزة الإسراء والمعراج:

فقد ثبت بالقرآن والأحاديث الصحيحة وإجماع المسلمين أن نبينا محمداً أسرى به ليلاً من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالشام، قال تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾. [الإسراء/١].

وروي أنه كان راكباً البراق ومعه جبريل عليه السلام.

كما ثبت بالأحاديث الصحيحة وإجماع الجمهور على أنه عليه الصلاة والسلام عرج به ليلة الإسراء يقظة من بيت المقدس إلى السموات، وهناك فرضت عليه الصلوات الخمس، ورجع من ليلته إلى مكة.

وأحاديث الإسراء والمعراج مذكورة في كتب السنّة الصحيحة، فيجب الإيمان بالإسراء والمعراج. **ومنكر الإسراء كافر، لإنكاره أمراً ثبت بالكتاب والسنّة والإجماع، ومنكر المعراج مبتدع،** لمخالفته جمهور المسلمين، ولإنكاره أمراً ثبت بالأحاديث المشهورة.

ولما أخبر النبي قومه بالإسراء والمعراج صدقه أقوياء الإيمان، وأنكر عليه ذلك الضعفاء والكفار، مع أنه قد أجابهم عما سألوه، فأخبرهم بما رآه في طريق الإسراء بما لا يعرفه إلا من مر في تلك البقاع، ووصف لهم بيت المقدس وصفاً لا يعرفه إلا من شاهده، ومع ذلك أنكروه تكبراً وعناداً، كإنكارهم كل آية جاء بها.

أنكروا ذلك وقصروا عقولهم على المعتاد والمألوف، وغفلوا عن أن الإسراء والمعراج خارقان للعادة ظهرا على يدي نبينا، كما ظهر على يديه غيرهما من خوارق العادات، فهما من شؤون الله، وأثران من آثار قدرة الله.

أليس الذي خلق السموات والأرض قادراً على أن يجعل نبيه يسير من مكة إلى الشام في زمن يسير، وأن يجعله يعرج من بيت المقدس إلى السموات؟ بلى «وكان الله على كل شيء مقتدراً»[١].

وقد ورد ذكر هذه المعجزات وغيرها في أصح كتب السنّة، كما ذكر بعضها في الكتاب العزيز، وهذه المعجزات يسير من كثير مما أيد الله بها رسوله وأتم عليه بها نعمته.

---

(١) الكهف / ٤٥.

٣ ـ معجزات لبعض الأنبياء السابقين

أ ـ ترك احراق النار لسيدنا إبراهيم عليه السلام:

لقد بعث الله خليله إبراهيم إلى قوم تعددت مشارب العبادة فيهم، فمنهم من كان يعبد الكواكب، ومنهم من كان يعبد الأصنام، وقد أعطاه الله قوة الحجة على قومه ممن عبد الكواكب ومن عبد الأصنام، وكانت حجته على عابدي الأصنام: أن كسر أصنامهم وعلق الفأس في كتف كبيرهم الذي تركه من غير تكسير وتحطيم، وحينما سألوه عمن فعل بأصنامهم هذا؟ أشار إلى الذي علقت الفأس في كتفه، ثم قال لهم: إسألوهم عمن فعل بهم تلك الإهانة إن كانوا ينطقون ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون، قال أتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾ ولما لم يستطيعوا مجادلته في حجته عزموا على إحراقه بالنار، ولكن الله جعلها عليه برداً وسلاماً وخرج منها سالماً معافى ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾[١].

ومن البداهة أن النار إذا مست جسماً فإنه يحترق، ولكن الله بقدرته سلبها خاصية الإحراق إكراماً لخليله، وذلك أمر خارق للعادة وهو أمر معجز وإن كان القرآن لم يذكر ذلك على وجه الأعجاز المتحدى به.

ب ـ ناقة صالح عليه السلام:

لقد أرسل الله نبيه صالحاً لهداية قومه إلى تقوى الله وعبادته، ولما طلبوا الدليل على أنه رسول رب العالمين، ورأوا أن يكون الدليل (المعجزة) ناقة تخرج من صخرة عيّنوها له، دعا الله فاستجاب له، وأخرج له الناقة التي كان

---

(١) الأنبياء/٦٥ ـ ٦٩.

من إعجازها بعد خروجها من الصخرة أن تشرب الماء يوماً وتتركه للقوم يوماً، وتعطيهم لبناً يكفيهم ذلك اليوم الذي تشرب ماءه، ولكنهم كذبوه وعقروا الناقة فأخذهم الله بالصيحة.

جـ ـ معجزة العصا لموسى:

أما نبي الله موسى فأعطاه الله تسع آيات على رسالته، أبرزها العصا التي استخدمها في مواجهة السحرة عندما ألقاها فانقلبت ثعباناً كبيراً ابتلع كل ما أتى به السحرة من كل ما خيّل للناس أنه حيات تسعى بتأثير سحرهم.

ـ ضرب بها البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، فعبر موسى بقومه البحر هروباً من ملاحقة فرعون وجيشه له، فنجوا وأغرق الله فرعون وقومه.

ـ ضرب بها الحجر وهم في التيه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بعدد أسباط بني إسرائيل، وذلك عند طلبهم للماء، وكان تأثير العصا بقدرة الله، من نوع ما برع فيه قومه من السحر، لإثبات عجزهم، وهم معلمو السحر وأربابه.

د ـ معجزات عيسى:

أما نبي الله عيسى فكانت معجزاته في إحياء الموتى وإبـراء الأكمه والأبرص بإذن الله، وهو من جنس ما برع فيه قومه كما يذكر ذلك بعض العلماء، وإن كنا نرى أن معجزة عيسى إنما كانت غايتها إثبات أن وراء الماديات التي غرق فيها بنو إسرائيل روح أعلى، وبعبارة أخرى كائن ليس مادة ولا شبه مادة كما زعم بنو إسرائيل.

وأيضاً تكليمه الناس في المهد وكهلاً كما عبر القرآن الكريم وهو لم يزل وليداً حدثاً، والإخبار عما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وإنزال المائدة من السماء على رأي من يرى نزولها.

كما يدل على نبوة سيدنا محمد ﷺ - من غير هذه المعجزات ما اشتمل عليه من صفات حميدة وكمالات علمية لا تتحقق في نظر العقل إلا لنبي، وأيضاً ما اشتملت عليه شريعته من دقائق الحكمة في الاعتقادات والمعاملات والسياسات مما يقطع معه العقل بأن واضعها ليس إلا إلهاً خالقاً والمبعوث بها ليس إلا نبياً. . .

كما يدل أيضاً على نبوته ما ورد من نصوص في كتب السابقين عليه مثل التوراة والإنجيل والزبور وهي مشهورة في إشارتها إلى بعثة نبي عربي يسود شرعه ويعلو دينه، مما سنذكر بعضه في فصل (محمد في الأنبياء والكتب السابقة) إن شاء الله.

عموم رسالته ﷺ وأنه خاتم النبيين

جاءت رسالة النبي ﷺ - لجميع الإنس والجن في حياته وبعد وفاته، خلافاً لما زعمه اليهود والنصارى من كون بعثته للعرب خاصة، لأن لهم كتاباً وليس للعرب كتاب. وهذا زعم باطل، لأن كتابهم بدل والدين عندهم غير.

ومحمد ﷺ خاتم النبيين فلا نبي بعده، وإذن فلا نسخ لشريعته، لأنه ادعى ذلك وأظهر المعجزة على وفق الدعوى، فالقرآن الكريم هو معجزته، وقد شهد بهذه الدعوى فقال تعالى: ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا ﴾[(١)] وقال: ﴿ يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض يحيي ويميت ﴾[(٢)] هذا بعض مما سيق في شأن عموم بعثته إلى الناس، أما عموم بعثته إلى الجن فقال سبحانه: ﴿ قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً ﴾ الآيات [(٣)]. . . وقال تعالى ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولّوا إلى قومهم منذرين ﴾. . . الآيات [(٤)].

أما شهادة القرآن على كونه خاتم النبيين فقوله تعالى﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتمَ النبيين ﴾[(٥)] وقوله عليه الصلاة والسلام «أنا محمد وأنا أحمد وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب فلا نبي بعدي. . . الحديث».

---

(١) سبأ/٢٨.

(٢) الأعراف/١٥٨.

(٣) الجن/١ - ١٥.

(٤) الأحقاف/٢٩ - ٣٢.

(٥) الأحزاب/٤٠.



محمد ﷺ
والكتب المقدسة

١ ـ أجرى الله سنّته في البشر أن يضع لهم منهج الحق والخير ليقوم الناس بالقسط، سالكين طرق الفضيلة والاعتدال، متباعدين عن سبيل الشيطان ونهج الهوى.

واتخذ الله وسيلة التبليغ لمنهجه أشخاصاً اصطفاهم وأدبهم فأحسن تأديبهم، وذلك لحكمة سامية، هي أن يخاطب كل نبي قومه بلسانهم لإتمام البيان وإحكام الحجة، قال سبحانه: ﴿ وما أرسَلْنا من رسولٍ إلا بلسانِ قومِهِ لِيُبَيِّنَ لهم ﴾[١]. وكانت تلك سنّة الله لجميع أمم الأرض ﴿وإنْ منْ أمَّة إلا خلا فيها نذير ﴾[٢].

كما اختص الله من ملائكته من يقوم بحمل وحي الله إلى أنبيائه ورسله وهو «جبريل» الأمين ـ عليه السلام ـ وكان في الإمكان أن يقوم ملك الوحي بالتبليغ للناس مباشرة من غير حاجة إلى رسول أو نبي، بل لقد طلب الكافرون ذلك من قبل فقالوا: ﴿ لولا أُنزِل إليه مَلَك فيكونَ معه نذيراً ﴾[٣]. ﴿ وقال الذينَ لا يَرجُون لقاءَنا لولا أنزِل علينَا الملائكةُ أو نَرى ربَّنا﴾[٤].

ولكن الله عز وجل يوحي إلى رسوله بتصحيح هذه المفاهيم بهذا الرد

---

(١) ابراهيم ٤٠.

(٢) فاطر ٢٤.

(٣) الفرقان ٧.

(٤) الفرقان ٢١.

وفي شأن خاتمة رسالته للرسالات يقول سبحانه ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ﴾[١].

وأما شبهة من يقول بأن عيسى عليه السلام ـ وقد رفع حياً ـ سينزل إلى الدنيا بعد محمد ـ ﷺ ـ فلا يكون محمد خاتم النبيين ولا شريعته خاتمة الشرائع. فجوابه: أنه سينزل مقرراً لشريعة محمد ومتبعاً وداعياً إليها ولا يسعه إلا إتباعه، كما قال ﷺ في حق موسى: «أنه لو كان حياً ما وسعه إلا اتباعي» مع أن عيسى جاء تابعاً لموسى في شريعته.

وعموم رسالة النبي قد اختصه الله بها دون سائر الأنبياء، فإن الواحد منهم كان يرسل إلى قبيلة أو شعب معين، من غير أن تعم رسالته كل البشر، كما لم يرسل منهم أحد إلى الجن.

وأما تسخير الجن لسيدنا سليمان عليه السلام، فهو تسخير ملك لا تسخير نبوة.

وأما نوح عليه السلام فقد اختلفوا في رسالته لجميع الإنس قبل الطوفان، فذهب بعضهم إلى أنه أرسل إلى الجميع، بدليل غرق الجميع، وعلى هذا المذهب، يفرق بين عموم رسالته وعموم رسالة نبينا محمد، بأن عموم رسالة نوح لجميع الإنس كان قاصراً على حياته، وأما عموم رسالة محمد لجميع الإنس كان في حياته وبعد وفاته.

كما يفرق بينهما أيضاً بأن نبينا محمداً أُرسل للجن مع الإنس دون نوح عليه السلام ـ وذهب بعضهم إلى أن نوحاً لم يرسل قبل الطوفان لجميع الإنس ولكن إلى بعضهم وَغَرَقُ من لم يرسل إليهم إنما جاء من طريق أن النقمة تعم قال تعالى: ﴿ واتَّقوا فِتْنَة لا تُصِيبَن الذين ظَلَموا منكم خاصَّة ﴾[٢].

---

(١) الفتح/٢٨.
(٢) الأنفال/٢٥.

وأما بعد الطوفان فكان مرسلاً لجميع من بقي على وجه الأرض ممن سلم من الغرق، فتكون رسالته عامة بعد الطوفان، وعمومها أمر اتفاقي، جاء من أن من بقي على وجه الأرض هو من كان معه في السفينة وكان مرسلاً إليهم قبل ذلك، فليست رسالته عامة من أصل البعثة.

هذا، ومقتضى كون رسالة محمد ﷺ عامة لجميع الجن والإنس حتى أهل الكتاب منهم، أن تكون شريعته ناسخة لجميع الشرائع السابقة عليه وكتابه ناسخ للكتب السابقة، إذ قد تضمنها كلها كما قال سبحانه: ﴿ إنَّ هذا لفي الصُّحف الأولى صُحُف إبراهيمَ وموسى ﴾[1] وقال: ﴿وإنه لَفي زُبُر الأوّلين ﴾[2] أي في كتبهم ـ وإنه مصدق لما بين يديه من التوراة والانجيل ومهمين عليهما، أي محتوٍ ومتضمن لما فيها.

(١) الأعلى/١٨، ١٩.
(٢) الشعراء/١٩٦.

السماوي كاشفاً عنت قلوبهم بقوله: ﴿ لقدِ استكبَروا في أنفُسِهم وعتَوْا عُتُواً كبيراً ﴾[١] ﴿ وما منعَ الناسَ أن يؤمنوا إذ جاءَهم الهُدى إلا أن قالوا أبعثَ اللهُ بشراً رسولاً ﴾[٢].

كما بيّن الله سبحانه في رده على هذا المطلب الجريء بأن الملك لو أرسل إليهم لاستحال ظهوره إلا في صورة الإنسان ليتم التجانس والاطمئنان إليه وإلى لقائه ولينطق بلسانهم، وإذن فلا بد من تحوله إلى صورة البشر، وحينئذ سيقولون: لو كان المرسل إلينا ملكاً لآمنا، ويعود الأمر إلى الدور السابق، فلذلك جاء القرآن الكريم بقوله: ﴿ قل لوْ كانَ في الأرضِ ملائكة يمشونَ مُطمَئنين لنزّلنا عليهم من السماءِ مَلَكاً رسولاً ﴾ (الاسراء ٩٥). ويقول سبحانه: ﴿ ولو جعلناهُ ملَكاً لجعلناهُ رجُلاً ولَلَبَسْنا عليهم ما يَلبِسون ﴾ (الأنعام/ ٩).

كما أخذ الله العهد والميثاق على أنبيائه ورسله في كتبه السابقة بأن يؤمن كل نبي بمحمد ﷺ وبما جاء به إذا أدرك بعثته، كما أمره أن يأخذ هذا الميثاق الإيماني على أمته ومؤازرة النبي الأمي ومناصرته واتباع النور الذي أنزل معه إذا أدركهم زمان بعثته، قال سبحانه: ﴿ وإذ أخَذَ الله ميثاقَ النبيين لما أتيتكُم من كتابٍ وحكمةٍ ثم جاءَكم رسولٌ مُصدِّق لما معكم لتؤمنُنَّ به ولتنصرنَّه قال أأقررْتُم وأخذتُم على ذلكم إصْري قالوا أقرَرْنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾[٣].

وقال ابن عباس رضي الله عنه ـ «ما بعث الله نبياً من الأنبياء، إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته»[٤].

---

(١) الفرقان/ ٢١.
(٢) الإسراء/ ٩٤.
(٣) آل عمران/ ٨١.
(٤) محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير جـ ١، ص ٢١٤.

فلذلك تضمنت الكتب السماوية السابقة التبشير بنبوة محمد ﷺ وشرْح أوصافه التي من أخصها أميته، وأمرَ الناس بالمعروف ونهيه لهم عن المنكر، وتحليلَ الطيبات من الرزق، وتحريمَ الخبائث، ووضعَ كثير من أثقال المؤاخذات الناشئة من المخالفات لأوهى خطرات النفس وإراداتها، فحطها عنهم، قال الله في الذكر الحكيم: ﴿ الذين يتَّبِعون الرسولَ النبي الأميَّ الذي يجدونَه مكتوباً عندهُم في التوراةِ والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحلّ لهم الطيباتِ ويُحرِّم عليهم الخبائِث ويضعُ عنهم إصرَهم والأغلالَ التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزِل معه أولئك هم المفلحون ﴾.

وكانت وصايا الإيمان بمحمد ﷺ مشروطة بأن يكون ما جاء به مصدقاً ومهيمناً على ما معهم من الكتب النبوية الصحيحة المتلقاة عن الله دون تبديل وتحريف، تأمل قوله تعالى: ﴿ ثم جاءَكم رسولٌ مصدِّقٌ لما معكم لتؤمنن به ولتنصرُنَّه ﴾.

وجاء القرآن الكريم إلى محمد ﷺ مصدقاً في أصل الإيمان والعقيدة لما معهم من الكتب، وفي كثير من منهج التشريع والسلوك وغير ذلك مما رأته المشيئة العليا صالحاً للعمل به.

وهذه الهيمنة شرحَها القرآن الكريم حيث يقول: ﴿ إن هذا لَفي الصُّحفِ الأولى صحُفِ إبراهيمَ وموسى ﴾[٢] ﴿ وإنه لفي زُبُر الأولين ﴾[٣] أي كتبهم ﴿ أم لمْ ينبَّأْ بما في صُحُفِ موسى، وإبراهيمَ الذي وَفّى، ألا تزر وازرةٌ وزرَ أخرى، وأن ليس للإنسان إلا ما سَعى، وأن سَعيَه سوفَ يُرى، ثم يُجزاهُ الجزاءَ الأوفى، وأن إلى ربِّك المنتهى، وأنه هو أضحك وأبكى، وأنه هو أمات

(١) الأعراف/١٥٧.
(٢) سورة الأعلى/١٧، ١٨.
(٣) الشعراء/١٩٦.

وأحيا، وأنه خلقَ الزوجينَ الذكرَ والأنثى، من نطفةٍ إذا تُمنىٰ، وأن عليه النشأة الأخرى، وأنه هو أغنى وأقْنى، وأنه هو ربُّ الشعرى، وأنه أهلك عاداً الأولى، وثمودَ فما أبقى، وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى، والمؤتفِكَةُ أهوى، فغشّاها ما غشى ﴾[1].

ولو قارنا هذا المذكور في سورة النجم بما في الكتب السابقة المحرفة والموجودة الآن لوجدنا القرآن مهيمناً ومصدقاً لما صح فيها، وصرفوا عن تحريفه وتبديله.

والقرآن مليء بما يحقق تصديقه وهيمنته على الكتب السابقة مثل ﴿ وكتبنا عليهِم فيها أنَّ النفسَ بالنفسِ والعينَ بالعينِ. . . ﴾[2] الخ.

وخلاصة ما يمكن استنتاجه من هذا التقديم أن كتاب الإسلام (القرآن الكريم) قد هيمن على ما بين يديه من الكتب الصحيحة باحتوائه على مضامينها مصدقاً لها.

وأن الرسول الذي جاء بهذا الكتاب قد بشرت ببعثته تلك الكتب السابقة عليه، ونوهت بمعالم كتابه، وختمه للتنزيل السماوي لأن به يكتمل الناموس الإلٓهي «. . . لا تزول نقطة من هذا الناموس حتى يكون الكل»[3] ومعنى كينونة الناموس في كلية كاملة هو اكتماله، وليس ذلك إلا بالقرآن الكريم على ما سيجيء بيانه إن شاء الله.

٢ ـ من بشارات التوراة:

لقد تضمن الكتابان السابقان «التوراة والإنجيل» التبشير ببعث نبي الإسلام محمد ﷺ وليت شعري من أين يكون التعرف على هذه البشارات

---

(١) النجم/٣٦ ـ ٥٤.
(٢) المائدة/٤٥.
(٣) متّى ٥: ١٧.

بعدما مَسخ أهلُ الكتابين تلك البشارات لو لم يكشف القرآن الكريم عن مدلولاتها، مما حدا بنا نحن المسلمين إلى جدية البحث عن ملامحها وإشاراتها، فهذا هو الكتاب العزيز يقول: ﴿وإذ قال عيسى بنُ مريم يا بني إسرائيل إني رسولُ الله إليكم مُصَدِّقاً لما بين يَديَّ من التوراةِ ومُبَشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمُه أحمد﴾[1] وقد بيّن المسيح ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن هذه البشارة قد وردت في التوراة لأنه جاء فيها ﴿مصَدِّقاً لما بينَ يديّ من التوراة﴾ وقد أثبت هذه البشارة في إنجيله، وهتف بها في غياض مجتمعه، ورددها أتباعه الصادقون بقلوبهم وألسنتهم اتباعاً لقوله: ﴿ومُبَشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمُه أحمد﴾.

والله ـ عز وجل ـ بالغُ أمره، فقدرت وأرادت عنايته الغالبة البقاء لهذه البشارة وغيرها على مر الزمان، فصرف أذهان اليهود والنصارى عن معرفة دلالتها على نبوة محمد ﷺ حين فسروها كما فسروا غيرها من البشارات الأخرى حسب الأهواء والرغبات، إلى أن جاء القرآن الكريم فكشف النقاب عن الدلالة الحقيقية لهذه الآية من التوراة، كما كشف وجه الدلالة في غيرها.

أ ـ جاء في قول التوراة: «قال لي الربّ قد أحسنوا فيما تكلّموا. أقيمُ لهم نبياً من وسطِ إخوتِهم مثلَك واجعلُ كلامي في فمِه فيكلمُكم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسانَ الذي لا يسمعُ لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبُه وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلاماً لم أوصه أن يتكلم به أو الذي يتكلمُ باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي، وإن قلتَ في قلبك كيف تعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب؟ فما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدُث ولم يصِرْ فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب، بل بطغيان تكلم به النبي فلا تخف منه»[2].

---

(١) سورة الصف/٦.

(٢) تثنية ١٨: ١٧ ـ ٢٢.

فهذه البشارة قد جاءت في عبارة مجملة شأن البشارات، فإن التلويح فيها يغلب دائماً على التصريح، ولذلك فسرها اليهود بمجيء رسول منهم لا من ولد إسماعيل ـ عليه السلام ـ وكأن الله تعالى أجمل هذه العبارة والهمهم هذا التفسير لها حفاظاً عليها لتكون شاهد صدق على نبوة محمد ﷺ إذ لو فهموا أنها تدل على التبشير بمجيء محمد ﷺ ونبوته لكان لهم فيها شأن الإخفاء والمحو من الكتاب.

أما المسيحيون ففهموا أنها تدل على التبشير بمجيء عيسى ـ عليه السلام ـ ونبوته، إذ هو في نظر المسيحيين ـ مع كونه إلهاً ـ نبي وملك أيضاً، فهي تدل على نبوته، ولذلك لم تتسرع الأيدي الآثمة إلى إخفائها، بل احتفظوا بها ورددوها على أنا سندُهم في التبشير بعيسى ـ عليه السلام ـ .

أما نحن المسلمين فنقول: إنها تدل على نبوة محمد بن عبدالله ﷺ لعدة وجوه:

الأول: إن اليهود كانوا ينتظرون ـ حتى وهم معاصرون لعيسى المسيح ابن مريم ـ مسيحاً آخر يرسل من بني إسرائيل ـ مع أن ابن مريم من بني إسرائيل ـ لأنهم لم يكونوا يعترفون بنبوة عيسى ـ عليه السلام ـ وحتى الآن لم يأتِ سوى محمد بن عبدالله ﷺ فالمبشر به ليس المسيح عيسى بن مريم في نظر اليهود. ونقول نحن المسلمين: أن المبشر به ليس عيسى بن مريم أيضاً رغم ادعاء المسيحيين أنها في حق عيسى ـ عليه السلام ـ لأن البشارة تقول: «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك» والمثلية إنما تكون من جميع الوجوه حتى يمكن تحقيق التماثل بين المتماثلين.

وبالنظر اليسير نجد أن عيسى ليس مثلاً لموسى المخاطب بكاف الخطاب في قوله «مثلك» وذلك باعتبار نظر المسيحيين إليه، لأن موسى ـ عليه السلام ـ صاحب رسالة متضمنة شريعة الحدود والتعزيزات وأحكام الغسل والطهارات والمحرمات من المأكولات والمشروبات، إلى غير ذلك.

أما شريعة عيسى، فكانت خالية من ذلك كله، وكانت رسالته دعوة بني إسرائيل إلى اتباع هذه التعاليم التي تضمنتها توراة موسى عليه السلام.

كما كان موسى متزوجاً وعيسى ليس كذلك، وموسى كان بشراً نبياً، أما عيسى فهو عندهم إله، وموسى في نظرهم دخل الجحيم كسائر الأنبياء حتى زمن عيسى لوراثتهم خطيئة آدم، أما عيسى فلم ولن يدخلها، وموسى حارب وجاهد في سبيل دعوته لأن الجهاد من شريعته، أما عيسى فلم يحارب ولم يكن الجهاد من شريعته.

كما كان موسى من أبوين بشرين، أما عيسى فليس من زرع بشر، بل هو ابن الله القدوس كما يقولون، وعيسى قام من الموت وجلس على يمين الرب ليقضي بين الأحياء والأموات، كزعمهم، أما موسى فليس كذلك.

الثاني: إن هذه البشارة قد جاء فيها أن المبشر به «من وسط إخوتهم» ولو كان المراد من بني إسرائيل لقال: أقيم لهم نبياً منهم، أو أقيم لكم نبياً من أنفسكم لا من أخوتهم.

وقد جعل الله تعالى إسماعيل وبنيه إخوة لإسحق ـ الجد الأعلى لإسرائيل ـ وبنيه.

ونحن لا ندعي هذا من عند أنفسنا، فإن الذي قرر أخوة إسماعيل وبنيه لإسحق وبنيه، هو ما جاء في التوراة، فقد ورد في شأن وعد الله لهاجر بولادة إسماعيل بأن بني إسماعيل إخوة لبني إسحق فقال:

«وأمام جميع إخوته يسكن»[١] وقال: «وهؤلاء هم بنو إسماعيل وهذه أسماؤهم بديارهم وحصونهم... وسكنوا من حويلة إلى شور التي أمام مصر حينما تجيء آشور، أمام جميع إخوته نزل»[٢].

(١) تكوين ١٦: ٢٢.
(٢) تكوين ٢٥: ١٦ ـ ١٨.

ويذهب المحققون إلى أن المراد بالإخوة هنا هم بنو عيسو ابن اسحق وهم كانوا ساكنين قبالة منزل بني اسماعيل ـ عليه السلام ـ وبهذا تكون التوراة قد وصفت بني إسماعيل بأنهم إخوة لبني عمومتهم من إسحق ـ عليه السلام ـ .

الثالث: جاء في هذه البشارة «وأجعل كلامي في فمه» وفي هذه الاشارة إلى أن النبي المبشر به سينزل عليه كتاب يكون فيه الأمر والنهي، والتقنين والتنظيم، والاستقلال وعدم التبعية في نظام العقيدة والشريعة.

أما المسيح ـ عليه السلام ـ فقد جاءت دعوته مستوحاة من دعوة موسى ـ عليه السلام ـ من حيث اقتصار دعوتيهما على بني إسرائيل خاصة. . .

كما جاء إنجيله مجدداً ومقرراً لما دُرِسَ من تعاليم التوراة فقال الانجيل حكايةً عن عيسى ـ عليه السلام ـ «ما جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل. . الى أن تزول السموات والأرض ولا تزول نقطة واحدة من هذا الناموس حتى يكون الكل. . .»[١].

وليت شعري متى يكون الكل؟ ومتى تتحقق كينونة الكل هذه المشار إليها؟ إنها قبل أن تزول السموات والأرض، أي قبل القيامة، وليس هناك كتاب حقق اكتمال الناموس ككل تام وكامل سوى القرآن الكريم الذي قال الله عنه: ﴿إن هذا لَفي الصُّحُفِ الأولى صُحُفِ ابراهيمَ وموسى﴾[٢]، والقرآن كمال الناموس الموحى به إلى أنبياء الله كما ألمح إليه عالم أهل الكتاب «ورقة ابن نوفل» الذي قال عندما سمع أول آيات الوحي المنزل على محمد ﷺ «إن هذا هو الناموس الذي أنزله الله على موسى. . ليتني فيها جذعاً إذ يخرجك قومك. . .»[٣].

(١) متى ٥: ١٧.
(٢) الأعلى ١٧، ١٨.
(٣) راجع سيرة ابن هشام.

وكما قال نجاشي الحبشة حينما سمع القرآن من مهاجري المسلمين إلى الحبشة، قال: «إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة».

وهذا هو ما صادق عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وأنزلْنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ مصدِّقاً لما بينَ يدَيْه من الكتابِ ومُهَيْمِناً عليه ﴾[1].

ب ـ بشارة أخرى:

جاء في التوراة «جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وأتى من ربوات القدس، وعن يمينه نار شريعة» (تثنية ٣٣: ٢) هذه الفقرة تشير إلى رسالات ثلاث:

١) ـ رسالة اليهودية التي أشرقت بنور الله خارجة من جبل سيناء بواسطة نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ .

٢) ـ ورسالة النصارى التي أشرقت بنور الله آتية من جبل سعير بأرض فلسطين بواسطة نبي الله عيسى ـ عليه السلام ـ .

٣) ـ ورسالة الاسلام التي أشرقت بنور الله آتية من جبل فاران بمكة المكرمة بواسطة خاتم النبيين محمد ﷺ وكان إشراق نور الله بإشراق هدايته للبشرية بإنزال الشريعتين العظيمتين على النبيين الكريمين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

هذا، وإن القرآن الكريم قد أشار إلى هذه الأماكن الثلاثة فقال سبحانه: ﴿ والتّينِ والزيتونِ وطورِ سينينَ وهذا البلَدِ الأمين ﴾[2].

فأقسم تعالى بهذه الأشياء لكرامتها وشرفها بشرف الأنبياء، الذين خرجوا منها، فإن التين والزيتون مشهور أنباتهما في أشرف بقعة في أرض

---

(١) المائدة/ ٤٧.
(٢) التين/ ١ ـ ٣.

الشام، وهي أرض فلسطين، مهجر إبراهيم ومولد عيسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وهي المعبر عنها بجبل سعير.

أما طور سيناء: فهو مكان مناجاة الله لموسى ـ عليه السلام ـ ومهبط الرسالة في البقعة المباركة.

أما جبل فاران، فهو جبل في مكة مسمى بهذا الاسم.

ومعلوم بالضرورة أن مكة هي مولد نبي الإسلام محمد ﷺ وهي المعبر عنها بالبلد الأمين في الآية الكريمة.

وخلاصة المقال هنا أن فقرة التوراة المذكورة والمصدق عليها بأول سورة التين تشير إلى نبوة سيدنا موسى الذي خرج من سيناء، وإلى رسالة سيدنا عيسى الذي خرج من سعير، وإلى سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين الذي خرج من فاران.

ولا يمكن أن نفهم فقرة التوراة آنفة الذكر إلا على ما تشير إليه من هذه النبوءة الصادقة.

٣ـ من بشارات الإنجيل:

أ ـ لقد ورد في الإنجيل ما يدل على انتقال النبوة من بني إسحق إلى بني إسماعيل ما داموا لم يستقيموا على الجادة بعد محاولات الإصلاح المضنية المتتابعة لبني إسرائيل من أنبيائهم، وذلك في قول الإنجيل.

قال لهم يسوع: «أما قرأتم قط في الكتب، الحجر الذي رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية، من قِبَل الرب كان هذا وهو عجب لأعيننا، كذلك أقول لكم أن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه»[١].

---

(١) متى ٢١/٤٢ ـ ٤٤.

ويذهب المحققون إلى أن المراد بالحجر الذي رفضه البناؤون هو إسماعيل ـ عليه السلام ـ الذي كان محمد ﷺ من عقبه ونسله، فقد أمر به فأسكن برية فاران وهي جبال مكة، حيث لا ماء ولا زرع، ولا حياة لأي من الكائنات الأخرى في هذه البرية غير هاجر وابنها، وقد أسكنها فيها إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأمر من سيدتها سارة أم إسحق أخي إسماعيل، والله سبحانه قد طمأن هاجر فوعدها بأنه سيكثر ذريته حتى تعم الوادي ويكون لهذه الذرية السلطان الأقوى.

وقد تحقق وعد الله لهاجر وإبراهيم في ولد إسماعيل ـ عليه السلام ـ فانتقلت النبوة إلى النبي العربي ـ محمد بن عبد الله ـ سليل إسماعيل من إبراهيم عليهم جميعاً صلاة الله وسلامه.

وهكذا كان رأي المحققين والناقدين من المسلمين في بيان المراد من معنى الحجر المذكور في هذا النص.

ب ـ والمسيح عليه السلام ـ قد أكد على مجيء النبي الذي من ذرية إسماعيل محمد ﷺ حين قال لحوارييه فيما يحكيه إنجيل يوحنا في النصوص الآتية:

١) «**أنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً** آخر ليمكث معكم إلى الأبد روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم».

٢) وفي نفس الإصحاح يقول: «**وأما المعزى** الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته... لا أتكلم معكم كثيراً لأن رئيس هذا العالم يأتي وليس له فيّ شيء»[1].

٣) وفي إصحاح آخر يقول يوحنا «ومتى جاء **المعزى** الذي سأرسله

(١) يوحنا ١٤ /١٦، ١٧، ٢٦، ٣٠.

إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي»[١].

٤) ويقول إنجيل يوحنا في موضع آخر: «ولكني أقول لكم الحق أنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي ولكن إن ذهبت أرسله إليكم، ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة، أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بي، وأما على بر فلأني ذاهب إلى أبي ولا تروني أيضاً، وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين، إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية، ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم، كل ما للآب هو لي، لهذا قلت إنه يأخذ مما لي ويخبركم»[٢].

ومن الثابت تاريخياً أن كلمة (المعزى) الواردة في هذه النصوص كان أصلها في اليونانية (بيريكليطوس) ومعناها (المحمود) أي (محمد) ثم بدلت إلى (باراكليطس) اليونانية أيضاً، ومعناها (المعلم) أو (المطمئن والمسلّي) أي الذي يقوم بتسلية الناس وطمأنينتهم على حالهم ومآلهم على المنشأ والمصير، ثم ترجمت في آخر مراحلها إلى (المعزي) حين نقلت من اليونانية إلى العربية والإنجليزية.

يقول الشيخ المودودي رحمه الله تعالى ـ في تعيين المراد في هذه الآيات السابقة: يجب علينا أن ننظر في النقاط الثلاث الآتية:

---

(١) يوحنا ١٥/٢٦.
(٢) يوحنا ١٦/٧ ـ ١٥.

- إن لغة عيسى - عليه السلام - وكذلك الناس في عصره كانت السريانية، وهي اللغة العامية لأصلها الآرامي.

- الأناجيل الأربعة دونت بعد سبعين سنة أو أكثر[١] من بعد رفع المسيح - عليه السلام - .

- إن لغة المسلمين في فلسطين كانت السريانية، وكان ذلك إلى نهاية ثلاثة قرون بعد فتح فلسطين على أيدي المسلمين، وبالبناء على هذه الأسس الثلاثة فإنه يمكن الاستنتاج التالي:

● إن ما علمه المسلمون عن طريق الصلة بينهم وبين أهل فلسطين عن عيسى عليه السلام يكون هو أصح من الذي تجده في الأناجيل باللغة اليونانية، فالمعرفة عن طريق المخالطة أصح من المعرفة عن طريق اللغة اليونانية التي ترجمت عن السريانية.

● إن اللفظ في اليونانية التي هي أصل لما هو ثابت في الإنجيل اليوم - الذي يدل على النبي المبعوث بعد المسيح - هو (باراكليطس) Paracletus.

ومعنى هذا اللفظ على ما فهم المترجمون المسيحون مثل (أورجن) هو: Consolator Deprecator ومعناه (المطمئن) وبعضهم فسره بمثل ذلك أيضاً فيقول بأن معناه: Assistant ومعناه (المساعد أو النائب) أو Comfortor و Consoler ومعناه (المطمئن) أيضاً. وبعض المفسرين يترجمونه Teacher أي المعلم.

ويقول (ترتليان) و(أوغسطين) بأن معناه Advocate أي (المحامي أو الوكيل) ولكن اليونانية فيها لفظ آخر هو (بيريكليطوس) Periclytos ومعناه (المحمود) أي (محمد).

والفرق بين هذا اللفظ Periclytos واللفظ الأول Paralectus فرق

---

(١) بعض الأناجيل ألف بعد نصف هذه المدة تقريباً.

بسيط، لكنه يغير المعنى ويقلبه رأساً على عقب، فالأغلب أن علماء النصرانية قد غيروا اللفظ الثاني وجعلوا اللفظ الأول مكانه والسبب واضح لا يحتاج إلى بيان.

والظاهر أن اللفظ الأصلي كان سريانياً، واللفظ السرياني الذي نقل في السيرة لابن هشام هو (بيريكليطوس) الذي هو بمعنى (منحمنا) وعلى هذا المعنى: ترجم ابن هشام عبارة الإنجيل في (يوحنا) إصحاح ١٦/١٤، ٢٦ وإصحاح ١٦/١٥. وما أشير إليه سابقاً في الإصحاح السادس عشر.

وابن هشام لم يستعمل في ترجمته اللفظ اليوناني (فار قليط) أي (باراقليطس) الذي اختلف في تفسيره المترجمون النصارى كما مر، ولكنه استعمل فيه اللفظ الذي هو بمعنى (منحمنا) ثم قال ابن اسحق وابن هشام أن معنى منحمنا بالسريانية هو (محمد) وباليونانية (بيريكليطوس)[١].

وإذا أضفنا إلى هذا أن ابن إسحق مات عام ٧٦٨م وابن هشام مات في عام ٨٢٨م نستطيع أن نستنتج أن اللفظ (بيريكليطوس) المعروف بالسريانية في طول فلسطين وعرضها على عهد ابن اسحق وابن هشام كان بمعنى (منحمنا)، وأن اللفظ المقابل له في اليونانية كان (بيريكليطوس) بمعنى (محمد) وأنه بعد هذا العهد غير علماء المسيحية هذا اللفظ إلى (باراقليطس)[٢].

وقد جاء الحديث النبوي الشريف مطابقاً لما جاء في هذه النبوءات من وصف محمد ﷺ بالحمّاد فقال ﷺ، «أنا محمد وأنا أحمد»[٣].

---

(١) انظر سيرة ابن هشام مجلد ١ جـ ١ ص ٢٤٨.
(٢) أنظر: أبو الأعلى المودودي/ سيرة سيد العالم، بتصرف جـ١ ص ١٣٦ ـ ١٤٢ ترجمه من الأردية د. عبد الحق أنصاري.
(٣) صحيح مسلم وأبو داود والطيالسي.

جـ ـ لقد كان بنو إسرائيل ينتظرون ثلاثة أفراد (١) المسيح (٢) إيليا (إلياس) في ظهوره الثاني (٣) ذلك النبي الذي ينتظرون ظهوره المعلوم لهم جميعاً[١].

وإذا كان لنا أن نتعرف على المراد من (ذلك النبي) الوارد في نص يوحنا والمنتظر مجيئه فإننا لم نجده ينطبق على (يحيى بن زكريا) المسمى عندهم (يوحنا) المعمدان، كما لا ينطبق على عيسى ابن مريم لا من قريب ولا من بعيد على ما يفهم من تلك الآيات، لأن التلاميذ أخبروه بأن الكتب تقضي بمجيء نبي آخر غير عيسى، فصدقهم على ذلك، وفي ذلك دليل على أنه ليس هو ـ المسيح ـ المراد.

ونستطيع أن نلفت النظر هنا إلى قول الإنجيل عن المسيح «المعزى الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته. . .» أن معناه أن يكون ذلك الآتي مصدقاً لاسم المسيح، ويعلم الناس القرآن المعبر عنه بأنه (كل شيء) فهو التبيان لكل شيء، والمهيمن، وهو المفصل لكل شيء، لم يكونوا يعلمون من قبل، وفي قوله: «يذكركم بكل ما قلته» تحميل المسيح لأتباعه هذه الأمانة ـ أمانة العهد ـ التي حملها الله أنبياءه بالتبشير بمحمد ﷺ وتوصية أممهم وتذكيرهم بتصديقه والإيمان به إذا أدركوه ﴿ ثم جاءَكُم رسولٌ مصدِّقٌ لما معكم لتؤمِنُن به ولتَنْصُرنه قال أأقررتُم وأخذتُم على ذلكم إصْري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾.

وعليه يحمل قوله في النص ٤): «وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق».

---

(١) يوحنا ١/١٩ ـ ٢٥.

وأما قوله في نفس النص لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية».

فهو الذي عبر عنه القرآن الكريم ﴿ وما يَنطِقُ عن الهوى إنْ هو إلا وحْيٌ يوحى ﴾، وأما إخباره عن أمور آتية: فهو ما جاء به القرآن من إخبار عن مغيبات حدثت وتحدث في المستقبل مما عُدّ دليلاً على صدق كون القرآن من عند الله وأن هذه الأخبارات سجل معجزات محمد ﷺ.

والمسيحيون يؤولون معنى (روح الحق) الذي يرشدهم إلى جميع الحق ويشهد له أمامهم، وكذلك معنى (المعزى) الوارِدَيْن في الفقرات السابقة إلى معنى الروح القدس ثالث الثالوث، فهو المعزى الذي يجيء بعده ويشهد له.

ولكن هذا هراء من القول، فبماذا شهد الروح القدس لعيسى من بعده للحواريين أو لغيرهم؟

أما الحواريون فليسوا في حاجة إلى من يشهد للمسيح عندهم لأنهم المؤمنون به عن يقين، بل هم الذين يشهدون على حقيقته عند غيرهم كما هو مذكور في النص الثاني.

وأما عند غير الحواريين فلم نسمع ولن يسمع أحد من الكاتبين والمؤرخين أن الروح القدس اتصل بأحد من الناس ليعرفه بحقيقة المسيح، اللهم إلا ما يقال من أنه اتصل بالقديس بولس وأعلمه بالإيمان بالمسيح.

وفي هذا الكلام نظر، حيث لم يهتدِ بولس بالمسيح نفسه في حياته، فكيف يتفق مع العقل، أن يهتدي بالروح القدس أو المسيح نفسه بعد رفعه، لأنه بعد رفعه لم يصح بعد أن يكون داعية لدينه. أما الذي شهد بالمسيح وللمسيح حقيقة، فهو رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ مع التحفظ على كون المسيح بأنه هو الذي أرسل المعزّى - فهو الذي جاء بعد عيسى، وشهد له، وأنصفه كما أنصف أمه فنقاها وطهرها، ورفع مكانتها على نساء العالمين،

ودافع عنه وعن العقيدة الصحيحة التي جاء بها، كما بيّن حقيقته التي ينبغي أن تُعتقد فيه وفي أمه، وسجل ذلك في الكتاب الخالد (القرآن الكريم) ﴿ وبكفرِهم وقولِهم على مريمَ بهتاناً عَظيماً وقولِهم إنا قَتَلنا المسيحَ عيسى ابنَ مريم رسول الله وما قتلوه وما صَلَبوه ولكن شُبِّه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شَك منه ما لهم به من عِلْم إلا اتباعَ الظنِّ وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ (النساء ٥٦ ـ ٥٨).

على أن الدنيا كلها شاهدة حتى الآن بعدم وجود رسول أو نبي بعد عيسى غير محمد ﷺ ولا شريعة مقررة في كتاب خالد إلا شريعة محمد، وكتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه تنزيل من حكيم حميد.

وبهذا تكون البشارة في الأناجيل مطابقة للبشارة في التوراة التي تسجل أنه سيأتي للبشرية نبي كموسى من وسط إخوتهم بني إسماعيل، ولم يأتِ على نظام بعثة موسى سوى النبي محمد ﷺ كما تشهد الدنيا كلها، بأنه هو الذي أنزل الله عليه كتاباً يكلم الناس بما فيه، وهو روح الحق الذي لا يتكلم من نفسه بل بما يوحى إليه، وصدق الله العظيم حين يعيد هذا المعنى في القرآن الكريم إذ يقول: ﴿ والنَّجمِ إذا هَوى ما ضَلَّ صاحبُكم وما غَوَى وما ينطِقُ عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى علمَه شديدُ القوى ﴾ (النجم ١: ٤).

هذا قُلّ من كُثْر مما اشتملت عليه التوراة وكتب الأنبياء المعبَّر عن مجموعهما بالعهد القديم، ومما اشتمل عليه الإنجيل أيضاً من آيات كثيرة، غير ما ذكرت، تدل دلالة ظاهرة على التبشير والإشارة إلى نبوة محمد بن عبد الله صاحب الشريعة الحاكمة والخالدة والخاتمة للشرائع السماوية كلها، غير أن المقام لا يتسع لذكر هذه البشارات[1].

(١) برهن الدكتور القلعجي في كتابه (محمد في الكتب المقدسة) على أن التوراة والإنجيل قد بينا اسم محمد رسول الله، ونسبه، وزمن بعثته، ومكانها، وأموراً مميزة أخرى، فارجع إليه.



الكتب السماوية

تقديم :

إن الحديث عن الكتب السماوية تاريخياً وموضوعياً جد خطير، إذ خطورة المسؤولية تتحدد بتحديد معالمها الموضوعية، وموضوع بحثنا هو فصل الخطاب في كتب تتصل نسبتها إلى رب العباد، والنتيجة في ذلك نفي أو إثبات، فما أشد حرج من ينسب إلى الحق سبحانه ما لم ينزل به سلطاناً، أو ينفي عنه ما أنزله في كتبه وأوحى به إلى رسله، ونهاية النتائج هي المسؤولية الكاملة أمام رب العالمين.

لذلك يستلزم لخوض غمار هذه المهمة التحرر من التعصب لدين أو عقيدة إلا للدين الحق والعقيدة الصدق، أينما يراها أصيلة المنبع، مدعمة بالأدلة، خالصة النتائج، مسلمة الحجة. .

وإذا كان لنا أن ندلي بدلونا في هذه القضية، فإننا نستعين بتوفيق الله ونستنطق الكتب الموسومة بالسماوية حسب فهمنا لنصوصها، مستندين إلى آراء العلماء المتخصصين في تفسيرها، خاصة ممن يدينون بها، راجين عفو الله إذا زلّت القدم، فإنه لا كامل إلا رب العباد، ولا معصوم إلا رسله الكرام، وكتبه المحفوظة بعنايته من التحريف والتبديل والتأويل، والمتداول من هذه الكتب وعليه العمل في المجتمعات البشرية اليوم هو الكتب التالية حسب الأقدمية في زمان نزولها:

١ ـ كتاب (العهد القديم) وقد تضمن أسفار[1] التوراة المنسوبة إلى موسى عليه السلام، وهي: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر اللاويين، وسفر العدد، وسفر التثنية، ثم الأسفار التاريخية، ثم أسفار الأنبياء.

والذي تهمنا دراسته الآن منها هو:

أ ـ كتاب التوراة بأسفاره المذكورة، لأنه أساس الدين وشرعه لسائر الأنبياء من بني إسرائيل الذين آخرهم عيسى ـ عليه السلام.

ب ـ كتاب الزبور، وهو كتاب أنزله الله سبحانه على أحد أنبياء بني اسرائيل هو (داود) عليه السلام، وجاء الاهتمام به في دراستنا، لأن الله قد اختصه بالذكر بعد التوراة وقبل الإنجيل.

٢ ـ العهد الجديد، وقد تضمن أناجيل أربعة ينسب المسيحيون أحدها إلى (متى) والثاني إلى (مرقس) والثالث إلى (لوقا) والرابع إلى (يوحنا).

كما تضمن أسفاراً أخرى ورسائل، والذي يعنينا في دراستنا هي الأناجيل المذكورة باعتبارها أساس ذلك الكتاب، ولأن القرآن أشار إلى الإنجيل المنزل على عيسى دون غيره.

٣ ـ القرآن الكريم، وهو ختام الكتب السماوية، والذي به تمام الدين ونهاية اتصال الوحي بالرسل والأنبياء.

٤ ـ ثم نختم ذلك بتذييل يتضمن دراسة عن التلمود الذي يعتبره اليهود كتاباً مقدساً متمماً للتوراة.

ولنبدأ الحديث عن التوراة مستعينين بتوفيق الله تعالى.

---

(١) أسفار جمع سفر وهو الكتاب.

التوراة

> «كيف تقولون نحن حكماء وشريعة الرب معنا، حقاً إلى الكذب حوَّلها قلمُ الكتبة الكاذب».
> (إرميا ٨: ٧، ٨)

التوراة هي الاسم السامي الذي أطلق على كتاب موسى ـ عليه السلام ـ أما التعبير اليوناني لكلمة التوراة: فإنه يعني مؤلفاً يتكون من أربعة أجزاء (أسفار) وهي الأسفار التي كونت العناصر الخمسة الأولى لكتاب العهد القديم المكون من تسعة وثلاثين سفراً.

وهذه المجموعة من الأسفار تنحصر معلوماتها في شرح أصل الكون إلى موت موسى ـ عليه السلام ـ ودخول اليهود أرض كنعان.

كماتشرح هذه الأسفار أيضاً الحياة الدينية والاجتماعية للشعب اليهودي، ولذلك سميت بالتوراة أو الناموس.

والذي لا شك فيه أن الله أنزل التوراة على موسى واكتتبها عن ربه عزّ وجل. وقد ذكر ذلك المؤرخون والمحققون من العلماء، كما ذكر ذلك وحقق وقوعه القرآن الكريم آخر كتاب نزل من السماء، فقد أخبر القرآن أن الله استكتب موسى الألواح وأعطاه فيها من كل شيء موعظة وتفصيلاً، وأمره أن يأخذ قومه بأحسنها.

قال تعالى: ﴿ وواعدْنا موسى ثلاثينَ ليلةً وأتممناها بعشرٍ فتمَّ ميقاتُ ربه أربعينَ ليلة ﴾(١).

وجاء في التوراة «وقال الرب لموسى أكتب لنفسك هذه الكلمات لأنني بحسب هذه الكلمات قطعتُ عهدي معك ومع اسرائيل، وكان هناك عند الرب أربعين نهاراً وأربعين ليلة لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماء فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر»(٢).

وقال سبحانه ﴿ قال يا موسى إني اصطَفَيْتُك على الناس برسالاتي وبكلامي فخُذْ ما آتيتُك وكنْ من الشاكرين، وكتبنا لهُ في الألْواح من كلِّ شيءٍ، موعظةً وتفصيلاً لكلّ شيءٍ فخذها بقوَّةٍ وأْمُرْ قومَك يأخُذوا بأحسنِها سأريكم دارَ الفاسقين ﴾(٣).

ولكن أتباع موسى كانوا سريعي التحول عن دين الله الذي أنزله على موسى وتضمنته توراته إلى آلهة أخرى، ولا أدل على ذلك من إسراعهم في البحث عن إلّه مصنوع، تمثلوه في عجل صنعوه بأيديهم أثناء تلقيه التوراة، فرجع إليهم وقد كفروا بالله خالقهم ﴿ واتخذَ قومُ موسى من بعده من حُلِيِّهم عِجْلاً جَسَداً له خُوارٌ، ألم يرَوْا أنه لا يكلمُهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾(٤) ﴿ قالوا لن نبرحَ عليه عاكفين حتى يَرجِعَ إلينا مُوسى ﴾(٥)، ولقد طلبوا من موسى عقب نجاتهم من البحر أن يجعل لهم صنماً يعبدونه بعد أن أراهم العديد من آيات ربه الكبرى غلظة منهم وعتوا قال سبحانه ﴿ وجاوَزْنا ببني إسرائيل البحْر فأتوا على قومٍ يعكِفون على أصنامٍ لهم قالوا

(١) الأعراف/ ٤٢.

(٢) الخروج/ ٣٤: ٢٧، ٢٨.

(٣) الأعراف/ ١٤٤، ١٤٥.

(٤) الأعراف / ١٤٨.

(٥) طه/ ٩٠.

يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهةً، قال: إنكم قومٌ تجهلون، إن هؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون ﴾[١].

الأطوار التاريخية والموضوعية للتوراة:

يجب أن تدرس التوراة موضوعياً على ما هي عليه، وهذه الدراسة لا تتناول النصوص فحسب، بل تتناول تاريخ النصوص أيضاً.

إن معرفة تاريخ النصوص تسمح في الواقع بتكوين فكرة عن الظروف التي قادت إلى التعديلات النصّية عبر القرون، وإلى التكوين البطيء لمجموعها كما نملكه اليوم بأجزاء متعددة محذوفة وأخرى مضافة[٢].

١ ـ مصير توراة موسى:

لقد مرت على التوراة أطوار تاريخية مختلفة، فإنها أول ما نزلت على موسى ـ عليه السلام ـ وكتبها بيده صنع لها صندوقاً من خشب السنط سمي بتابوت عهد الرب ووضعها فيه. ثم أخبرهم موسى أن الله وعدهم أرض كنعان بعد خروجهم من مصر، ولكنهم نكلوا عن دخولها فكانوا من الخاسرين وعاقبهم الله بالتيه في الأرض أربعين سنة، وفيها مات موسى ـ عليه السلام ـ.

وبعد وفاة موسى دخل اليهود معامع القتال مع ما يسميهم العهد القديم بالفلسطينيين، سكان أرض كنعان آنذاك، والتاريخ يسميهم بالعماليق، وهم وصفوهم بالجبارين كما حكى ذلك عنهم القرآن الكريم.

وعند ذلك دخلت التوراة في عهد خطير، فقد تغلب عليهم جيرانهم الفلسطينيون، وقهروهم في الحروب، وسلبوهم تابوت العهد الذي كانت فيه التوراة، ولما أعيد إليهم لم توجد فيه التوراة وكانت هي النسخة الوحيدة التي

---

(١) الأعراف/ ١٣٨.

(٢) موريس بوكاي: دراسة الكتب المقدسة/ ٦١.

كتبها موسى بيده. ولم يكن أحد من بني اسرائيل كان قد كتب غيرها، وكان انعدامها هذا بعد وفاة (يوشع بن نون) خليفة موسى ووصيه على بني اسرائيل، وقد ارتدّوا بعد وفاته وعبدوا الأصنام وشيدوا لها الهياكل والمذابح.

جاء في العهد القديم (فحارب الفلسطينيون ـ بني اسرائيل ـ وانكسر اسرائيل وهربوا كل واحد إلى خيمته وكانت الضربة عظيمة جداً وسقط من اسرائيل ثلاثون ألف رجل وأُخِذ تابوتُ عهد الله)[١].

ومنذ ذلك العصر والتوراة الصحيحة المنزلة على موسى ـ عليه السلام ـ قد انمحت من الوجود، اللهم إلا ما كان منها محفوظ في صدور الكهنة والأحبار من الروايات الشفوية، مما كان يختص بالأحكام الشرعية الضرورية، وبعض حوادث تاريخية، وهي التي ساعدتهم على أن يكتبوا فيها بعد صحفاً وقراطيس من هنا وهناك يبدونها ويخفون كثيراً، ثم هم يتخذون منها مجموعة يسمونها التوراة، يعلمون الناس منها ما لم ينزل الله به سلطاناً وظلوا في خوضهم يعمهون.

٢ ـ التوراة المعاصرة ونسبتها إلى موسى:

تختلف النظرة إلى التوراة المعاصرة بحسب عصرين مختلفين.

أ ـ لقد ظل الاعتقاد سائداً لدى اليهود والنصارى طيلة قرون طويلة على أن التوراة الحالية بأسفارها الخمسة هي التي اكتتبها موسى عن ربه، واستندوا في ذلك إلى عبارة التوراة التي تقول: إن الرب تعالى قال لموسى: «أكتب هذا تذكاراً في الكتاب»[٢] والعبارة التي تقول: «وكتب موسى مخارجهم برحلاتهم حسب قول الرب»[٣].

وقد كان لهذا الرأي أصحاب ومناصرون منهم فلافيوس

---

(١) اصمويل أول ٤/١٠، ١١.

(٢) خروج ٧/١٤.

(٣) العدد ٢/٣٣.

جوزيف، وفيلون الاسكندري، ومن ذلك أيضاً ما جاء في العهد الجديد من نسبة التوراة إلى موسى مثل قول يوحنا «لأنكم لو كنتم ترون موسى لكنتم تصدقونني لأنه هو كتب عني فإن كنتم لستم تصدقون ما كتب فكيف تصدقون كلامي»[١].

ويقول بولس «لأن موسى يكتب في البِر الذي يصدر من الناموس»[٢].

ب ـ يتفق المحققون من العلماء المحدثين في البرهان على بطلان نظرية كتابة موسى للتوراة الحالية، يقول الأب (ديفو)[٣] في مقدمته للأسفار الخمسة: إن التراث اليهودي الذي امتثل له عيسى والرسل كان مقبولاً حتى نهاية القرون الوسطى.. وفي القرن السادس عشر أشار (كارلتشاد) إلى استحالة أن يكون موسى على الأقل قد كتب بنفسه كيف مات[٤].

ثم يذكر الأب ديفو أن نقاداً كثيرين يرفضون أن يكون موسى على الأقل كتب جزءاً من التوراة ويخص من هؤلاء (ريشار سيمون) في دراسته في كتابه (التاريخ النقدي للعهد القديم ١٦٧٨) وفيها يؤكد سيمون على الصعوبات غير المتلائمة في تسلسل الأحداث والتكرار وفوضى الروايات وفوارق الأسلوب في أسفار موسى الخمسة[٥].

ولم يظهر هذا الرأي قديماً، لأنه كان من العسير إبطال خرافة أن هذه التوراة هي التي كان قد كتبها موسى بعدما حظيت بتأييد المسيح مما

---

(١) يوحنا: ٤٦، ٤٧.
(٢) رومية ١٠/٥.
(٣) هو مدير مدرسة الكتاب المقدس بفرنسا.
(٤) أنظر سفر التثنية ٣٤/ ٥ ـ ١٢.
(٥) انظر بوكاي: دراسة الكتب المقدسة/ ٢٧، ٢٨.

أوردوه في العهد الجديد على لسانه، ولكن التاريخ لم يعدم رجلاً مثل القديس (أوغسطيسن) الذي استطاع أن يطرح مبدأ استحالة أن يكون أصل الدعوى المناقضة للحقيقة إلهياً، فالقديس أوغسطيسن كان يعتبر أن الله لا يمكن أن يعلم البشر بما لا يتفق والحقيقة، وكان على استعداد لأن يستبعد من أيِّ نصٍّ مقدس ما كان يمكن أن يبدو له واجب الحذف لهذه الدوافع(١).

وهو بهذا يشير إلى ما في العهدين القديم والجديد من متناقضات يلمسها عقل الصبي.

ونحن نميل إلى ما انتهى إليه المحققون من العلماء من أن هذه التوراة ليست هي التي كتبها موسى وإن كانت قد احتوت من الذكريات والروايات الشفوية من توراة موسى مما كان يختص بالأحكام الشرعية والأحداث التاريخية كما قلنا سابقاً، ومما يرجح ميلنا إلى تبديل أصل التوراة وتحريف كلماتها عن مواضعها:

١) ما ذكر صريحاً في أحد أسفارها وأشار إليه كارلتشاد من استحالة أن يكتب موسى عن نفسه كيف مات، وإني أذكر ذلك للقارىء ليقوم التصريح مكان التلويح، تقول التوراة «فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب... ولم يعرف انسان قبره إلى ذلك اليوم وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات... فبكى بنو إسرائيل في عربات موآب ثلاثين يوماً»(٢).

فانظر، هل يقول موسى هذا عن نفسه بعد موته ويخبر عنه في التوراة، ويقول إن قبره الذي دفن فيه لم يعرفه إنسان قط إلى ذلك اليوم؟ أم أن ذلك قد كتب بعد موته بزمن طويل؟ ويرشد إلى ذلك قوله «ولم يعرف إنسان قبره إلى ذلك اليوم» أي إلى ذلك اليوم الذي كتبت فيه التوراة طبعاً.

---

(١) المرجع السابق/ ٦١.

(٢) تثنية ٣٤/ ٥ ـ ٨.

٢) تقول التوراة: «ولم يقم بعدُ نبي في بني إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب... في جميع الآيات والعجائب الذي أرسله الرب ليعملها في أرض مصر بفرعون وبجميع عبيده وكل أرضه»[١]. فهل يمكن أن يكون هذا كلام توراة موسى؟ وكيف يصح هذا وقد قام في بني إسرائيل أنبياء كثيرون منهم عيسى ـ عليه السلام ـ وأيده الله أيضاً بالآيات والعجائب.

إن نظرة فاحصة في مثل هذه الأخبارات لتؤكد لنا ما قاله القرآن الكريم عما صارت إليه التوراة من تحريف الكلم عن مواضعه.

هل كتبت التوراة بعد موسى؟

كانت هناك روايات شفهية للتوراة في صدور بعض الكهنة والأحبار وذكريات عن حوادث تاريخية سجلت على فترات زمنية طويلة بنزعات يهودية مختلفة ومتباينة، أسهمت جميعها في تشكيل أسفار موسى الخمسة، مما سنبين كيفيته في فقرة (مصادر التوراة).

والعهد القديم يصرح ببعض من أسهم في تلك المصادر الأولى لهذه الأسفار، ونذكر ذلك البعض فيما يلي:

أ ـ إن أول تأليف للتوراة كان في عهد (يوشيّا بن آمون) على يد الكاهن (حلقيا)، وكان ذلك بعد موسى بحوالي ستمائة سنة وبضع من السنين.

ب ـ لما كان سبي بابل ٥٨٧ حدث مثل ذلك أيضاً، فإن (بختنصر) ملك الكلدانيين في بابل، كان قد غزا ديار اليهود وشتتهم، وحرق الهيكل، وأحرق التوراة، وقتل كل من كانت لديه التوراة أو بعضٌ منها، وكان ذلك سنة ٥٨٧ قبل الميلاد، ومكثوا سبعين سنة من غير توراة.

ثم استولى الفرس بزعامة ملكهم (كورش) على بلاد فلسطين ومنها أورشليم من يد البابليين، وحينذاك أذن كورش لليهود بالعودة إلى

---

(١) اقرأ ملوك ثان اصحاح ٢٢.

أورشليم وبناء الهيكل، ثم أذن لهم بجمع التوراة بعد غيبتها عن الوجود طيلة غلبة البابليين مدة سبعين سنة، وكان جمعها على يد الكاهن (عزرا) فجمعها من صفحات مهلهلة يمكن القول بأنها وسائط عن توراة موسى، ومن صدور غير واعية تعتمد على حفظها من الذكريات، وسمى ما جمعه «عزرا» بالتوراة[1].

مصادر التوراة:

يعني بالتوراة هنا الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم، وقد ركز العلماء والباحثون جهودهم في القرن التاسع عشر على البحث عن المصادر الأولى للتوراة، وكانت ثمار جهودهم التي انتهوا إليها هي الاهتداء إلى مصادر أربعة هي:

١ ـ الوثيقة اليهـوية، وكان تحريرها في مملكة اليهود الجنوبية في القرن التاسع قبل الميلاد، أو العاشر على أكثر تقدير. وتعالج الوثيقة اليهـوية الفترة الأولى من أصل تكوين العالم حتى موت يعقوب ـ عليه السلام ـ وسميت هذه باليهوية نظراً لأن اسم الله يرد فيها باسم (يهوه).

٢ ـ الوثيقة الألوهيمية، وكان تحريرها قريباً من تاريخ اليهوية، وتشرح هذه الوثيقة فترة زمنية محدودة بالنسبـة للوثيقة اليهـوية. إذ تكتفي بـرواية الأحداث الخاصة بسيدنا إبراهيم ويعقوب ويوسف، وسميت هذه الوثيقة بالألوهيمية لأن اسم الله بها (ألوهيم).

٣ ـ سفر التثنية: وينتمي هذا السفر إلى القرن الثامن قبل الميلاد في رأي أدمون جاكوب، ويذهب محققون آخرون منهم الأب (ديفو) إلى أنه ينتمي إلى عصر (جوزياس) أي القرن السابع قبل الميلاد.

وفي القرن الثامن تم اتخاذ نص التوراة اليهوي والألوهيمي في مجلد واحد، وبهذا تشكل ما يعرف بالتوراة.

---

(١) راجع في ذلك سفر عزرا، الاصحاح السابع، وسفر نحميا، الاصحاح الثامن.

٤ ـ النص الكهنوتي: وينتمي إلى ما بعد النفي: ٥٣٨ قبل الميلاد، وهو القرن السادس قبل الميلاد، وكان أهم اهتمامات هذا النص هو العناية بالتواريخ والأنساب.

وقد صدر النص الكهنوتي عن كهنة معهد القدس، والذي عليه العلماء والباحثون هو أن الرواية اليهوية هي التي شكلت فيما بعد بنية الأسفار الخمسة المعروفة باسم أسفار موسى الخمسة، ثم أضيفت إلى هذا النص بعد ذلك الرواية المعروفة بالألوهيمية، والروَاية المعروفة بالكهنوتية.

وبهذا يتبين أن تحرير نص أسفار موسى الخمسة يمتد في الزمن ليستغرق ثلاثة قرون على أقل تقدير.

ويذكر موريس بوكاي أن المشكلة أكثر من هذا تعقيداً، ففي عام ١٩٤١م استطاع آ. لودز أن يميز في الوثيقة اليهوية ثلاثة مصادر، وفي الوثيقة الألوهيمية أربعة، وفي سفر التثنية ستة، وفي النص الكهنوتي تسعة، وهذا دون حساب الإضافات الموزعة بين ثمانية محررين كما يقول الأب ديفو[١].

فانظر كيف توصل الباحثون المحدثون إلى تعدد الأصول للمصادر الأولى للتوراة (أسفار موسى الخمسة) إلى أن وصلت أصول أحد مصادرها إلى تسعة أصول!!!.

آثار تعدد مصادر التوراة:

لقد تكونت أسفار التوراة الخمسة من أقوال موروثة مختلفة في مجموعها تحتوي على كثير من المهارة والحذر، وتظهر تلك المهارة وذلك الحذر من وضع المحررين ما جمعوه جنباً إلى جنب، وتغييرهم في طور آخر من شكل هذه الروايات بهدف إيجاد وحدة مركبة منها متآلفة.

(١) راجع في هذه الفقرة: دائرة المعارف البريطانية، مادة (أسفار مقدسة) ودراسة الكتب المقدسة لموريس بوكاي/ ٢٣، ٢٨ بتصرف.

ولكنهم رغم المهارة والحذر تركوا فيما ركبوه وألفوه أموراً غير معقولة، وأخرى متنافرة، كان من شأنها دفع الباحثين إلى البحث الموضوعي عن المصادر لهذا التركيب، وإليك مثالاً على التناقض في الكتاب بسبب تعدد الرواية بتعدد المصادر:

جاء في سفر التكوين (الإصحاح ٦/٣) يقرر الله قبل الطوفان بقليل أن يحدد عمرَ الإنسان بمائة وعشرين سنة.

ومع ذلك يلاحظ فيما بعد وفي نفس السفر (الاصحاح ١١/١٠ ـ ٣٢) أن حياة أنسال نوح العشرة قد دامت من ١٤٨ إلى ٦٠٠ سنة.

إن التناقض بين هاتين العبارتين واضح وتعليله بسيط، فالعبارة الأولى (من التكوين ٦/٣) نص يهوى تاريخه كما ذكرنا سابقاً إلى القرن العاشر قبل الميلاد على أكثر تقدير.

أما العبارة الثانية في سفر التكوين (الاصحاح ١١/١٠ ـ ٣٢) فهي من نص قريب في التاريخ (القرن السادس قبل الميلاد) لأنها من التراث الكهنوتي الذي هو أصل لهذه الأنساب، وهي وثيقة تبدو شديدة الدقة في إحصاء الأعمار إلى درجة زائدة عن الحد.

وكتاب أسفار موسى الخمسة يحتوي أكثر الأمثلة وضوحاً على التعديلات التي قام بها بشر في فترات مختلفة من تاريخ الشعب اليهودي، كما يعطي أكثر الأمثلة جلاء عن تعديلات التراث الشفهي والنصوص التي تلقتها الأجيال السابقة.

وفي سفر التكوين توجد أكثر المتناقضات في ضوء الفكر الحديث وخاصة في نقاط ثلاث جوهرية هي:

١ ـ خلق العالم ومراحله (من الاصحاح الأول).

٢ ـ تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض (الاصحاحات ٤و ٥و ١١، ٢١، ٢٥).
٣ ـ رواية الطوفان (إصحاحات ٦، ٧، ٨).

ومن أراد التفصيل في عرض المتناقضات في رواية هذه النقاط فليرجع إلى كتاب إظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي وكتاب موريس بوكاي: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة.

وبهذا يتضح ضخامة ما أضافه الإنسان إلى العهد القديم عامة وإلى أسفار موسى خاصة، وما أدت إليه تعدد المصادر من تنافرات وتكرار كثير في هذه النصوص كنتيجة ضرورية لمؤلف تباينت الأفكار فيه والأزمان والأفهام والأهداف والغايات.

كما يتبين للقارىء أيضاً التحولات التي أصابت نص العهد القديم الأول من نقل إلى نقل، ومن ترجمة إلى أخرى، بكل ما ينجم عن ذلك حتماً من تصحيحات جاءت على أكثر من ألفي عام كما يقول بوكاي.

نهاية القول:

إن نهاية الفصل في بحث تاريخية التوراة من الناحية الموضوعية والتاريخية هو تحقيق ما أكده القرآن الكريم بشأن التوراة وما صارت إليه، بعد وفاة نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ مما ورد في قوله تعالى: ﴿وقد كان فريقٌ منهم يسمعونَ كلامَ اللهِ ثم يُحرِّفونه من بعد ما عقَلوه وهم يعلمون﴾[1].

ومن اليهود من حرّف في التوراة ابتغاء عرَض الدنيا ورغبة في ثمن بخس لحياةٍ سريعةِ الفناء وكانوا في توراتهم من الزاهدين، فكذبوا على الله مع علمهم بسوء صنيعهم وفساد الأخلاق منهم، يقول سبحانه: ﴿وإنّ منهم لفريقاً يلوون ألسنَتَهم بالكتابِ لتحسبوه من الكتابِ وما هو من الكتاب،

(١) البقرة/ ٧٥.

ويقولون هو من عندِ اللهِ وما هو من عندِ اللهِ ويقولونَ على اللهِ الكَذِب وهم يعلمون ﴾(١).

وقد تـوعدهـم الله سبحانه بالويل والثبور في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، فقال جل شأنه: ﴿ فويلٌ للذين يكتُبون الكتابَ بأيديهم ثم يقولون هذا من عندِ الله ليشتروا به ثَمَناً قليلاً، فويل لهم مما كتَبَتْ أيديهم وويلٌ لهم مما يكسِبون ﴾(٢).

---

(١) آل عمران/ ٧٨.

(٢) البقرة/ ٧٩.

الزبور

الزبور في نظر الإسلام:

لقد بيّن الله في كتابه العزيز أنه أنزل على نبيّه (داود) عليه السلام كتاباً سمّاه (الزبور) فقال سبحانه ﴿وآتينا داود زبورا ﴾[1] وقال ﴿لقد فضّلنا بعض النبيين على بعضٍ وآتينا داودَ زبورا﴾[2].

والمراد بالزبور هنا الكتاب أو الصحف، قال تعالى ﴿ولقد كتبنا في الزَّبورِ من بعدِ الذكرِ أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾[3] وقوله ﴿وإنه لفي زبر الأولين ﴾[4] وقوله: ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر ﴾[5].

فالزبور إذن هو الكتاب المنزل على داود ـ عليه السلام ـ أحد أنبياء بني إسرائيل وملوكهم يقول ابن خلدون: «وأقام داود في ملكه والوحي يتتابع عليه، وسور الزبور تنزل، وكان يسبّح بالأوتار والمزامير، وأكثر المزامير المنسوبة إليه في ذكر التسبيح وشأنه، وفرض على الكهنوتية من سبط لاوي التسبيح بالمزامير قدام تابوت العهد...»[6].

---

(١) النساء/ ١٦٣.

(٢) الأسراء/ ٥٥.

(٣) الأنبياء/ ١٠٥.

(٤) الشعراء/ ١٩٦.

(٥) القمر/ ٥٢.

(٦) تاريخ ابن خلدون م ٢ ص ١٨٥.

ولقد حلّ بالزبور ما حلّ بالتوراة من ترك وإهمال، وعصيان ونسيان، خاصة بعد موت نبيّ الله سليمان وارتداد بني إسرائيل إلى عبادة الأصنام قروناً عدة كما أثبتته أسفار التوراة التـاريخيـة.

كما مرّ الزبور في إعادة كتابته وجمعه بعد فقدانه بمثل ما مرّت به التوراة من استقائه من مصادر لا تصل الثقة فيها إلى درجة الكفاية.

والكتاب إذا صار مفقوداً فترة من الزمان تخـللها كفر وإلحاد، وعصور معبّأة بالظلم والظلام، لم يستـطـع أحد القـول بأنه جمع على صورته الأولى خالياً من التلفيق والإدخال.

وهل ما يتضمنه العهد القديم من كتاب المزامير المنسوب إلى داود هو نفس الزبور المنسوب في الإسلام إلى داود؟

إن الحكم في ذلك يحتاج إلى يقين وبرهان لا سبيل إليه حتى الآن.

ولكننا نستطيع القول بأن من المزامير فقرات تشعرنا ببعدها عن مصدر الوحي، كما تشعرنا بعدم احتمال نسبتها إلى كلام النبوّة، ومن ذلك قوله: «يا رب لماذا تقف بعيداً، لماذا تختفي في أزمنة الضيق»[١] وقوله «يا رب يا الله ارفع يدك لا تنسى المساكين، لماذا أهان الشرير الله»[٢] وقوله: «إلى متى يا رب تنساني كل النسيان إلى متى تحجب وجهك عني»[٣] وقوله: «استيقظ يا رب لماذا تتغافى، إنتبه لا ترفض إلى الأبد، لماذا تحجب وجهك عنا وتنسى مذلّتنا وضيقنا»[٤].

وهكذا نجد في زبور اليوم المسمّى بالمزامير في العهد القديم ما لا يتفق

---

(١) مزمور ١٠ : ١.
(٢) مزمور ١٠ : ١٢، ١٣.
(٣) مز ١٣ : ١.
(٤) مز ٤٤ : ٢٣، ٢٤.

أن يكون وحياً من رب العالمين، لأن ما ذكرناه ومثله لا يتأتّى من إنسان يعمر قلبه بالتقوى وخشية الله، فكيف بنبيّ اصطفاه رب العالمين وائتمنه على وحيه وأحكام شرعه؟.

المزامير في الفكر الحديث:

يتفق جميع الباحثين على أن سفر المزامير المذكور في العهد القديم من كتب الشعر والحكمة، وهو مجموعة من الأغاني والأناشيد الشعبية التي كانت تغنّى في مجتمعات شعب بني إسرائيل، وهي تحكي مظاهر عباداتهم وأفراحهم وأحزانهم ومسرّاتهم وآلامهم وهزيمتهم وانتصاراتهم.

وهي ضرب من الشعر، وسمّيت بالمزامير نسبة إلى الآلة الموسيقية التي كانت تصحب إنشاده وقد تسمّىٰ السفر باسم الآلة[١].

ويقول بوكاي عن قيمة المزامير في التراث اليهودي «إن المزامير هي الصرح الشامخ في الشعر العبري، وقد كتب داود عدداً منها، وكتب الباقي الكهنة واللاويون، وموضوعها المدائح والتضرّعات والتأمّلات، وكانت وظيفة المزامير طقوسية الطابع[٢]».

وفي تحديد العدد المنسوب منها إلى داود يقول الدكتور فؤاد حسنين «تشتمل المزامير على مائة وخمسين مزموراً ينسب نصفها إلى داود إلى نهاية الإصحاح ٧٢[٣]».

هذا، إذا طرحنا جانبا اختلاف أسفار العهد القديم التاريخية وترجماته حول إمكان اليقين في انتسابها إلى داود، وإلاّ فإن نسبتها إليه على جهة اليقين أمر يعوزه المبرّرات.

---

(١) فؤاد حسين/ التوراة الهيروغليفية/ ١٣١.

(٢) دراسة الكتب المقدسة/ ٣٦.

(٣) التوراةالهيروغليفية/ ١٣٥، ١٣٦.

كما يؤكّد الدكتور فؤاد على وظيفتها الطقوسية فيقول: «إنه من الثابت أن جميع التعبيرات تشير إلى أن هذه الترانيم كانت مستخدمة في الطقوس الدينية، فمنها ما يتعلق بتدشين المعبد[١]، أو عند تقديم المحرقات والطعام[٢] أو القرابين[٣]، وعند الاحتفال بالسبت[٤]، أو عيد الفصح، والأعياد الأخرى، وقد ظلّت هذه عادتهم المستمرة».

ولكننا إذا رجعنا إلى دائرة المعارف البريطانية نجدها تقول: «كان الناس قديماً يعتقدون أن مزامير داود هو الذي قام بكتابتها وتصنيفها، ولكن المحققين اليوم لا يعتقدون هذا الزعم، ويقولون: إن المزامير أُلّفت في عصور مختلفة في تاريخ بني إسرائيل وجمعت بعد السبي، ولا يمكن أن يكون داود مصنفاً لكل هذه الأغاني، وكيف يكون ذلك، وبعض هذه الأغاني يشير إلى الهيكل في أورشليم، ومعلوم أن الهيكل تم بناؤه بعد داود. وفي القرن العشرين يتفق العلماء على أن أغاني الزبور نشأت في قرون مختلفة في التاريخ الإسرائيلي الطويل ثم رتّبت هذه الأغاني في كتاب[٥]».

---

(١) مزمور ٣٠.

(٢) مزمور ٣٨، ٧٠.

(٣) مزمور ١٢.

(٤) مزمور ٩٢.

(٥) دائرة المعارف البريطانية مادة (زبور).

العهد الجديد

انتهى رأي النصارى في نهاية القرن الرابع الميلادي على اعتماد سبعة وعشرين سفراً قرروا أنها الأسفار المقدسة التي أوحي بها إلى أصحابها بالمعاني لا بالألفاظ، وأطلقوا عليها اسم (العهد الجديد) وذلك في مقابلة تسمية مجموعة الأسفار اليهودية بالعهد القديم، وتسمية كل منهما بالعهد موصوفاً الأول بالقديم والثاني بالجديد جاء متأخراً ـ أي بعد ظهور المسيحية.

والعهد هنا يرادف معناه معنى «الميثاق» كأن كلتا الكلمتين تمثلان ميثاقاً اخذه الله على الناس. فالمجموعة الأولى ترجع إلى عهد موسى ـ عليه السلام ـ والأخرى تمثّل عهداً جديداً يبدأ بظهور المسيح ـ عليه السلام ـ.

وتتكوّن أسفار العهد الجديد من ثلاث مجموعات وسفرين، فالمجموعات هي:

١ ـ مجموعة الأناجيل، وعددها أربعة.
٢ ـ مجموعة رسائل بولس، وعددها أربع عشرة رسالة.
٣ ـ مجموعة الرسائل الكاثوليكية وعددها سبع رسائل.

وأما السفران فهما: سفر «أعمال الرسل» للوقا، وسفر «رؤيا يوحنا» ليوحنا. والذي يعنينا في دراستنا هذه مجموعة الأناجيل الأربعة وهي:

إنجيل متّى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا.

الأناجيل الأربعة:

معنى الإنجيل عند المسيحيين:

الأناجيل جمع إنجيل، ومعناه عندهم (الأخبار السارة والبشارة المفرحة) ويقولون: إن الإنجيل هو البشارة التي وعظ بها عيسى الناس وبشّرهم فيها بقرب ملكوت الله عزوجل، كما دعاهم فيها إلى التوبة، كما يعتقدون أن الإنجيل قد أتى به عيسى من عند نفسه وليس وحياً أوحي إليه بها[1]، إذ كيف يوحى إليه وهو إله؟!!!.

وقد وعظ عيسى بالإنجيل شفاها، ولم يدوّن قط منه ولا كلمة واحدة طيلة اتصاله بالأرض، وترك أتباعه والإنجيل عندهم في الذاكرة بمعناه فحسب.

وتمثّل الأناجيل الأربعة أهم مجموعات العهد الجديد، إذ تستوعب ما يقرب من نصفه.

وقد ورد ذكر الإنجيل على لسان عيسى في إنجيل مرقس حيث دعا الناس بقوله «توبوا وآمنوا بالإنجيل[2]» ولكن الإنجيل إذا كان واحداً كما نرى فكيف صار أربعة؟

الأناجيل الأربعة وظروف كتابتها:

من المعلوم عند أهل الملل غير اليهود أن إنجيل عيسى لم يكتب إنجيله حال حياته على الأرض، إذ ترك أتباعه من غير كتاب، باستثناء ما احتفظت به ذاكرتهم من تعاليمه وعظاته.

ومن المعلوم كذلك تاريخياً أن عيسى ـ عليه السلام ـ وقد قبض عليه

---

(١) انظر المسيحية في الإسلام/ إبراهيم لوقا ص ٤٢، ٤٣.
(٢) مرقس ٢ : ١٥.

وحوكم أمام المجلس اليهودي الأعلى، وصدر أمر جواز محاكمته من الحاكم الروماني لمنطقة اليهودية التي كانت أورشليم وملحقاتها من مقاطعاتها، بصرف النظر عن مدى صحة تنفيذ الحكم، فذلك موضوع له بحث خاص.

وبهذا بدأ الاضطهاد والملاحقة للدعوة المسيحية والداعية لها والمعتقدين بها، وظل ذلك الاضطهاد في ازدياد حتى وصلت شدة التعذيب للأتباع إلى أخذهم وصلبهم في الشوارع وصبِّ القار على كل مصلوب ثم إشعال النار فيه لتضاء بهم الشوارع، وكان الأمبراطور الروماني «نيرون» سنة ٦٥ م يمرّ بهم مبتهجاً ومتشفّياً.

وحرّمت الدعوة إلى المسيحية على أي حال بأمر الأباطرة، وكانت طرق التعذيب لمن يدينون بدين المسيح تختلف في شدّتها وبأسها حسب شطط الأباطرة وطبيعة نظرتهم إليهم مما تقشعر منه الأبدان لمجرد ذكره.

وظل الأمر هكذا طيلة ثلاثة قرون إلى أن أعلن «قسطنطين» السماح بإظهار دين المسيحية سنة ٣٢٣ ميلادية، وفي أثناء هذه القرون الثلاثة المضطرمة بنار التعذيب كانت هناك أناجيل يحاك نسجها خفية لجماعات لا تدري كل جماعة منها شيئاً عن تصورات الجماعات الأخرى، ولا عن كتابتها عن السيد المسيح ـ عليه السلام ـ لاستحالة الاتصال خوفاً ورهباً من السلطة الرومانية الوثنية.

وعندما طمأنهم قسطنطين على دينهم ـ لهدف سياسي ـ ظهر المتدينون فرقاً بأناجيل بلغت السبعين إنجيلاً، على ما انتهى إليه جمهور المحققين، وكان كل إنجيل منها يختلف عن الآخر في شرحه لحياة المسيح ودعوته، متقاربين قليلاً ومتباعدين كثيراً عن الحقيقة، مما أدّى إلى التضارب في الآراء والمذاهب وتناقضها حول المسيح ودينه. مما حدا بالأمبراطور بعد مشاورة بعض القساوسة إلى عقد أول مجمع كهنوتي مسيحي (مسكوني = عالمي) لتقرير

عقيدتهم في المسيح بعد تضاربهم فيها، واختيارهم للأناجيل التي يرونها متفقة مع العقيدة التي يقرّرونها ونبذ ما عداها واعتبارها نحلة كاذبة.

وتم في هذا المجمع ـ بعد خلافات عنيفة بين جميع الطوائف المختلفة العقائد في المسيح ودينه وأمه ـ الاتفاق على اختيار هذه الأناجيل الأربعة: إنجيل متى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا.

وهذا المؤتمر هو ما يعرف في التاريخ العام والمسيحي بـ (مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية[١]).

قيمة الأناجيل الأربعة:

يعتقد المسيحيون أن الأناجيل الأربعة من وحي الروح القدس الذي هو الإله الثالث عندهم، فقد حلّ على أصحابها وألهمهم بها.

أما من وجهة النظر التاريخية ووجهة الإنصاف للمحققين منهم فإنها لا تعدو أن تكون كتابات ظنية عن المسيح وحياته في الدعوة حسب وجهة نظر كاتبيها، ولذا قد جاء فيها من المتناقضات ما ينأى بها عن مصدر الوحي، ويتضح الأمر جلياً إذا عرفنا من هو واضع كل إنجيل وكيف تم وضعه.

مدى صحة انتساب الأناجيل إلى أصحابها:

١ ـ متى والإنجيل:

يكاد المسيحيون يجمعون على أن (متى) من الحواريين، وكانت وظيفته قبل إتباعه للمسيح عشارا، أي من جباة العشور (الضرائب) للحكم الروماني، وكانت تلك وظيفة يبغضها الجميع لممارستها ظلم الرعية.

وكان متى قبل النصرانية يهودياً، فلما جاء المسيح لبني إسرائيل خاصة

(١) راجع هذه الظروف التاريخية للمسيحيين في تلك القرون في كتاب: قصة الحضارة، ول ديورانت م ٣ جـ ٣. وإظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي، وأنوار الجليل في أخبار مصروتوثيق بني إسماعيل لرفاعة رافع.

دون سواهم كما ذكر الإنجيل[١] والقرآن[٢]، أعلن متى إيمانه بالمسيح ودعوته وصار من حوارييه.

كما يتفق النصارى على أن متى الحواري ألّف إنجيلاً باللغة العبرية أو الآرامية في أحد قولين في أرض يهودية كما قال (جيروم)[٣].

وكان تأليف هذا الإنجيل ما بين عامي ٦٠ و ٧٠ كما يقول وليم آدي في كتابه (الكنز الجليل في تفسير الإنجيل)[٤] وبعضهم يعزوه إلى الفترة ما بين ٧٥ ـ ٩٠ ميلادية.

والمشهور بين المؤرخين أن الأصل العبراني بلغة متى قد فقد وظهر بعده ترجمة له باللغة اليونانية، ولم يكن مؤكداً أن الترجمة اليونانية مطابقة للأصل العبري، لفقدان الأصل قبل ظهور الترجمة.

لم يقل أحد إنه اطلع على الأصل العبري بلغة متى مقارناً بالترجمة اليونانية، كما لم يعلم أحد بمن قام بهذه الترجمة.

قال (جيروم): وهو من علماء النفس النصارى المتقدمين في حق ترجمة إنجيل (متى) «أنه لا يوجد إسناد لهذه الترجمة، وحتى الآن لم يعلم باليقين اسم المترجم[٥]».

وعلى ذلك فإن الاعتقاد بصحة كلام مترجم مجهول الحال من الخطورة على العقيدة بمكان، وقد وصف (نورتن) مترجم إنجيل متى بأنه كان حاطب ليل لا يميز بين الرطب واليابس، فما في المتن من الصحيح والغلط قد ترجمه.

---

(١) متى ١٠/ ٦ ويوحنا ٤/٢٢.
(٢) آل عمران / ٤٩.
(٣) قصة الحضارة م ٣ جـ ٣ ص ٢٠٧.
(٤) انظر ص ٤.
(٥) انظر كتاب الفارق بين المخلوق والخالق لعبد الرحمن باجه جي زادة ص ٢١.

وقال جامعو تفسير هنري واسكات: «إن هذا الإنجيل ما كان متواتراً في القرن الأول، وإن التحريف كان شائعاً في هذا القرن أيضاً في المسيحيين»[١].

٢ ـ مرقس والإنجيل:

تقول المصادر المسيحية إن (مرقس) صاحب الإنجيل كان يهودياً من بيت لاوي، ولم يكن من الحواريين باتفاق، وإنه تتلمذ على يد بطرس الحواري، ومات مقتولاً في الإسكندرية على يد الوثنيين في عهد (نيرون) سنة ٦٨ م.

سبب تأليفه الإنجيل ولغته:

وسبب تأليفه للإنجيل وكتابته له هو طلب أهل روما لذلك فيما بين عامي ٦٠ ـ ٧٠ ميلادية، يقول ديورانت «إن مرقس ألّف إنجيله من ذكريات نقلها إليه بطرس»[٢].

وكان تأليفه باللغة اليونانية، ذلك أن بطرس ذهب للتبشير في أهل روما وكانت لغته العبرية ولغتهم اليونانية، وكان مرقس يجيد اليونانية قراءة وكتابة، فاصطحب مرقساً في رحلته التبشيرية، ولما قتل بطرس في اضطهاد نيرون اجتمع شيوخ النصرانية في روما للنظر فيمن يكون حافظاً لأقوال المسيح وواعياً للحديث عنه، فكان المختار لذلك هو مرقس رفيق بطرس في روما، فكلّفوه بكتابة ما يمكن تذكّره من أقوال المسيح وتعاليمه مما سمعه من أستاذه بطرس فكتب إنجيله بناء على ذلك.

يقول صاحب مرشد الطالبين: «قد زعم أن إنجيل مرقس كتب بتدبير بطرس سنة ٦١ ميلادية لنفع الأمم الذين كان تنصرهم بخدمته»[٣].

---

(١) المرجع السابق/ ٢٢.
(٢) قصة الحضارة م ٣ جـ ٣ ص ٢٠٧.
(٣) مرشد الطالبين ص ١٧٠.

وبالإمكان هنا أن نقول إن إنجيل مرقسي بعيد كل البعد عن أي اتصال له بالوحي أو الإلهام. وإنه من وضع رجل لم ير المسيح ولم يستمع إليه.

٣ ـ لوقا والإنجيل:

تختلف آراء معظم الباحثين حول شخصية (لوقا) وأغلبهم على أنه ليس يهودياً، ولكنهم يتفقون على أنه من أهل أنطاكية، ولوقا لم ير المسيح أصلاً ولم يلتق به، وأنه كان طبيباً وقيل مصوراً، وقد كتب إنجيله باليونانية فيما بين عامي ٦٠ ـ ٧٠ ميلادية على أشهر الأقوال، وإن كان بعضهم يعزوه إلى العقد الأخير من القرن الأول.

ومعلوم أنه كتبه كرسالة شخصية إلى صديقه (ثاوفيلس) الذي قيل إنه مصري، ونقرأ هذا في افتتاحية إنجيله إذا يقول: «إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداماً للكلمة، رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبّعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب إليك أيها العزيز ثاوفيلس لتعرف صحة الكلام الذي علمت به[1]» .

أَفَتَرى بعد هذا أن يكون إنجيل لوقا وحياً من الله أم وحي الأحاديث المتداولة.

يقول ديورانت «والإنجيل حسب نص القديس لوقا، وهو النص الذي يعزى عادة إلى العقد الأخير من القرن الأول يعلن أنه يرغب في تنسيق الروايات السابقة عن المسيح والتوفيق بينها، وأنه يهدف إلى هداية الكفرة لا اليهود، وأكبر الظن أن لوقا نفسه كان من غير اليهود. . . وهو يقتبس كثيراً من كتابات مرقس. . . »[2].

---

(١) لوقا ١.
(٢) قصة الحضارة م ٣ جـ ٣ ص ٢٢٩.

٤ ـ يوحنا والإنجيل:

إن الكثرة الغالبة من أهل الفرق والطوائف النصرانية تذهب إلى أن يوحنا الإنجيلي هو أحد الحواريين الإثني عشر، وقد ولد في بيت صيدا من أعمال الجليل، وكان أبوه صياداً، وأمه قريبة مريم أم المسيح، وكان صياداً كأبيه، وقد كان المسيح يحبه، وفي أيام الاضطهادات الأولى نفاه القيصر (دوميتان) إلى جزيرة (بطمس) من جزر بحر (إيجه) ثم عاد إلى بلده إفسس وظل حتى توفي شيخاً كبيراً[1].

وقد ألّف إنجيله باللغة اليونانية، وإنجيله يناقض الأناجيل الأخرى في التفاصيل والصورة العامة التي يرسمها للمسيح، ومع ذلك فإن بعض النصارى يشكون في كون يوحنا صاحب الإنجيل من التلاميذ.

والسبب في كتابة هذا الإنجيل: أنه كانت هناك طوائف تنكر لاهوت المسيح، ولا يوجد في النصرانية ما يثبت له اللاهوت... فلذلك اجتمع عموم أساقفة آسيا وغيرهم عند يوحنا سنة ٩٦ ميلادية، وكان ذلك في آخر حياته، والتمسوا منه أن يكتب عن المسيح... وأن يكتب بنوع خاص عن لاهوت المسيح فلم يسعه أن يهمل إجابة طلبهم»[2].

ومن هنا ندرك أن فكرة لاهوت المسيح ما ظهرت رائحتها إلا في نهاية القرن الأول، ولذلك لم يكتب عنها الإنجيليون الثلاثة السابقون، وبذلك يكون إنجيل يوحنا بإلهام من قساوسة آسيا لا بإلهام من الروح القدس.

ويذهب الكثير من المحققين النصارى إلى عدم الاعتراف بكون هذا الإنجيل من وضع يوحنا الحواري، ونسبوا تأليفه إلى طالب من طلبة المدرسة الإسكندرانية، قيل إن اسمه (بروكلوس) ألّفه في أول القرن الثاني، وأنه

---

(١) إقرأ خلاصة تاريخ المسيحية في مصر، الحلقة الثانية ص ٥٣.

(٢) الفارق ٣٤١.

أسند تأليفه إلى يوحنا التلميذ ليعتقد الناس صحته ويتناولوه ضمن الكتب المسيحية المقدسة.

ولعل مستند ذلك ما جاء في دائرة المعارف البريطانية تحت لفظ (أناجيل) «أما إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك كتاب مزور أراد صاحبه مضادة حواريين لبعضهما وهما القديسان (يوحنا) و (متى) ، وقد ادعى هذا الكاتب المزوّر في متن الكتاب أنه هو الحواري الذي يحبه المسيح، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاّتها، وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحواري ووضعت اسمه على الكتاب نصاً مع أن صاحبه هو غير يوحنا يقينا، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التي لا رابطة بينها وبين من نسبت إليه، وإنا لنرأف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهدهم ليربطوا ولو بأوهى رابطة ذلك الرجل الفلسفي الذي ألّف هذا الكتاب في الجيل الثاني بالحواري يوحنا الصياد الجليلي، فإن أعمالهم تضيع عليهم سدى لخبطهم على غير هدى[1].

وعلى ذلك فجمهور الناقدين يعزون تأليف هذا الإنجيل إلى عناصر أخرى بعيدة عن يوحنا الحواري[2].

خلاصة ما تقدم:

من حديثنا عن تاريخية الأناجيل ونسبتها إلى أصحابها يتبين ما يلي:

١ ـ أن (متى) تكاد الصلة تنقطع بينه وبين الإنجيل المنسوب إليه بدخول مترجم من العبرية إلى اليونانية، وهو مجهول لم يعرف اسمه وسائر أحواله، كما لا يعرف ما إذا كانت هذه الترجمة صادقة عن إنجيل متى أو لا، ولم يقل أحد إنه رأى إنجيل متى العبري أو قارنه بترجمته، وذلك

(١) انظر كتاب الفارق/ ٣٤٢.

(٢) راجع قصة الحضارة م ٣ جـ ٣ ص ٢٠٩، ٢٢١.

لفقدان الأصل قبل ظهور الترجمة، على أنه من الراجح أن هذا الإنجيل من عمل أتباع متى.

٢ ـ تبين أن مرقس ليس حوارياً وأنه كتب إنجيله من ذاكرته عن أستاذه بطرس بالتماس من أهل روما.

٣ ـ إن إنجيل لوقا لم يتعد أن يكون رسالة أو مجموعة رسائل أخذ يسرد لوقا فيها وقائع الأحداث التي عِلمها ممن سبقه مستخلصة من حقائق مخلوطة ومشوبة بإضافات الروايات وانتقاداتها وقبولها وردّها، وتحتاج في ذلك إلى ضابط لزمام الفكر مع فقدان ذلك الضابط، وهذا فضلاً عن أن لوقا ليس حوارياً ولا تلميذاً للمسيح.

٤ ـ تبيّن لنا حال الشك في كون يوحنا هو واضع الإنجيل المنسوب إليه، وتضافرت آراء الناقدين على أنه من كلام أحد طلبة المدرسة الإسكندرانية الفلسفية، مع أننا لو سلمنا جدلاً بوضعه له فقد عرفنا أنه قد اقترحت عليه فكرته من قساوسة آسيا، علماً بأنه ألّفه بعدما جاوز المائة سنة، وكانت الذكريات عن المسيح في أغلب الظن قد بهتت، وكان هو قد اختلط في آخر عمره كما تقول لجنة التوفيق القبطية.

رأي علماء الإسلام في التوراة والإنجيل:

إنه ليحق لنا بعد كل ذلك أن نقول: إن هذه الأناجيل لا تتصل بإنجيل المسيح إلا بخيط هو أوهى من خيط العنكبوت، وإنها لذلك ليست على شيء. فهل يصح لأصحاب الأناجيل ـ وهم لم يروا إنجيل المسيح ـ أن يعطوا لأنفسهم صفة شاهد العيان له؟.

هذا فضلاً عما احتوته هذه الأناجيل من المتناقضات فيما بينها وفيما بين كل إنجيل ونفسه مما لا يدع مجالاً للشك في أنها من وضع بشر لا بطريق الوحي، لأن الوحي حق وصادر عن الله الحق، والحق لا يتناقض مع الحق،

فثبت أنها ليست حقاً وليست من الحق في شيء.

ومن أراد أن يعرف مدى ما فيها من تناقضات تستوعب كل فقراتها فليقرأ كتاب، «إظهار الحق» وكتاب «الفارق» فإن فيهما إشباع للمستزيد.

كما أنه يحق فيهم قول الحق سبحانه وتعالى في شأنها وشأن أصحابها وأهليها من اليهود ﴿ فَبِما نقضِهم ميثاقَهم لعنّاهم وجعلنا قلوبَهم قاسيةً يحرّفون الكلِم عن موَاضِعِه ونسُوا حظّا مما ذُكّروا به ﴾[1].

وإن علماء الإسلام كافة مجمعون على أن التوراة والإنجيل الأصليين مفقودان من قبل بعثة سيدنا محمد ﷺ وأن الذي كان موجوداً منهما في عصر نزول القرآن هو عبارة عن كتابين مجموعين من ذكريات الكهان والأحبار من اليهود والقسيسين والرهبان من النصارى، وجميعهم بشر غير موحى إليهم، فلا يجوز أن يطلق على أي منهما اسم توراة أو إنجيل بالمعنى الحقيقي المنزل على موسى وعيسى عليهما السلام.

ولا ينبغي أن يظن القارىء من ادعائنا وقوع التحريف في كلا الكتابين أننا نعتبرهما التوراة والإنجيل الأصليين ثم وقع التحريف فيهما، كلا. فنحن لم ندع ذلك، وإنما هدفنا تحقيق القول في كونهما من كلام الله أو من كلام البشر، وقد ثبت من خلال دراستهما تاريخياً وموضوعياً أنهما من كلام البشر.

وهذا ما انتهينا إليه، استنباطاً من اشتمالهما على أمور غريبة تنطق بنفسها على أنها ليست من كلام الله تعالى في شيء.

فإذا قلنا في أثناء بحثنا مثلاً ـ كتاب التوراة أو إنجيل متى أو غيره ـ فما نقصد إلا الإشارة إلى ما يسمونه بهذا الإسم منهما.

إذن فالتوراة التي قد أنزلها الله على رسوله موسى ـ عليه السلام ـ إنما

---

(١) المائدة/ ١٣، ١٤.

أنزلها لتكون هدى ونوراً لبني أسرائيل، ولكنهم لما لم يحفظوها ونبذوا أحكامها وراءهم ظهرياً ـ في أزمان ارتدادهم ـ ضاعت نصوصها وتغيرت عن صورتها الأصلية، وقد ذكرهم بهذه النتيجة أحد أنبيائهم معاتباً ومبكّتاً لهم على هذا التغيير بقوله: «من أيام آبائكم حدتم عن فرائضي ولم تحفظوها[١]» وقد أفصح عن التحريف نبيّ آخر من أنبيائهم بقوله «لأنكم قد حرفتم كلام الإله الحي رب الجنود إلهنا»[٢].

ثم أكرمهم الله بالإنجيل ليبين لهم ما فقدوه من التوراة، فلما لم يحفظوه كما أنزل، وضاعت أصوله واختلفت نصوصه، أكرم الله عباده بالقرآن المشتمل على الهداية التامة التي هي أقوم، والسعادة التامة لكل من له أسلم واعتصم، فنادى أهل الكتاب خاصة بقوله تعالى: ﴿يا أهلَ الكتابِ قد جاءكم رسولُنا يبيِّنُ لكم كثيراً مما كنتمُ تُخفونَ من الكتابِ ويعفو عن كثير، قد جاءَكم من الله نورٌ وكتابٌ مبينٌ يهدي به الله مَنِ اتَّبع رِضوانَه سُبُلِ السلام ويُخرجُهم من الظُّلماتِ إلى النُّور بإذنه ويَهديهم إلى صِراطٍ مستقيم﴾[٣].

ثم نادى العالمين عامة بقوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الناسُ قد جاءَكم بُرهانٌ من ربِّكم وأنزلنا إليكم نوراً فأما الذين آمَنوا بالله واعتَصَموا به فسيُدخِلهم في رحمةٍ منه وفضلٍ ويهديهم إليه صِراطاً مُستقيماً﴾[٤].

فالقرآن الكريم هو المخرج الوحيد للناس من الظلمات إلى النور وهو الهدية لهم إلى صراط العزيز الحميد، فإلى مدارسة القرآن الكريم تاريخياً.

(١) ملاخي ٣: ٧.
(٢) إرمياء ٣٣: ٣٦.
(٣) المائدة/ ١٥، ١٦.
(٤) النساء/ ١٧٤، ١٧٥.

«القرآن الكريم»

التعريف بالقرآن:

القرآن: هو الكتاب المنزل على سيدنا محمد - ﷺ - من لدن رب العالمين، المتعبد بتلاوته، المتحدي بأقصر سورة منه، المنقول إلينا بالتواتر.

تاريخية القرآن:

لقد ثبت للقاصي والداني، والعالم والجاهل، والعدو والصديق أن القرآن الكريم أنزله الله على سيدنا محمد ﷺ فبلّغه للناس على مكث، وحفظه عنه أصحابه تلقيناً، وأمر بكتابته دون غيره، فكتبه له كتبة الوحي البالغ عددهم أربعين حسب رواية المحققين، كما كتبه غيرهم لأنفسهم على ما تيسر لهم آنذاك من جلد، أو ورق، أو عظم، أو سعف، أو خشب، أو غير ذلك، مما أمكنهم الحصول عليه من وسائل التسجيل.

ولم ينتقل النبي ﷺ إلى جوار ربه إلا بعد أن كانت جميع السور مرتبة الآيات محفوظة في صدور الجماهير مكتوبة في السطور، وذلك بعد أن سمعوها من النبي مرات ومرات عديدة، في الصلوات والخطب والمواعظ وغيرها، كما سمعها هو منهم أيضاً.

ولم تمض على وفاة رسول الله سنة أو بعض سنة حتى أمر أبو بكر الصديق بجمع نسخة رسمية للقرآن، فجمعت، وروعيت أدق الأساليب العلمية في جمعها، وأجمع جميع المسلمين على صحة هذه النسخة.

ولما ولي عثمان بن عفان الخلافة، أمر بنسخ سبع نسخ من النسخة التي جمعها أبو بكر الصديق، والتي أجمع المسلمون على صحتها، ولما تم نسخ هذه النسخ السبعة بعث إلى كل عاصمة من العواصم الإسلامية بواحدة منها لتكون مرجعاً للناس، يصححون عليها مصاحفهم، ويقومون عليها حفظهم، وأرسل مع كل نسخة من هذه النسخ السبع قارئاً مجيداً ليدعم صحة الكتابة بصحة القراءة والأداء.

ومن عرف طباع العرب وشدتها في الحق لتحقق له أنه لو وجد في مصاحف عثمان أدنى عيب أو اختلاف لرفضوها، ولأثيرت حرب وأهرقت دماء، ولقتل عثمان لهذا السبب، ولوجدت مصاحف مختلفة بين المسلمين حتى اليوم، ولكن لم يحصل شيء من ذلك مطلقاً، فدل ذلك على أن هذه المصاحف هي عين ما تلقوه عن النبي ﷺ تماماً.

ثم أخذت طرق كتابتها تتحسن شيئاً فشيئاً حتى وصلت إلى الحالة الحاضرة من النقط والشكل، ولا يوجد بينها اختلاف مطلقاً، قديمها وحديثها شرقيها وغربيها، ويهيمن على هذه المصاحف إلى يومنا هذا آلاف الألوف من الحفّاظ في جميع الأقطار وفي جميع الأزمنة.

هذا هو تاريخ القرآن كما تواترت به الأخبار بالأسانيد الصحيحة، وهذا هو الكتاب الذي نؤمن به، ونؤمن أن الله قد تعهده بحفظه في قوله تعالى: ﴿ إنا نحنُ نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافِظون ﴾، وبشرنا الله بعدم تبديله في قوله تعالى: ﴿ لا تَبْديلَ لكلمات الله ﴾ فحِفْظُ الله له وصيانتُه لكلماته عن التبديل من أظهر المعجزات الدالة على أنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فليس القرآن الكريم ككتب الأديان الأخرى التي لا تزال مجهولة

المصادر منقطعة الأسانيد، والتي لم يهتدِ أحد إلى معرفة كاتبيها حتى الآن، والتي كانت قراءتها محرمة بأمر الكنيسة تحت سلطان محاكم التفتيش، فلا العامة كانوا يجسرون على دراستها، ولا الخاصة يحفظونها في صدورهم، حتى لعبت بها الأهواء، وتعددت في شأنها الآراء حيث آلت إلى ما هي عليه من الحالة المميزة للعقول من تضارب وتناقض وزيادة ونقصان وتبديل وتحريف.

وليس القرآن كذلك، لأنه لم يكن من وضع البشر حتى يصبح عرضة لهذه الطوارىء السيئة، وإنما هو وحي سماوي أنزل بتركيب رباني يهدي إلى صراط العزيز الحميد، صراط الله المستقيم وهو صراط الحق المبين.

من مزايا القرآن الكريم:

إن للقرآن من التأثير الروحي في نفوس قارئيه وقلوب سامعيه بسبب بقائه الحرفي، كما أنزله الله، ما وصل به إلى حد الإعجاز، وفي الوسع أن نشير هنا إلى بعض ما اختص به القرآن من التأثير.

١ ـ سهولة حفظه لمتعلمه كما يقول سبحانه ﴿ولقد يَسَّرنا القرآنَ للذكرِ﴾[1] فحفظ القرآن ميسر على الأبناء الصغار في أقرب فترة زمنية، ويوجد في أمَّةِ القرآن في كل زمن ما يربو على مئات الألوف من الحفاظ، وبالإمكان أن يكتب القرآن من إملاءِ مَنْ حفِظَه، من أوله إلى منتهاه دون أن يقع منه غلط واحد في الإعراب فضلاً عن الخطأ في الألفاظ، ولا يوجد في جميع بقاع أوروبا وأمريكا من يحفظ الإنجيل بالقدر الذي يساوي عدد حفاظ القرآن الكريم في قرية من قرى الوطن الإسلامي، وهذا فضل كبير قد حبا الله به أمة محمد وكتابها الكريم.

٢ ـ إن قارئه لا يسأمه، وسامعه لا يمله، بل الذي نشاهده عياناً أن تكراره يجذب القلوب إلى زيادة محبته، إذ كلما ازداد تلاوة كلما ازداد حلاوة.

---

(١) القمر/١٧.

وقال في حقه بعض القائلين:

وخير جَلَيسٍ لا يمل حديثه وترداده يزداد فيه تجملا

ونحن نرى أن الكتب غير القرآن مهما بلغت من درجة البلاغة والفصاحة فإن تكرارها يولد الملل في الذهن والسآمة في النفس ومج السمع وأنفة الطبع، وهذا ما يشعر به كل إنسان.

٣ - كتب الله - سبحانه - على نفسه حفظه من التحريف والتبديل، والزيادة والنقصان، فقال سبحانه: ﴿ إنا نحنُ نزَّلْنا الذِّكرَ وإنّا له لحَافِظون ﴾ وقد وقع ما أخبر به سبحانه، وقال سبحانه: ﴿ بل هو قرآنٌ مَجيدٌ في لوحٍ محفوظ ﴾، فلم يقدر أحد على مر الزمان من الملاحدة والقرامطة، والباطنية، والمعطلة، وغيرهم أن يحرف منه، لا من حروف مبانيه ولا من حروف معانيه، كما لم يستطع أن يغير حركة من حركات إعرابه إلى وقتنا هذا، وقد مضى على وجوده بين الناس ألف وأربعمائة سنة ونيف، وإنه لباقٍ كذلك إلى يوم الساعة.

وجملة القول: إننا لو أردنا إحصاء فضائل القرآن ومزاياه التي اختص الله بها كتابه العزيز، في نظمه اللفظي وترتيبه الحرفي، وإعجازه العلمي، وجزالته، وعظمة جرسه، ما وسعه مجلد عظيم، ويحق للمؤمنين به أن يفخروا بتبعيتهم لإمامهم القرآن، الذي جاءهم بالشريعة الكاملة الصالحة لكل زمان ومكان لسائر بني الإنسان، خالدة صافية ما دامت السموات والأرض، وكانوا بفضله خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله.

إن القرآن الكريم خير مرشد إلى الفرق بين كلام الله الذي أوحى به في التوراة والإنجيل، وبين ما اختلط بهما من الكلام المتعارض الذي لا يتفق مع الوحي الإلّهي، بهيمنته على الكتب المنزلة، ودلالة على أصولها وإنبائه

عن دخائلها، فما صدقه منها صدقناه وما كذبه كذبناه وما ليس هذا ولا ذاك لا نصدقه ولا نكذبه.

لقد جعل القرآن أتباعه أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيداً.

هذا هو اعتقادنا نحن المسلمين في التنزيل كله، قرآناً وتوراة وإنجيلاً، وحمداً لله ربنا الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى.

تذييل

دراسة تاريخية
عن تأليف «التلمود»
كتاب اليهود المقدس

التلمود من الأسفار المقدسة والخفية عند اليهود، وتختلف كلمة (الخفي) بين اليهود والنصارى، إذ الخفي عند اليهود مقدس في الوقت نفسه.

أما عند المسيحيين فالخفي ما كان غير مقدس، أي غير موحى به، سواء كان في نظرهم صحيحاً في حقائقه ونسبته إلى مؤلفه أم كان غير ذلك كإنجيل برنابا مثلاً، فهو خفي وغير صحيح في نظرهم.

معنى التلمود:

التلمود لفظ عبري معناه (التعليم) ويبدو أن بينه وبين لفظ (تلميذ) العربية قرابة، يغلب فيها على الظن أنهما من أصل سرياني واحد.

ما يتكون منه التلمود:

يتكون التلمود من مجموع كتابين هما (المشناة) و(الجيمارا).

ويصف بعض المحققين كتاب المشناة بأنه عبارة عن كتاب أحكام السنة الموسوية المتممة لأحكام التوراة، ولهذا يعقدون صلة في أصل اللغة بين السنة والمشناة، لأن من عادة العبرانيين قلب السين العربية في النطق بجعلها شيناً وبالعكس أيضاً، وذلك كقولهم (الشلوم) أي (السلام) و(الشبات) أي (السبت) وهكذا.

وقال آخرون: إن لفظ (المشناة) مشتق من لفظ عبري معناه بالعربية

(الثاني)، وبهذا المعنى يكون كتاب المشناة عبارة عن كتاب الأحكام (الثاني) بعد التوراة والمتمم لها في نظرهم، أو هو الشريعة والأحاديث الشفهية وتفاسير التوراة وشروحها عن موسى ـ عليه السلام ـ وتناقلتها الحاخامات عنه جيلاً بعد جيل.

ويبدو أخيراً ظهور القرابة السريانية، بين الألفاظ الأربعة التي هي، المشناة، والسنة والمثنى، والثاني، أما (الجيمارا) وهو الشق الثاني لمكونات التلمود فهو: عبارة عن الزيادات، والتفاسير، والشروح، التي أضافها الأئمة والرؤساء والفقهاء في أجيال مختلفة على الأحكام والأقوال تكملة لها من طريق الاستنباط والقياس مع اختلاف عظيم في الأفكار والمذاهب.

أسفار التلمود وتاريخ تأليفها:

يتألف التلمود من بحوث أحبار اليهود وربانييهم وفقهائهم المنتمين إلى فرقة (الفريسيين) أشهر فرق اليهود ـ وفرقهم هي الفِرِيسيُّون، والصدوقيون، والكتبة أو القراؤون ـ ويتميز الفريسيون بالتشدد والتزمت في التمسك بأحكام الشريعة.

يقول الدكتور علي وافي: «إن التلمود يتألف من ثلاثة وستين سفراً ألفت في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد، وأطلق عليها اسم (المشناة) بمعنى المثنى والمكرر، رؤي أنها تكرار وتسجيل للشريعة، ثم شرحت هذه المشناة فيما بعد، وأطلق على هذه الشروح اسم (الجيمارا) أي الشرح أو التعليق.

وألفت هذه الشروح في فترة طويلة تمتد من القرن الثاني إلى أواخر السادس بعد الميلاد، وتألف من المتن والشرح (أي: المشناة والجيمارا) ما أطلق عليه اسم (التلمود) بمعنى التعاليم..»[1].

ويذهب كثير من المحققين إلى أن التلمود قد وضع في الجيل الخامس

---

(١) الدكتور علي وافي: الأسفار المقدسة/٢٢.

بعد ميلاد المسيح ـ عليه السلام ـ أي قبل ظهور الإسلام بنحو مائة عام تقريباً، وهذا يتفق مع نهاية الفترة التي حددها الدكتور وافي.

أول من وضع التلمود:

من المعلوم أن موسى ـ عليه السلام ـ جمع ما أوحى إليه من ربه في الأسفار الخمسة المسماة بالتوراة وهي أسفار التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية.

أما ما لم يجمع من الأحكام والأقوال الأخرى التي نطق بها موسى عند السؤال أو وقت الحاجة فتناقلها أصحابه وأتباعه مع اختلاف في الروايات، ودونوها في كتب زعموا أن أصحها مشناة (يهودا حناس) المتوفى بعد المسيح بنحو مائة عام. ثم ضم إليه الجيمارا بعد عدة قرون كما رأيت.

مكانته عندهم:

ذكرنا أن التلمود هو الكتاب الثاني والمتمم للتوراة، ولذا فهم يعتقدون أنه منزل من عند الله كالتوراة، فالحاخامات الناقلون لرواياته والمتناولون لها بالشرح والتفسير معصومون فلا يخطئون، فقولهم حق، وتشريعهم صدق، لأنهم يصدرون عن الله تعالى وتعظم ـ فلا تجوز مخالفتهم بحال من الأحوال.

لليهود تلمودان:

من المعلوم تاريخياً أن اليهود قد مروا بعصر عنيف، كانت فيه هجرتهم وتمزقهم شر ممزق على يد الفاتح لبلادهم وهو (بختنصر) ملك بابل، وقد يعبر عن هذا العصر في التاريخ بعصر الشتات ويبدأ بسنة ٥٨٧ قبل الميلاد ويستمر إلى مدى سبعين عاماً حين تغلب الفرس على الدولة البابلية.

وكان بسبب اختلاف محال إقامة أحبار اليهود وعلمائهم ـ لتشتتهم واتخاذهم (أورشليم) و(بابل) مركزين أصليين لهم ـ أن اختلفت مذاهبهم وآراؤهم وأحكامهم الدنيوية، مراعاة للظروف والأحوال، وخضوعاً

للحكومات المتغلبة عليهم، وتقبلهم للعادات والتقاليد المفروضة عليهم كذلك، ولذلك كان هناك تلمودان:

أحدهما: «تلمود أورشليم» وهو يضم الروايات والزيادات التي زادها حاخامات (فلسطين).

ثانيهما: «تلمود بابل» ويضم الروايات التي زادها حاخامات (بابل). ولذلك كان التلمود الأورشليمي مخالفاً للتلمود البابلي في أغلب المسائل والمواضع اختلافاً جوهرياً.

والمعتمد عند جمهور اليهود هو التلمود البابلي، وهو المراد عند إطلاق كلمة (تلمود).

اللغات التي ألّفت بها أسفار التلمود:

ألفت أسفار (المشناة) باللغة العبرية، وألفت شروحها المسماة «الجيمارا» باللغة الآرامية فكان المتن يدوّن بلغته العبرية، ثم يشرح باللغة الآرامية.

ونستعير هنا بحثاً للدكتور علي وافي لبيان ذلك باعتباره أستاذاً للغات الشرقية.

يقول الدكتور علي وافي: «وتسمى اللغة العبرية التي ألفت بها أسفار المشناة باللغة الربّانية، وهي تختلف اختلافاً غير يسير عن اللغة العبرية التي ألفت بها أسفار العهد القديم، وذلك لأن تأليف أسفار المشناة قد حدث بعد أن انقرضت العبرية من لغة التخاطب لدى بني إسرائيل، وحلت محلها اللغة الآرامية، واقتصر استخدام العبرية لديهم على ميادين الكتابة وخاصة في شؤون الدين، ومن ثم تمتاز اللغة العبرية التي ألفت بها المشناة بشدة تأثرها بالآرامية، كما يبدو فيها كثير من مظاهر التأثر ببعض اللغات الآرية ـ الهندية والأوربية ـ التي احتك اليهود بأهلها احتكاكاً سياسياً أو ثقافياً وخاصة اللغات اليونانية واللاتينية والفارسية.

فمع أن المشناة قد دونت باللغة العبرية، فإن كثيراً من المفردات التي وردت فيها تقتبس من الآرامية، وتشتمل كذلك على عدد يسير من الكلمات اليونانية واللاتينية والفارسية.

ولكن هذا لا ينقص شيئاً من قيمتها اللغوية والتاريخية، وذلك لأن ما بها من مفردات أجنبية لا يعد شيئاً مذكوراً بجانب ما استخدمته من المفردات العبرية التي لا يوجد بعضها في العهد القديم نفسه.

وأما شروح المشناة وهي المسماة «الجيمارا» وهي التي ألفت باللغة الآرامية، فقد قامت بها مدرستان:

احداهما: مدرسة يهود فلسطين، وقد ألفوا شروحهم هذه باللهجة الآرامية الفلسطينية الحديثة، وهي اللهجة نفسها التي استخدمها هؤلاء في ترجمة العهد القديم، واستغرق لديهم تأليف هذه الشروح فترة طويلة تمتد من القرن الثاني إلى أواخر الخامس بعد الميلاد، وإن كان معظمها قد تم في القرنين الرابع والخامس الميلاديين.

وتألف من شروحهم هذه مع المتن نفسه (أي أسفار المشناة) ما يعرف بتلمود بيت المقدس.

والأخرى مدرسة يهود بابل وقد ألفوا شروحهم هذه باللهجة الآرامية الجنوبية الشرقية (وهي إحدى لهجات اللغة الآرامية) وشرعوا فيها منذ أوائل القرن الرابع بعد الميلاد، ولم يفرغوا منها إلا في القرن السادس الميلادي.

وتألف من شروحهم هذه مع المتن نفسه ما يعرف بتلمود بابل.

وعن اللغتين العبرية والآرامية ترجم التلمود إلى كثير من لغات العالم قديمها وحديثها[1].

---

(١) الأسفار المقدسة: علي وافي/٢٣، ٢٤.

متى ظهر التلمود:

لقد بقي التلمود خافياً على غير اليهود، بل على كثير من اليهود أنفسهم عدة قرون، لا يعرف ما به إلا القليل من العلماء والباحثين، حتى ظهر في أوروبا ما بين سنتي ١٨٧١ و١٨٨٩ ميلادية مترجماً إلى اللغة الفرنسية، بقلم عالم فرنسي اسمه (موسى شواب) ولعل معنى شواب (شعيب) وقد نشره هذا العالم على التعاقب في تلك المدة.

من مضامين التلمود:

يشتمل التلمود على أمور كثيرة جداً كما يقول الباحثون: إذ يحتوي على أحكام العقائد، والعبادات، والمعاملات، والحدود الواردة في التوراة والسنة، وأقوال الأئمة، والعلماء، من شروح وتفاسير تختلف باختلاف مذاهبهم، وفيه الكثير من التعاليم ذات التمايز العنصري، وعدم احترام الأمميين، والحث على إيذائهم وقتلهم وانتهاك حرماتهم واستباحة أموالهم ومخصصاتهم، واعتبار أرواحهم أرواح حيوانات عديمة القيمة، ومهدرة الحياة، إلى غير ذلك.

كما يشتمل على كثير من الموضوعات والمسائل الخارجة عن الأحكام والدين والشرائع، خروجاً غير لائق بكتاب ادعى أن الهدف من وضعه حفظ تراث موسى ـ عليه السلام ـ.

ويشمل مسائل تاريخية، ولغوية، وقصصاً ووقائع خرافية، وأموراً لا يقبلها العقل السليم، كما يشتمل على وصفات طبية، وفوائد، وأشياء أخرى ليست لها مناسبة في أن تذكر في كتاب مثله، فتراه في آن واحد كتاب أحكام وحكمة وعلم وفقه، وعباراته من أبلغ العبارات وأحكمها، وكتاب خرافات وقصص، وموضوعات شتى، لا توجد إلا في كتاب ضئيل القدر زهيد القيمة، عباراته مبتذلة اللفظ ركيكة المعنى.

هذا، والمتتبع للمبادىء المقررة في التلمود بالنسبة لنظام التعامل

والسلوك الأخلاقي بين اليهود وغيرهم ممن يدعونهم بالأميين يجدها مفعمة بالحقد والبغضاء لغير بني جنسهم.

وذلك لأنهم يصدرون عن تمايز عنصري بغيض، يستعلون به على غير بني جلدتهم، مما لا يتفق مع أبسط القواعد المنطقية، وأبسط أحاسيس الشعور الإنساني.

فعلى سبيل المثال: قد أثبتوا في التلمود أنه إذا عاملْتَ الأمي فعامله بربا، وإن عاملت اليهودي فلا تعامله بربا.

● وإن الإسرائيلي عند الله أكبر من الملائكة، وأن اليهودي جزء من الله، فإذا ضرب أمي إسرائيلياً فكأنه ضرب العزة الإلٓهية.

● والفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو بقدر الفرق بين اليهودي والأمي، وإذا كانت الأعياد، فإن لليهودي أن يطعم الكلب ولا يطعم الأمي.

● ومن مبادئه: أنه لا يجوز لليهودي أن ينصح غير اليهودي، ولا أن يستقيم في معاملة معهم، بل عليه أن يغشهم، لأنه يلزم اليهودي أن يكون طاهراً مع الطاهرين ودنساً مع الدنسين.

● ولا يرى اليهودي لأرواح غير اليهود أية حرمة، فقد جاء فيه أنه يحرم على اليهودي أن ينجي أحداً من الأميين من هلاك، ويحرم عليه أن يخرج الأمي من حُفْرة وقع فيها، بل عليه أن يسدها عليه بحجر. وفيه أيضاً أن من العدل أن يقتل اليهودي كل أمي وقتله قربان لله عز وجل.

● وقال موسى: لا تشتهِ امرأة قريبك فإن من يزنِ بامرأة قريبه يستحق الموت.

وقد فسر التلمود (القريب) بأنه اليهودي دون غيره. وبناء على ذلك

فإن لليهودي حق اغتصاب النساء غير اليهوديات[1].

هذا بعض مما سجله حاخامات اليهود، فهل مع كل هذا وغيره يكون من المعقول أن يظهروا كتاباً مثل هـذا لأناس يتعشقـون الحياة في عـزة وطمأنينة، وهو يريد قتلهم والفتك بهم واستئصالهم؟ ومن أجل هذا كان كتاباً خفياً يتآمر على الإنسانية جمعاء من غير اليهود.

رأي الإسلام في التلمود:

من خـلال الدراسـة السابقـة للتلمـود من حيث أطـواره التـاريخيـة والموضوعية، تأكد لنا على وجه اليقين أنه من وضع البشر بلا جدال وزعمهم أنه من عند الله هراء يحكم القرآن ببطلانه ولزوم رفضه وذلك لقوله تعالى: ﴿ فويلٌ للذين يكتبونَ الكتابَ بأيديهم ثم يقولونَ هذا من عندِ الله ليشتَرُوا به ثمناً قليلاً فوَيْلٌ لهم مما كتبت أيديهم وويْلٌ لهم مما يكسِبون ﴾[2] والوعيد على فعل ذلك يدل دلالة قاطعة على كفر من تمسك به.

(١) راجع الأمثلة في كتاب أحمد شلبي ـ اليهودية

(٢) البقرة/٧٩.



البَابُ الثّالِث

الايـمان بالغَـيبْ

ويشتمل على فصول:

الفصل الأول	:	مقدمـــات
الفصل الثاني	:	الإيمان بعالم الملائكة.
الفصل الثالث	:	الإيمان بعالم الجن.
الفصل الرابع	:	تحضير الأرواح.
الفصل الخامس	:	البرزخ.
الفصل السادس	:	اشراط الساعة.
الفصل السابع	:	القيامة.
الفصل الثامن	:	اليوم الآخر



مقدمات

تعريف:

نريد الغيب هنا: ما لا سبيل للإنسان إلى معرفته إلا بالخَبَر الصادق عن الله تعالى أو عن رسول الله ﷺ، ولا يستقل الحس ولا العقل، ولا هما معاً بمعرفته.

ولما كان الطريق الوحيدُ إلى معرفته هو السمع - أعني سماع الخبر الصادق - فإن بعض علماءِ العقيدة يُطلِقون على الغيب لفظ «السمعيّات» يعنون بذلك أن طريق ثبوته بالسمع.

والغيب يشمل كلا من: الملائكةِ، والجنِّ، وعالم البرزخ ما بعد الموت، وعلاماتِ الساعة، والقيامةِ، والآخرةِ وعوالِمها من البعث، والحشر، والحساب، وعبور الصراط، والشفاعة، والجنة والنار وغير ذلك.

أنواع المخلوقات:

المخلوقات التي خلقها الله تعالى هي على نوعين بالنسبة للإنسان المحدود القدرات، مخلوقات يراها: كأصناف الحيوانات والجمادات، سواء أكانت رؤيته لها بالعين المجردة كالأسد، والتفاح ونحو ذلك، أم بواسطة الوسائلِ المساعدة كأنواع الجراثيم.

ومخلوقات لا يراها: وهذه على نوعين أيضاً

نوع لا يراه: ولكن يُحتمل أن يَراه في المستقبل إذا تطورت الوسائل المساعدة أكثر مما هي عليه الآن، كأنواع البكتريات، ونوع لا يراه ولا يحتمل أن يراه في هذه الدنيا، وسيبقى غيباً بالنسبة للإنسان كالملائكة، والصراط والجنة، والنار، ونحوذلك، وهذا النوع يجب الإيمان بوجوده رغم أننا لا نراه لِوُرُودِ الخبر الصادق بوجوده.

وسائل معرفة الموجودات:

إن وسائلنا إلى معرفة الموجودات هي:

الحواس: من سمع، وبصر، ولمس، وشم، وذوق، وهذه يُعرف بها وجودُ الموجودات عندما تتلاقى معها، وهذه المعرفة هي معرفة مباشِرة، وهي أبسطُ أنواع المعرفة، ولكن هذه الحواس لها طاقة محددة، فإذا تجاوز الموجود طاقة هذه الحواس وخرجَ عن دائرتها لم يعد بالإمكان التعرف على وجوده بشكل مباشر حتى ولو حدث التلاقي بينه وبين هذه الحواس، ولكن إن كانت لهذا الموجود آثارٌ ملموسة أمكنَ معرفة وجوده من معرفة آثاره، كالأشعة فوق البنفسجية، والأشعة تحت الحمراء، فإننا رغم أننا لا نراهما ولكن آثارَهما تدلُّ على وجودهما، وكذلك الفيروسات رغم أننا لا نراها ولكن آثارها تدل على وجودها، وكذلك ذات الله تعالى فإننا رغم أننا لا نراها إلا أن آثارها تدل على وجودها، وهكذا، أما إن لم تكن له آثار محسوسة، فإنه لا سبيل إلى معرفة وجوده إلا بالخبرِ الصادقِ بأنه موجود، فنهر الفرات لا سبيل لنا لأن تلتقي حواسنا به لبعده عنا، وليس له آثار محسوسة بالنسبة إلينا، ومع ذلك فإننا نعرف وجودَه ونؤمن به لورود الخبرِ الصادق بوجوده، ومن هذا القبيل الملائكة، واليوم الآخر، وغير ذلك من عالم الغيب، فإنه لا سبيل لنا لأن تلاقيه حواسُنا، وليس له آثارٌ محسوسة بالنسبة إلينا، ومع ذلك فإننا نؤمِنُ بوجوده لورود الخبر الصادق بوجوده.

حكم الإيمان بالغيب:

الإيمان بالغيب عموماً من أركان العقيدة، فلا يسع مسلم جحودَه، لورود خبر وجودِه في صريحِ آياتِ القرآنِ الكريم وصحيحِ سنة رسول الله ﷺ، ولذلك كان الإيمان به فريضة كالإيمان بافتراض الصلاة وافتراض الزكاة، قال تعالى في سورة البقرة ﴿الٓمٓ ذلكَ الكتابُ لا رَيْبَ فيهِ هُدى للمتَّقين الذينَ يؤمنونَ بالغَيْبِ ويُقيمونَ الصَّلاةَ ومَّما رَزَقْناهُم يُنْفِقُون﴾ وإنما كان الإيمان به فريضة وجحودُه كفراً لما يلي:

أ - لأن انكارَ الغيب انكار لكثير من آيات القرآن الكريم.

ب - ولأن العقلَ لا يُحيل وجود عالم الغيب، لأن حَواس الإنسان محدودة، إذ كثير من الموجودات في هذه الدنيا لا تقع تحت حواسه، ومع ذلك فهو يؤمن بوجودها، لورود الخبر الصادق بوجودها، كإيمان مَنْ لم يرَ برجَ إيفل بأن في باريس برجاً عظيماً يسمى برج إيفل، لتواتر الأخبار بوجوده.

وإذا آمنا بوجود برج إيفل دون أن نراه أو نلمس آثاره لإخبار المخبرين العاديين من الناس بوجوده مع أن منهم الصادق والكاذب، أفلا نؤمن بوجود الملائكةِ مثلاً، أو الجنِّ، أو الجنةِ، أو النار دون أن نراها أو نلمس آثارها بخبرِ مَنْ هو أصدق من الناس أجمعين، خبر الله تعالى أو خبر رسوله الصادق الأمين؟!!

درجةُ الخبر الذي يثبت به الغيب:

اختلف العلماء في الخبر الذي يثبت به الغيب: فقال جمهور العلماء لا بد أن يكون الخبرُ قد بلغ التواترَ، لأن التواتر يفيد القطع والجزم، وأمور العقيدة لا تؤخذ بالظَّنِّ، بل لا بد فيها من القطعِ، وعلى هذا فإن الغيبَ لا يثبتُ إلا بالقرآنِ الكريم والحديث المتواتر عن رسول الله ﷺ.

ـ وقال بعضُ العلماءِ: إن أمرَ العقيدة وغيرها من أحكام الشريعة سواء، كلها تثبت بخبر الآحاد الذي يفيد الظن لا القطع، إذ لا موجب للتفريق بين أحكام العقيدة وأحكام العبادات أو المعاملات. فكلها دين الله تعالى.

والذي نراه ـ والله أعلم ـ أن أصول العقيدة لا تثبت إلا بالخبر المتواتر، وهي كمقاصد الشريعةِ التي تضافرت الأدلة على اعتبارها، أما فروع العقيدة كإثباتِ الخَطاطِيفِ للصّراط مثلاً، فإنها تثبت بحديث الآحاد كما تثبت فروع الفقه بحديث الآحاد.

الإيمان بالملائكة

التعريف بالملائكة:

الملائكة أجسامٌ نورانية لطيفة قادرة على التشكل. لا يأكلون، ولا يشربون، ولا ينامون، ولا يعصونَ الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

دليل وجود الملائكة:

أ ـ الأدلة النقلية:

تضافرت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة على وجود الملائكة حتى أن الله تعالى قد ذكرهم في القرآن الكريم ثمانياً وثمانين مرة، منها قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ وإذْ قالَ ربُّك للمَلائِكَة إنّي جاعِلٌ في الأرضِ خليفةً، قالوا أتَجْعَلُ فيها من يُفْسِد فيها ويَسْفِكُ الدماءَ ونحن نُسَبح بحمدِكَ ونقدِّس لك؟ قال إني أعلمُ ما لا تعلَمُون، وعلَّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها ثمَّ عرضَهُم على الملائكةِ فقال انْبِئوني بأسماءِ هؤلاءِ إن كنتُم صادِقين ﴾ ومنها قوله تعالى في سورة الاسراء ﴿ وما منَعَ الناسَ أن يُؤمِنوا إذ جاءَهُمُ الهُدَى إلا أن قَالوا أَبَعَثَ الله بشراً رسولاً، قل لو كانَ في الأرضِ ملائكةٌ يمشون مطمئنين لنزَّلنا عليهم من السماءِ ملكاً رسولاً ﴾.

وجاء في الحديث الذي رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قال رسولَ الله ﷺ (خُلِقَتِ الملائكةُ من نورٍ، وخُلِقَ الجانُّ من مارِجٍ من نار، وخُلِقَ آدمُ مما وُصِفَ لكم) ـ أي تراب ـ.

ب ـ الأدلة العقلية:

والعقل لا ينفي وجود الملائكة، إذ إن وجودهم من الممكن، وليس من المستحيل، خاصة وإن قدرات الإنسان محدودة ليس بإمكانها الحس بجميع الموجودات كما تقدم، ولما ورد الخبر الصادق عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ بوجودهم ترجح جانب الوجود على جانب العدم.

وجوب الإيمان بالملائكة:

علمنا فيما مضى وجوب الإيمان بالله تعالى، وعلينا أن نعلم الآن أن الإيمان بالملائكة اجمالاً فيما أجمله القرآن وحديث رسول الله ﷺ من أمرهم، وتفصيلاً فيما فصلاه من أمرهم ككونهم أولي أجنحة مثلاً، هو من متمِّمات الإيمان بالله تعالى، لأنه سبحانه هو الذي أخبر بوجودهم، وأخبر أن الإيمان بهم أصل من أصول الإسلام، وركن من أركان عقيدته، من جحد به فقد كفر قال تعالى في سورة البقرة ﴿ آمَنَ الرسولُ بما أُنْزِلَ إليهِ من رَبّه والمؤمنونَ كلٌّ آمنَ بالله وملائِكتِهِ وكُتبِه ورسلِه، لا نُفَرِّقُ بين أحدٍ من رُسله وقالوا سَمِعْنا وأطَعْنا غُفْرانَك ربَّنا وإليكَ المَصِير﴾ قال ابن كثير في تفسيره: روى الحاكم في مستدركه عن أنس بن مالك قال: لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ قال النبي: حق له أن يؤمن، فهذه الآية الكريمة توجب الإيمان بالملائكة.

وقال تعالى في سورة النساء ﴿ ومَنْ يكفُر بالله ومَلائِكَتِه وكُتُبِه ورسُلِه واليومِ الآخِرِ فقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ وهذه الآية الكريمة تصف حال من يكفر بالملائكة بأنه قد جانب الصواب الموصل إلى الجنة، وركب الإثم الموصل إلى النار. وفي حديث مسلم المشهور الذي يذكر مجيء جبريل عليه السلام إلى رسول الله في صورة أعرابي وسؤاله إياه عن أشياء، فكان من جملة ما سأله عنه أن قال «يا محمد أخبرني عن الإيمان، قال: أن تُؤمِن بالله وملائكته وكُتبه ورسلهِ واليومِ الآخرِ وبالقدر خيره وشره.

مساكنهم:

المساكن الأصلية للملائكة هي في السماء، وإلى هذا يشير قوله تعالى في سورة الشورى ﴿ تكادُ السمواتُ يتفطَّرنَ من فوقِهن والملائكةُ يُسَبِّحون بحمدِ ربِّهم ويَستغفِرون لمن في الأرضِ ﴾ ولكنهم ينزلون إلى الأرض بأمر الله لتنفيذ مهمات تناط بهم كما قال تعالى في سورة مريم ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك﴾.

عددهم:

الملائكةُ خلقٌ كثيرٌ لا يعلَمُ عددَهم إلا الله تعالى كما قال تعالى في سورة المدثر ﴿ وما يَعْلَمُ جُنودَ ربِّك إلا هو ﴾ ونستطيع أن نأخذ فكرة واضحة عن كثرتهم إذا قرأنا ما رواه مسلم في صحيحه من قول رسول الله ﷺ (يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك) فصار مجموع هؤلاء الملائكة الموكلون بأزمَّة جهنم أربعة آلاف وتسعمائة مليون ملك:

أسماؤهم:

للملائكة أسماء ولكننا لا نعرفُ الكثير من أسمائهم. وقد أخبرنا القرآن الكريم بأسماءِ بعضهم، وأخبرنا الرسول بأسماء بعضٍ آخر منهم، ومن هذه الأسماء التي أخبرنا بها: جبريل ـ ميكائيل ـ إسرافيل ـ مالك ـ رضوان ـ منكر ـ نكير ـ رقيب وعتيد، واختلف العلماء في «هاروت، وماروت» هل هما رجلان أم ملكان؟.

فمن قائل منهم: انهما ملكان أنزلهما الله تعالى للأرض فتنة ليعلّما الناس السحر، ومن قائل أنهما رجلان وليسا بملكين تظاهرا بالصَّلاح والنصيحة، وأخذا يعلّمان الناس السحر ويوصيانهم بعدم استعماله مع علمهم بأن ذلك لن يكون منهم، ويؤيد هذا القول ويرجحه أن الله تعالى بيَّن في القرآن العظيمِ أنه سبحانه لم يُرسل أيَّ ملَكٍ إلى الأرض ليعلّم الناسَ شيئاً غير

جبريل أرسلَه إلى الأنبياء فقال جل شأنه ﴿ وما أرسلْنَا قبلَكَ إلاّ رِجَالاً نُوحي إليْهم فاسْألوا أهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُم لا تَعْلَمُون ﴾.

صفاتهم:

هذه الصفات على نوعين، صفات خَلْقِيَّة، وصفات سلوكية.

١ ـ الصفات الخلقية:

أ ـ تقدُّمُ خلقِهم على خلق آدم:

لا سبيل لنا إلى العلم متى خلق الله تعالى الملائكة، ولكن من المؤكد أن خلْقَهم متقدِّم على خلق الإنسان العاقل المُفَكر، لأن الله تعالى حكى لنا في القرآن العظيم تلك المحاوَرَة التي تمت بينه وبين الملائكة في مسألة خلقِه لآدم قبل أن يخلُقه فقال تعالى في سورة البقرة ﴿ وإذْ قَالَ ربُّكَ للملائِكَةِ إني جَاعلٌ في الأرضِ خَليفَةً، قالوا أتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدِّماءَ ونحْنُ نُسبّحُ بحَمدِك ونُقدِس لك، قال: إني أعلَمُ ما لا تَعلَمون ﴾.

ب ـ خلقهم من نور:

يحدثنا رسول الله ﷺ أن الملائكة خلقت من نور فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ (خُلِقَتْ الملائكة من نور، وخُلقَ الجان من مارج من نار، وخُلق آدم مما وُصف لكم).

جـ ـ وجود أجنحة لهم:

لقد أخبر الله أن الملائكة مخلوقات ذوات أجنحة، وعدد هذه الأجنحة يتفاوت من ملك لآخر، وعددها في كل ملك يدل على قوته التي تتناسب مع المُهمة التي أُنيطت به فقال تعالى في أول سورة فاطر ﴿ الحمدُ لله فاطِرِ السَّمواتِ والأرْضِ جاعِلِ الملائِكة رُسُلاً أولي أجْنِحَة مَثْنى وثلاثَ ورُباع،

يَزِيدُ في الخَلْقِ ما يَشاءُ إن الله على كلِّ شيءٍ قَدِير ﴾ فجبريل مثلاً له ستمائة جناح فقد روى الإمام أحمد في مسنده بسند جيد عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح كل جناح منها قدْ سَدَّ الأفق، ولذلك وصف الله تعالى جبريل عليه السلام ذا قوة فقال تعالى: ﴿ انه لَقَوْلُ رَسُولٍ كريم، ذي قُوةٍ عندَ ذي العَرْشِ مَكِين ﴾.

والمراد بالرسول هنا: جبريل.

والمراد بذي العرش هنا، هو الله تعالى.

د ـ عِظَم خلقهم:

ومما وصفه لنا رسول الله من الملائكة نأخذ أن الملائكة عظيمو الخَلْقِ عموماً، فقد وصَفَ لنا جبريل فقال «رأيته متَهَبِّطاً من السماء ساداً عِظَمُ خَلقِه ما بين السماء والأرض» ـ أخرجه الترمذي.

ووصف لنا أحدَ حملة العرش فقال: «أذِنَ لي أن أحدث عن أحد حملة العرش: ما بين شحمة أذُنه وعاتِقه مسيرة سبعمائة عام» ـ أخرجه أبو داود ـ.

هـ ـ قدرتهم على التشكل:

لقد أعطى الله سبحانه وتعالى الملائكة القدرة على التشكل بأشكال المخلوقات الكريمة الأخرى ويكونون بصورٍ جميلةٍ تليق بكونهم من ملائكةِ الرحمن. فجبريل تمثل لمريم بصورة إنسان قال تعالى: ﴿ فتَمَثَّل لها بَشَراً سَوِيّاً ﴾ وسَوِيّاً: يعني جميلاً خالياً من العيب، وتمثل لرسول الله ﷺ بشكل أعرابي شديدِ بياضِ الثيابِ شديدِ سوادِ الشعر، وكثيراً ما كان يأتيه بصورة دِحْيَةَ الكلبي، وكان دِحْيَةُ من أجمل صحابة رسول الله ﷺ.

و ـ قدرتهم الخارقة:

وهب الله تعالى الملائكة قدرة كبيرة فوق قدرة البشر، كقطع المسافات

الشاسعة في طرفة عين، وحمل الأشياء الثقيلة التي لا يقدر الإنسان على حملها كما قال تعالى في سورة الأعراف ﴿ وإذْ نَتَقْنَا الجَبَلَ فوقَهم كأنَّهُ ظُلَّة ﴾ وإن الذي نَتَقَ الجبل فوق بني إسرائيل هو جبريل عليه السلام. ولذلك فإنهم لا يملون ولا يتعبون كما قال تعالى في وصفهم في سورة الأنبياء ﴿ يُسبِّحون اللَّيلَ والنَّهارَ لا يَفْتَرُون ﴾ وقال في سورة فصّلت ﴿ فالذينَ عندَ ربّك يُسبّحون له بالليلِ والنَّهارِ وهُمْ لا يَسأمون ﴾.

ز ـ عدم وصفهم بذكورة ولا أنوثة:

لأن الذكورة والأنوثة هي من صفات المخلوقات في عالمنا الأرضي، أما العوالمُ الأخرى فإن المخلوقات فيها لها مقاييس أخرى قد تتفق مع صفات المخلوقات الأرضية وقد تختلف عنها. ولذلك أنكر الله تعالى على المشركين وصفهم الملائكة بالأنثوية، فقال تعالى في سورة الزخرف ﴿ وَجَعَلُوا الملائكة الذينَ هُمْ عبادُ الرحمن إناثاً، أشَهِدُوا خَلْقَهم؟ ستُكْتَبُ شهادَتُهم ويُسْأَلون ﴾.

ح ـ إنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتغَوطون ولا يموتون إلا بعد النفخة الأولى لأن هذه الصفات من احتياجات حياتنا الأرضية هذه، أما موتهم بعد النفخة الأولى فقد دل عليه قوله تعالى في سورة الزمر ﴿ ونُفِخَ في الصُّورِ فصَعِقَ مَنْ في السمواتِ ومن في الأرضِ إلا مَنْ شاءَ الله، ثم نُفِخَ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون ﴾ ومما يدل على موتهم أيضاً قوله تعالى في سورة القصص ﴿ كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وَجْهَهُ ﴾.

٢ ـ الصفات السلوكية:

يتصف الملائكة بجملة من الصفات السلوكية تجعلهم في القمة من مخلوقات الله تعالى منها:

أ ـ الطاعة التامة لله تعالى:

فهم في طاعة لا يعرفون معها معصية، كما قال تعالى: ﴿ لا يَعْصُونَ

الله ما أمَرَهُم ويَفْعَلونَ ما يُؤمَرون ﴾ وأجدِرْ بمخلوقٍ جعل همه طاعة الله تعالى أن يكون في القمة.

ب ـ الخوف من الله:

إنهم يخافون الله تعالى رغم أنهم لا يعصونه، إنه خوف إجلال وإكبار، وقد وصفهم القرآن بذلك فقال تعالى في سورة الرعد ﴿ ويُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ والملائكةُ من خِيفَتِهِ ﴾ وقال جل شأنه في سورة النحل ﴿ يَخافون ربَّهم من فوقِهِم ويفْعَلون ما يُؤمْرون ﴾.

جـ ـ الأدب مع الله:

إنهم لا يتقدمون بين يدي الله تعالى بأمر، ولا يشفعون لأحد عنده إذا لم يكن أهلاً لهذه الشفاعة، كما قال تعالى فيهم ﴿ وقالوا اتَّخَذَ الرحمَنُ ولَداً، سبحانَه، بلْ عِبَاد مُكْرَمون، لا يَسبِقونَه بالقَوْلِ وهم بأمْرِهِ يعمَلون، يعلمُ ما بَيْن أيديهم وما خَلْفَهم، ولا يُشْفَعُون إلا لَمَنْ ارتَضَى. وهم من خَشْيَتِه مُشْفِقون ﴾.

د ـ البر بالله:

وقد وصفهم الله تعالى بذلك بقوله في سورة عَبَسَ ﴿ بأيْدي سَفَره كِرامٍ بررة ﴾ والمراد بالسَّفَرة: الملائكة، الذين هم سفراء الله إلى أنبيائه.

هـ ـ ولذلك فإنهم استحقوا أن يكونوا مكان إكرام الله تعالى حيث قال تعالى في سورة الأنبياء ﴿ وقالوا اتَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً، سُبْحانَه، بل عِبادٌ مُكْرَمون ﴾.

وظائف الملائكة:

أناط الله تعالى بالملائكة أعمالاً فهم يقومون بها ويؤدونها على أكمل وجه، ومن هذه الأعمال التي حدثنا الله تعالى ورسوله بها:

١ ـ الوحي، وهو في حقيقته: حَمْلُ كلام الله تعالى المتضمن هدية إلى الأنبياء،

وقد أوكلت هذه المهمة إلى «جبريل» عليه السلام قال تعالى منوهاً بوظيفته هذه وأمانته في أدائها في سورة الشعراء ﴿ وإنه لتَنْزيلُ ربِّ العَالمين، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمينُ على قَلْبِكَ لتكونَ من المُنْذِرين ﴾.

٢ ـ ومن الملائكة من أُوكل إليه أمرُ السحب والأمطار والرياح وما يتعلق بأرزاق العباد «كميكائيل» عليه السلام.

٣ ـ ومنهم صاحب الصور، وهو «اسرافيل» عليه السلام ينفخ فيه بأمر الله تعالى ثلاث نفخات، الأولى: للفَزَع، قال تعالى: ﴿ ويومَ يُنْفَخ في الصُورِ ففزِعَ من في السموات والأرضِ ﴾ والثانية: للصَّعْقِ والثالثة: للبعث. قال تعالى في سورة الزمر ﴿ ونُفِخَ في الصورِ فصعِقَ من في السموات ومن في الأرض إلا من شاءَ الله، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾.

٤ ـ ومنهم من أنيطت بهم مهمة قبضِ الأرواح عند انتهاء الآجال وهم ملائكة الموت، ورئيسهم «عزرائيل» عليه السلام، قال تعالى في سورة الأنعام ﴿ حتّى إذا جاء أحدَهُم المَوْتُ توفَّتْه رُسُلُنا وهُم لا يُعرّضون ﴾.

٥ ـ ومنهم الموكلُ بمراقبة أعمال العباد وإحصائها في كتاب مبين، وهما «رقيبٌ عتيد» وهو اسم أو وصف يطلق على كل منهما حيث يكون كاتب الحسناتِ على اليمين وكاتب السيئاتِ على اليسار كما قال تعالى في سورة قّ ﴿ إذْ يَتَلقّى المُتَلَقّيانِ عن اليَمينِ وعنِ الشّمالِ قَعِيد، ما يَلفِظُ من قَوْلٍ إلا لَدَيْه رقيبٌ عَتيد ﴾.

٦ ـ ومنهم القائمون برعاية أهل الجنة كما قال تعالى في سورة الرعد ﴿ جناتُ عدنٍ يدْخُلونها ومَنْ صَلُحَ من آبائِهم وأزواجِهم وذُرِّيَّاتِهم، والملائكةُ يدخلونَ عليهم من كلِّ بابٍ، سلامٌ عليكم بما صبَرتُم فنعْمَ عُقْبى الدّار ﴾ ورئيس ملائكة الجنةِ وخازنُها رضوان كما جاء في الحديث الصحيح.

٧ ـ ومنهم القائمون بشؤون أهل النار لما قال تعالى في سورة المدَّثِر ﴿ سأُصْلِيه

سَقَر، وما أدْرَاك ما سَقَر، لا تُبْقي ولا تَذَر، لَوَّاحَةٌ للبَشَر، عليها تِسْعَةَ عشر، وما جعلْنا أصحابَ النارِ إلا ملائكةً، وما جعلْنـا عِدَّتَهم إلا فِتْنَة... ﴾.

ورئيس ملائكة النار وخازنها «مـالك» حيث ينـاديه أهـل النار فيقولون ﴿يا مَالِكُ ليقْضِ علينا ربُّكَ، قال: إنكم مَاكِثون ﴾ كما في سورة الزخرف.

٨ ـ ومنهم الحَفَظَة الذين كلفهم الله تعالى بحفظ الإنسان كما قال تعالى في سورة الرعد ﴿ له مُعَقِّبَاتٌ من بين يَدَيه ومن خَلْفِه يحفظونَه من أمْرِ الله ﴾.

٩ ـ ومنهم من يلازم الإنسان فيحضر معه صلاةَ الفجر وصلاةَ العصر كما قال رسول الله ﷺ « يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم الله ـ وهو أعلم بهم ـ: كيف تركتم عبادي فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون ».

١٠ ـ ومن وظائف الملائكة تثبيتُ المؤمنين في جهادهم ضد عدوهم لإعلاء كلمة الله تعالى كما قال تعالى في سورة الأنفال ﴿ إذْ يُوحي رَبُّك إلى الملائِكةِ أنّي معَكم فَثَبِّتُوا الذينَ آمنوا... ﴾.

١١ ـ ومن وظائفهم القتال مع المسلمين عندما يأمرهم الله تعالى بذلك كما قاتلوا مع رسول الله ﷺ في بدر كما قال تعالى: ﴿ إذ تستغيثون ربَّكم فاستجابَ لكم أني مُمِدُّكم بألفٍ من الملائكة مُردِفـين ﴾.

١٢ ـ ومن وظائفهم تبشير المؤمنين عند موتهم بما أعده الله لهم من الكرامة قال تعالى في سورة فصِّلت ﴿ إنَّ الذينَ قالُوا ربُّنا الله ثم استقامُوا تَتَنَزَّل عليهم المـلائِكَةُ ألاّ تَخـافُوا ولا تَحْـزَنُـوا وأبْشِـرُوا بـالجَنَّـة التي كنتُم تُوعَدون ﴾.

١٣ ـ ومن وظائفهم سؤال الميت حين ينزل إلى قبره، ويقوم بهذه المهمة ملكان هما «مُنكَر ونكير» فقد روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: (إذا قبِر الميت أتاه ملَكان أسودان أزْرقان قال يقال لأحدهما «المنكر» وللآخر« النكير» فيقولان. . .) الحديث.

١٤ ـ ومن وظائفهم تسبيح الله تعالى وتحميده والسجود له قال تعالى ﴿ وتَرَى الملائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسَبِّحون بحَمْدِ ربّهم وقُضِيَ بينَهم بالحَقِّ، وقيلَ الحَمْدُ لله ربّ العَالمين ﴾.

١٥ ـ وهناك وظائف أخرى كسوْقِ الناسِ إلى المحشر يـوم القيامـة، وذَبِّ المنافقين عن حوضِ رسول الله ﷺ، وسوقِ أهلِ النـارِ إلى النار وغير ذلك، نكتفي منها بما ذكرناه خوفَ الإطالة.

آثار الإيمان بالملائكة:

المعروف أن العقيدة الإسلامية هي عقيدة بناءة، ونعني بقولنا «إنها عقيدة بناءة» أنها تترك بَصَماتِها الواضِحة في الإنسان والحياة، وتنتج آثاراً إصلاحيَّةً في الفرد وفي المجتمع، ومن الآثار التي يتركها الإيمان بالملائكة:

١ ـ تنميةُ الشعور بالمسؤولية، ودوامُ المراقبة لله تعالى، لأن المسلم أينما ذهب وكيفما تحرك فإن في قرارة نفسه ان هناك ملائكة ترافقه وتُحصي عليه كل حركة من حركاته وكلَّ سَكَنَةٍ من سكناته، ولذلك فهو لا يعصي الله تعالى ولو كان وحيداً في أعالي الجبال أو في أسافلِ البحار.

٢ ـ تقويةُ الثقةِ بالله تعالى عندما يعرف أن الله تعالى أوكلَ ملائكته تنصره وتشد أزره ما دام مخلصاً لله تعالى في جهاده.

٣ ـ تقوية الشعور بحب الله لعباده ورحمته بهم، عندما يعلم أن الله تعالى قد أوكل به من يحفظه، وأوكل من الملائكة من يستغفر له، ومن الإنصاف أن يحبَّ من أحبَّه، وأن يفيضَ الرحمة على غيره كما أفاض اللهُ الرحمَةَ عليه.

٤ ـ تقديم البرهان على صدق إيمانه: لأن أع

لى درجات الإيمان بالله تعالى هو

الإيمان بالغيب الذي أخبر عن وجوده ربـ

، العزة جلّ وعلا.

٥ ـ حمل الإنسان على التشبه بهم في طاعة

الله تعالى وتطبيق شرعه، فهو

عندما يعلم أنهم يصاحبونه دائماً، فإنه

يرعى حق صحبتهم له، بالتزام

آداب الشريعة، لأن مرافقيه يلتزمون هذه

الآداب.



الإيمان بالجن

تعريف الجن:

الجِنُّ في اللغة من «جَنَّ» بمعنى استَتَر، وسُمِّيَ الجِنُّ جِنّاً لأنهم مستورون عنا، فنحن لا نراهم على خلقَتِهم الأصلية، وإن رأيناهم فإنما نراهم متشكلين، ونريد بالجِنّ هنا: تلك المخلوقات غير المرئية على صورها الحقيقية، والتي خلَقها الله تعالى من نار، والتي لها إرادة واختيار.

حكم الإيمان بالجن:

وردت كلمة «الجِنّ» في القرآن الكريم تسعاً وعشرين مرة منها قوله تعالى في سورة الجِنِّ ﴿ وانه كانَ رِجالٌ منَ الإنْسِ يَعُوذُونَ برجال من الجِنِّ فزَادُوهُم رَهَقاً ﴾ وقوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ ولقد ذَرَأْنا لجَهَنَّم كثيراً من الجِنِّ والإنس ﴾ وقوله تعالى في سورة النمل ﴿ وحُشِرَ لسليمان جنودُه من الجِنِّ والإنْسِ والطَّيْر فهم يوزَعون ﴾ حتى أن القرآن الكريم قد خصص سوره سماها بسورة الجِنّ أورد فيها الكثير من أحوالهم.

إن من يتصفح ما جاء في كتاب الله تعالى وفي سنّة رسوله ﷺ في أمر الجن لا يشك في أن الجن عالم آخر غير عالَم الانس وعالم الملائكة حتى قال ابن تيمية في فتاواه «لم يخالِفْ أحدٌ من طوائف المسلمين في وجودِ الجِنِّ» لم يخالف في ذلك إلا من لا يعتدُّ بخلافه من الجَهْمِيّة والمعتَزِلة.

وفي العصر الحاضر، بعد أن طغت المادة، وأثَّرتْ على مجرى الفكر، وصبغت الفكر الإنساني بالمادية في كثير من مجالاته، اتجه بعض الباحثين المعاصرين إلى النصوصِ القرآنية والأحاديثِ النبوية التي ذُكِرَ فيها لفظُ الجِنّ، وتأويِلها على غير وجهها، فذهب بعضهم إلى أن المراد بالجن نوازعُ الشرِّ في النفسِ الإنسانية، وما أدري كيف يستقيم هذا مع قوله تعالى في سورة سَبَأ في حقّ سليمان عليه السلام ﴿ ومِنَ الجِنِّ من يعملُ بينَ يديْه بإذنِ رَبِّه ﴾ فالظاهر الذي لا نزاعَ فيه أن الذي يعمل بين يدي سليمان ويبني له القصورَ ويصنع له التحفَ الفنية مخلوقاتٌ عاملة، لا نزعات نفسية.

وذهب بعضهم كالشيخ محمد عبده إلى أن المراد بالجن: الجراثيم باعتبار أنها مستترة عنا، وما أدري كيف يستقيم هذا مع قوله تعالى: ﴿ قالَ عِفريتٌ مِنَ الجِنِّ أنا آتيكَ به قبلَ أن تَقومَ مِنْ مَقامِك ﴾ إذ كيف يتأتى لجرثومةٍ متناهيةٍ في الصغر لا تدركُها العين المجردة أن تحمل عرشاً عظيماً وتأتي به من مسافات شاسعةٍ في فترةٍ وجيزةٍ مقدّرة بالمدة التي يستغرقها الجالس إذا أراد أن يقوم، وذهب بعضهم - كالدكتور محمد البهي - إلى أن المراد بالجن هم الملائكة، وجعل الجِنَّ والملائكةَ شيئاً واحداً، مع أن الله تعالى خلق الملائكةَ من نورٍ، وخلق الجِنَّ من النّار.

والخلاصة:

يجب الإيمان بأن الجن مخلوقات عاقلة مريدة غير الإنسان والملائكة، وإنا وإن كُنّا لا نجرؤ على تكفير من يتأوَّلُ الآيات التي ورد فيها لفظ «الجن» ليصرفها عن هذا إلى معنى آخر، إلا أننا لا نتردد بالجزم بمجانبته الحقيقة وتَعَنُّتِه في التأويل.

أما انكار وجود الجن جُملةً وتفصيلاً من غير تأويل فهو الكفر بعينه لما فيه من الردِّ الصريحِ لآياتِ كتابِ الله تعالى.

تقدم خلقهم على خلق الإنسان:

والمقطوع به أن الله تعالى خلق الجن قبل أن يخلق آدم العاقل المفكر الذي هو الأب الأول للإنسان، وقد صرحت بذلك الآياتُ القرآنية فقال تعالى في سورة الحجر ﴿ ولقَدْ خَلَقْنا الإِنسانَ من صَلْصَالٍ من حَمَإٍ مَسْنون والجَانَّ خَلَقْناه من قَبلُ من نارِ السَّموم ﴾.

خلقهم من نار:

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى خلق الجن من نار فقال جلّ شأنه في سورة الرحمن ﴿ وخلق الجانَّ من مارِجٍ من نار ﴾ أي من النار الصافية، وقال أيضاً في سورة لحجر ﴿والجانّ خلقناه من قبلُ من نارِ السَّموم ﴾.

وورد في الحديث الذي رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت؛ قال رسول الله «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من نار، وخلق آدم مما وصف لكم». وإذا كان الله تعالى قد خلق الجن من نار فإنه لا يلزم منه أن يكونوا ناراً تحرق ما يمسها، لأن الجن لم يبقوا على النارية بل تحولوا عنها إلى شيء آخر، كالإنسان الذي خلقه الله تعالى من طين، فإنه لم يبقَ طيناً بل أنشأه الله خلقاً آخرَ من لحمٍ وعظمٍ ودمٍ وأعصاب، وكالبذرة اليابسة التي يُحوِلُها الله تعالى إلى شجرة خضراء ملونة الأزهار شهية الثمار.

أصل الجن وتكاثرهم:

١ - يذهب ابن تيمية في فتاواة ٢٣٥/٤ و٣٤٦ إلى أن إبليس هو أبو الجن كما أن آدم عليه السلام أبو البشر، ثم كثر أبناؤه بعد ذلك.

ونرى - والله أعلم - أن إبليس كان واحداً من الجن، فكان الجن كثيرين، ولا يبعد أن يكون رئيسهم، فلما كلفه الله تعالى بالسجود لآدم فأبى لاعتقاده أنه أفضل من آدم - إذ ان مادة خلقه هي النار بينما مادة خلق آدم هي التراب، والنار أفضل وأعلى من التراب كما تصور، فكيف يسجد له؟ وما درى أنه لا مجال للاجتهاد والتقدير الشخصي مع صريحِ

الأمر الإلٰهي ـ طرده الله من رحمته، فأُبلِس لهذه النتيجة ـ أي أسقِطَ بيده وتحير ـ فسمي إبليساً. وإلى هذا تشير الآية الكريمة في سورة الكهف ﴿ فَسَجَدُوا إلاّ إبليس كانَ من الجِنِّ فَفَسَقَ عن أمرِ ربِّه ﴾.

٢ ـ والجنُّ فيهم الذَّكَرُ وفيهم الأنثى، قال تعالى في سورة الجن ﴿ وإنه كانَ رجالٌ من الإِنسِ يَعُوذُونَ برجالٍ من الجِنِّ فزادُوهم رَهَقاً ﴾ وطالما أن الله تعالى قد ذكر أن في الجنّ رِجالاً، فمعنى ذلك أن فيهم إناثاً أيضاً، وإلا كان ذكره «الرجال» خالياً من الفائدة.

وطالما أن فيهم رجالاً، وفيهم نساء، فإنهم يتزوجون وإلا لما كانت هناك أية فائدة من تنوعهم إلى رجال ونساء، وهذا ما يؤكده من لهم اتصال بالجن، وإلى هذا يشير القرآن الكريم بقوله في سورة الرحمن واصفاً الحور العين في الجنة ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إنسٌ قَبْلَهم ولا جَان ﴾ أي لم يسبق أن تزوج الحورَ العينَ أحدٌ من الإِنسِ ولا من الجن، وهذا يعني أن الجن يتزوجون.

وإذا كان زواج الجني بجنيّة أمراً طبيعياً، فهل يحصل أن يتزوج جني بإنسية، أو جنية بإنسي؟.

والحقيقة أننا لا نملك بين أيدينا نصاً من قرآنٍ أو سنةٍ يحسم القولَ في هذه القضية، ولكن من لهم اتصال بالجن يؤكدون أنه قد يحدث أن يتزوج إنسي بجنيَّة أو العكس، وهو واقع فعلاً، والمؤرخون ينقلون لنا حكايات عن السلفِ تدلّ على وقوعِ التزاوج بين الإنس والجن، حتى قال ابن تيمية في فتاواه ١٩/٣٩ «وقد يتناكح الإنس والجن ويولد بينهما ولد وهذا كثير معروف».

وإذا كان تناكح الإنس مع الجن حاصلاً، ولا يوجد ما يمنعه شرعاً إلا أن جمهوراً من الفقهاء منهم الحسن البصري، والحكم بن عتيبة واسحق بن راهويه، والإمام مالك وغيرهم كرهوا هذا الزواج لأنه يُتخذُ

ذريعة إلى الزنا، حيث تزني الزانية فتُفض بكارتها، وتحمل، ثم تهرب من إقامة الحد عليها بادعائها أنها متزوجة من جني.

٣ ـ وإذا كان الجن يتزوجون، فإنهم يتناسلون، وتكون لهم أولاد وذرية وهذا ما صرح به القرآن الكريم بقوله في سورة الكهف ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَه وذرِّيَّته أولياءَ من دُوني وهم لكم عدُوٌّ؟ بئسَ للظالمين بَدَلا ﴾.

أشكال الجن:

لا سبيل لنا إلى معرفة الأشكال الحقيقية التي خلق الله تعالى الجِنَّ عليها: لأنه لا سبيل لنا إلى رؤيتهم وهم على هذه الصورة، لعجْزِ وسائلنا ومحدوديتها، وإن كانوا هم يروننا في الوقت الذي يكونون فيه محجوبين عنا قال تعالى في سورة الأعراف ﴿ إنَّه يَراكُمْ هُوَ وقَبيلُه من حَيْثُ لا ترَوْنَهم ﴾.

ولكن من المؤكد أن أشكالهم بشعة مفزعة، لأن الله تعالى لما أراد أن يصف لنا ثمارَ شجرة الزَّقوم ـ ومنها يكون طعامُ أهلُ النار ـ وكيف أنها بشعة تنفر منها النفوس قال جل شأنه في سورة الصافات ﴿ إنها شَجَرَةٌ تَخرُجُ في أصلِ الجَحيم، طلعُها كأنَّه رُؤوس الشَّياطين ﴾.

وإذا لم يكن في مقدورنا ـ نحن البشر ـ أن نرى الجن على صورهم الحقيقية فإننا نستطيع أن نراهم على صورٍ أخرى يتشكلون بها، لأن الله تعالى أعطاهم القدرة على التشكيل بأشكال البشر، أو بأشكال الحيوانات ومن لهم اتصالٌ بالجن يؤكدون هذا، وقد تشكلَ الشيطان يوم بدر بصورة سُراقة بن مالك، وحضر مجلس المشركين، وزين لهم قتال المسلمين، ووعدهم بالنصر، فأنزل الله تعالى في ذلك قوله تعالى في سورة الأنفال ﴿ وإذْ زَيَّنَ لهُمُ الشيطانُ أعمالهم وقالَ لا غالِبَ لكم اليومَ من الناس وإنّي جارٌ لكم، فلمّا تراءَتِ الفِئَتان نَكصَ على عِقبَيه وقال: إنّي بريءٌ منكم، إني أرى مالا ترَون، إني أخافُ الله. . . ﴾.

وتشكل بشكل إنسان مسكين أتى أبا هريرة عندما كان يحرس بيت مال المسلمين وقد ذكر البخاري قصة ذلك بطولها في صحيحه.

وكثيراً ما يتشكل بشكل كلب أسود أو قطة سوداء أو حية من سواكن البيوت، ولذلك قال رسول الله ﷺ «الكلب الأسود شيطان». قال ابن تيمية «الكلب الأسود شيطان الكلاب، والجن تتصور بصورته كثيراً، وكذلك بصورة القط الأسود، لأن السواد أجمع للقوى الشيطانية من غيره، وفيه قوة الحرارة». وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ (إن بالمدينة نفراً من الجن قد أسلموا، فمن رأى شيئاً من هذه العوامر فليؤذِنْه ثلاثاً، فإن بدا له بعد فليقتله إنه شيطان).

فقد أمر رسول الله المسلمين إذا رأى أحدهم حية من سواكن البيوت أن يأمرهما بالاختفاء ثلاث مرات وإلا فإنه سيقتلها، لئلا يفجأ مسلماً من الجن فيقتله.

وحوادث تشكل الجن كثيرة في كل عصر، قد فاض بها حديث الناس، والجدير بالذكر أن الجن ليست عندهم القدرة على التشكل بصورة رسول الله ﷺ يقظة ولا مناما، أعني أنهم لا يمكن أن يُرَوْا بصورة النبي عليه الصلاة والسلام في اليقظةِ ولا في المنام. ولذلك فإن الإنسان إذا ما رأى رسول الله ﷺ في منامه على الوصف الذي ورد في كتب السيرة لرسول الله، فإن رؤياه حق، فقد روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال (من رَآني فقد رأى الحَقَّ فإن الشيطان لا يَتَزَيّا بي).

قدراتهم وتسلطهم على الإنسان:

١ ـ وهب الله تعالى الجن طاقات كبيرة وقدراتٍ خارِقةٍ بالنسبة إلينا نحن البشر، فهم ينتقلون من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب في أقلَّ من لمح البصر ويحملون الأحمال الثقيلة، ويقومون بالصناعات الفنية الراقية، وقد

صنعوا لسليمان عليه السلام كل ما طلبه من الأعمال المدهشة، وأتوه بالأخبار المجهولةِ ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿ يصنعونَ له ما يشاءُ من محاريبَ وتماثيلَ وجِفانٍ كالجوابِ وقدورٍ رَاسِيات ﴾.

٢ ـ ومن جملة قدراتهم التي يتمتعون بها الحصول على معلومات لا يستطيع أحدٌ من البشر الحصول عليها، والمعلومات التي لا يمكن للإنس الحصول عليها على ثلاثة أنواع:

أ ـ أخبار حوادث وقعت في أماكن بعيدةٍ يتعذر علينا أن نعرف عنها شيئاً. فإن الجن لما لهم من خفة الحركة وسرعة الانتقال، قد يعلمون بها، كموت فلان في البلد الفلاني الآن؛ أو أخبار حوادث وقعت لا يعلم الإنسان عنها شيئاً كالسرقات وأماكن وجودها ونحو ذلك.

وأخبار الجن في مثل هذه الأمور كأخبار الإنس، قد يصدُقون فيما يخبرون به وقد يكذبون.

ب ـ معلومات قضى الله أمرها في السماء، فأصبحت معلومةً لذوي الاختصاص من الملائكة، كما أصبحت معدَّة لتبليغها للملائكة الموكل إليهم تنفيذُ أمرِ الله فيها، فهذه قد جاء فيها عن رسول الله ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الملائكة تنزل في العنان ـ وهو السحاب ـ فتذكر الأمر قضى في السماء فتسترق الشياطين السمعَ فتوحيه إلى الكُهّان فيكذبون معها مائة كذبة من عندِ أنفسهم).

والملاحظ في هذا: أولاً: إن استراق الشياطين السمع من الملائكة انما كان بعد نزولها إلى جوّ الأرض. وليس من السماء كما كان يحدث قبل نبوة محمد ﷺ. وثانياً: إن طبيعة الشياطين ـ كفرة الجن ـ طبيعة خبيثة، فالكذب أخص صفاتهم، ولذلك فإنهم ما أن

يحصلوا على شيء من المعلومات عن طريق استراق السمع من الملائكة الموجودين في جوِّ الأرض حتى يُضيفوا إليها معلومات أخرى من عند أنفسهم وفي هذا يقول الله عز وجل في سورة الشعراء ﴿ هَلْ أنبّئكم على مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطين، تنزَّلُ على كُلِّ أَفَّاكٍ أثيم، يُلقُون السَّمْعَ وأكثرُهم كاذبون ﴾.

جـ ـ مغيبات استأثر الله تعالى بعلمها، كالإخبار بما يكون في المستقبل، وهذه لا يمكن لإنس ولا لجِنّ معرفة شيء منها، إلا ما يطلع الله عليه نبياً من أنبيائه لتكون له معجزة ودليلاً على صدق دعواه النبوة، قال تعالى في سورة الجن (عالِمُ الغَيْبِ فلا يُظهِرُ على غَيْبِهِ أحداً، إلا من ارتـضى من رَسولٍ فإنه يسلكُ من بين يديْه ومن خلفِهِ رَصداً، ليعلم أنْ قد أبلَغوا رسالاتِ ربِّهم وأحاطَ بما لدَيْهم وأحصى كلَّ شيءٍ عددا ﴾.

٣ ـ ومن جملة القدرات التي يتمتعون بها التسلط على الإنسان، والتسلط على الإنسان يكون على نوعين، تسلط على الإرادة والاختيار، وتسلط على غير ذلك:

أ ـ أما التسلط على الإرادة والاختيار: فهذا مالا سبيل للشيطان ـ وهو من كفـرة الجن ـ عليه، وكـل ما يستـطيع الشيـطان فعله فهو **الوسوسة للإنسان**، أو تزيين الخطيئة له، أما التأثير على إرادته وعلى اختياره فهذا ما لا سبيل للشيطان إليه، وذلك هو الامتحان الذي يمتحنِ الله سبحانه به عباده، فإذا ما تعرض الشيطان لـلإنسان بالوسوسة أو تزيين الخطيئة فاختارها الإنسانُ مع علمه بنهي الله تعالى عنها وكـراهتِه إيـاها فقـد وَقَع في الإثم بـاختياره، وليس للشيطان دخل في ذلك إلا تزيين الخطيئـة في مقابلة تـزيين الله سبحانه لعباده الطاعة، فمن الخَرَقِ والحمق أن يختارَ الإنسان تزيين

الشيطان ـ وهو الكاذبُ الحقود ـ ويدعَ تزيينَ الله سبحانه وهو الرحمن الرحيم.

وتأكيداً للامتحان وتحقيقاً له فقد أوكل الله سبحانه بكل مخلوق قريناً من الجن يوسوس له، ويزين له الشر ويأمره به، وقريناً من الملائكة يوسوس له، ويزين له الخير، ويذكره بأمر الله، فقد روى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال (ما منكم من أحد إلا وقد وكّلَ به قرينُه من الجن وقرينُه من الملائكة قالوا وإياك يا رسول الله، قال: وإياي، ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير) فإذا ما بَعُدَ إنسان عن الله، وضعف في قلبه ضياءُ الإيمان كان اختياره واستسلامه لوساوس الشيطان أكثر، وإذا ما قرب من الله وشغل قلبه بحب الله، وقوي فيه نور الإيمان كان ديدَنُه مخالفة الشيطان والاستجابة لأمر الله ونهيه، وعندئذ تُقطع سبلُ الشيطان وتطيشُ سهامُه، وتنكشف شباكُه، وقد أوضح القرآن الكريم هذا كل الايضاح فقال جل شأنه في سورة الحجر ﴿ إنّ عبادي ليسَ لك عليهم سُلطانٌ إلّا من اتَّبعَكَ من الغَاوين ﴾ وقال في سورة النحل ﴿ فإذا قَرأتَ القرآنَ فاستَعِذْ بالله من الشَّيطانِ الرجيم، إنَّه ليْسَ له سُلْطانٌ على الذينَ آمَنُوا وعلى ربِّهم يَتَوكلون، إنما سُلْطَانُه على الذينَ يَتَوَلَّونَه والذين هم به مُشرِكون ﴾ فالمؤمن قوي،ويعلم أن الشيطان ليس بمتخاذلٍ ولا ضعيفٍ،يُعرَف فيه الكيدُ، فيتسلّحُ له بكلّ ما يُبيرُ حُجَّته، ويدحَضُ برهانَه، حتى ليصبح وهو الذي يساورُ الشيطان، لا الشيطانُ الذي يساوره كما قال ﷺ (إن المؤمن ليُنْصِي شيطانُه ـ أي يأخذ بناصيته ويسيطر عليه ـ كمايُنصي أحدُكم بعيرَه في السفر) ـ رواه الإمام أحمد بسند صحيح ـ ونتيجة لذلك فإما أن ينقادَ الشيطان له ـ أي للمؤمن ـ كما انقاد قرينُ رسولِ الله لرسول الله

فأسلمَ وأصبح لا يأمره إلا بخير ، وإما أن يفرَّ من وجهه كما هو حالُ قرينِ عمر بن الخطاب الذي قال فيـه رسول الله ﷺ (إنَّ الشيطانَ ليفرُّ منكَ يا عمر) ـ الترمذي والإمام أحمد ـ وقال لعمر (ايه يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غيرَ فجك) ـ أخرجه البخاري ومسلم .

ب ـ وأما التسلط على غير الإرادة والاختيار: فإن النصوص الواردة عن الله وعن رسول الله ﷺ تدل على أن الجن تكون لهم القدرة على هذا التسلط، وهو يأخُذُ صوراً وأشكالاً متعددة.

فأحياناً يأخذ هذا التسلط صورة حلم مزعج يأتي النائم في منامه وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام (إذا رأى أحدُكم الرؤيا يُحبُها فإنما هي من الله، فليحمَد الله عليها، وليحدّث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره، فإنما هي من الشيطان، فليستعذ بالله ولا يذكرها لأحد، فإنها لا تضره) ـ أخرجه البخاري ـ.

ـ وأحياناً يأخذ صورة تخبُّط عند الموت ولذلك كان من دعاء رسول الله ﷺ (اللهم إني أعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت) ـ أخرجه النسائي ـ.

ـ وأحياناً يأخذ صورة مرضٍ، كالصَرَع ونحوه وقد ذكر ذلك القرآن الكريم في سورة البقرة فقال تعالى: ﴿ الذينَ يأكُلونَ الرِّبا لا يَقومونَ إلا كَما يَقومُ الذي يَتَخَبَّطُه الشيطانُ من المَسّ ﴾ قال ابن تيمية «وليس في أئمـة المسلمين من يُنكِر دخولَ الجِنِّ في بدنِ المصروع وغيره، ومن أنكر ذلك وادعى أن الشرع يُكذِّب ذلك فقد كَذَب على الشـرع، وليس في الأدلة الشرعية ما ينفي ذلك.

ـ وأحياناً يأخذ شكل اتلافِ الممتلكاتِ بإشعالِ الحرائق في البيـوت

والمباني ونحو ذلك، فقد روى أبو داود في سننه أن رسول الله ﷺ قال: (إذا نِمْتُم فأطفِئوا سُرُجَكم. فإن الشيطان يدل مثل هذه ـ الفأرة ـ على هذا ـ السراج ـ فيحرقكم).

ويمنع هذا التسلط أن يتحَصَّن الإنسانُ ببعض ما ورد في الشرع انه مفيد في الوقاية من تسلط الجن من ذلك:

ما رواه الترمذي وأبو داود من قول رسول الله ﷺ (إذا فزع أحدكم في النوم فليقل: أعوذُ بكلمات الله التامات من غَضَبِه وعقابِه وشرِّ عباده ومن هَمَزات الشياطين وأن يَحْضُرون، فإنه لا يضره).

ـ وما رواه البخاري من أن الشيطان قال لأبي هريرة عندما قبض عليه أبو هريرة «دعني أعلمُك كلماتٍ ينفعك الله بها، قلت: ما هو؟ قال: إذا أويْتَ إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿ الله لا إله إلا هوَ الحَيُّ القيّوم ﴾ حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح» فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال له النبي ﷺ (أما إنه صدَقَك وهو كذوب).

ـ وما رواه أبو داود وابن ماجة من قول رسول الله ﷺ (إن هـذه الحشوش مُحْتضرة ـ أي يسكنها الجن ـ فإذا أتى أحدُكم الخلاءَ فليقل: أعوذ بالله من الخُبْثِ والخَبائِثِ).

استخدام الإنسان للجن:

تقدم معنا أن اتصال الانس بالجن ثابت قطعاً، ونتيجة هذا الاتصال تحدث كما يحدث بين البشر خصومات يكون من نتيجتها أذى الجني للإنسان الذي وقعت الخصومة بينه وبينه، وتحدث صداقات يكون من نتيجتها تعاون وخدمة يقدمها الجني للإنسان، وهذه الخدمات كما يقول ابن تيمية في فتاواه ٣٠٧/١١ لا تخرج عن ثلاثة أحوال:

في كتابنا «قراءة جديدة للسيرة النبوية» وكتابنا «التفسير السياسي للسيرة النبوية» فآمن برسول الله ﷺ من الجنِّ من آمن، وكفر به من كفر، ومن كفر منهم يسمى «شيطاناً» كما قال تعالى في سورة الجن ﴿ وانا منّا المسلمون ومنّا القاسِطون، فمن أسلَمَ فأولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً، وأما القَاسِطون فكانُوا لِجَهَنَّم حَطَباً ﴾.

والمسلمون منهم ليسوا على درجة واحدة، فهناك الصالحون الأتقياء، وهناك من هم دون ذلك، وهناك الفاسقون، شأنهم في ذلك شأن الإنس، وقد أخبرنا الله تعالى عن ذلك على لسانهم فقال جل شأنه في سورة الجن ﴿ وإنّا منا الصّالِحون ومنّا دونَ ذلك، كنّا طرائِقَ قِدَداً ﴾.

حسابهم وعقابهم يوم القيامة:

طالما أن الجن مكلفون، فإنه لا معنى للتكليف إن لم يعقبه حساب فثوابٌ أو عقابٌ، ولذلك فإن الجن يحاسبون يوم القيامة كما يحاسب البَشَر ثم يُجْزَوْن على أعمالهم قال تعالى: ﴿ ولقَدْ ذَرَأْنَا لجَهَنّم كثيراً من الجِنّ والإنس ﴾.

الخلاصة:

من كل ما تقدم نعلم أن الجن عالمٌ حقيقي وليس بوهمي، يختلف عن عالَم الإنس وعالم الملائكة، وأن بين عالَم الجن وعالم الإنس اتصالاً، وأن الجن مكلفون كالإنس، ومحاسبون يوم القيامة كالإنس أيضاً.

تحضير الأرواح

تعريف الروح:

كان العلماء في تعريف الروح فريقان:

الفريق الأول: قال بعدم الخوض في البحث عن حقيقة الروح لأننا لا نعرف شيئاً عنها، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى في سورة الاسراء، ﴿ ويَسْأَلونَك عن الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ من أمْرِ رَبِّي ومَا أوتيتُم من العلْمِ إلاّ قَليلاً ﴾.

الفريق الثاني: قال إن البحث عن الروح ليس بممنوع شرعاً، أما قوله تعالى عن الروح ﴿ قلِ الروحُ من أمْرِ رَبّي وما أوتيتُم من العِلم إلا قليلاً ﴾ فنقول إن جميع الموجود، الروح وغيرها من أمر الله، وما المراد من قوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ ومَا أوتيتُم مِنَ العِلْمِ إلا قَليلاً ﴾ إلا تنبيه السائلين من اليهود، بأن عليهم أن يسألُوا عما ينفَعُهم، من أحكام الحلال والحرام والايمان، لأن طاقَةَ الانسانِ على اكتسابِ المعلومات واختزانها محدودة، وطالما أن الأمر كذلك فمن الحكمة أن يكتسب ويختزن منها ما يفيده، ومعرفته الروحَ وحقيقَتَها لا يفيدُه شيئاً في دنياه ولا في آخرته.

وقد كان على رأس الباحثين في أمر الروح ابن القيم الجوزية حتى أنه وضع كتاباً فيها، والامام الغزالي وغيرهم.

الحالة الأولى: أن يستخدم الانسي الجان بما فيه طاعة الله تعالى، كشفاءِ مريضٍ أصيب بمس الشيطان، أو رد ضالة، أو عمارة مسجد، أو تنظيفه وكتذكيرهم بالله وأمرهم بطاعته، وبهذا يكون هذا المستخدم لهم من أفضلِ أولياءِ الله تعالى، وهو في ذلك من خلفاء الرسول ﷺ وثوابه.

الحالة الثانية: أن يستخدم الانسي الجن في أمور مباحة له كتنظيف منزله وإعداد طعامه، وأخباره بأحوالِ من هو بعيدٌ عنه، وكل هذا جائز لا شيء فيه، وقد استخدم نبي الله سليمان الجنَّ في بناء الصرح المُمَرَّد به، وصنعِ التحف الفنية، والأدواتِ المنزلية التي يحتاج إليها، كما قص الله تعالى علينا ذلك في سورة سبأ من القرآن العظيم.

الحالة الثالثة: أن يستخدم الجن فيما نهى الله عنه ورسوله كأذى الناس، وقتل معصوم الدم، أو هتك ما وجب ستره من أسرار الناس، ونحو ذلك، فذلك ممنوع، وعليه من الاثم بما يوافق العمل الذي استخدمهم فيه.

مساكن الجن:

الجن يسكنون هذه الأرض التي نحن عليها، وأكثر ما يتواجدون فيه منها: الأماكن المهجورة كالخرابات والفَلَوات، والأماكن القذرة النجسة كالحشوش والحمامات والمزابل، والأماكن التي تكثر فيها المعاصي كالأسواق ونحوها.

وقد مر معنا قبلُ حديثُ رسول الله (إن هذه الحشوش مُحْتَضَرة فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل أعوذ بالله من الخبث والخبائث) ـ رواه أبو داود وابن ماجة.

ـ وفي صحيح مسلم (لا تكونن إن استطعت أول من تدخل السوق، ولا آخر من تخرج منها، فإنها معركة الشيطان، وبها يَنصِبُ رايَته).

أديان الجن:

اقتضت حكمة الله تعالى أن يرسلَ لكلِّ طائفةٍ من الإِنس رسولاً منها، أعني يتكلم لغتَها، ويعرف أحوالها، لينهج النهجَ الأقوم في اجتثات عللِها.

وأرسل للجن كما أرسل للإنس رسلاً منهم أيضاً، يهدونهم إلى الحق ويدعونهم للأخذ بدين الله عز وجل، قال تعالى مقيماً الحجةَ يومَ القيامة على الإنسِ والجنِّ جميعاً ﴿ يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإنسِ ألَمْ يأتِكم رسُلٌ منكم يَقُصُّونَ عليكم آيَاتي وينذِرونَكم لِقَاء يومِكُم هذا؟ ﴾.

ونحن لا نعلم شيئاً عن هذه الأديان ولا هؤلاء الرسل، ولكننا لا نشك في أنها مماثلة في عقائدها للعقائد التي أتى بها الأنبياء جميعاً للبشر ولكنها قد تختلف في الأحكام التشريعية عن أديان البشر.

ولا يمنع هذا أن يطلع الجن على أديان البشر وكتبهم المقدسة المنزلة من عند الله، وقد ورد في القرآن ما يفيد أنهم كانوا على اطلاع على هذه الأديان فقال تعالى في سورة الأحقاف ﴿ قالوا يا قومَنا إنا سمِعنا كتاباً أنزِلَ من بعدِ موسى مصدِّقاً لما بينَ يديه يهدي إلى الحقّ وإلى صراط مستقيم ﴾ ولما بُعث محمد ﷺ برسالة الإسلام ونزل عليه القرآن خصه الله تعالى من بين الرسل جميعاً بأنه نبي للإنس وللجن، وكان أول ما تعرف الجن على الإسلام أنهم حضروا رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن في صلاة الفجر، فوقفوا واستمعوا لقراءته، ثم عادوا إلى أقوامهم يخبرونهم بما سمعوه كما قال تعالى في سورة الجن ﴿ قل أوحيَ إليَّ أنه استَمَع نفَرٌ من الجِنِّ فقالوا إنا سمعنا قُرآناً عَجَباً ﴾ ثم صارت وفود الجن تفِد على رسول الله ﷺ من كل مكان من أنحاء الأرض، فتجتمع في مكان ما، فيذهب إليها رسول الله ويعلمها القرآن والسنة ثم يعود إلى أصحابه، وكان كثيراً ما يصحب رسول الله بعضُ أصحابه، فقد صحبه ابنُ مسعود في ليلة الجن المشهورة، ولكنهم ما كانوا يطَّلعون على شيء من أمرهم إلا بما يخبرهم به رسول الله ﷺ. كما بينا ذلك

ولعل أحسن تعريف للروح هو قولنا:

«الروح جسم نوراني لطيف ينفذ إلى الأجساد الصالحة فتظهر آثاره فيها ـ أي آثار الروح في الجسد، وهي الحيـاة ـ.

وعلى هذا فالحياةُ هي ظهورُ آثارِ الروح الحالَّةِ في الأجساد، وعلى هذا أيضاً: فحقيقة المـوت هي: انسحاب الأرواح من الأجسـاد بسبب فساد الأجساد وعدم صلاحيتها لاظهار آثار الروح.

مكان الأرواح بعد انسحابها من الأجساد:

بعد انسحاب الأرواح من الأجساد التي فسدت ولم تعد صالحه لإظهار آثار الأرواح فيها، يرفعُ اللهتعالى أرواحَ المؤمنين من عبادِه ويُسكنها جنـةَ الخُلدِ، ويأخُذ أرواحَ الكفار ويودِعَها بعضَ أودية جهنم، وتبقى هناك إلى يوم البعث حيث ينادي ﴿ يا أيَّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ إرجِعي إلى ربِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فادْخُلي في عِبادي وادْخُلي جَنَّتي ﴾ وعندئذ تعود الأرواح إلى أجسادها. اخبرنا بذلك الصادق الصدوق عليه الصلاة والسلام فقد روى النسائي عن كعب ابن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (انما نسمة المؤمِن طيرٌ يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه).

إحضار الأرواح:

والسؤال الآن: هل يمكن إعادَةُ هذه الأرواحِ إلى الدُّنيا بعدَ أن فارَقَتْها إلى الأماكن التي خصَّها الله تعالى بها من الجَنَّةِ أو مِنَ النار؟

ونحن باديءَ ذي بدء لا نجدُ نصّاً شرعياً من قرآنٍ أو سنةٍ يمنعُ عودة الأرواح إلى الأرض بإذن ربها، كما أننا لا نجد في العقل ما يمنع ذلك، بقطع النظر عن وقوع هذا وعدم وقوعه.

ويعارضنا في ذلك كثيرون، وإن كنا لا نجد لمعارضتهم حجةً ناهضَة، إذ كل ما يحتجون به على دعواهم بعدم إمكان إحضار الأرواح إلى عالم الدنيا

بعد أن بوأها الله المكان الذي خصها به في الجنة أو في النار ما يلي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عن الرُّوحِ، قلِ الرُّوحُ من أمْرِ ربي وما أوتيتم من الـعِلْمِ إلا قليلاً ﴾.

وجه استدلالهم بهذه الآية: إننا لا نعرف ما هية الروح بنص كتاب الله تعالى، فهي بالنسبة إلينا شيء مجهول، فكيف نتعامل مع المجهول ونخضعُه لارادتنا؟

والجواب على ذلك سيكون في نقطتين:

الأولى: إن الآية الكريمة ـ كما سبق أن بينا ـ لا تفيد هذا المعنى.

الثانية: إننا كثيراً ما نتعامل مع المجهول طالما نعرف شيئاً من آثاره، كالكهرباء والفيروسات وغير ذلك، ونجري عليها تجاربنا ونوجهها، فما الذي يمنع أن نفعل ذلك مع الروح أيضاً، هذا مع تسليمنا أن الروح مجهولة، والحقيقة أنها معلومة كل العلم، ولكن ليس علماً مادياً، بل هـو كعلمنا للملائكة وللعوالم الأخرى غير المادية.

٢ ـ قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿ الله يَتَوَفّى الأنْفُسَ حينَ مَوْتِها، والتي لم تَمُتْ في مَنامِها، فيُمْسِكُ التي قَضَى عليها المَوت ويُرسِلُ الأخرى إلى أجَلٍ مُسَمّى ﴾.

وجه الاستدلال بهذه الآية هو أن الإنسان إذا مات أمسك الله تعالى روحَه عنده، وأوكل بحفظها ملائكةً حافظين، فكيف يَتَأَتّى لهذه الروح أن تُفلِت من حفظ الله وملائكته لتعود إلى الحياة الدنيا؟

والجواب على هذا أن نقول:

إننا نسلِّم بحفظِ الله وملائكتِه لروح الإنسان بعد موته، ولكننا لا نقول أبداً بتَفَلُّتِ الروح من حفظِ الله وملائكته، لأن الله تعالى يجل عن ذلك

وملائكته أكرم من هذا وأحرص، ولكنا نقول أنه يُتَوَجَّهُ إلى الله تعالى بتوجه صادق من عبدٍ صالحٍ ليأذَنَ للروحِ بمُغادَرَةِ مكانِها والعودةِ إلى الدنيا لمدة يريدها الله تعالى. وليس في ذلك شيء من الإِخلالِ بحفظِ الله تعالى للروح ولا بحفظ ملائكته.

ولذلك نرى أنه لا يوجد دليل شرعي ناهِضٌ يمنع إحضار الأرواح، وإذا انتفى وجود المانع، كان الأمر على الجواز.

وإذا كان الأمر جائزاً عقلاً وشرعاً، فمن هو الشخص الذي يمكن أن يتم على يديه إحضار الروح:

قلنا إن الروح هي في حفظ الله تعالى، ولكن يأذن لها الله تعالى بمغادرة مكانها فلا بد من أن يكون طلبُ المغادرة مرفوعاً إليه من إنسان ذي كرامَةٍ على الله تعالى، وتكون تلك المغادرة إكراماً من الله، ولكي يبلغ الشَّخصُ هذه المرتبةِ لا بد وأن يكون على درجة كبيرة جداً من التقوى والصلاح ومجاهَدةِ النفس، والقربِ من الله تعالى والتعلق به، وعندئذ يكون احضارُ الروح على يديه كرامة له، لأنه أمرٌ خارقٌ للعادة جرى على يدِ رجلٍ صالح.

أما الأرواح التي تحضر على يد رجال لا يتصفون بهذه الصفات، لكونهم كفاراً، أو فاسقين، أو متهاونين في أمر الشريعة، أو أناساً عاديين، فإنها ليست بالأرواح الحقيقية، وإنما هي أرواح القُرَنَاءِ من الجِنّ الذين كانوا يرافقون الناس في الحياة الدنيا، وهم بِحُكمِ مقارنتهم لهم يعرفون الكثير عن أولئك الأشخاص الذين كانوا يقارنونهم، وهذا ما يجعلهم يعطوننا معلومات وفيرة عنهم. ولكنها ليست دقيقة دائماً، ويأتي عدم دقتها من أمرين **الأمر الأول**: إن هؤلاء القُرَناء كاذبون بطبيعتهم. **الأمر الثاني**: إنهم إن علموا عن الشخص الذي كانوا يرافقونه أشياء ظاهرة منه، فإنهم يجهلون الكثيرَ منها أيضاً، كما يجهلون الأمور الخفية فيه.

ولذلك لا يجوز الاعتماد على أقوالهم.

عالم البرزخ

حقيقة الموت:

كثيراً ما نسمع ونرى أن فلاناً الذي كان شعلة من النشاط والفاعلية قد مات، وأصبح جثة هامدة، وهذا ما يجعلنا نتساءل ما حقيقة الموت؟ ولكن لكي نعرف حقيقة الموت لا بد لنا من أن نعرف حقيقة الحياة، فالحياة هي حلول الروح في البدن عندما يصبح أهلاً لاظهار آثارها من الغرائز، والميول والتفكير، والحركة ونحو ذلك. وتبقى الروح في البدن ما دام صالحاً لإظهار هذه الآثار، فإذا ما عجز عن ذلك لخلل جوهري يطرأ عليه، انسحبت الروح منه وأصبح جثة هامدة، وذلك هو الموت.

وكان الأطباء البشريون يعتبرون توقف القلب عن العمل إمارة الموت. ثم أصبحوا يعتبرون اليوم توقف الدماغ عن العمل إمارة الموت وإن بقيت بعض أجزاء البدن في حالة عمل، لأن عملها هذا لا يرتبط بالقوة المنظمة لعمل الاجزاء، فهو عمل غير منتج، وهو تماماً كاستمرار سير السيارة بعدما يقف محركها عن العمل، فهي سائرة، ولكن سيرها هذا ليس دليلاً على صلاحيتها للعمل.

وهذا الموت هو موت بالنسبة لمقاييسنا الأرضية، ولكنه بالنسبة لموقع الإنسان في النظام الكوني هو انتقال من لَوْنٍ من أَلْوانِ الحَياةِ إلى لَون آخر من ألوانها، هذا اللون نسميه بحياة البرزخ، وهي حياة خاصة متميزة ليست

كحياة الدنيا، وليست كحياة الآخرة. يكون للميت فيها حسه الخاص، فهو يسمع كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ (إن العبد إذا وضع في قبره وتولّى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا يأتيه ملكان. . .) - اخرجه مسلم وأبو داود والنسائي - وقوله عليه الصلاة والسلام لعائشة عندما سمعته يخاطب قتلى قريش وقالت: إنْ تخاطب الا أجسادا لا أرواح فيها، فقال لهم رسول الله: ما أنتم بأسمَعَ لما أقول منهم، ولذلك أمِرْنا أن نُسَلّم على الأموات في المقابر إن دخلناها فقد جاء في الحديث أن جبريل قال لرسول الله (إن ربك يأمرك أن تأتي أهْلَ البقيع فتستغفر لهم)، قالت السيدة عائشة: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال: «السلامُ على أهلِ الدّيارِ من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المسْتَقْدِمين منّا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون) - اخرجه مسلم -.

وهم ينطقون، فيجيبون الملائكة على اسئلتهم، أما ماهية هذا السمع وماهية هذا النطق فلا نعرف عنه شيئاً، لأن الحياة في البرزخ تختلف اختلافاً كلّيّاً عن الحياة في الدنيا، فهي ذات طبيعة خاصة.

وإذا تقرر معنا هذا أصبحنا في غنى عن قول من يقول: إن الله تعالى يردُّ الحياة إلى أجساد الأموات ليسألهم الملكان، وفي غنى عن قول من يقول: إن الله تعالى يرد الحياة إلى أجزاء من أجساد الأموات، لأن ذلك كله لا دليل عليه.

مفهوم البرزخ:

البرزخ في اللغة: الحاجز بين الشيئين.

والمراد به هنا: الحياة التي يحياها الإنسان ما بين الحياة الدنيا والآخرة من ساعة الموت إلى ساعة البعث.

مصادر العلم عن البرزخ:

عالم البرزخ هو من عالم الغيب، لا سبيل لنا إلى معرفة شيء عنه إلا عن طريق الخبر الصادق من قرآن أو سنة، ويمكننا أن نميز في هذا العالم مما بلغنا عنه ثلاثة أحوال: سؤال الملكين، وضغطة القبر، وعذاب القبر ونعيمه.

وسنتحدث عن ذلك فيما يلي:

سؤال الملكين:

أ ـ المسؤول: كل ميت يموت يتعرض لسؤال الملكين، لا يستثنى من ذلك إلا الأنبياءُ والصديقون والشهداء والمرابطون في سبيل الله، فإنهم لا يُسألون، لظهورِ حالهم ووضوح مآلِهم.

أما الأطفال: فقد اختلف العلماء في سؤالهم، والظاهر أنهم لا يُسألون لعدم الفائدة من سؤالهم، لأنهم ماتوا قبل سن التكليف، ثم إنهم لا يحاسبون يوم القيامة، فإذا كانوا لا يحاسبون في الآخرة، فكيف يسألون من قبل الملكين في البرزخ؟!

ب ـ السائل: الذي يتولى سؤال الميت في قبره ملكان أحدهما يسمى بـ «المنكر» والثاني بـ «النكير» وقد ورد في وصفهما ما يفيد أنهما يأتيان وقد تشكلا بأشكال مرعبة ففي سنن الترمذي من قول رسول الله ﷺ «إذا قُبِرَ الميتُ أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما «المنكر» وللآخر «النكير».

جـ ـ السؤال: الأسئلة التي يلقيها الملكان على الميت في قبره تنحصر في ثلاثة أسئلة:

السؤال الأول: ما كنت تعبد؟

السؤال الثاني: ما دينك؟

السؤال الثالث: ما تقول في هذا الرجل الذي بُعِثَ فيكم؟

أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ في جملة من الأحاديث سنوردها عندما نتكلم عن عذاب القبر.

د ـ وقت السؤال: ويحضر هذان الملكان إلى الميت بعد دفنه وإهالة التراب عليه حين ينصرف عن قبره أهلُه، فقد روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن العبد إذا وُضِعَ في قبره وتولَّىّ عنه أصحابه، أنه ليسمع قرع نعالهم إذا أنصرفوا، أتاه ملكان فيُقعِدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد؟...) الحديث.

عذاب القبر ونعيمه:

إن إجابات الميت على أسئلة الملكين المتقدمة تكون نابعة من حاله في الدنيا، فإن كان في الدنيا من المؤمنين وفّق إلى اجابات مَرْضِيَّة مُنجية، وإن كان من المنافقين والكافرين تلجلج لسانه في الاجابة ولم يوفق إلا إلى ما يرديه ويهلكه منها. وأنواع نعيم القبر وعذابه وردت بها أحاديث صحيحة، ويمكن تصنيفها كما يلي:

١ ـ استقبال القبر للميت: روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري من حديث رسول الله ﷺ قال: (إذا دُفن العبدُ المؤمن قال له القبر: مرحباً وأهلاً، أما كنت لمِنْ أحبٍّ من يمشي علىِ ظهري إليّ فإذا وليتك اليوم، وصرت إليّ. فسترى صنيعي بك، قال فيتسع مدُّ البصَر ويُفتح له بـاب إلى الجنة، وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر يقول له القبر: لا مرحباً ولا أهلاً، أما إن كنت لمن أبغض من يمشي على ظهري إليّ فسترى صنيعي بك، فالتأم عليه حتى تلتقي وتختلف أضلاعه).

٢ ـ ضغطة القبر:

أ ـ هذه الضغطة لا ينجو منها ميت أبداً سواء أكان صالحاً أم طالحاً، وسواء أمات في البر أم في البحر أم تفرق في حواصل الطير، فقد روى البيهقي في سننه عن النبي ﷺ قال: (للقبر ضغطة لو كان أحد ناجياً منها لنجا سعدُ بن معاذ) وروى النسائي أن رسول الله قال: (هذا الذي تحرك له عرشُ الرحمن ـ يعني سعد بن معاذ ـ وفتحت له

أبواب السماء، وشهده سبعونَ ألفاً من الملائكة، لقد ضم ضمة ثم فرج عنه).

ب ـ وهذه الضغطة تختلف من شخص لآخر، فهي ضغطة خفيفة كضم الأم الحنون لوليدها، يعقبها انفراج وراحة وسعادَة بالنسبة للمؤمن، كما تقدم في الحديث، وهي قوية شديدة تتشابك منها الأضلاع وتختلف، وتبقى كذلك إلى يوم القيامة بالنسبة للكافر والمنافق، فقد روى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (إذا قُبِرَ الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر نكير)، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقولُ: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين، ثم ينوّر له فيه، ثم يقال له: نعم، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم؟ فيقولان: نَمْ كنومَةِ العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك؛ وإن كان منافقاً قال: سمعت الناسَ يقولون، فقلت مثلهم، لا أدري، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض التَئِمي عليه، فتلتئم عليه فتختلف فيها أضلاعه، فلا يزال معذَّباً حتى يبعثه الله في مضجعه ذلك.

٣ ـ عرض مقعده الذي سيؤول إليه في الآخرة عليه، سواء أكان في الجنة أم في النار، ولا يخفى ما في هذا العرض من العذاب النفسي عليه، لأن انتظار العذاب أقوى من العذاب، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعدُه بالغداة والعشيّ إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهلِ النار، يقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة).

٤ ـ عرضُ الكافِرِ نفسِه على النار تلفَحُه بلظاها صباح مساء دون إدخاله فيها ـ لأن إدخاله النار لن يكون إلا بعد الحساب ـ وقد أخبرنا الله تعالى عما يفعله بفرعون وأعوانه فقال جل شأنه: ﴿ فوقَاهُ ـ أي وقىٰ مؤمن آل فرعون ـ سيئاتِ ما مَكَرُوا، وحَاقَ بآلِ فِرْعَـون سوءُ العَـذَاب، النارُ يُعَرضونَ عليها غُدُوّاً وعَشِيّاً، ويومَ تقومُ السّاعَة أدْخِلُوا آل فِرعونَ أشَدَّ العَذاب ﴾.

فهذه الآية تدل على أن آل فرعون يعرضون في البرزخ على النار عرضاً ويبقون هكذا حتى اليوم الآخر، فإذا أتت الساعة ينادي المُنادي: ادخلوا آل فرعون نار جهنم وأذيقوهم أشد العذاب.

أما المؤمنون فإن أرواحهم ستكون طيوراً تَحط على شجر الجنة الى يوم القيامة، كما في الحديث الذي أخرجه النسائي عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إنما نسمَةُ المؤمِن طيرٌ يعلق في شجرِ الجنة حتى يرجعَه الله إلى جسده يوم يبعثه».

٥ ـ جعلُ القبر حُفرةً من حُفَرِ النارِ أو روضة من رياض الجنة كما قال عليه الصلاة والسلام (إنما القبرُ روضةٌ من رياضِ الجنةِ أو حُفرةٌ من حفر النار) ـ أخرجه الترمذي ـ وقد وصف لنا رسول الله ﷺ ذلك في الحديث الذي رواه أبو داود عن البراء ابن عازب رضي الله عنه وقد جاء فيه(. . . فينادي منادٍ في السماء: أن كذب، فافرشوه من النار، وألبِسوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسَمُومها. . .).

٦ ـ وما يتعرض له الميت في قبره هو مقدمة لما سيلقـاه في اليوم الآخـر، وبشارة، فقد روى الترمذي أن عثمان بن عفان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (القبرُ أولُ منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشد منه).

الاستعاذة من عذاب القبر:

لما كان عذاب القبر من الخطورة على ما ذكرنا فقد وجدنا رسول الله ﷺ يديم الاستعاذة بالله تعالى من عذاب القبر، فقد روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قال: ما رأيت رسول الله ﷺ صلاة إلا تعوَّذَ من عذابِ القبر، وكان يأمر أصحابه بذلك فقد روى مسلم عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: (أقبل علينا رسول الله بوجه فقال: «تَعوذوا بالله من عذابِ القبر) فقالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر.



أشراط الساعة

التعريف بها:

الاشراط: العلامات مفردها شرط (بفتح الشين والراء).

والساعة: هي يومُ القيامة، وسميت ب «الساعة» لأنها تأتي بَغْتَةً في ساعة ـ أي في مدةٍ قليلة.

وقد نوه الله تعالى بذكر أشراط الساعة في سورة محمد فقال: ﴿فهل ينظرون إلا الساعةَ أن تأتيهُم بَغْتَةً، فَقَدْ جَاءَ أشرَاطُهـا﴾ أي ظهرت علاماتها.

أقسام أشراط الساعة:

تنقسم علامات الساعة إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ القسم الأول: ظَهَرَ وانقضى، وهي الامارات الصغرى، ومنها بعثة الرسول ﷺ، فقد روى البخاري ومسلم أن رسول الله قال: (بعثتُ أنا والساعةَ كهاتين، وقرَنَ بين إصبعيه السبّابة والوسطى).

ومنها انشقاق القمر: فقد قال تعالى: ﴿ اقتربتِ الساعةُ وانشقَّ القَمَر﴾ وقد وقع ذلك في عهد رسول الله ﷺ كما ورد في صحيح البخاري.

٢ ـ والقسم الثاني: ظهر ولم ينقض، بل لا يزال في ازدياد حتى إذا بلغ الغاية ظهرت الامارات الكبرى، وهذه الامارات هي الامارات الوسطى،

قال: قال رسول الله: (ليس من بلد إلا سيطؤها الدجال إلا مكة والمدينة، وليس نقب من أنقابها ـ أي مدخل ـ إلا عليه ملائكة صافّين تحرسها، فينزل بالسَّبخة، فترجف المدينة ثلاث رجفات، يخرج إليه منها كل كافر ومنافق).

٤ ـ دعوته: لقد ورد في الأحاديث ما يدل على أنه يدعي الألوهية ويقوم بأعمال عجيبة ليسيطر بها على عقول السذج وضعاف الإيمان فيفتنهم عن الإيمان، ولذلك حذر الرسول ﷺ أمته منه ومن فتنته وأخبر أن الأنبياء من قبله كانوا يحذرون أمتهم منه أيضاً.

روى أبو داود والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه قال: «قام النبي ﷺ فأثنى على الله بما هو أهله» ثم ذكر الدجال فقال: (أنذِرُكموه، وما من نبي إلا وقد أنذر قومه، لقد أنذر نوح قومه، ولكني سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي، إنه أعور وإن الله ليس بأعور).

٥ ـ مدة لبثه في الأرض: وليس غريباً أن نتساءل عن مدة لبث الدجال في الأرض، فقد تساءل عنه أصحاب رسول الله ﷺ، فسألوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، وما لبثه في الأرض؟ قال رسول الله: (أربعون يوماً، يوم كسنة ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم)، قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: (لا، أقدروا له قدره) ـ أخرجه مسلم وأبو داود ـ ويتعجب أصحاب رسول الله ﷺ كيف يستطيع بهذه المدة اليسيرة أن يقطع تلك الفيافي والقفار، ويطوف البلاد من خراسان إلى الجزيرة العربية، وهم في وقت ليس لديهم من وسائط النقل أسرع من الخيل، ويخبر رسول الله أصحابه أنه يسير لا بسرعة الإبل ولا بسرعة الخيل، ولكن بسرعة فائقة، فقد روى مسلم وغيره عن النواس بن سمعان قال: قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض، قال: (كالغيث استدبرته الريح).

٦ ـ نهايته: وما يزال الدجال يطوف البلاد ويغوي العباد حتى يُنزل الله تعالى عيسى بن مريم، فيطلبه فيدركه بباب «لدّ» وهي بلدة قريبة من بيت المقدس فيقتله.

٧ ـ الاستعاذة منه: ولما كان أمر الدجال من الخطورة بمكان فقد كان رسول الله ﷺ يستعيذ من فتنته ويأمر أصحابه بذلك، روى البخاري أن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يستعيذ في صلاته من فتنة الدجال.

٨ ـ الحكمة من وجود الدجال: هي اختبار الناس ليتحقق التمايز بين المؤمن وغير المؤمن، وبخاصة المنافقين الذين يتظاهرون بالإيمان.

جـ ـ نزول عيسى بن مريم عليه السلام:

١ ـ ثبوت نزوله: ثبت نزول عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان بالكتاب والسنة.

أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿ وإن منْ أهلِ الكتابِ إلا ليؤمننَّ به قبلَ موته ويومَ القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾.

وجه الدلالة في الآية أن فريقاً من أهل الكتاب سيؤمن بعيسى عليه السلام إيماناً صحيحاً، كما أخبر القرآن عنه بأنه عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحُ منه، ولا يكون ذلك إلا بعد نزوله من السماء قبيل الساعة، وهذا يؤكد ما يعتقده أهل السنة من أن عيسى عليه السلام قد رفع إلى السماء حياً وأنه لم يمت، بل انتقل من حياة أرضية إلى حياة أخرى يعلمها الله تعالى، وأنه سيعود إلى الحياة الأرضية مرة ثانية، ليقيمَ أحكام الشريعة الإسلامية، ولا يأتي برسالة جديدة، وتصبح الملة آنذاك ملة واحدة.

وأما السنة: فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (والذي نفس محمد بيده ليوشكن أن ينزل فيكم

ومنها: أن يسودَ الناسَ الحمقى واللئامُ وسَفلةُ الناس، وأن تصير الأمور إلى من لا يحسن التصرف فيها، قال ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناسِ بالدنيا لُكَع بن لُكَع) ـ أي العبد الأحمق اللئيم، وقال ﷺ مجيباً جبريل عندما سأله عن إمارات الساعة (أن تَلِدَ الأمةُ ربَّتَها، وأن ترى الحُفَاةَ العُرَاة رعاةَ الشاة يتطاولون في البنيان) ويعني بقوله: إن تلد الأمة ربتها: أن يحكم أسافِلُ الناس، وبقوله: أن ترى الحفاةَ العراةَ رعاة الشاة يتطاولون في البنيان: أن يصير المال إلى من لا يُحسنُ التصرفَ فيه، وينفقه في المفاخرة ومعصية الله تعالى.

ونحن نرى أن هذا قد حصل فعلاً في دنيا المسلمين اليوم.

ـ ومنها كثرة القتل في المسلمين فقد أخرج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لا تقومُ الساعة حتى يكثر الهرج، قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟ قال: القتل القتل).

ونحن نرى اليوم كيف يقتل المسلمون تقتيلاً جماعياً في بلدانهم وبأيدي حكامِهم وأيدي غيرهم، ولا ناصر لهم.

ـ ومنها كثرة البلاء في ظلمٍ وتسلطٍ وضيقِ عيش حتى أن الرجل ليتمنى الموتَ فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (والذي نفسي بيده، لا تمرُّ الدنيا حتى يمر الرجل بالقبر فيتمرغ عليه ويقول: يا ليتني مكان صاحب هذا القبر، وليس به الدَّيْن، ما به إلا البلاء). واليوم نرى جماهير من المسلمين يرون الموت أرحم ألف مرة مما يلقونه من الإذلال وانتهاك الحرمات والتعذيب الجسدي، فيتمنون الموت ولا يجدونه.

٣ ـ القسم الثالث: الامارات الكبرى التي يعقبها قيام الساعة، وهذه الامارات هي مرتبة كما يلي: ظهورُ المهدي ـ ظهور الدجال ـ نزول عيسى عليه السلام ـ ظهور يأجوج ومأجوج ـ ظهور الدخان ـ طلوع

الشمس من مغربها - ظهور الدابَّة وسنتكلم عن كل شرط من هذه الأشراط بكلمة موجزة:

أ - المهدي:

لقد رأينا في الأحاديث السابقة التي تذكر لنا طرفاً من إمارات الساعة الوسطى كيف أن الشرور ستنتشر، وأن الآثام ستروج، وأن اتباع الحق سيقلّون، وأتباع الباطل سيكثرون، ورحمةً منه سبحانه بهذه الأمة يرسلُ لها المصلحَ الكبير المهدي، وقد ثبت ظهور المهدي بالسنة المشرفة كما سيأتي.

١ - اسم المهدي: واسم المهدي كاسم رسول الله ﷺ «محمد» واسم أبيه كاسم أبي رسول الله ﷺ «عبد الله»، وقد ثبت ذلك في حديث رسول الله ﷺ الذي أخرجه الترمذي وأبو داود عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطوَّلَ الله ذلك اليوم حتى يبعثَ الله رجلاً مني أو من أهل بيتي يواطىء اسمُه اسمي، واسم أبيه اسمَ أبي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً).

٢ - نسب المهدي: ويرقى نسب المهدي إلى فاطمة البتول بنت رسول الله ﷺ، فهو من آل بيت رسول الله، فقد روى أبو داود والحاكم عن أم سلمة عن النبي ﷺ قال: (المهدي من عترتي من ولد فاطمة).

٣ - صفاته: أما صفات المهدي فهي: أنه منحسرُ الشعر عن مقدم الرأس، طويلُ الأنف مع احديدابِ وسطه ودقةِ أرنبته - كما ورد ذلك في الحديث الذي أخرجه أبو داود والحاكم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (المهدي مني أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً. . .) الحديث.

٤ - سيرته: والمهدي ليس نبياً ولا رسولاً، إذ لا يوحى إليه بشيء أبداً، وإنما هو مصلح من أتباع محمد بن عبد الله ﷺ، ولذلك فإنه يتخلق بأخلاقه

ابن مريم حكَماً عدلاً فيكسرُ الصليب ويقتل الخنزير. . .).

وما أخرجه مسلم عن جابر بن عبدالله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم[1] تعال صل لنا، فيقول لا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة).

٢ ـ صفته: هو رجل مربوع أبيض مشرب بحسرة ـ أبو داود والحاكم ـ.

٣ ـ سيرته: وقد ذكر لنا رسول الله ﷺ طرفاً من سيرته فقال: (والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية[2] ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها) ـ رواه البخاري ومسلم ـ. وتذهب الشحناء والتباغض والتحاسد ـ رواه مسلم ـ ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويُهلك المسيحَ الدجال ـ أخرجه أبو داود وغيره ـ.

ومما حدثنا به رسول الله ﷺ عن سيرته أنه يبقى حياً إلى خروج يأجوج ومأجوج وسيأتي معك الحديث عن هذا النوع العجيب في المبحث المخصص لذلك إن شاء الله.

٤ ـ زمان ومكان نزول عيسى: ينزل الله سيدنا عيسى عليه السلام في زمن المهدي، فيدركه ويصلي خلفه سيدنا عيسى، وينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ـ أخرجه مسلم وغيره ـ.

٥ ـ مدة مكثه في الأرض ووفاته: أخرج الإمام أحمد أن عيسى بن

---

(١) هو المهدي.

(٢) يبطلها لذهاب موجبها فلا يقبل إلا الإسلام.

مريم يمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى، ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه عند نبينا محمد ﷺ.

د ـ خروج يأجوج ومأجوج:

١ ـ التعريف بهم: يأجوج ومأجوج إسمان عجيبان لأقوام يبلغون من الكثرة مبلغاً عظيماً يفسدون في الأرض أيّما إفساد.

٢ ـ خروجهم من إمارات الساعة: وقد ورد ذكرهم في القرآن العظيم والسنة النبوية المطهرة كأمارة من أمارات الساعة، فقال تعالى: ﴿حتى إذا فُتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدبٍ ينسلون. واقتربَ الوعدُ الحقُّ فإذا هي شاخِصة أبصارُ الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غَفْلَةٍ من هذا بل كنا ظالمين﴾.

وأما السنة فهو ما أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود عن حذيفة الغفاري قال: اطلع النبي علينا ونحن نتذاكر فقال: ما تذكرون؟ قالوا: نذكر الساعة، قال: إنها لن تقوم حتى تَرَوا قبلها عشرَ آيات، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوفات، خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نارٌ تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم».

٣ ـ سيرتهم: ذكر القرآن الكريم قصة يأجوج ومأجوج في سورة الكهف، وكيف أن ذا القرنين حجز هؤلاء الأقوام الذين اتصفوا بالشر والطغيان خلف السد الذي بناه، وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أنه سيأتي ذلك اليوم الذي ينطلق فيه هؤلاء الأقوام من خلف السد فيفسدون في الأرض أيما افساد، ويطغون ويبغون، ويخاف الناسُ بأسَهم، وقد ذكرنا ذلك عندما تكلمنا على نزول سيدنا عيسى كيف أن الله تعالى سيوحي لعيسى عليه السلام أن

ويقتفي سيرته عليه الصلاة والسلام، يقوم بالدين آخر الزمان كما قام به النبي ﷺ أوله، ويرد العزة لأمة محمد عليه الصلاة والسلام، ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً.

٥ ـ مدة حكمه: روى أبو داود والحاكم أن ملك المهدي يدوم سبع سنين، ويدركه عيسى عليه السلام ويصلي خلفه صلاة المسلمين، وأخرج مسلم عن جابر بن عبدالله عن رسول الله ﷺ حديثاً جاء فيه: (فينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم ـ وهو المهدي ـ تعال صل لنا، فيقول: لا، إن بعضَكم على بعض أمراء تكرمةُ الله هذه الأمة)[١].

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: «تواترت الأخبار بأن المهدي من هذه الأمة وأن عيسى عليه السلام سينزل ويصلي خلفه».

٦ ـ أدلة ثبوت المهدي: لقد سقنا فيما مضى أحاديث تثبت مجيء المهدي، وقد صرح كثير من كبار المحدثين بأن أحاديث المهدي بمجموعها تفيد التواتر المعنوي ولهذا أدخل علماء العقيدة بحث المهدي في مسائل العقائد. وأنكر بعض المعاصرين وجود المهدي نظراً لأن كل حديث ورد فيه ذكره فيه مقال، وقد صنف الشيخ عبدالله بن زايد آل حمود في ذلك كتابه (لا مهدي ينتظر بعد الرسول سيد البشر).

ب ـ الدجال:

١ ـ اسمه: الدجال: من الدَّجَل، وهو التغطية، وسمي الدجال دجالاً لأنه يغطي الحق بباطله، وقد ثبت ظهور الدجال بالسنة المطهرة كما سيأتي.

٢ ـ صفته: بيّن لنا الرسول ﷺ بعض الصفات الخَلْقِية للدجال، فمن صفاته أنه قصير، جسيم، أحمر اللون، أعور العين اليسرى قد غطتها جلدة

---

(١) سيأتي الحديث بتمامه في بحث نزول عيسى عليه السلام.

غليظة، أما عينه اليمنى فهي جاحظة، فوق رأسه شعر شديد الجعودة بشع المنظر، منفرج الرجلين في المشي، فقد روى مسلم عن حذيفة قال: قال رسول الله: (إن الدجال ممسوح العين عليها ظَفَيرَة[١] غليظة، مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتبٍ وغير كاتب) - يعني أن ملامحه العامة تجعل من يراه يجزم بأنه كافر - وروى مسلم عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: (الدجال أعور العين اليسرى جُفال الشعر)[٢].

وأخرج الشيخان عن ابن عمر أن رسول الله قال: (بينما أنا نائم رأيتني أطوف بالكعبة فإذا رجل جسيم، أحمر، جعد الرأس، أعور العين، كأن عينه عِنَبَة طافية[٣] قالوا: هذا الدجال). ورؤيا الأنبياء حق.

وروى أبو داود أن المسيح الدجال رجل أفجح - والأفجح: المنفرج الرجلين في المشي.

٣ - مكان خروجه وتطوافه في الأرض: اتفقت الروايات على أن الدجال سيخرج من جهة الشرق، فقد أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي بكر الصديق أن رسول الله ﷺ قال: «الدجالُ يخرجُ من أرض بالمشرق يقال لها خراسان يتبعه أقوام كأن وجوههم المَجَانّ المُطْرَقة» ثم يتجه الدجال نحو الغرب فيمر بأصبهان فيتبعه من يهودها سبعون ألفاً. فقد روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (تبع الدجالَ من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة) ومن البدهي أنه لا يراد بقول رسول الله: «سبعون ألفاً» الحصر، ولكن: الكثرة، ثم يتابع سيره نحو الغرب فيدخل البلاد ويتبعه أهل الفساد. ويدخل المدن والقرى، حاشا مكة والمدينة، حيث يمنعه الله من دخولها لشرفهما ومنزلتهما عند الله تعالى، فقد روى مسلم عن أنس بن مالك

---

(١) جلدة تغطي البصر.

(٢) كثير الشعر.

(٣) جاحظة.

يلوذ بالمؤمنين بجبل الطور، ويلجأ هو ومن معه إلى الجبل، وسيحاصرهم أولئك الأقوام، فلا يجد عيسى ومن معه من ملجأ إلا إلى الله فيلجأون إليه بالدعاء، فيرسل الله على يأجوج ومأجوج نوعاً من الدود يقتلهم جميعاً، وينزل عيسى ومن معه من الجبل إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب نبي الله وأصحابه، فيرسل الله طيراً كأعناق البخت، فتحملهم، فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا دبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة، ـ انظر الحديث في صحيح مسلم وسنن الترمذي وأبي داود ـ .

وهكذا يقضي الله عز وجل على هؤلاء الأشرار من عباده.

هـ ـ خروج الدخان:

من أشراط الساعة خروج الدخان، وهو ثابت بالسنة، أخرج مسلم والترمذي وأبو داود عن حذيفة قال: اطلع النبي علينا ونحن نتذاكر فقال: ما تذكرون؟ قالوا: نذكر الساعة، قال: إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان. . الحديث. وفي الحديث الذي رواه الطبراني: «إن ربكم أنذركم ثلاثاً، الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمعٍ منه، والثانية الدابة، والثالثة الدجال»[1].

و ـ طلوع الشمس من مغربها:

ولعل هذا بدء اختلال نظام الكون، لأن طلوع الشمس من مغربها هو آخر أمارات الساعة.

وطلوع الشمس من مغربها ثابت بالقرآن والسنة.

أما القرآن فقوله تعالى: ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكةُ أو يأتيَ

(١) قال ابن كثير في تفسيره ٤/١٥٣ إسناده جيد.

ربُّك أو يأتيَ بعضُ آياتِ ربّك، يوم يأتي بعضُ آيات ربك لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكن آمنَت من قبلُ أو كسبت في إيمانها خيراً، قل انتظروا إنّا منتظرون ﴾. وقد فسر رسول الله ﷺ ذلك بخروج الشمس من مغربها، فقد روى البخاري في كتاب التفسير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى تُطلَع الشمسُ من مغربها فإذا طلعت ورآها الناسُ آمَنْ مَنْ عليها فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل).

ز ـ ظهور الدابة:

ـ وهي دابة يخرجها الله تعالى تميز الكافر من المسلم.

ـ وقد ثبت ظهورها بالكتاب والسنة فقال تعالى في سورة النمل: ﴿ وإذا وقَعَ القولُ عليهم أخْرَجْنا لهم دابَّةً من الأرضِ تكلّمُهم ، إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾.

وروى مسلم وأبو داود عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: حفظتِ من رسول الله حديثاً لم أنسه بعد. سمعته يقول: (إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى...) الحديث.

خاتمة:

بعد أن يفتضح أمر الناس، بظهور الدابة، ويتميز الكافر من المؤمن يرسل الله تعالى ريحاً يموت فيها من كان في قلبه مثقالُ ذرة من إيمان، كما روى الإمام مسلم في الإيمان: (إن الله يبعث ريحاً من اليمن ألينُ من الحرير فلا تدع أحداً في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته). وهكذا لا يبقى على وجه الأرض إلا الكفار فتقوم عليهم الساعة كما روى مسلم والترمذي عن أنس عن النبي ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله).



قيام الساعة

بعد أن تحدثنا عن أمارات الساعة نتحدث عن قيام الساعة ويتحدد ذلك بالنفخ بالصور، وعدد النفخات ثلاث:

النفخة الأولى: وتسمى نفخة الفزع، وهي التي يتغير فيها نظام الكون وهي التي أشار إليها الرب سبحانه بقوله في سورة النمل: ﴿ ويومَ يُنفَخُ في الصور ففزع من في السمواتِ ومن في الأرضِ إلا منْ شاءَ الله ﴾[1] وعندما ينفح إسرافيل هذه النفخة تضطرب الأرض كما قال تعالى: ﴿ يومَ ترجفُ الراجِفةُ تتبعُها الرادِفة ﴾ وتنشق السماء وتنتشر النجوم وتتفجر البحار كما قال تعالى: ﴿ إذا السماءُ انشَقَّتْ وأذِنَت لربها وحُقّت وإذا الأرضُ مُدّت وألقت ما فيها وتخلت ﴾ وقد وردت آيات كثيرة في وصف ذلك اليوم.

النفخة الثانية: وتسمى نفخة الصعق وفيها يتم هلاك كل شيء، وانتهاء هذه الحياة الفانية كما قال تعالى: ﴿ونُفِخَ في الصُّورِ فصُعِقَ من في السمواتِ ومَنْ في الأرضِ إلا مَنْ شاءَ الله ﴾.

وقد وصفت لنا آية كريمة ذلك عندما يطوي الرحمن السماء والأرض كطي السجل للكتب، ويقول: ﴿لمن المُلْكُ اليوم﴾ فلا يجيبه أحد، فيجيب

---

(١) المراد بمن شاء الله: من ثبت الله قلبه من الملائكة وهم جبريل وميكائيل وملك الموت وغيرهم ثم ان الله سبحانه يميتهم تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾.

نفسه ويقول: ﴿لله الواحِدِ القَهّار﴾. وتتبدل الأرض غير الأرض والسموات كما قال تعالى: ﴿يومَ تبـدَّلُ الأرضُ غير الأرض والسموات﴾ فيبسطهـا ويسطحها ثم يمـدها من الأديم كما قال تعالى: ﴿ولا ترى فيها عِوَجا ولا أَمْتَا﴾.

النفخة الثالثة: وتسمى نفخة البعثِ والنشور، وفيها يُبعث الناس من قبورهم. قال تعالى: ﴿ونُفِخَ في الصُّورِ فإذا هم من الأَجْداثِ إلى ربهم ينسلون﴾ ومن هنا يبدأ اليوم الآخر، وسنفصل الكلام فيه في البحث التالي إن شاء الله.

اليوم الآخر

١ ـ معنى اليوم والآخر:

اليوم الآخر هو اليوم الذي ليس بعده يوم أبداً حيث تتلاشى حدود الزمان، ويبقى الزمن المطلق، ويبدأ اليوم الآخر من البعث، أما نهايته، فإنه لا نهاية له.

٢ ـ وجوب الإيمان به:

والايمان باليوم الآخر هو ركن من أركان الإيمان التي ذكرها الحديث الشريف عندما سأل جبريلُ رسول الله ﷺ عن الإيمان فأجابه رسول الله ﷺ (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره) ـ أخرجه مسلم ـ.

ولبيان عظيم أهمية الإيمان باليوم الآخر يكفي أن نعلم أن الله تعالى قد ذكره في القرآن العظيم أكثر من ثلاثمائة مرة. والأحاديث في ذلك أكثر من أن تحصى.

فالقرآن والسنّة يوجبان الإيمان باليوم الآخر.

٣ ـ دليل وجود اليوم الآخر:

إن اليوم الآخر هو من الأمور التي لا تخضع للتجربة، فطريق العلم به

هو الخبر الصادق والعقل السليم، وكل من الخبر الصادق والعقل السليم يدلنا على وجود اليوم الآخر.

أما الخبر الصادق، فإن الله تعالى أخبرنا بوجود يوم يحاسب فيه الإنسان عن أعماله التي عملها في الدنيا، والآيات والأحاديث في ذلك أكثر من أن تحصى، وسيأتيك في ثنايا البحث منها ما فيه الكفاية. منها قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا بالله ورسولِه والكتابِ الذي نَزَل على رسوله والكتابِ الذي أنزلَ من قبلُ ومن يكفرُ بالله وملائكته وكتبه ورسلِه واليومِ الآخرِ فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً ﴾.

ـ أما العقل: فإن العقل لا يحيل وجود اليوم الآخر بل يوجب ثبوته وبيان ذلك:

أ ـ لقد مرّ معنا أن الله تعالى موجود، وأنه متصف بالكمالات ومنزه عن النقائص، ومن جملة صفاته العدل، ولكننا نرى بعض الظالمين يموتون دون أن يجرؤ أحد على أخذ الحق منهم، ونرى بعض المظلومين يموتون دون أن يحصلوا على حقوقهم، فلا بد من وجود يوم يتحقق فيه عدل الله تعالى ويؤخذ فيه لكل مظلوم حقه، وإلا تخلفت صفة العدل عن ذات الله تعالى ـ تنزه الله عن ذلك.

ب ـ ليس من المستحيل وجود اليوم الآخر، لأن الله قادر على ذلك وأن الذي خلق الخلق أولاً قادر على إحيائهم بعد موتهم قال: ﴿ من يُحْيي العِظَام وهي رَميم؟ قُلْ يُحييها الذي أنشأها أولَ مرَّةٍ وهو بكلِّ خلقٍ عليم ﴾ وجلّ ما يقال في ذلك؛ أن وجود اليوم الآخر في حيز الممكن، والممكن يترجح فيه أحد جانبيه ـ الوجود أو العدم ـ لمرجح يقتضي ذلك، ومرجح وجود اليوم الآخر قد وجد، وهو تحقيق عدل الله تعالى، ووجود القدرة له سبحانه، ولذلك كان وجود اليوم الآخر واجباً.

٤ ـ حكم منكر اليوم الآخر:

قلنا إن اليوم الآخر قد ثبت بالقرآن والسنة المتواترة، فمنكره منكر لما ثبت في الدين بالضرورة، وهو كافر قطعاً ليس له مكان في الآخرة إلا النار، كما قال تعالى في شأن المجرمين في سورة المدّثّر: ﴿ما سَلَكَكُم في سَقَر، قالوا لم نكُ من المصلين ولم نكُ نطعِم المسكين وكنّا نخوضُ مع الخائضين وكنّا نكذِّبُ بيومِ الدين حتى أتانا اليقين فما تنفعُهم شفاعة الشافعين﴾.

٥ - أحـوَال الآخِـرَة

وهي الأحوال التي يتعاقب فيها الناس في الآخرة وسنسوقها لك حسب ترتيبها في الآخرة، فنتحدث عن البعث، وورود الحوض، والحشر، والشفاعة، والحساب، وتسلم صحف الأعمال، والصراط، والنار، والجنة، والأعراف.

أ ـ البعث:

١) إذا مات ابن آدم بلي جسده كله وتفرقت أجزاؤه، ولا يبقى منه متماسكاً إلا عظم واحد هو «عَجْبُ الذنب» وهو العظم الذي في رأس العصعص، وقد ثبت ذلك في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: (وليس شيء من الإنسان إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عَجْبُ الذنب).

٢) حتى إذا ما أراد الله تعالى البعث أنزل من السماء ماء على ذلك الجزء الباقي وهو «عجب الذنب» ثم يحيي إسرافيل ويأمره أن ينفخ في الصور النفخة الثالثة، وهي نفخة الإحياء، فتنبت الخلائق كما ينبت البقل، كما قال ﷺ: (ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل) ـ أخرجه البخاري ومسلم ـ وينادي الرب سبحانه الأرواح قائلاً: ﴿يا أيتها النفسُ المطمئنةُ ارجعي إلى ربِك راضِيةً مَرضِيَّة فادخُلي في عِبادي

وادخلي جنتي﴾ فتعود الأرواح إلى أجسادها التي كانت فيها في هذه الدنيا، فيقوم الخلائق ينظرون قائلين﴿يا وَيْلَنا من بَعَثَنا من مَرْقَدِنا ﴾ فيجيبهم الرب سبحانه: ﴿ هذا ما وَعَد الرحمَنُ وصَدَق المرسلون ﴾.

٣) والبعث يتناول جميع مخلوقات الله تعالى من إنسان وحيوان وجماد وأحوال، لما رواه الترمذي عن أبي هريرة قال قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ يومَئِذٍ تحدّثُ أخْبارها ﴾ قال أتدرون ما أخبارها؟ أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، تقول عمل يوم كذا، كذا، وكذا، فهذه أخبارها) ولا يمكنها أن تشهد إلا بما بعثها الله تعالى.

وفي البخاري عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة أن أبا سعيد رضي الله عنه قال: أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنا في غنمك وباديتك فأذّنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذّن جنّ ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة، قال أبو سعيد سمعته من رسول الله ﷺ.

ب ـ وِرود الحوض:

١) لقد أعطى الله تعالى كل نبيّ حوضاً في أرض المحشر ترِدُ عليه أمته لتشرب منه، فقد روى الترمذي أن رسول الله قال: (إن لكل نبي حوضاً، وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة، وإني أرجو أن أكون أكثرهم واردة) وحوض نبيّنا له ميزابان يصبّان فيه من نهر الكوثر في الجنة.

٢) إن أول ما يبعث الناس، يبعثون عطاشاً، فيتوجهون نحو حياض الأنبياء ليشربوا منها، ويتوجه كل واحد نحو حوض نبيه، فإن كان من المؤمنين شرب منه، وإن كان من المارقين صدته الملائكة عنه، فبقي طيلة وقوفه في حر المحشر وعنته وشدته عطشان.

ففي صحيح مسلم (ترد أمتي عليّ الحوضَ وأنا أذود الناسَ عنه كما

يذود الرجل إبل الرجل عن إبله، قالوا: يا نبي الله أتعرفنا؟ قال ﷺ نعم، لكم سيما لست لغيركم، تردون عليّ غراً مُحَجّلين من آثار الوضوء، ولتُصدنَّ عني طائفةٌ منكم لا يصلون إليّ، فأقول: يا رب هؤلاء أصحابي فيجيبني ملك فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك؟).

٣) أما صفة الحوض، فقد ذكرها الرسول ﷺ كما في صحيح مسلم قال أبو ذر: قلت يا رسول الله ما آنية الحوض قال: (والذي نفسي بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها إلا من الليلة المظلمة المصحية، آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ، آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة، من شرب منه لم يظمأ، عرضه مثل طوله ما بين عُمان إلى أيله[1] وماؤه أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل).

ـ وفي حديث آخر: ماؤه أبيض من الورق وريحه أطيب من المسك ـ أخرجه مسلم.

ـ وفي حديث آخر: حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف وطينته مسك أذفر ـ أخرجه البخاري.

جـ ـ الحشر:

١) الحشر لغة: الجمع.

واصطلاحاً: جمع الخلائق للعرض على الله تعالى والحساب بين يديه.

٢) ويحشر الناس عراة، وتحشر معهم جميع أجزائهم المتصلة والمنفصلة عنهم في حال حياتهم الدنيا، فقد روى البخاري ومسلم والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ : (يحشر الناس يوم القيامة حفاة

---

(١) وفي رواية أخرى كما بين صنعاء وأيلة وفي ثالثة ثلاثة أيام وفي رابعة ثلاث ليال، وهذا يدل على أن المسافة غير مقصودة بالذات وانما المقصود التعبير عن اتساع مساحته.

عراة غرلا[١] قلت يا رسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض).

وجه الدلالة في الحديث أن جلدة الختان التي انفصلت عنه في الدنيا ستحشر معه، وهذا يدل على أنه سيحشر معه كل جزء منفصل عنه، وإذا كان الجزء المنفصل سيحشر معه، فالجزء المتصل أولى.

٣) أما أرض المحشر: فقد رأينا فيما مضى أن نظام الكون يختل، فالأرض تهتز وتثور، والكواكب تنتثر، وهكذا تصبح هذه الأرض غير صالحة للحشر، ولذلك فإن الحشر يجري على أرض غير هذه الأرض كما قال تعالى: ﴿يومَ تبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض والسمواتُ وبرزوا لله الواحد القهار﴾.

أما صفة هذه الأرض التي يتم عليها الحشر فقد ذكرها لنا الرسول ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم فقال: (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء[٢]، كقرصَة خبزٍ[٣]، نقي، ليس فيها معلَم[٤] لأحد).

٤) وأما أهوال المحشر: فإنها تفوق حد التصور، ويكفي أن نعلم أن الشمس تدنو في ذلك اليوم من الخلق حتى تكون منهم قدر ميل، فيكون الناس من العنت والشدة على قدر أعمالهم فعن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (تُدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم قدر ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم

---

(١) الأغرل: الأغلف الذي لم يُختن.
(٢) ليس بياضها خالصاً.
(٣) رغيف خبز.
(٤) علامة الملك أو بناء أو نحوه.

من يكون إلى حقويه[1]، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً) وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه، ويطول ذلك الموقف ويطول، ويهرج الناس ويموجون ﴿وترى الناسَ سُكارى وما هم بسُكارى ولكنَّ عذابَ الله شديد﴾.

٥) ولكن ذلك الهول ليس على جميع الناس، فهناك أناس صدقوا الله تعالى في هذه الدنيا فنجاهم من هول ذلك الموقف، وضمهم إلى ظل عرشه كما قال ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، إمامٌ عادل وشاب نشأ في عبادة الله، ورجلٌ قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) ـ أخرجه البخاري ومسلم.

وفريق من المؤمنين المخلصين لا يشعرون بطول ذلك الوقف رغم طوله خمسين ألف سنة كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ أمته (قيل يا رسول الله يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ما أطول هذا اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا) ـ أخرجه الإمام أحمد في المسند ـ.

د ـ الشفاعة:

١) **ثبوتها:** الشفاعة ثابتة في القرآن والسنةالصحيحة.

وأما القرآن فقوله تعالى: ﴿ من ذا الذي يَشْفَعُ عنده إلاّ بإذنه ﴾ وقوله جل شأنه: ﴿ ولا يشفَعون إلا لِمَنْ ارتَضَى وهم من خَشْيَته مُشفِقون ﴾.

---

(١) الحقو: معقد الإزار.

الترمذي وأبو داود أن رسول الله ﷺ قال: (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي).

● شفاعته في رفع درجات أناس في الجنة: فقد روى البخاري عن أبي هريرة أنه قيل يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: (لقد ظننت يا أبا هريرة ألا يسألني عن هذا أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه).

وجه الدلالة في الحديث أن أسعد الناس بشفاعة الرسول المؤمنون المخلصون وهؤلاء مسكنهم الجنة فتأتي شفاعة الرسول فتعلي من درجاتهم فيها.

● شفاعته ﷺ في إخراج عموم أمته من النار حتى لا يبقى منهم أحد، فقد روى البخاري عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: (يخرج قوم من النار بشفاعة محمد فيدخلون الجنة يسمون الجهنميين) ومن حديث الشفاعة الطويل الذي أخرجه البخاري ومسلم (... ثم أخرّ له ساجداً فيقال لي يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول يا رب ائذن فيمن قال لا إله إلا الله قال الله تعالى: ليس ذلك لك، أو قال ليس ذلك إليك، ولكن وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي وجبريائي، لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله.

الثانية: شفاعة الأنبياء والصالحين والقرآن...

ـ دليلها: لقد ورد في الشرع ما يدل على أن الأنبياء يشفعون، والعلماء يشفعون والصالحون يشفعون، والقرآن يشفع وغير ذلك فقد قال تعالى ﴿لا تنفعُ الشفاعةُ إلا من أذِنَ له الرحمنُ ورَضِيَ له قولاً﴾ وورد عن رسول الله ﷺ مجموعة من الأحاديث الصحيحة تثبت ذلك سنراها في الفقرات التالية.

ـ من الذي يشفع: روى ابن ماجه بسند حسن عن عثمان عن النبي ﷺ قال: (يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء).

والعلماء هم العاملون الذين علموا الناس ما ينجيهم من عذاب الله تعالى من الآخرة.

ويشفع كل واحد من هؤلاء على قدر مكانته عند الله تعالى. فقد قال ﷺ: (إن من أمتي من يشفع للفئام ـ وهم الجماعة الكثيرة ـ ومنهم من يشفع للقبيلة ومنهم من يشفع للعُصبَةِ ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخلوا الجنة) ـ أخرجه الترمذي.

فيشفع عثمان يوم القيامة في مثل ربيعة ومضر ـ أخرجه الترمذي ـ والشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته ـ أخرجه الترمذي وأبو داود.

ـ أما وقت هذه الشفاعة فهو بعد عبور الصراط، وبعد أن يسقط أهل النار في النار، ويصبح أهل الجنة في الجنة، حيث يناشد أهل الجنة الله تعالى لإخراج إخوانهم الذين في النار فيقولن(ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون، فيقال لهم: اخرجوا من عرفتم فتحرّم صورهم على النار فيخرجون خلقاً كثيراً) ـ أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ـ.

هـ ـ الحساب:

١) ـ بعد أن يقبل الله شفاعة الرسول ﷺ للخلائق الواقفة في المحشر يتفضل الله تعالى بحساب الخلائق على أعمالها فقد روى الترمذي عن أبي برزة الأسلمي عن النبي ﷺ قال: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيم أفناه، وعن عمله فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه).

٢) أصناف الناس في الحساب:

والناس في الحساب ليسوا على درجة واحدة لأنه لا يعقل أبداً أن يتساوى في الحساب من ألزم نفسه التقيد بأحكام الله تعالى، مع من دخل في

أما السنة فقوله ﷺ : (... وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر) - رواه أحمد والترمذي وابن ماجة -.

٢) **أنواعها** : الشفاعة على نوعين الأولى شفاعة الرسول ﷺ والثانية شفاعة غيره من الأنبياء وصالحي المؤمنين.

الأولى: شفاعة الرسول وهي عامة وخاصة.

- **الشفاعة العامة**: وهي من خصائصه عليه السلام إكراماً له وإعلاء لقدره عليه الصلاة والسلام.

وتكون عندما يشتد هول الموقف على الخلائق ويطول عليهم الوقوف ويتمنى أحدهم الخلاص من هذا الموقف ولو إلى جهنم[1]، ويلجأ الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا لهم عند الله ليتفضل بفصل الحساب، ويعتذر الجميع، ويتقدم محمد ﷺ فيشفّعه الله في الخلائق فيشفع لهم، ويتفضل الله تعالى بفصل الحساب.

وقد ورد في ذلك أحاديث رواها البخاري ومسلم وغيرهما ومنها ما رواه الترمذي في التفسير عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، قال: فيفزع الناس ثلاث فزعات، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون: أنت أبونا فاشفع لنا إلى ربك، فيقول: إني أذنبت ذنباً أُهبِطت منه إلى الأرض، ولكن ائتوا نوحاً عليه السلام، فيقول: إني دعوت على أهل الأرض دعوة فأُهلكوا، ولكن اذهبوا إلى ابراهيم، فيأتون ابراهيم عليه السلام، فيقول: إني كذبت ثلاث كذبات[2] ثم قال رسول الله ﷺ (ما

---

(١) روى الطبراني عن ابن مسعود عن رسول الله قال أن الرجل ليلجمه العرق يوم القيامة فيقول يا رب ارحني ولو إلى النار - انظر مجمع الزوائد ١٠/٣٣٦.

٢) هذه الكذبات الثلاث هي: أنه لما كسر الأصنام وأبقي كبيرها، وسأل الكفار من فعل هذا بآلهتنا يا ابراهيم؟ قال: قد فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطلقون فهو لم يرد بذلك =

منها كذبة إلا مَا حَلَ بها عن دين الله تعالى» ولكن أئتوا موسى، فيأتون موسى عليه السلام فيقول: إني قتلت نفساً، ولكن ائتوا عيسى عليه السلام، فيأتون عيسى فيقول: إني عُبِدْت من دون الله ولكن ائتوا محمداً ﷺ فيأتونني فأنطلق معهم، فآخذ بحلقة باب الجنة فاقعقعها، فيقال: من هذا؟ فُيقال: محمد، فيفتحون لي، ويرحبون، فيقولـون: مرحباً، فأخرّ ساجداً، فيلهمني الله من الثناء والحمد، فيقال لي: ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع. وقل يسمع لقولك، وهو المقام المحمود الذي قال الله: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾.

والحكمة من سؤال الخلق أولاً الرسل ثم محمداً، ليظهر الله لهم أن هذا المقام لا يقدر عليه إلا محمد ﷺ.

ـ الشفاعات الخاصة للرسول عليه الصلاة والسلام:

وهذه الشفاعة على أنواع، وكلها تكون لأمة محمد ﷺ لا ينالُها أحدٌ من غير أمته وأنواعها هي:

● الشفاعة بادخال قوم الجنة بغير حساب. من ذلك ما رواه مسلم وغيره أن رسول الله ﷺ يقول يوم الحشر (يا رب أمتي أمتي، فيقال: يا محمد أدخِلِ الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب).

● شفاعته ﷺ في قوم استوجبوا النار باقترافهم الكبائر فيشفع لهم عند الله، روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كلُّ نبيٍ دعوته، وأني أخبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً) وروى

= الكذب وانما أراد إقامة الحجة على فساد عقائدهم، وأنه لما قدم على الملك ومعه زوجته سأله من هذه قال: أختي، يعني أختي في الله، ولو قال له زوجتي لغصبه إياها، وأنه ادعى المرض.

جند الشيطان، فهو يعمل بوحيه وارشاده. ولذلك فإن رب العالمين سبحانه جعل الناس في الحساب على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: صنف يدخلون الجنة بغير حساب.

فقد روى البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ (عرضت عليّ الأمم فأخذ النبي يمر معه الأمّة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشيرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير قلت: يا جبريل هؤلاء أمتي؟ قال: لا ولكن أنظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد كثير، قال جبريل: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفاً قدّامهم لا حساب عليهم ولا عذاب، قلت: ولِمَ؟ قال: كانوا لا يكتوون ولا يَسْتَرْقون ولا يتطيّرون وعلى ربهم يتوكلون).

الصنف الثاني: صنف يحاسب حساباً يسيراً بلا مناقشة ولا تشديد، وانما تعرض عليهم أعمالهم عرضاً، ثم يتجاوز الله تعالى عن سيئاتهم، وهؤلاء الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم كما قال تعالى: ﴿ فأما مَنْ أوتيَ كتابه بيمينه فسوف يُحاسب حساباً يسيراً ويَنْقَلِبُ إلى أهله مسْروراً ﴾[1].

وقد نقل لنا البخاري في صحيحه صورة حساب هؤلاء عن ابن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه[2] عليه فيقول: أعملت كذا وكذا؟ فيقول نعم، ويقول أعملت كذا وكذا؟ فيقول نعم، فيقرره ثم يقول: إني سترت عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى صحيفة أعماله).

والصنف الثالث: يحاسبون حساباً عسيراً مناقشة وتدقيقاً وفيهم يقول رسول الله ﷺ (من نوقِشَ العذابَ عُذِّب) ـ أخرجه البخاري ـ وهؤلاء الذين

---

(١) الانشقاق ٧ و٨.

(٢) لطفه.

يؤتون كتبهم بيسارهم من وراء ظهورهم. وهم الذين ينكـرون، فتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم وجلودهم بما كانوا يكسبون.

٣) أول ما يحاسب عليه المرء:

إن أول ما يحاسب عليه المرء من حقوق الله تعالى العملية الصلاة، وأول ما يحاسب عليه من حقوق العباد الدماء.

فقد روى الترمذي عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيء قال الرب عز وجل انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فيكمّل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك)**.

وروى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: **(إن أول ما يقضى بين العباد في الدماء)**.

٤) الذنوب التي لا يغفرها الله تعالى:

الذنوب على قسمين:

القسم الأول: الذنوب المرتكبة بالاعتداء على حق الله تعالى كتـرك الصلاة كسلاً، وعدم أداء الحج بخلاً وما شابه ذلك، وهذا النوع من الذنوب يغفرها الله تعالى بالتوبة والاستغفار إذا شاء ولو كانت أمثال الجبال، ويستثنى من ذلك الشرك بالله تعالى إذا مات الإنسان وهو على ذلك لقوله تعالى: **﴿ إنَّ الله لا يغفِرُ إن يُشرَكَ به ويغفرُ ما دونَ ذلك لمن يَشاء ﴾**.

القسم الثاني: الذنوب المرتكبة بالاعتداء على حقوق العباد، كالسلب والسرقة ونحو ذلك، والأصل في هذه الذنوب عدم المغفرة، ولكن قد يتجاوز الله تعالى عنها بعد إرضاء صاحب الحق، وقد أعلمنا الله تعالى أنه لن يرضي القتيلَ ليتجاوز عن قاتله، فقال ﷺ: **(كل ذنبٍ عسى الله أن يغفرَه إلا**

الرجل يموتُ مشركاً أو الرجل يقتلُ مؤمناً متعمداً).

ويجدر بنا أن نذكر أن كل ذنب يعاقب عليه المؤمن في الدنيا فإن هذه العقوبة تكون كفارة له يوم القيامة، لقوله ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عبادة بن الصامت عن الرسول ﷺ وفيه يقول: (ومن أصاب من ذلكَ شيئاً فعوقبَ عليه في الدنيا فهو كفارة له).

و ـ تسلم صحف الأعمال:

١) كيف يتم تسلم صحف الأعمال:

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير، فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله). ـ رواه الترمذي ـ

وأخرج الإمام أحمد عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله هل يذكر الحبيبُ حبيبَه يوم القيامة؟ قال: (يا عائشة أما عند ثلاث فلا، أما عند الميزان حتى يخف أو يثقل، وأما عند تطاير الكتب فأما أن يعطى بيمينه أو يعطى بشماله فلا.. الحديث)[1].

٢) والذين يتسَلّمون صحفهم على صنفين:

الصنف الأول: الذين يتَسلمون كتبهم بيمينهم ـ وهم المؤمنون المخلصون، الذين أفنوا العمر في طاعة الله سبحانه ـ ما إن يتسَلمونها حتى يطيروا بها فرحاً يعرضونها على الناس، سعداء بما آلوا إليه من نعيم الله ﴿ فأما من أوتيَ كتابَه بيمينه فيقولُ هاؤمُ اقرأوا كتابِيَه، إني ظننتُ أني مُلاقٍ حسابِيَه، فهو في عيشَةٍ راضية، في جنة عاليةٍ قطوفُها دانية، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسْلَفْتم في الأيام الخالية﴾.

الصنف الثاني: الذين يتسَلمون كتبهم بشمالهم من وراء ظهورهم،

(١) انظر تفسير القرطبي ٢٠/٢٧٠.

ـ وهم الكافرون الذين لا يؤمنون بالله تعالى ـ ما إن يتسلمون كتبهم حتى يُسقَط بأيديهم، ويتمنوا الموت الأبدي كما قال تعالى: ﴿ وأما من أوتيَ كتابَهُ بشمالِه فيقول ياليتَني لم أوت كتابِيَه ولم أدرِ ما حِسابيه، ياليتها كانَت القاضِية، ما أغنى عنّي مالِيَه، هلك عني سلطانيه، خذوه فغُلّوه، ثم الجَحيم صَلُّوه، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذِراعاً فاسلُكوه، إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وأما من أوتيَ كتابَه وراءَ ظهرهِ فسوف يدعو ثُبوراً، ويصْلى سعيراً ﴾[1].

ووجه الجمع بين الآيتين أنه يأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره، وكذلك قال ابن كثير في تفسير الآية الثانية، أي يأخذه بشماله من وراء ظهره.

ز ـ وزن الأعمال:

١) وبعد الحساب وتسلم الكتب يجري الوزن، وهو وزن عام شامل لجميع ما اقترف الإنسان من آثام، وما عمله من صالحات، وهو ميزان دقيق عادل لا يخطىء، صُنعَ الله الذي أتقن كل شيء كما قال تعالى: ﴿ ونضعُ الموازينَ القسطَ ليومِ القيامةِ فلا تُظلَمُ نفسٌ شيئاً، وإن كان مثقالَ حبة من خَرْدلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾.

وإنما كان الوزن بعد الحساب لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها.

٢) إن الذي عليه أغلب العلماء أن الذي يوزن هو الأعمال لا السجلات واستدلوا على ذلك بأحاديث عديدة منها:

ما أخرجه مسلم والترمذي عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السموات والأرض، والصلاة نور والصدقة برهان

(١) الانشقاق ١٢ و١٢ و١٣.

الصخرة العظيمة لتُلقى من شفير جهنم فتهوي فيها سبعين عاماً وما تفضي إلى قرارها).

٢) بعض صفات أهل النار:

- الصفة الأولى أن جلودهم في حالة تبديل دائم ليدوم عليهم العذاب كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿إن الذين كفروا بآياتِنا سوفَ نُصليهم ناراً كلما نَضِجَت جلودُهم بدّلناهم جلوداً غيرَها ليذوقوا العذاب﴾.

- الصفة الثانية تضخم أجسامهم ليكون العذاب عليهم أشد، فإننا ندرك في الدنيا أن العذاب يتناسبُ طرداً مع زيادة المساحة المتعرضة للألم، فمن تُحرق يده كلها أكثرُ عذاباً ممن تحرق اصبعه، أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (ما بين منكبَيِ الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع) وأخرج مسلم صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله قال: (إن ضرس الكافر مثل أحد، وعلظ جلده مسيرة ثلاث) وأخرج الترمذي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (إن الكافر ليُسحَب لسانه الفرسخ والفرسخين يتوطؤه الناس).

٣) طعام أهل النار وشرابهم:

لن نفصل لك القول في أهل النار الذين يُكَبُّون على وجوههم، من فوقهم النار، ومن تحتهم النار، وعن أيمانهم النار، وعن شمائلهم النار، فهم غرقى في النار، طعامهم نار، وشرابهم نار، ولباسهم نار، ومهادهم نار، فهم بين طبقات النار، وسرابيلهم القطران، تثقلهم السلاسل، وتضربهم مقامع الحديد، فهم يتلجلجون في مضايق النار، ويتحطمون في دركاتها، تغلي بهم النار كغلي القدور، ويهتفون بالويل والعويل، ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد تهشم به جباههم فيتفجر الصديد من أفواههم، وتتقطع من العطش أكبادهم،

وتسيل على الخدود أحداقهم، وتسقط من الوجنات لحومهم، وكلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها.. لن نفصل لك القول في هذا. فقد ذكر منه القرآن الكريم الكثير وعرضه عرضاً تهلع له النفوس، وترتجف منه الأفئدة، ولكننا نريد أن نعطيك فكرة عن طعام أهل النار وشرابهم.

● **أما طعامهم**: فقد روى الترمذي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: (يُلقى على أهل النار الجوعُ فيعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون) فإذا الطعام الذي يجدونه ثلاثة أصناف ـ ذكرها الله تعالى في القرآن العظيم ـ كل صنف من أهل النار يأكل صنفاً من هذا الطعام.

فالصنف الأول: الزقوم: كما قال تعالى في سورة الواقعة: ﴿ثم إنكم أيها الضّالونَ المكذبون لآكلون من شجرٍ من زقومٍ فمالئونَ منها البُطون﴾ فهم إذن لا يأكلون لقمة ولا لقمتين، وإنما يملؤون منها بطونهم، وشجرة الزقوم هذه شجرة تنبت في قعر جهنم ثم تتفرع فيها، ثمارها تشبه في بشاعتها رؤوس الشياطين كما قال تعالى في سورة الصافات: ﴿إنها شَجَرةٌ تخرجُ في أصلِ الجَحيم طلعُها كأنهُ رؤوسُ الشَّياطين﴾، وإذا كان هذا منظر ثمارها، فما هو طعم هذه الثمار؟ إن طعمها لا يمكن تصور بشاعته حتى أن قطرة منها لو قطرت في دار الدنيا لأفسدت على الناس طعامهم كما روى الترمذي عن ابن عباس قال إن رسول الله ﷺ قال: (لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم) فكيف بمن يكون طعامهم.

والصنف الثاني: الضريع: كما قال تعالى في سورة الغاشية: ﴿ليس لهم طعامٌ إلاّ من ضَريع لا يُسمِنُ ولا يُغني مِنْ جُوع﴾. والضريع هو نبت ذو شوك لاصق بالأرض تسميه قريش الشِّبْـرِق إذا كان رطباً فإذا يبس فهو الضريع، لا تقربه دابة ولا ترعاه وهو سم قاتل. وهو أخبث الطعام وأشنعه.

والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها).

وما أخرجه البخاري عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ (كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم).

٣) أحوال الخلق في وزن الأعمال:

والخلق يكونون على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: هو الذي ثقلت موازينه ورجحت حسناته على سيئاته وهؤلاء هم أصحاب الجنة قال تعالى: ﴿ فأمّا من ثقُلتْ موازينه فهو في عيشةٍ راضِيَة ﴾.

الصنف الثاني: هو الذي خفت موازينه ورجحت سيئاته على حسناته وهؤلاء هم أصحاب النار قال تعالى: ﴿ وأما مَنْ خَفَّتْ موازينه فأُمُّه هاوِية وما أدراك ماهِيَه نارٌ حامية ﴾.

الصنف الثالث: هو الذي استوت حسناته وسيئاته وهؤلاء هم أهل الأعراف الذين ينظرون إلى أهل الجنة ويطمعون أن يكونوا معهم فيها، وينظرون إلى أهل النار فترتجف أفئدتهم خوفاً من أن يؤولوا إليها، كما قال تعالى: ﴿ وعلى الأعْرافِ رجالٌ يعرَفونَ كُلًّا بسيماهم ونادوا أصحابَ الجنةِ أن سلامٌ عليكم لم يدْخلوها وهم يطمعون، وإذا صُرِفَتْ أبصارُهم تلقاءَ أصحابِ النار قالوا ربنا لا تجعلْنا مع القوم الظالمين ﴾. ويبقى أصحاب الأعراف كذلك حتى يمتحنهم الله، كما سيأتي معنا ذكرهم عند كلامنا على الأعراف.

٤) حقيقة الميزان:

ولا بد لنا من أن نتساءل عن حقيقة الميزان، هل هو ميزان له كفتان

ولسان كالموازين المألوفة في عالمنا هذا؟.

أم هو ميزان آخر لا يعلم شكله إلا الله تعالى؟.

أم هو تعبير عن عدل الله تعالى يوم القيامة؟.

قال جمهور العلماء: يفهم الميزان على ظاهره وكذلك الوزن، فللميزان كفتان كما ورد في الأحاديث الصحيحة، ولكن الله أعلم بكيفيته، وهو الصحيح.

٥ ـ الحكمة في الوزن:

فإن قيل ما الحكمة في الوزن مع أن الله تعالى عالم بكل شيء، فهو سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

قلنا: إن الحكمة من ذلك تعريف الله تعالى عباده ما لهم عنده من الجزاء من خير أو شر تفضلاً منه سبحانه، وإقامةً لِلّحجة عليهم. ولله الحجة البالغة.

ح ـ عبور الصراط:

وبعد وزن الأعمال يتجه الخلائق إلى الصراط.

١) حقيقة الصراط:

ـ الصراط هو جسر ممدود على متن جهنم يمر عليه الناس كلهم فالمؤمنون ينجون بحسب حالهم والآخرون يسقطون فيها. وهذا المرور هو:

ـ إنه غائب في جهنم، وحينئذ يكون هو المقصود من معنى الورود المذكور في قوله تعالى: ﴿ وإن مِنْكُمْ إلا وارِدُها كانَ على ربِّك حَتْماً مَقْضِياً ﴾. لكن المؤمنين ينجون، وغيرهم يسقط فيها.

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ ثم نُنَجّي الذين اتقَوا ونذَرُ الظالمين فيها جِثِياً ﴾. وجه الدلالة في الآية أن الله ينقذ المؤمنين منها ويبقي الكافرين فيها.

- وإنه زلق تزل فيه الأقدام كما ثبت في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وفيه (قيل يا رسول الله وما الجسر؟ قال: دحض مَزِلة) - أي زلقة، وهي المكان الذي يزلق فيه من لم يرد الله به الخير.
- وإنه أدق من الشعر وأحدّ من السيف، فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن عائشة عن رسول الله ﷺ قوله (ولجهنم جسر أدق من الشعر وأحدّ من السيف) وأخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (بلغني أن الجسر أدق من الشعر وأحدّ من السيف) وهذا له حكم الحديث المرفوع.

٢) اجتياز الصراط:

وبعد وزن الأعمال يتجه الناس إلى الصراط لاجتيازه، فيكون سيد الخلائق محمد ﷺ أول من يجتاز الصراط مع أمته كما ثبت ذلك في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (ثم يضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته).

ويكون شعار المؤمنين حين اجتياز الصراط «رب سَلِّم، رب سَلِّم».

يجتاز المؤمن الصراط ونوره يسعى بين يديه لا يتعثر ولا يلتوي كما قال تعالى: ﴿ يومَ تَرى المؤمنين والمؤمناتِ يَسعىٰ نورُهم بين أيديهم وبأيمانهم بُشراكُم اليومَ جناتٌ تجري مِنْ تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها ذلكَ الفوزُ العَظيم ﴾. فمنهم من يمر كطرفة عين ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالطير، ومنهم من يمر كأجاويد الخيل، ومنهم من يمر كراكب الركاب - أي الإبل - كل حسب عمله واخلاصه لله تعالى.
كما ثبت ذلك في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وفيه يقول الرسول ﷺ (فيمر المؤمنون كطرفة العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والرِّكاب).

أما الكافرون الذين تنكروا لرسل الله ومبادئهم فإنهم سرعان ما تزلق أرجلهم على الصراط فتخطفهم خطاطيف الصراط وتلقيهم في النار ـ وقانا الله ذلك ـ.

أما المنافقون الذين كانوا يظهرون الإيمان ليخدعوا به المؤمنين، فإن الله تعالى يخدعهم عند اجتيازهم الصراط، حيث يضيء لهم، وما أن يضعوا أرجلهم على الصراط حتى يذهب النور ويبقوا في ظلام، فيهووا في جهنم، ولنسمع الآيات الكريمة تصور لنا ذلك بأبلغ بيان حيث يقول تعالى في سورة الحديد ﴿يومَ ترى المؤمنين والمؤمناتِ يسعىٰ نورُهم بينَ أيديهم وبأيمانِهم بُشْراكُم اليومَ جَنَّاتٌ تجري من تحتِها الأنهارُ خَالدين فيها ذلك الفَوْزُ العظيم، يوم يقولُ المنافقونَ والمنافقاتُ للذين آمنوا انظرونا نَقتَبِسْ من نورِكم، قيلَ ارجِعوا وراءَكم فالتَمِسُوا نوراً، فضُرب بينهم بسورٍ له بابٌ باطنُه فيه الرحمةُ وظاهرُهُ من قِبَلِه العَذابُ يُنَادونَهم ألم نكن معَكم قالوا بلى، ولكنكم فتَنْتُم أنفُسَكم وتربَّصْتُم وارتَبْتُم وغرّتكُم الأماني حتى جاءَ أمرُ الله وغركم بالله الغَرور، فاليوم لا يؤخذُ منكم فديةٌ ولا مِنَ الذين كَفَروا، مأواكم النارُ، هي مولاكم وبئسَ المَصير﴾.

ط ـ النار:

١) دركات النار وأبوابها:

لقد أخبرنا الله تعالى أن لجهنم سبعة أبواب فقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وأن جهنمَ لموعدُهم أجمعين، لها سبعةُ أبوابٍ لكل بابٍ منهم جزءٌ مقسوم﴾ وكل باب من هذه الأبواب لِطبقة من طبقات جهنم. يعني أن جهنم سبع طبقات بين كل طبقة وأخرى باب، وهذه الطبقات هي: جهنم، والسعير، ولظى، وسقر، والجحيم، والهاوية، والحُطَمة.

وإذا أردت أن تعرف عمقَ جهنم، وهي أصغر درجات النار فاقرأ هذا الحديث الذي أخرجه الترمذي عن عتبة بن غزوان عن النبي ﷺ (ان

والصنف الثالث: الغسلين: كما قال تعالى في سورة الحاقة: ﴿ فليس له اليومَ ها هُنا حميم ولا طَعامٌ إلا من غِسْلين ﴾ والغسلين هو الصديد السائل السائل من أجساد أهل النار وفروجهم.

ـ والصفة العامة لهذه الأصناف الثلاثة التي هي طعام أهل النار أنها يغص بها الآكل، إذ لا يكفي في العذاب أكلها مع ما هي عليه من بشاعة في الطعم والمنظر والماهية، بل يزاد على ذلك أنها تقف في الحلوق فيغص بها الآكل كما قال تعالى في سورة المزمل: ﴿ إن لدينا أنكالاً وجَحيماً وطَعاماً ذا غُصَّة وعَذاباً أليماً ﴾.

● **أما شرابهم**: فهو الحميم كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿ والذين كفروا لهم شَرابٌ من حميم وعذابٍ أليم ﴾.

وصفات هذا الحميم هي:

إنه ماء صديد كما قال تعالى: ﴿ ويسقى من ماءٍ صَديدٍ يتجَرَّعُه ولا يكادُ يسيغه ﴾.

إنه حار يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء من حرارته كما قال تعالى: ﴿ وإن يستغيثوا يُغاثوا بماءٍ كالمهل يَشوي الوجُوه بئسَ الشَّرابُ وساءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾. وقال تعالى: ﴿ وسُقوا ماءً حميماً فقَطَّعَ أمعاءَهم ﴾.

٤) أخف أهل النار عذاباً:

ولكي نأخذ فكرة واضحة عن عذاب أهل النار يكفي أن نتصور أخف أهل النار عذاباً، إنه يقف على جمرة من النار يغلي منها دماغه كما روى البخاري ومسلم والترمذي عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أنه قال وهو يخطب سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن أهون النار عذاباً يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه).

فإذا كان هذا أخف أهل النار عذاباً، فكيف يكون عذاب من عداه، وقانا الله عذابه ونضرع إليه أن يغمرنا برحمته.

٥) خروج من قال لا إله إلا الله منها:

بعد أن يتهاوى الناس من فوق الصراط في النار ينال بعض المؤمنين العاصين قسطاً من العذاب يتناسب مع ذنوبهم، ثم يخرجون منها بشفاعة الرسول ﷺ كما مر معنا، حتى لا يبقى في النار من قال لا إله إلا الله، فقد روى مسلم والترمذي عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن بُرة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه ما يزن ذرة).

٦) الخلود في النار:

وبعد خروج من ذكرناهم من النار يبقى فيها الكافرون والمنافقون أبد الآبدين، لا يفتَّر عنهم العذاب كما قال تعالى: ﴿ إن الذينَ كفروا وماتُوا وهم كفارٌ أولئك عليهم لَعنةُ الله والملائكة والناسِ أجمعين خالدين فيها لا يُخفف عنهم العذابُ ولا هم يُنظرون ﴾.

وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: (إذا صار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح، ثم ينادي منادٍ يا أهل الجنة لا موت، يا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم وأهل النار حزناً إلى حزنهم).

ي ـ الجنّـة:

١) تعريف الجنة:

مادة (جـ، ن) في اللغة تعني الستر، ومنه سمي المجن مجناً لأنه يستر صاحبه، وسميت الجنة جنة لاستتار أرضها بالمروج ونحوها.

والمراد هنا: الدار التي أعدها الله في الآخرة للصالحين من عباده. ونحن سنتكلم على وصف الجنة وما فيها أولاً، ثم نتكلم على أهل الجنة.

٢) وصف الجنة:

- **مكان الجنة**: ومكان الجنة فوق السماء السابعة، وسقفها عرش الرحمن كما قال تعالى: ﴿ ولقد رآه نزلةً أخرىٰ عنـدَ سِدْرَةِ المنتَهىٰ عنـدَها جَنـةُ المأوى ﴾. وقد ثبت أن سدرة المنتهى فوق السماء السابعة، وسقفـها عرش الرحمن، فقد ثبت ذلك في الحديث الذي رواه البخـاري وغيره وسيأتي بنصه عند كلامنا على درجات الجنة.
- **أبوابها**: أخبـرنا رسـول الله ﷺ أن للجنة ثمـانية أبـواب. فقد روى البخاري ومسلم عن سهل عن النبي ﷺ قال: في الجنة ثمانية أبواب. فيها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون.
- **مفتاحها**: ومفتاح الجنة «لا إلّه إلا الله» فقد روى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (مفتاح الجنة شهادة أن لا إلّه إلا الله).
- **درجاتها**: وفي الجنة مائة درجة كما روى البخاري والترمذي عن عبادة أن رسول الله ﷺ قال: (في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السمـاء والأرض. والفردوس أعـلاها درجـة، ومنها تفجـر أنهار الجنة الأربعـة، ومن فوقهـا يكون عـرش الرحمن، فـإذا سـألتم الله فسلوه الفردوس.).

أما الوسيلة فهي منزلة من منازل الجنـة وهي التي أمر المسلم بأن يطلبها لرسول الله ﷺ.

- **بناء الجنة وترابها**: روى الترمذي عن أبي هريرة قلت: يا رسول الله مم خلق الخلق؟ قال: من الماء، قلنا: الجنة ما بناؤها؟ قال: لبنة من فضة ولبنة من ذهب وملاطها المسك الأذفر، وحصاؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران.

ـ غرفها: لقد أثبت القرآن الكريم أن في الجنة غرفاً فقال تعالى: ﴿ لكن الذين اتَّقَوا ربهم لهم غُرَفٌ من فوقها غُرفٌ مبنية تجري من تحتِها الأنهار ﴾.

وقد وصف لنا رسول الله ﷺ هذه الغرف بأنها شفافة فقال ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم والترمذي (إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب. .).

ـ **أشجارها وثمارها**: وقد ذكر الله تعالى أن في الجنة أشجاراً وثماراً فقال تعالى: ﴿ فيها فاكهة ونخل ورمان ﴾ وأخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمّر السريع مائة عام لا يقطعها».

٣) أهل الجنة:

ـ **أول من يدخل الجنة**: وقد أخبرنا رسول الله أنه أول من يدخل الجنة فقال ﷺ: (آتي باب الجنة يوم القيامة فاستفتح فيقول الخازن من أنت؟ فأقول: محمد فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك) ـ أخرجه مسلم ـ.

ثم تدخل خلف رسول الله ﷺ أمته على أفواج، وجه الواحد منهم كالبدر المنير كما روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها أضوأ كوكب دري في السماء. . .) الحديث.

وفقراء المسلمين يسبقون الأغنياء في دخول الجنة لما رواه الترمذي عن جابر عن رسول الله ﷺ: (يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفاً) ـ أي عاماً ـ.

ـ **آخر من يدخل الجنة**: ولكي نعلم مقدار كرم الله تعالى ونعمته على

عباده المؤمنين علينا أن ننظر إلى ما أعده الله تعالى لآخر من يدخل الجنة فقد روى الشيخان عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولا الجنة، رجل يخرج من النار حبوا فيقول الله تبارك وتعالى له: اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى، فيقول الله تبارك وتعالى له: اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى فيقول الله له: اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، فيقول: أتسخر بي وأنت الملك؟ قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه، قال: فكان يقال ذاك أدنى أهل الجنة منزلة» وإذا كان هذا ما يناله أدنى أهل الجنة منزلة، فكيف بمن كان أعلاهم منزلة، فيا ربنا نسألك الفردوس من الجنة.

- سن أهل الجنة: وليس في الجنة كبير ولا صغير، وانما هم جميعاً في سن واحدة هي ثلاث وثلاثون سنة، قال ﷺ (يدخل أهل الجنة جرداً مرداً مكحلين، أبناء ثلاث وثلاثين سنة) - الترمذي في صفة الجنة.

- **طعام أهل الجنة وشرابهم**: إذا كان في جهنم طعام محدد هو زقوم وضريع وغسلين، وشراب محدد هو الحميم، فإنه لا يوجد في الجنة طعام أو شراب محدد، وإنما فيها كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ به الأعين إمعاناً في النعيم كما قال تعالى: ﴿ ادخُلوا الجنةَ أنتم وأزواجُكم تُحبَرون، يُطاف عليهم بصِحافٍ من ذهبٍ وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفسُ وتلذُّ الأعينُ وأنتم فيها خالدون وتلك الجنةُ التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾.

فإن اشتهى أهلها الفاكهة وجدوها، وإن اشتهوا اللحوم وجدوها، وإن اشتهوا غير ذلك كان لهم ما يشتهون قال تعالى: ﴿ وفاكهة مما يتخَيَرون ولحم طيرٍ مما يَشْتهون ﴾.

أما شرابهم فرحيق مختوم ممزوج بالمسك، قال تعالى: ﴿ يُسقون من رحيقٍ مختومٍ خِتامُه مسك﴾ أو ماء ممزوج بالكافور أو الزنجبيل كما قال تعالى: ﴿ إن الأبرارَ يَشربُون من كأسٍ كان مِزاجُها كافوراً ﴾ وقال: ﴿ ويُسقَوْن فيها كأساً كان مِزاجُها زنجبيلاً عيناً فيها تُسمى سلسبيلا ﴾. فهم يأكلون ويشربون بكل سعادة لأن الله تعالى يقول لهم ﴿ كلُوا واشْربُوا هنيئاً بما أسْلَفْتم في الأيّام الخالِية ﴾.

فأهل الجنة يأكلون ويشربون ولكنهم لا تخرج منهم الأقذار التي هي فضلات الطعام والشراب، فقد روى مسلم عن جابر قال سمعت النبي ﷺ يقول: (إن أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يتفلون ولا يتغوطون ولا يتمخّطون قالوا فما بال الطعام؟ قال: جُشاء ورشْح كرشح المسك، يُلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النَّفَس).

ـ **لباس أهل الجنة**: وثياب أهل الجنة السندس[1] والاستبرق[2]، وحليهم فيها الذهب، كما قال تعالى: ﴿ أولئك لهم جناتُ عَدْنٍ تجري من تحتهم الأنهارُ يَحلَّوْنَ فيها من أساوِرَ من ذهب ويلبَسونَ ثياباً خُضراً من سُندسٍ وإستبرقٍ متكِئين فيها على الأرائِك ﴾.

وليس هذا فحسب بل لهم فيها ما يشتهون من اللباس والحلي وغيرها.

ـ **نساء الجنة**: ونساء الجنة كلهن في عمر الورود عذارى، كل تحب زوجها وتعشقه ولا يمتد طرفها إلى غيره، فهي في أوج الاخلاص له كما قال تعالى: ﴿ إنا أنشأناهُن إنشاءً فجعلنَاهن أبكاراً عُرُباً[1] أتراباً[2] لأصحاب اليمين ﴾ وقال تعالى: ﴿ فيهنّ قاصراتُ الطرفِ لم يطمِثْهُن إنس قبلهُم ولَا

(١) السندس: مارق من الديباج.
(٢) الاستبرق: ما غلظ من الديباج.
(٣) العرب جمع عروب وهي المتحببة إلى زوجها.
(٤) الأتراب جمع ترب وهن من كن في سن واحدة.

جان ﴾ أما جمالهن فحسبنا أن نعلم أن المرأة منهن لو أطلت على الدنيا لأضاءت الدنيا من جمالها كما روى البخاري والترمذي عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال... (ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأت ما بينهما ريحاً، ولنصيفها ـ يعني الخمار ـ خير من الدنيا وما فيها).

٤) رؤية الله تعالى:

ومن أعظم لذائذ الجنة قطعاً: النظرُ إلى الله تعالى حينما يكشف الحجاب، ورؤية الله تعالى يوم القيامة لأهل الجنة ثابتة في القرآن والسنة.

أما القرآن فأوضح آية وردت في ذلك قوله تعالى: ﴿ وجوهٌ يومئذٍ ناضِرة إلى ربِّها ناظِرة ﴾.

أما السنة فما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن جرير بن عبد الله قال كنا جلوساً عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: (إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر لا تَضَامّون في رؤيته..).

وأخرج مسلم عن صهيب قال إن النبي ﷺ تلا هذه الآية: ﴿ للذين أحسَنوا الحُسنى وزيَادَة ﴾ ثم قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل.

٥) إحلال الرضوان على أهل الجنة:

وإن مما يُطَمئِنْ أهل الجنة على نعيمهم المقيم الذي لا شقاء بعده، ويجعلهم يتقلبون في السعادة ويطمئنون على دوامها اطمئناناً لا يعرف القلق، تطمين الله تعالى لهم بأن رضاه عليهم لا سخط بعده أبداً.

فقد أخرج البخاري ومسلم والترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه أن

رسول الله ﷺ قال: إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة،فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير بين يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون ومالنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً.

٦) الخلود في الجنة:

إن خلود أهل الجنة في الجنة أمر قد صرحت به الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

أما الآيات القرآنية منها قوله تعالى: ﴿ للذين اتَّقَوْا عندَ ربِّهم جَنّاتٍ تَجْري من تحتِها الأنهارُ خَالدين فيها ﴾.

وأما الأحاديث النبوية فنكتفي منها بما ذكرناه في بحث الخلود في النار حيث جاء في بعضها (ثم ينادي المنادي يا أهل الجنة لا موت،ويا أهل النار لا موت).

والسؤال الذي يَرِدُ هنا: إذا كان الله تعالى باقياً أبداً، وأهل الجنة باقون أبداً فما الفرق بين بقاء الله، وبقاء أهل الجنة؟

ونجيب عن هذا السؤال فنقول: إن بقاء الله تعالى هو بقاء لذاته، أي أنه غير مفتقر إلى الغير، أما بقاء أهل الجنة فهو بقاء لغيره - يعني أنه مفتقر إلى غيره - وبعبارة أوضح أن أهل الجنة باقون بإبقاء الله تعالى لهم.

٧) هل الجنة والنار مخلوقتان الآن؟

إن الذي عليه جهور المسلمين هو أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، وحجتهم في ذلك كثرة النصوص الدالة على ذلك من قرآن وسنة. من ذلك قوله تعالى: ﴿ واتقوا النَّارَ التي أعِدَّتْ للكافرين ﴾ ﴿ وسارِعُوا إلى مَغْفِرَةٍ من ربكُم وجَنَّةٍ عرضُها السموات والأرض أعدّت للمتقين ﴾.

وجه الاستدلال: أن القرآن عبر بقوله أعدت وهو فعل ماض والأصل في تعابير القرآن أن تحمل على حقيقتها وإلّا لزم في إخباره تعالى الكذب وهو عليه محال.

ومنها أحاديث المعراج الصحيحة، والأحاديث التي ذكرت الجنة ووصفها، وقد بلغت في مجموعها مبلغ التواتر المعنوي.

وقد انعقد على ذلك الإجماع قبل ظهور المخالف.

ك ـ الأعراف:

١) معنى الأعراف: الأعراف في اللغة: مفردها عرف وهو ما ارتفع من الأرض.

والمراد به هنا الشُّرف التي على السور الذي يضربه الله بين الجنة والنار[١].

٢) حقيقة الأعراف: إن الله تعالى يضرب بسور بين الجنة والنار، وهذا السور له باب وله شرفات وهذا السور يحجز بين المؤمنين أهل الجنة، والكافرين أهل النار، وعندما يخرج المؤمنون من النار يدخلون من باب السور، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب كما كانوا في دار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة[٢].

٣) أهل الأعراف: اختلف العلماء في أهل الأعراف من هم؟ على عشرة أقوال ذكرها القرطبي في تفسيره[٣] وأرجحها ما رجحه الطبري[٤] أن

(١) أنظر تفسير القرطبي.
(٢) أنظر تفسير ابن كثير ٤/٣٠٩.
(٣) أنظر تفسير القرطبي ٢٣/٢١١.
(٤) أنظر تفسير الطبري ١٢/٤٥٢ بتحقيق شاكر.

أهل الأعراف هم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم، وهو الذي ذهب إليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغيرهم.

ومن صفات أهل الأعراف أنهم يشرفون على الجنة ويشرفون على النار، ويعرفون أهل الجنة ويخاطبونهم، ويعرفون أهل النار ويخاطبونهم، فإذا نظروا إلى النار دعوا الله تعالى أن لا يجعلهم من أهلها، وإذا نظروا إلى الجنة دعوا الله أن يجعلهم من سكانها، قال تعالى: ﴿وبينهما حجابٌ وعلى الأعرافِ رجالٌ يعرفونَ كلًّا بسيماهم، ونادوا أصحابَ الجنةِ أنْ سلامٌ عليكم لم يدخلوها وهم يَطْمَعون، وإذا صُرِفَتْ أبصارُهم تلقاءَ أصحابِ النارِ قالوا ربنا لا تجعلْنا مع القومِ الظالمين﴾.

أما خطابهم لأهل جهنم فهو خطاب تبكيت وتأنيب، وخطابهم لأهل الجنة خطاب تطمين ومديح فقد قال تعالى: ﴿ونادى أصحابُ الأعرافِ رجالًا يعرفونَهم بسيماهم قالوا: ما أغنى عنكم جَمْعُكم وما كنتم تستكبِرون، أهؤلاء الذين أقسَمْتُم لا ينالُهم الله برحْمَتِه[1]، ادخُلوا الجنة لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزَنون﴾.

٤) **مصير أهل الأعراف:** الذي تدل عليه الآية الكريمة أن مصير أهل الأعراف إلى الجنة، ولذلك فإن الحسن البصري لما تلا هذه الآية ﴿ونادوا أصحابَ الجنةِ أن سلامٌ عليكم لم يدخُلوها وهم يَطْمَعون﴾ قال: والله ما جُعل ذلك الطمعُ في قلوبهم إلا لكرامة يريدها لهم.

ل ـ اختلاف أحوال الآخرة عن أحوال الدنيا:

إن الأوصاف التي وردت للجنة والنار وغيرها مما يشتمل عليه يوم القيامة لا يعلم حقيقتها إلا الله تعالى، ولا يجوز أن تقاس على ما عرفناه من أحوال الدنيا. وما الصفات الواردة في القرآن الكريم والسنة إلا من باب

---

(١) يقصدون أمثال بلال وصهيب وغيرهما من فقراء المؤمنين.

التقريب للعقول والافهام، والواجب على المسلم أن يؤمن بها كما وردت مع تفويض معرفة حقائقها إلى الله تعالى.

٧ ـ ثمرات الإيمان باليوم الآخر:

نعني بالثمرات النتائج العملية للإيمان باليوم الآخر.

وأولى هذه الثمرات: تقويم السلوك:

فالمؤمن الذي يعتقد بأن له وقفته بين يدي الله تعالى يحاسبه فيها على ما قدم في هذه الدنيا من عمل، وما آمن به من مبادىء ثم يجزيه طبقاً لهذه الأعمال ثم يؤول أمره إلى جنّة أو إلى نار، يندفع نحو الخير ولو كلفه ذلك نفسه وولده وماله، ويبتعد عن الشر بكل ما أوتي من قوة، وإذا استقرأنا حياة الصفوة من رجالنا ونسائنا لوجدنا أن الإيمانَ باليوم الآخر، وخوفَهم من عذاب الله، وأملَهم في جنته، هو الذي وجه حياتهم بكاملها، فجعلهم فرسان علم وعمل وتضحية وجهاد في النهار، رهبان صلاة ومناجاة وتقرب في الليل.

أ ـ فهذا الصحابي الجليل أبو طلحة زيد بن سهل بن الأسود يقدم إلى رسول الله ﷺ فيقول له: يا رسول الله إن الله يقول ﴿لن تنالوا البِرَّ حتى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّون﴾ اللهم ان أحب أموالي إليّ بَيْرحاء وإنها صدقة أرجو برَّها وذُخرها عند الله ـ أخرجه البخاري ومسلم.

إن الذي دفع أبو طلحة لأن يتنازل عن بستانه الجميل وهو أحب أمواله إليه هو إيمانه باليوم الآخر، وإيمانه بثواب الله تعالى في ذلك اليوم.

ب ـ وهذا عُمَيْر بن الحِمام يضرب لنا المثل في استعجال الموت طلباً لما عند الله تعالى عندما قال الرسول ﷺ يوم بدر: قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض، قال: بخ بخ، قال رسول الله ﷺ: ما حملك على

قولك بخ بخ؟ قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: فإنك من أهلها، قال: فأخرج تمرات من قرنه ـ جعبته ـ فجعل يأكل منها ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى ما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل[1].

جـ ـ وهذه الخنساء التي ملأت الدنيا في جاهليتها بكاءً وعويلاً على أخيها صخر تقول في إسلامها حين قتل أولادها جميعاً «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو أن يجمعني بهم يوم القيامة».

أنظر إلى الإيمان باليوم الآخر كيف يفعل فعله في النفوس، وتظهر آثاره في تصرفات الأفراد.

وثانية هذه الثمرات: تعميق الإيمان بعدل الله تعالى:

فالمجرم الذي يفلت من يد العدالة في الدنيا لا بد له من أن تتناوله يد العدالة الإلهية في اليوم الآخر، فيلقى جزاءه العادل. والمظلوم الذي لا يجد في هذه الدنيا من يشد أزره، ويعينه للوصول إلى حقه، يجد الله تعالى إلى جانبه في اليوم الآخر يأخذ من حسنات ظالمه فيضيفها إلى حسناته، فقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (أتدرون من المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار).

وثالثة هذه الثمرات: طمأنينة نفسية. هذه الطمأنينة النفسية هي أشد ما يكون الإنسان المعاصر حاجةً إليها، لأن دوّامَةَ الحياةِ المادية التي يحياها

---

(١) أنظر صفة الصفوة ٤٨٨/١ تحقيق الفاخوري والقلعه جي.

الإنسان المعاصر، بكل ما فيها من تآمر، وضياع للحقوق، وعدم جني ثمارِ ما بَذلَ من جُهْدٍ مُخلص، كل ذلك قد أرهق أعصابه وجعلها في أشد الحاجة إلى ما يريحها. . . وهو لن يجد ـ مهما طال به البحث ـ أجدى لها من الإيمان باليوم الآخر.

فإذا ما تآمر عليك شخص، ولم يكن باستطاعتك ردَّ كيدِه في نحرِه فلا تحقد عليه، ولا تُطِل التفكيرَ في أمرِه لأن هناك ربّاً سيحاسِب هذا المتآمر.

وإذا ما سلبَكَ حقَّك ظالم ولم يكن بإمكانك أن تستعيدَه فلا تقلق ولا تحقد ـ لأن الحقد يتلف أعصاب صاحبه ـ بل سلِّم الأمر لله، وهو سيحاسب هذا الظالم يوم القيامة ويأخذ لك حقك منه.

وإذا ما صنعت معروفاً مع إنسان، فلم يَحفَظْ لك هذا الصنيع وأمعنَ في إيذائك، فلا تقلق ولا تحقد، ولا تنزعج، لأن معروفك لن يضيع، وستجده ذُخراً لك يوم القيامة.

ولولا الإيمان باليوم الآخر لأكل القَلَقُ الناسَ، ومن هنا نجد أن الأمراض العصبية تنتَشِرُ في الملحدين وتندُر في المؤمنين، لأن الإيمان يزرع الطمأنينة في القلوب، ويَجْتَثُّ منها القلقَ والاضطرابَ والحقدَ والحَسَد.

البَابُ الـرَّابع

بَعضُ المذاهِبِ الهَدّامَة المعَاصِرَة

ستتحدث في هذا الباب عن المذاهب الهدّامة التي لها وجود وأتباع ودعاة في عصرنا هذا، وسيكون الكلام عليها في فصلين:

الفصل الأول : الفرق الهدّامة المنشقة عن الإسلام وأهمها:
الإسماعيلية، والبهائية، والأحمدية
- أما الدرزيّة والنصيرية،
فلن نتحدث عنهما لكونهما لا دعاة لهما

الفصل الثاني : المذاهب الوضعية الهدّامة المعاصرة وأهمها:
الماسونية، والقومية، والشيوعية.



الفرق الهدّامة والمنشقّة عن الإسلام

الإسماعيليّة

أسماؤها: سمي الإسماعيلية بهذا الاسم نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، لأنهم ساقوا الإمامة إليه بعد جعفر الصادق، خلافاً للإثنا عشرية الذين ساقوها إلى موسى الكاظم.

ويطلق عليهم أيضاً اسم «السَّبْعِيَّة» لأن إسماعيل بن جعفر ـ وهو الإمام السابع ـ هو آخر إمام ظهر عندهم، ثم يبدأ بعده الأئمة المستورون.

ويطلق عليهم اسم «البَاطِنيَّة» لأنهم يقولون أن للقرآن ظاهراً وباطناً، أما الظاهر فيعلمه العوام، وأما الباطِن فلا يعلمه إلا الأئمة، ولأنهم لا يُعَلِّمون أتباعهم من عقائدهم في الله تعالى إلا قولهم «إلهنا آله محمد».

ويطلق عليهم اسم «القرامطة» وهو اسم عُرِفوا به في التاريخ كحركة ثورية إباحية هدّامة نسبة إلى «قرمط» أحد دعاتهم.

ويطلق عليهم اسم «المزدكية» نسبة إلى مزدك الذي تبنوا آراءه الإباحية، ويطلق عليهم في خراسان اسم «التَّعليميّة» لما أخذوه من مناهج الفلاسفة، والمُلحِدة للسلوك الملتوي الذي يظهرون به.

موطنهم: الإسماعيليون يتواجدون في مناطقَ متعددة من العالم الإسلامي، فيوجد منهم في الهند جماعة كثيرة، وتوجد منهم جماعة أخرى في

ايران، وفي زنجبار، وفي سورية، حتى أنهم فكروا بنقل جثمان زعيمهم الديني «أغاخان» إلى بلدة «السَّلَمِيَّة» في سورية ليدفن فيها، ولم يمنع من ذلك إلا المعارضةُ الشديدة التي صمم عليها الشعب السوري آنذاك.

عقائدهم: يعتقد الإسماعيلية ـ كما يعتقد سائر الإمامية ـ أن الامامَة ـ أي الخلافة ـ تتم بالنص على الإمام، لا بالشورى، وأن الإمامَ معصوم عن الكبائِر والصغائِر، وهو متصف بسائر الكمالات، وهو يقابل العقلَ الكلّيَّ عند الفلاسفة.

ـ ويعتقدون أن الإمامة قد انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل دون سائر أولاد جعفر، وأمارات هذا الانتقال عندهم: أن جعفر الصادق لم يتزوج على أم إسماعيل ولم يَتَسَرَّ عليها، كما أن رسول الله لم يتزوج على خديجة، وكما أن علياً لم يتزوج على فاطمة.

كما هو مبين في الشكل التالي I:

ـ وإن إسماعيل لم يمت، وإنما أظهر موته ـ بالاتفاق مع أبيه جعفر الصادق ـ تَقِيَّةً من الخلفاءِ العباسيين، ثم اختفى ليبث الدعاة في أنحاء العالم.

وأمارة عدم موته: أن أخاه محمد ـ وكان محمد صغيراً ـ أقبل على سرير إسماعيل، وإسماعيل مُوَسدٌ فيه، فكشف الغطاء عن وجه إسماعيل فوجده مفتوحَ العينين فصاح: عاش أخي... عاش أخي. وهناك أمارة ثانية وهي أن جعفراً لما أعلن موت إسماعيل كتب محضرَ موته وأشهدَ عليه الناسَ، ومنهم عاملُ أبي جعفر المنصور ـ الخليفة العباسي ـ على المدينة المنورة، ولم يكن من عادة الناس كتابةَ المحاضر بموت أحد من الناس، ولا الإشهاد عليه، ولما شعر أبو جعفر المنصور بتحرك إسماعيل وشك بموته أرسل يخبر أباه بذلك، فبعث إليه جعفر الصادق بمحضر الوفاةِ وعليه شهادة أميره على المدينة المنورة.

ـ ويعتقد الإسماعيلية أنه لا يجوز أن يخلو عصر من إمام حيٍّ قائم، ظاهراً كان أو مستوراً.

١- علي بن أبي طالب ويلقب بـ (المرتضى)
↓
٢- الحسن بن علي ويلقب بـ (المجتبى)
↕
٣- الحسين بن علي ويلقب بـ (الشهيد)

٤- علي زين العابدين ويلقب بـ (السجاد) — محمد بن الحنفية وهو الذي تنسب اليه فرقة (المختارية)
↓
٥- محمد بن علي ويلقب بـ (الباقر)
↓
٦- جعفر بن محمد ويلقب بـ (الصادق)

٧- موسى بن جعفر ويلقب بـ (الكاظم) — ٧- إسماعيل بن جعفر وهو الذي تنسب اليه فرقة (الإسماعيلية)
↓
٨- علي بن موسى ويلقب بـ (الرضى)
↓
٩- محمد بن علي بن موسى ويلقب بـ (التقي)
↓
١٠- علي بن محمد ويلقب بـ (النقي)

١١- الحسن العسكري ويلقب بـ (الزكي) — محمد بن علي وهو الذي تنسب اليه فرقة (النصيرية)
↓
١٢- محمد بن الحسن العسكري (الحجة القائم المنتظر) وهو الذي تنسب اليه فرقة (الاثناعشرية)

تفرع أشهر فرق الشيعة الإمامية

ـ والإسماعيلية خلطوا كلامهم بكلام الفلاسفة، واستعملوا مصطلحاتهم وفضلوا الفلاسفة على الأنبياء عندما قالوا: إن الأنبياءَ هم قدوة للعوام من الناس، أما الفلاسفة فإنهم للصفوة الأخيار.

ـ وهم ينفون الصفاتِ عن الله تعالى، ويؤمنون بأن ذات الله تعالى لا تقوم بها صفات، فيقولون: إن الله لما وهب العلم للعالم قيل عنه أنه عالم، ولما وهب القدرة للعالم قيل عنه أنه قادر. . . وهكذا.

ـ وهم يقولون بإسقاطِ التكاليف الشرعية عن العباد، ويأخذون بالإباحيَّةِ المطلقة، ويعتقدون أن الجنة التي ذكرها الله تعالى لعباده هي عيشُ الملَذّات في الدنيا، أما النارُ فهي التقيد بالقيودِ التي يسميها الناسُ شريعة، ولذلك فإنهم يعيشون فيما بينهم عيشة اباحية، من استحلال الأعراضِ والخمورِ وغير ذلك، ولا يمنعهم من اظهار ذلك إلا التَّقِيَّة التي يأخذون بها.

ـ وعقيدتهم تمنعهم من الإيمان بنتائج أي عِلمٍ من العلوم ـ النظرية على الأقل ـ إلا إذا وردت الموافقة على هذه النتائج من أئمتهم.

ـ ويعتقدون بأن للقرآنِ ظاهراً وباطناً، فالظاهرُ ما يدركه العوام، وأما الباطن ـ وهو مراد الله تعالى ـ فهو ما يصدر تفسيره عن الأئمة. ومن تفسيراتهم الباطنة:

* قولهم في قوله تعالى ﴿ ألم نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ إن المراد بها: ألم نُقِم لك يا محمد الأساسَ، والأساسُ عند الإسماعيلية هو اصطلاح يعني: القائم بأمرِ الباطن.

* وقولهم في قوله تعالى ﴿ ولقَدْ آتيناكَ سَبْعاً منَ الثماني﴾ إن المراد بها: ولقد جعلنا في ذريتكَ يا محمد سبعةَ أئِمَّةٍ، وهم الأئمة السبعة للإسماعيلية.

* وقولهم في قوله تعالى ﴿ وما تُنْفِقُون إلّا ابتغاءَ وجْهِ الله ﴾ إن المراد بها أن الصدقة المقبولة ما كانت لإرضاء الرسول أو لإرضاء الأئمة من بعده.

* وقولهم في قوله تعالى ﴿ما ننسَخْ من آيةٍ أو نُنْسِها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلِها﴾ إن المراد بها: ما ينقرضُ إمامٌ من الأئمة الذين هم آياتُ الله وأعلامُه وأركانُ دينه وقوامُه إلا ويُقيم مقامَه مثله في فضله أو أفضل منه.

ـ ويعتقدون أن للشريعة ظاهراً وباطناً، فالظاهر منها تلك الحركات والطقوس، وهي ليست مقصودة من الشارع، وإنما المقصود منها هو الباطن، فإذا حقق الشخصُ المقاصدَ الباطنة فلا عليه أن يترك الأفعالَ الظاهرة، فالظاهر من الصلاة: الحركات من ركوع وسجود ونحو ذلك، أما الباطن المقصود فهو: اتجاه القلب نحو الإمام، والظاهر من الصوم هو: الإمساك عن الطعام والشراب، أما الباطن فهو عدم افشاء أسرار الدعوة، وهكذا.

وهذا يصادف هوى وارتياحاً عند ضعفاء النفوس الذين يتطلعون إلى التفلت من الواجبات الدينية.

مراتبهم:

يُقسِّمُ الإسماعيليون المنتسبين إلى الإسماعيلية إلى سبع مراتب، أربع مراتب منها سرية وهي:

الأولى : الإمام، وهو يقابل العقل الكليّ المتصفَ بسائر الكمالات.

الثانية : بابُ الأبواب، وهو يلازم مقر الإمام، ويكون واسطة بين الإمام وبين شيعته.

الثالثة : الحُجّة.

الرابعة : داعي البلاغ.

وتتلوها ثلاث ظاهرة وهي:

الخامسة : داعي الدعاة، وهو الذي يرأس الدعوة في المنطقة، لأن الإسماعيليين قسَّموا العالمَ إلى ١٢ جزيرة ـ أي منطقة ـ يرأس كل جزيرة فيها داعي الدعاة.

السادسة : النقيب، إذ لكل داعي دعاةٍ ثلاثون نقيباً.

السابعة : الدعاة، إذ لكل نقيب ٢٤ من الدعاة، إثنا عشر منهم ظاهرون، وإثنا عشر منهم محجوبون، وعمل هؤلاء المحجوبين الاندساس في حلقات العلماء - من الفرق الأخرى - وحضور مجالسهم، ليسألوهم ويحرجوهم ويشككوا تلاميذهم بهم، وعندئذ يسهل جذب هؤلاء التلاميذ إلى الدين الإسماعيلي.

البهَـائيَّــة

نشأتها:

يذكر محمد مهدي الخالص في الصفحة ١٣ من كتابه: «البصرة تستأصل شأنة الشيخية» أنه ولد عام ١١٦٦ هـ مولود فدفعاه والداه إلى سلك الرهبنة فنشأ قسيساً في أندونيسيا تابعاً للكنيسة الروسية القيصرية، ثم أوكلت إليه الصليبية الحاقِدةُ مهمةَ إفساد عقائِد المسلمين، فسافر إلى ايران، وتزيا بزِيِّ المسلمين، وتسمى باسم الشيخ أحمد الأحسائي - ايهاماً للناس أنه من الاحساء، مع أنه لا نسب له فيها - وأخذ يقول إن الحقيقة المحمدية تجلت في الأنبياء قبل محمد ﷺ تجلياً ضعيفاً، ثم تجلت تجلياً أقوى في محمد عليه الصلاة والسلام، ثم تجلت تجلياً أقوى في الأئمة الإثني عشر - أئمة الشيعة الاثنى عشرية - ثم اختفت زهاءَ ألف عام، ثم تجلَّت قويةً باهرة في الشيخ أحمد الإحسائي - أي فيه هو - فأخذَ بقولِه بعضُ البسطاء والجهال من الشيعة الاثنا عشرية، فالتفوا حوله، فكون فرقة دينية خاصَّةً هي فرقة «الشَيْخِيّة».

ثم التقى بالشيخ أحمد الأحسائي رجل يسمى «كاظم الرشتى» المولود سنة ١٢٠٥ هـ فتتلمذ عليه وحمل فكره، وأخذ يبشر بالمهدي، وأنه قد قَرُبَ

ظهوره، وأنه موجود الآن بين تلاميذه، وجعل يعينه بصفاتٍ تنطبق على أحد تلاميذه ويقول ـ كما جاء ذلك في مطالع الأنوار ص ٣٠ لمحمد زرندي ـ «إن الموعود يعيش بين هؤلاء القوم، وأن ميعادَ ظهوره قد قَرُبَ، فهيئوا له الطريق، وطهّروا أنفسَكم حتى تَرَوْا جمالَه، ولا يظهر لكم جمالُه إلا بعدَ أن أفارق هذا العالم، فعليكم بعد فراقي أن تقوموا على طلَبِه، ولا تستريحوا لحظةً واحدة حتى تروه».

وكان من بين تلاميذ الرشتى هذا «ميرزا علي محمد» المولود عام ١٢٣٥ هـ وكانت الصفات التي يذكرها الرشتى للمهدي تنطبق على «ميرزا علي محمد» هذا، فأوحى إليه الرشتى أنه المهدي المنتظر، وأن عليه أن يظهر إلى الناس ويدعوهم إلى نفسه بعد وفاته ـ أي وفاة الرشتى ـ.

ولم تمض على وفاة الرشتى إلا مدة حتى أعلن «ميرزا علي محمد» للناس في شيراز عام ١٢٦٠ أنه البابُ إلى الإمام المنتظر ـ والباب هو الرجل الواسطة بين المهدي الغائب وبين شيعته ـ ثم لم يلبث أن ادعى أنه هو نفسه المهدي، لأن روح المهدي الغائب قد حلَّ فيه، ثم لم يلبث أن ادعى النبوة، ثم تعداها إلى ادعاء الربوبية عن طريق حلولِ روحِ الآله فيه، فحكم العلماء بكفره، ونفِّذ فيه حكم الاعدام سنة ١٢٦٥.

التف حول ميرزا علي محمد ـ والذي أصبح يسمى ب «الباب» بعض الجهال والبسطاء فكونوا فرقة «البَابِيَّة» ووضع لهم البابُ كتاب «البيان» الذي يدعي أنه أفضل من القرآن، فهو يقول «إني أفضلُ من محمد، كما أن قرآني أفضل من قرآن محمد، فقد جاء في كتاب «مفتاح باب الأبواب للدكتور ميرزا محمد مَهْدي خان ص ٢٠، ١٣٧ قول الباب: «وإذا قال محمد بعجز البشر عن الإتيان بسورة من سور القرآن، فأنا أقول بعجز البشر عن الإتيان بحرف من حروف قرآني».

وهو يدعي أن كتابه «البيان» ناسخٌ للقرآن الكريم ولأحكامِه فيقول: «إن نبيكم لم يخلّف بعدَه غير القرآن، فهاكم كتابي البيان، فاتلوه واقرأوه تجدوه أفصحَ عبارةً من القرآن، وأحكامُه ناسخةٌ لأحكام الفُرقان». وفي إبان حياة الباب أرسلت الصليبية الممثلة بروسيا القيصرية رجلاً اسمه «كيناز دالكوركى» ليعمل مترجماً في قنصليتها في ايران، فأظهر الإسلام والتدين وتسمى بالشيخ عيسى. واتصل بـ «الميرزا حسين علي» المولود سنة ١٢٣٣ والذي عُرف فيما بعد بـ «بهاء الله»، وبأخيه «الميرزا يحيى» وكانا من تلاميذ الباب، وأخذ يُغدِقُ عليهما الأموال، ويرسل بواسطتهما المالَ إلى البابِ، ويرسم لهم خطةَ العمل من وراءِ الكواليس، حتى أن القنصلية الروسية في طهران تدخلت رسمياً عندما حُكِم على الباب بالإعدام لإنقاذه من حبل المشنقة، ولكنه كان قد نفذ فيه الإعدام قبل وصول التدخل الروسي للعفو عنه. وأوحت السفارة الروسية للباب قبل موته أن يجعل الأمرَ من بعده إلى الميرزا حسين، والميرزا يحيى، فاستخلف الباب على جماعته من بعده المرزا يحيى وسماه بـ «صبح أزل» وعين أخاه الميرزا حسين وكيلاً عن يحيى، وأمره بحجبه واخفائه لئلا يُمَسَّ بسوء، فبالغ حسين في اخفاء يحيى، واستبد بالأمر دونه، فوقع نزاع على السلطة على الطائفة بين الأخوين، فنفت الدولةُ الميرزا حسين إلى عكا، فخرج إليها عن طريق العراق يرافقه لحراسته فرسان روس، ونفت الميرزا يحيى إلى قبرص، فاستقل الميرزا حسين بالأمر، وتسمى بـ «بهاء الله»، وأخذ ينقّح الديانة «البابية» وينقيها من الخرافات، ويطورها لتتلاءم مع الزمن، فادعى أنه الموعودُ الذي ظهر إلى الوجود، حيث يقول «قل يا ملأ القرآن قد أتى الموعود الذي وعدتم به في الكتاب» ثم لم يلبث أن ادعى أنه المسيح فقال «قل يا قوم قد جاء الروحُ مرة أخرى ليُتم ما قال من قبل».

ثم لم يلبث أن ادعى الألوهية وأن الله تعالى ليس له وجود الآن إلا

في البهاء، ويؤكد هذا بوضعه برقعاً على وجهه لئلا يبهر بنوره الأبصار، فهو يقول «يا ملأ الإنشاء، اسمعوا نداء مالك الأسماء، إنه يناديكم من شطر سجنه الأعظم أنه لا إله إلا هو المقتدِر المتكبر المتسخِّر المتعالي العليم الحكيم، إنه لا إله إلا هو المقتدر على العالمين».

وخلالَ إقامته في عكا جعل يدعو إلى تجمع اليهود في فلسطين ويقول «هذا يوم فيه فاز الكليم بأنوار القديم، وشرب زلالَ الوصالِ من هذا القدح الذي به سجرت البحور، قل تالله الحق أن الطور يطوف حول مطلع الظهور، والروح ينادي من الملكوت: هلموا وتعالوا يا أبناءالغرور هذا يوم سرع كرم الله شوقاً للقائه، وصاح الصهيون قد أتى الوعد وظهر ما هو المكتوب في ألواح الله المتعالي العزيز المحبوب».

وخلف البَهاءَ على الطائفة البهائية ابنُه «عبدُ البهاء» الذي طَلبَ منه ـ كرئيسٍ للبهائية ـ الانكليزُ بعض المساعدات لدخول البلاد العربية، فبذلها لهم، فاستحق لذلك وسام العضوية البريطانية من درجة فارس ممنوحاً من ملك بريطانيا، وقُدِّم له الوسامُ في حفل رسمي في السفارة البريطانية سنة ١٩٢٠.

ثم خلف «عبدَ البهاء» «شوقي أفندي رباني» وبعد وفاة شوقي أفندي اجتمع المجلس الأعلى للطائفة البهائية في إسرائيل وانتخب صهيونياً أمريكياً اسمه «ميسون» ليكون رئيساً روحياً لأفراد الطائفة البهائية في العالم. وإنما بسطنا لك القول في نشأتها لترى التلازم الكامل بين الحركات الهدامة والتآمر على الإسلام.

عقائدهم:

ـ يعتقد البهائية بوحدة الوجود، وأن هذا الوجود هو مظهرٌ من مظاهر الله تعالى، والنبيُّ أو الإمامُ في حياتِه مظهرٌ من مظاهِر الله في الأرض،

وجد البريطانيون أن أقوى الناس شكيمة، وأصلبهم عوداً في مواجهة البريطانيين ومطالبتهم بالجلاء عن القارة الهندية هم المسلمون، فقد لانت للبريطانيين قناةُ باقي الديانات، فسايروا وسالموا، ولم تلن قناة المسلمين في باكستان، لأن في ضمير كل واحد منهم صيحةً آلهية تزمْجر ﴿ ولَـن يَجْعَلَ الله للكافِرينَ على المُؤْمنين سَبيلاً ﴾ وكلماتٍ كتبت على صفحاتِ الصدور بلسان رسول الله ﷺ تقول (لا وِلايَة لكافِرٍ على مُسْلِم) ففكروا بإزالة تلك الصخور التي تعترض طريق انقياد الهند إليهم، فلجأوا إلى رجل يسمى ب «غلام أحمد» المولود في مدينة قاديان سنة ١٨٣٥ واقنعوه بتبني دعوة تحريم الجهاد، حتى إذا ما نجح في دعوته، ضمنت بريطانيا بقاءَها في الهند، وسعت لنشر هذه الدعوة في أنحاء العالم، وراقت الفكرة لغلام أحمد، فخرج يدعو الناس إلى عقيدة لا يعرفونها، فأنكـروها عليـه، وصدرت الفتـاوى من انحاءِ الهنـد بتكفيره، ولكنه استمر في دعوته بدعم من بريطانيا، ووجَّه كتاباً في عام ١٣٤٤ هـ = ١٨٩٦ م إلى علماء الهند يشرح لهم فيه عقيدتَه، ويدعوهم إلى الإيمان به وتأييده.

عقيدتها:

وخلاصة ما جاء في هذا الكتاب الذي وجهه إلى علماء الهند:

١ - إن غلام أحمد دينه الإسلام لا دين له سواه، وكتابه القرآن لا كتاب له سواه، ونبيه محمد ﷺ لا نبي له سواه، ومصادر التشريع عنده القرآن، والسنة والاجماع، فهو يقول فيه «لا دين لنا إلا الإسلام، ولا كتاب إلا الفرقان، كتاب الله العلام، ولا نبي لنا إلا محمد خاتم النبيين، إشهدوا أننا نتمسك بكتاب الله القرآن، ونتبـع أقوالَ رسـولِ الله منبع الحق والعرفان، ونقبل ما انعقد عليه الاجماع بذلك الزمان، لا نزيد عليها ولا ننقص» وهنا نراه يغفل القياس كأصل من أصول التشريع.

٢ - إن الوحي لم ينقطع بعدَ محمدٍ ﷺ، وأن النبوة لم تُختَم بمحمد ﷺ، وهو -

أي غلام أحمد ـ ينزل عليه الوحي ويخبره بما سيكون فهو يقول «وأخبرني ـ أي الله تعالى ـ بأكثر مما هو مزمِعٌ عليه في سابق علمه، وصبغني بصبغةِ حبه، وهداني طريقَ السلامة وسِلمه، وأخرجني من المحجوبين» وبناء على ذلك فقد تفرد غلام أحمد ـ كما يزعم ـ بعلوم لا يعرفها أحد غيره، فهو يقول عن ذلك «وقد تفردتُ بفضلِ الله بكشوفٍ صادقة ورؤيا صالحةٍ، ومكالماتٍ آلهية، وكلماتٍ إلهامية، وعلومٍ نافِعَة» وما ينزل عليه هذا الوحي، ولا يزود بهذا العلم، ولا يخص بهذه الخصائص إلا لأنه يحمل رسالة إصلاحية يعم بها الخيرُ ويسودُ السلام، ويصبح بها الانسانُ أخاً محبّاً لأخيه الانسان لا خصماً محارباً، فهو يزعم أن الله تعالى قال له: «إني مرسلُكَ إلى قومٍ مفسدين، وإني جاعلُك للناس إماماً، وإني مستخلفُك إكراماً، كما جرت سنتي في الأولين»، ومن هنا يُجمع القاديانية ـ كما جاء في كتاب حقيقة النبوة لميرزا بشير الدين، الخليفةُ الثاني للقاديانيين «ومما هو واضح كالشمس في رابعة النهار أن باب النبوة لا يزال مفتوحاً بعد النبي ﷺ».

٣ ـ ويدَّعي غلام أحمد أنه هو المسيح الموعود، ويقول غلام أحمد أن عيسى عليه السلام قد مات ولن يعود إلا بروزاً، ولعله يقصد بقوله «بروزا» إنه تبرز روحه في جسدٍ آخرَ غير جسده ـ وهو المعروف بتناسخ الأرواح ـ فهو يقول: «وأخبرني أن عيسى نبي الله قد مات ورفع من هذه الدنيا، ولقي الأموات، وما كان من الراجعين، بل قضى عليه الموت وأمسكه، ووافاه الأجل وأدركه، فما كان له أن ينزل إلا بروزاً كالسابقين، وقال سبحانه: **إنك أنت هو ـ في حِلل البروز،** وهذا هو الوعد الحق الذي هو كالسرّ المرموز، فاصدع بما تؤمر ولا تخَفْ أَلسِنَةَ الجاهلين، وكذلك جرت سنة الله في المتقدمين» ويقول «وجعلني ربي عيسى بن مريم على طريق البروزات الروحانية».

وارتقاؤه إلى هذه المنزلة إنما هو باستكماله صفاتٍ أخلاقية جعلته يعبّر عن الأمر الواقعي، ويصلُ إلى الحقيقة دون غيره، فمن استكمل الصفات التي استكملها النبيُّ فهو أحق، وأهل للتظاهر بمظهر الدعوة والتبشير، لهذا صح للباب وللبهاء من بعده أن يكون مظهراً من مظاهر الله في الأرض بعد النبي.

ـ إنهم لا يؤمنونَ بالبعثِ ولا بما يتبعه من الحشرِ والحسابِ والجنةِ والنارِ.

ـ السَّنَةُ عندهم تسعة عشر شهراً وهي:

١ ـ شهر، ٢ ـ شهر الجلال، ٣ ـ شهر الجمال، ٤ ـ شهر العظمة، ٥ ـ شهر النور، ٦ ـ شهر الرحمة، ٧ ـ شهر الكلمات، ٨ ـ شهر الكمال، ٩ ـ شهر الأسماء، ١٠ ـ شهر العزة، ١١ ـ شهر المشيئة، ١٢ ـ شهر العلم، ١٣ ـ شهر القدرة، ١٤ ـ شهر القول، ١٥ ـ شهر المسائل، ١٦ ـ شهر الشرف، ١٧ ـ شهر السلطان، ١٨ ـ شهر الملك، ١٩ ـ شهر العلاء.

ـ وهم يصومون الشهر التاسع عشر من شهورهم ـ وهو شهر العَلاء ـ ويكون آخرها يوم العيد ـ عيد النيروز.

ـ والصلاة عندهم ثلاث مرات في اليوم، في البكور، والزوال، والآصال، يصلون في كل مرة تسعَ ركعات بوضوءٍ يتوجهون فيها نحو مدينة عكا حيث يدفن جثمان البهاء. ويؤدون صلاتهم فُرادى ـ إذ ليس عندهم صلاة جماعة إلا في الصلاة على الميت.

ـ والحج عندهم يكون إلى قبر البهاءِ في عكا أو إلى الدار التي نزل بها البهاءُ في العراق خلال إقامته فيها، وليس للحج عندهم وقت محدد.

ـ أما بالنسبة للمرأة فإن أحكامها تأثرت تأثراً كبيراً بامرأة دخلت الديانة البابية هي فاطمة بنت الحاج الملا صالح القزويني، سميت بـ «رزين تاج»

أي ذات الشعر الذهبي، ولقبها كاظم الرشتي بـ«قرة العين وفرح الفؤاد» كانت امرأة مستهترة عشيقة للميرزا حسين البهاء، حضَرَتْ للبابيين مؤتمر «بدشت» سنة ١٢٦١ وعرضَتْ فيه أوضاع النساء وأحكامهن، وكان لها تأثير كبير على المؤتمرين، فالحجابُ محرمٌ على المرأة عند البهائية، وتعدد الزوجات لا يجوز إلا بشرط العدل بين الزوجات، ويجوز للبهائي أن يتزوج بغير البهائية، وأن تتزوج البهائية بغير البهائي، والطلاق عندهم مكروه، وفي الميراث يتساوى الذكر والأنثى في الاستحقاق.

ـ وطريقتهم في الدعوة إلى دينهم: التقية الشديدة، فهم يخاطبون أهلَ كلٍّ دين بما يوافق هواهم، ويظهرون لكلِّ دولةٍ أنهم معها، فتجد الداعية منهم مسلماً مع المسلمين، ويهودياً مع اليهود، يوهم كل أهل دين أنه منهم، وأنه يريد الإصلاح والتوفيق بين أهل الأديان، فإن آنس من جليسه الضعفَ أخذَ يشككهُ في دينه، حتى إذا ما تم له ذلك دعاة إلى البهائية.

أما إذا انعدمَ الخوفُ فإنهم يدعون إلى دينهم دعوةً صريحةً واضحة. ودعوتهم اليوم نشطة في أوروبا وأمريكا، لأنها صنيعة الصليبية.

القَـاديَانيَّـة

اسمها:

القاديانية نسبة إلى «قاديان» مركز بنجاب في الهند، المدينة التي ولد فيها مبتدع مقولات هذه الديانة.

ويطلق على القاديانية أيضاً اسم «الأحمدية» نسبة إلى «غلام أحمد» مبتدع هذه الديانة.

نشأتها:

لقد رأى البريطانيون ما فعله السيد محمد أحمد السوداني في السودان، وما فعله السيد أحمد بن عرفات الشهيد ١٢٤٦ في القارة الهندية، حيث اجتمع حوله الناس يتلهفون للموت في سبيل الله.



المذاهب الهدامة المعاصرة

الماسونية

١ ـ نشأتها وتطورها:

الماسونية ـ وتعني: البناء الحر ـ هي أقدم الحركات السرية التي ما زالت قائمة حتى اليوم، ونحن لا نستطيع أن نجزم بمبدأ نشأتها إذ أن بعضهم يعيدها إلى بناء معبد سليمان عليه السلام، وبعضهم يعيدها إلى فرسان الصليب الوردي، وبعضهم يعيدها إلى هيرودس الثاني، إلا أن الأقرب للعقل والمنطق أن نعيدها إلى هيرودس الثاني (٣٧ م) ونعتبره المؤسس الأول للماسونية، وذلك أن هيرودس الثاني ـ روماني يهودي ـ أطارَ لُبَّه قولُ المسيح عليه السلام «إن ملكوت الله يُنزَع منكم ويُعطي لأمةٍ تعملُ أثماره» يعني أن النبوة والقيادة الدينية ستنزَع من أيدي بني إسرائيل وتعطى لأمة أخرى لتنشر الخير في ربوع الأرض، ولم يذكر المسيح عليه السلام مَنْ تكون هذه الأمة، ولكن مجرى التاريخ بَيَّن أنه لم يَخْلُفْ بني إسرائيل في النبوة والقيادة الدينية إلا الأمةُ الاسلاميةُ التي نشرت الحضارة والنور في أنحاء الأرض.

كما أطار لُبَّ هيرودس قول المسيح عليه السلام «أما أعدائي أولئك اليهود الذين لم يريدوا أن أُملَّك عليهم، فأتوا بهم إلى هنا وأذبحوهم قدّامي» فاختار هيرودس ستة من المفكرين اليهود وعقد أول اجتماع لهم، وتم في هذا

٤ ـ تحريم الجهـاد تنفيذاً لمآرب الانكليز، فقد قال في كتابه «تريـاق القلوب» لقد قضيتُ معظمَ عمري في تأييد الحكومة الانكليزية ونصرتها، وقد ألَّفْتُ في منع الجهاد ووجـوب طاعـة أولي الأمر الانكليـز من الكتب والنشرات ما لو جُمع بعضُها إلى بعض لملأ خمسين خِزانة، وقد نشرت جميع هذه الكتب في البلاد العربية ومصر والشام وكابل والروم. . . ».

٥ ـ الأماكن المقدسة عند القاديانية ثلاثة: هي مكة، والمدينة، وقاديان، وهم يفسرون قوله تعالى: ﴿ سبحانَ الذي أسرىٰ بعَبْدِه ليْلاً مِنَ المسجِد الحَرام إلى المسجِد الأقْصى ﴾ إن المسجد الأقصى المراد بالآية هو «مسجدُ قاديان» ويرى القاديانيون أن الحج إلى قاديـان أوجب من الحج إلى بيت الله الحرام، فقد جاء في مجلة بيغام صلح المجلد ٢١ العدد ٣٣ أن الحج إلى مكة بغير الحجّ إلى قاديان حج جافّ خشيب، لأن الحج إلى مكة اليوم لا يؤدي رسالته ولا يفي بغرضه.

٦ ـ إن مَنْ لا يؤمنُ به من المسلمين هو كافر ككفر اليهود والذين كذبوا المسيح من قَبْلُ، فقد جاء في «كلمة الفصل» لبشير أحمد القادياني «كل رجلٍ يؤمِنُ بمحمدٍ ولا يؤمن بالمسيح الموعود ـ يعني غلام أحمد ـ فما هو بكافر فحسب، بل هو راسخ في الكفر وخارج عن دائرة الإسلام».

نشاطهم:

ينشط القاديانيون في الدعوة إلى ديانتهم في أوروبا وأمريكا بعد أن فشلوا في اكتساب أنصار لها في البلاد الاسلامية، لأن هذه الديانة على ما فيها تبدو معقولةً أمامَ طلاسِم النصرانية وأسرارِها وسخافاتها.

مناقشة:

١ ـ لقد ورد في الحديث الشريف أن عيسى عليه السلام عندما ينزل يقضي على النصرانية، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ولكننا لا نَرَ أن غلام

أحمد فعل شيئاً من هذا، بل عمل هو تحت مظلةِ الصليب، فعطَّل الجهاد، وتعاون مع البريطانيين النصارى حامي المذهب البروتستانتي النصراني، المتآمرين على الاسلام وأهله.

٢ ـ إن الجهاد الذي عطلته القاديانية نجد آياتِه مثبوتةً بكل صراحة ووضوح في القرآن الكريم وفي حديث رسول الله ﷺ بل وإن رسول الله ﷺ قضى حياته مجاهداً في سبيل الله ولإعلاء كلمة الله.

٣ ـ لقد أخبر الرسول ﷺ أن عيسى عليه السلام سيدفن بجواره في المدينة المنورة، أما غلام أحمد فلم يدفن في المدينة المنورة بل أصيب بداء الكوليرا، ومات في بيتِ الخلاءِ منكباً على وجهه في أبشع مكان سنة ١٣٢٦ هـ = ١٩٠٨ م.

الاجتماع تأسيس جمعية «القوة الخفية» عام ٤٣ م والتي فَتَح لها الفروع في بلاد كثيرة، وغايتها: الحِفاظ على مجد اليهود، وملاحقة النصرانية والقضاء عليها، ولكن ما أن ظهر الاسلام بعد ذلك وانتشر نوره حتى تأكد لليهود الذين تُمثلهم الماسونية رسمياً أن الأمَّة الاسلامية هي التي عناها المسيح بقوله «إن ملكوت السماءِ يُنزَع منكم ويعطى لأمة تعملُ ثِمارة» فناصبوه العداء، وأدخلوه في مخططاتهم السرية كعقيدة وحركة معادية خطيرة يجب القضاء عليها.

٢ ـ أصولها:

إذا كانت الماسونيةُ يهوديةَ النشأةِ، فهي يهودية الأصول أيضاً، وهذا ما أجمع عليه جميع الذين كتبوا عن الماسونية من أصدقاء وأعداء، وهذا ما اعترف به صاحب دائرة المعارف الماسونية المصورة، وقد ذكرَ الأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه الحركات السرية ص ٩٤: إن النظم والتعاليم اليهودية هي التي اتُّخذت أساساً لإنشاءِ المحفل الأكبر في سنة ١٧١٧ ووضعِ رسومِه ورموزه.

ولا تزال اليهودية العالمية إلى اليوم هي القوة المحركة الكامنة وراء الماسونية، والأساتذه الكبار الحقيقيون في المحافل الماسونية هم الممثلون للجمعيات اليهودية السرية، والدليل الذي لا يقبل الدحض على صلة اليهودية بالماسونية هي الفقرات التي ننقلها من بروتوكولات حكماء صهيون، فقد جاء فيها:

«وإلى أن يأتي الوقت الذي نصلُ فيه إلى السلطة سنحاول أن ننشىء ونضاعِفَ خلايا الماسونيين الأحرار في جميع أنحاء العالم، وسنجذب إليها كلَّ من يصير أو يكون معروفاً بأنه ذو روح عامة، هذه الخلايا ستكون الأماكن الرئيسية التي سنحصل منها على ما نريد من أخبار، كما أنها ستكون أفضل مراكز للدعاية، وسوف تُركَّز هذه الخلايا تحت قيادة واحدة معروفة لنا وحدنا،

وستتألف هذه القيادة من علمائنا، وسيكون لهذه الخلايا أيضاً ممثلوها الخصوصيون، كي نحجب المكان الذي تُقيم فيه قيادتُنا حقيقة، وسيكون لهذه القيادة وحدها الحق في تعيين من يتكلم، وفي رسم نظام اليوم».

٣ ـ طبقاتها:

إن من يريد أن يدخل الماسونية لا بد وأن يرقى السلم من أوله، ثم يصعده درجة بعد درجة، وقد قسمت المراحل الماسونية إلى ثلاثِ مراحل كما يقول عبد الرحمن سامي عصمت في كتابه «الصهيونية والماسونية».

المرحلة الأولى: وهي «الماسونية الرمزية العامة» وهي سميت بالرمزية لأن أعضاءها يتعارفون فيما بينهم برموز لا يفهمون شيئاً من دلالاتها الأصلية، وسميت بـ «العامة» لأنها للناس كافة على اختلاف أديانهم، وهي الشائعة في جميع الأقطار، وهذه المرحلة ذات ثلاث وثلاثين درجة أعلاها الدرجة «٣٣» ويسمى حاملها بـ «الأستاذ الأعظم» وفي هذه المرحلة تمنع المناقشات الدينية بين الأعضاء، وتجري المساهمة في بعض الأعمال الخيرية، وتذلل العقبات أمام المنتسبين، وتؤمن مصالحهم، لاجتذاب الناس إليها، ويسار بهم نحو أهداف الماسونية شيئاً فشيئاً. وأعضاء الدرجات الدنيا من هذه المرتبة يسمون «العميان» لأنهم يخدمون الماسونية دون أن يعرفوا أهدافها.

المرحلة الثانية: هي الماسونية الملوكية «العقد الملوكي» ولا يقبل فيها إلا من اجتاز الدرجة «٣٣» وحمل لقب «الأستاذ الأعظم» وهي على ثلاث درجات أيضاً، فإن كان المنتسب إليها غير يهودي، فلا يجوز له أن يتجاوز الدرجة الأولى فيها، وإن كان يهودياً سمح له بتجاوز هذه الدرجة إلى الدرجات التي فوقها.

المرحلة الثالثة: هي الماسونية الكونية، وهي تضم رؤساء «العقد الملوكي» وكلهم من اليهود، وهي ترسم الخطوط العامة لسائر المحافل

الماسونية، كما ترسم سياسة اليهود في العالم، وتضيء لهم طريق تحركهم للوصول إلى أهدافهم.

وهي ذات محفل واحد لا يتعدد، ولا يعرف أحد، سوى أعضائه مقرَّه ولا رئيسه. ويسمى محفلهم هذا بمحفل النورانيين.

وفي هذه المرحلة تتوحد اليهودية والماسونية، وهي التي يعنيها شيريب سبيريدوفيتشي بقوله في كتابه «حكومةُ العالم الخفية» إن القوةَ التي تتحرك من خلفَ الماسونية هي «الحكومة السرية للشعب اليهودي».

شعاراتها:

في عام ١٧٧٣ م وفد اثنا عشر رجلاً من أرباب المال العالميين إلى فرانكفورت في ألمانيا بدعوة من أمشيل باور المعروف بـ «روتشيلد الأول» وتوجهوا نحو شارع «بوندن شتراوس» حيث يوجد مركز «مؤسسة روتشيلد» وعقدوا هناك اجتماعاً مطوّلاً نقل لنا خلاصة عنه «وليم كار» في كتابه «اليهود وراء كل جريمة» ص ٧٥ وما بعدها. تحدث فيه عن الخطة الاقتصادية، والخطة السياسية، والخطة الاجتماعية، والخطة الاعلامية، وعن أمور أخرى وقد تحدث فيما تحدث عنه «الشعارات» فقال روتشيلد الأول: «ليس هناك مكان في العالم لما يسمى **بالحريَّة والمساواة والإخاء**، ليست هذه سوى شعارات كنا أول من تظاهر بتبنيها ووضعناها في أفواه الجماهير لترددها كالببغاء» وأضاف موضحاً: «إن النظام الطبقي الموجود حالياً مبني على ارستقراطية النسب وشرف المَحْتِد، وسوف نحطم هذا النظام باسم الشعارات المذكورة لنبني على أنقاضه نظاماً لا يقوم على أساس الشعارات كما يتوهمون، بل نظاماً جديداً يقوم على أساس ارستقراطية الثروة، وسيكون المال طابع الارستُقراطية الجديدة، والمال كما تعلمون هو بأيدينا نحن» وهذا نفسه ما دوِّنَ في النظام الماسوني الفرنسي سنة ١٨٨٤ حيث جاء فيه «إن الماسونية اتفاقية

دنيوية تهدف إلى المساندة وتقصد الرفعة الأخلاقية، ودستورها الحرية والمساواة والاخاء».

وبذلك يتبين أن هذه الشعارات هي «الحرية والمساواة والاخاء» وهذه الشعارات تطلقها جميع الثورات التي تفجرها الماسونية مع تقديم وتأخير فيها، واستبدالٍ لبعض كلماتها بما يرادفها، لقد اطلقتها الثورة الفرنسية، وأطلقتها الثورة الكمالية التي قادها اليهودي الأصل الماسوني التنظيم مصطفى كمال أتاتورك حيث كان شعارها «حرية عدالة مساواة» وأطلقتها الثورة المصرية التي قادها جمال عبد الناصر حيث كان شعارها«حرية، اشتراكية، وحدة» وأطلقها حزب البعث العربي، وشعاره: «وحدة، حرية، اشتراكية».

فالحرية: هي الحرية التي أطلقها روتشيلد، والوحدة: تعني الاخاء الذي أطلقه روتشيلد، والاشتراكية: تعني المساواة التي أطلقها روتشيلد.

٤ ـ هدفها:

يعتقد اليهود ـ والماسونية يهودية الأصول ـ أنهم شعب الله المختار، وأنهم الأذكى والأحسن، وأن الأمم الأخرى كالبهائم، منها ما هو للذبح، ومنها ما هو مخلوق لخدمتهم، ولذلك كان الهدف الذي تسعى إليه الماسونية هو التوصل إلى تشكيل حكومة عالمية، تضم كافة سكان الأرض، لا يدين أهلها بدين ـ لأنهم كالبهائم ليسوا أهلاً لحمل اليهودية كدين ـ يحكمها اليهود بشريعتهم. فقد جاء في البيان الماسوني سنة ١٧٤٤ «من أسرار اتحادنا هو تأسيس جمهورية ديموقراطية عالمية» وجاء في بيان المؤتمر الماسوني العالمي بباريس سنة ١٩٠٠ «إن هدف الماسونية هو تكوين جمهورية لا دينية عالمية» وقول البيان «جمهورية لا دينية» يعني لا يدين شعبها بدين ولكنه يُسيّر بحسب شريعة اليهود، كما يُسَيِّرُ الانسانُ البهائمَ كما يريد، قال في الصفحة الثامنة من تاريخ الماسونية «إن الماسونيين يتخذون من خطة تمكين اليهود من الاستيلاء على العالم أساساً لأعمالهم» حتى أصبح الرجل الماسوني ـ على حد تعبير أحد

المحررين الانكليز ـ وإن لم يكن يهودياً، إلا أنه رجل متهوّد، وقد عَبَّر هولت زنكر رئيس محاكم فيينا عن هذا بسخرية لاذعة فقال: «إن بين الماسونيين المائة في فيينا، مائة واثنان من اليهود» ـ انظر أسرار الماسونية ص ٥٣ ـ

٥ ـ وسائلها لتحقيق هذا الهدف:

ولتحقيق هذا الهدف فقد قررت الماسونية اتباع الوسائل التالية:

أ ـ تجريد سكان العالم من جميع قيمه الدينية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية. ولما كان المنبع الأصيل لهذه القيم هي الأديان، فقد كان هدف الماسونية إلغاء الأديان، لأنه ما لم يتم الغاؤها فلن يتم التوصل لإلغاء هذه القيم، فقد جاء في نشرة مؤتمر المشرق الأعظم سنة ١٩٢٣ ص ٤٣١ «لتحقيق الماسونية العالمية يجب سحق عدوِّنا الأزلي الذي هو الدين مع إزالَة رجالِه».

وجاء في نشرة المحفل الفرنسي الأكبر سنة ١٩٢٣ ص ١٩٨ «أيها الأخوان لا بد لنا من أن نكافح بجهد أكبر لإدامة القوانين والنُظم اللا دينية، لأن السلطة المطلقة التي صنعها رجالُ الدين على وجه المعمورة قد قاربت النهاية، لا، بل آلت إلى الزوال، وإن غايتنا قبل كل شيء هي إبادة الأديان جميعاً».

وجاء في مضابط مؤتمر بلغراد الماسوني سنة ١٩١١ «ويجب ألا ننسى بأننا نحن الماسونيين أعداء الأديان، وعلينا ألاّ نألو جهداً في القضاء على مظاهرها».

ولكن كيف نوفق بين هذه التصريحات الرسمية للماسونية بعدائها للأديان والعمل على هدمها، وبين ما ذكره «البير أبو راشدٍ في دائرة الماسونية» من أن الماسونية لا تتدخل في الأديان، وما ذكر في النظام الماسوني الفرنسي المعلن سنة ١٨٨٤ «ولا تتخذ الماسونية من اختلاف الدينِ والعرقِ واللغة أساساً للتفريق بين أعضائها، وهي بذلك لا تشجع التزامَ الأديانِ ولا

تناحِرُها، وإن كل ماسوني حر يعمل بدافع ذاتي».

والحقيقة: أن اعلان الماسونية مهادنتها للأديان هو من باب التقية، وهو كإعلانها عدم التدخل في الأمور السياسية، فهي تريد أن تتقي بذلك غضبة الجماهير وغضبة الحكومات عليها، لكي تستطيع أن تفكر وتخطط بهدوء، ولتضمن وجودها واستمرارها، وقد جاء التصريح بهـذا في نشرة المشـرق الأعظم الفرنسي لعام ١٨٨٦ ص ٥٤٥ «كنا ندعي بأنه لا علاقة لنا مع الدين والسياسة، هل كان ذلك خِداعاً منا؟ لا أظن، ولكننا خشيـةً من مطاردَةِ قوى البوليس والقوانينِ كنا نضطر إلى إخفاء مقاصدنا وغايتنا».

ب ـ تدمير كل الحكومات الشرعية، وإقامة حكومات إنقلابية ثورية، لأن في ذلك تعطيلاً للقوانين ونشراً للفوضى، وهذا ما يعجّلُ بتحقيق الهدف الأسمى للماسونية، وهو إقامة دولة عالمية يحكمها اليهود. وإن نظرة فاحصة إلى رؤساء الحكومات الانقلابية الثورية تظهر لنا أن جميـع هؤلاء أعضاء عاملون في الماسونية، فمصطفى كمال أتاتورك كان ماسونياً، وحسني الزعيم كان ماسونياً، وجمال عبد الناصر كان ماسونياً بدرجة أستاذ أعظم، بل إن جمهور مجلس الثورة المصري كانوا أعضاء في الماسونية كما يذكر ذلك البير أبو راشد في دائرة المعارف الماسونية.

وقد شرح هذه الوسيلة «روتشيلد الأول» أثناء اجتماعه بالرجال الاثنا عشر في مركز مؤسسته في فرانكفورت في ألمانيا سنة ١٧٧٣م.

جـ ـ الاتيان بالماسونيين إلى سدة الحكم، لأن وجودَهم في الحكم ضمان أكيد لتنفيذ مخططات الماسونية وقراراتها. فمن قرارات مؤتمر المحافل الماسونية سنة ١٨٨٤ «يجب على الماسونيين الذين بيدهم زمام الأمور أن يأتوا بالماسونيين إلى الحكم وأن يقربوهم من كراسيه وأن يُكثروا من عددهم فيه».

د ـ تقسيم العالم إلى معسكرات متنابذة تتصارع فيما بينها بشكل دائم

حول عدد من المشاكل التي يثيرها اليهود والماسونية بين الحين والآخر.

هـ ـ تسليح هذه المعسكرات، ثم تدبير حادث في كل مرة يكون سبباً لانقضاضِ معسكر على معسكر آخر حتى يُفنيَ أو يرهِق بعضُها بعضاً.

و ـ بث سموم الشقاق والنزاع داخل البلد الواحد وتمزيقه إلى فئات متناحرة، وإشاعة الحقد والبغضاء بين أبنائه، حتى تتقوض جميع مقومات المجتمع الدّينية والأخلاقية والمادية.

يقول وليم كار في كتابه «اليهود وراء كل جريمة» ص ٥ وما بعدها ما خلاصته:

إن معدّ هذه المؤامرة للتنفيذ هـو «آدم وايزهـا ويت» مؤسس محفل الشرق الأكبر، وقد شاءت إرادة الله أن تُفضَح هذه المؤآمرة سنة ١٧٨٤ عندما حمَّلها المحفلُ إلى رجل وامرَهُ بنقلها وتسليمها إلى جماعته الذين أوفدهم إلى باريس لتدبير الثورة فيها، وفي الطريق انقضت على حاملها صاعقة وهو يجتاز منطقة (رايت سيون) بين فرانكفورت وباريس، فقدِم رجال الشرطة للتحقيق في الحادث، فعثروا على الأوراق التي تحمل هذه الخطة، فسلموها إلى السلطات المختصة في حكومة بفاريا التي تتبع المنطقة التي وقـع فيها الحادث، ومن يومها فُضِحَ المخططُ الذي يعمل بموجبه الماسونيون، والوسائلُ التي يتبعونها، ومن يتأمل حال العالم اليوم يجد ذلك مطبقاً بكل دقة في كثير من بقاعه.

أسلوب عمل الماسونية:

تعتمد الماسونية في أسلوب عملها على:

أ ـ السرية التامة: فقد جاء في تعميم المشرق الفرنسي الأعظم سنة ١٨٩٣، «إن المشرق الأعظم يعتبرُ حفظَ الأسرارِ من أهم واجبات الماسونية» وجاء أيضاً «إن كل شيء عندنا قد أسدل عليه ستارٌ من السر، وبقوة الوحدة

والكتمان ننتصر في المعارك الفاصلة» وصيغة القسم الذي يقسمه المرء أول ما يدخل في الماسونية تتضمن هذا، فقد جاءت صيغة القسم في المحفل السوري كما ذكرها الزعبي في كتابه عن الماسونية كما يلي:

«أقسم بمهندس الكونِ الأعظم أنني لا أفشي أسرار الماسونية ولا علاماتها، ولا أقوالها، ولا تعاليمها، ولا عاداتها، وأن أصونها في صدري إلى الأبد، أقسم بمهندس الكون الأعظم أن لا أخون عهد الجمعية وأسرارها لا بالاشارة ولا بالكلام ولا بالحركات، وأن لا أكتب شيئاً ولا أنشره بالطبع أو الحفر أو التصوير، وأرْضى إن حنثت بقسمي بأن تُحرق شفتاي بحديد محمى، وأن تقطَع يداي، وأن يُحزَّ عنقي، وتعلقَ جثتي في محفل ماسوني ليراه طالب آخر، وليتعظ بمثله، ثم تحرق جثتي ويُذرّ رمادها في الهواء لئلا يبقى أثر من جنايتي».

ب ـ إظهارهم غير ما يبطنون: يُظهر دعاةُ الماسونيةِ لمن يتعرضون له بالدعوة على أنها دعوة انسانية تسعى لتحقيق الحرية، والمساواة، والاخاء، والحقيقة أن هذه الشعارات ما هي إلا مصيدة يتصيدون بها الأغبياء من الناس، فإذا ما كان العمل الجاد حطمت كل النظم القائمة باسم هذه الشعارات ليبنى على انقاضها نظام لا يمت إلى هذه الشعارات بصلة ـ كما يقول روتشيلد الأول ـ فيما ذكرناه من قوله قبل قليل.

جـ ـ الوعود بتحقيق المصالح الشخصية: الماسونيون عندما يدعون شخصاً إلى الدخول في الماسونية، إن كان تاجراً أملوه بتعاون كل الماسونيين معه ورفعه إلى القمة، وإن كان طالباً أملوه بالمناصب العالية وهكذا، والحق أن الماسونيين متعاونون فيما بينهم تعاوناً منقطع النظير.

وبعد:

هذه هي الماسونية التي تظهر بثوب الحَمَلِ الوديع وهي لا تخفي في

جلده إلا ثعلباً ماكراً لا يلبث أن ينقض على الانسانية فيمزقها شر تمزيق لينعم هو بحلم حُكمِ العالَم أجمع، وهو عنه بعيد بعيد.

إن كل حرف في الماسونية وكل كلمة فيها تصرخ بجميع المتدينين مهما كانت نِحلُهم أن تمسكوا بدينكم لتحموا أنفسكم من مكر اليهود وكيدهم.

القوميَّة

١ ـ كان وجود الدولة العثمانية مغنياً عن قيام الجامعة الاسلامية، لأن الدولة العثمانية كانت تجمع جُلَّ الأقطارِ الاسلامية في العالم، ولكن لما ضعفت الدولة العثمانية وأخذت تستقل عنها الأقطارُ الاسلامية قطراً بعد قطر، وظهر أن المتعذر في المرحلة الراهنة ضم جميع الأقطار الاسلامية في دولة واحدة، نظراً لشدة الهجمَةِ الاستعمارية على البلاد الاسلامية، حتى أصبح كلُّ قطرٍ من هذه الأقطار غيرَ قادرٍ على صد الهجمة بمفرده، وجد المفكرون من المسلمين أن الاسلام هو الأصلح لنهضة المسلمين المطلوبة وتوحيد صفوفهم وجمع كلمتهم وهو الذي يجعل في المسلمين فدائيين لا يرضَون بسيادة الكافِر عليهم ولا يهابونَ الموت، فظهرت الدعوة لجمع الدول الاسلامية في جامعة إسلامية، وحمل لواء هذه الدعوة جمال الدين الأفغاني.

وكانت المبادىء التي تقوم عليها الدعوة:

أ ـ اعتبار الاسلام هو الأساس في المعركة ضد الاستعمار الكافر.

ب ـ بناء نفْسِيَّة المسلمين بناء إسلامياً، وتغذيتُها بروح المقاومة للاستعمار الكافر.

جـ ـ إدخال الاصلاحات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية على أساس المناهج الاسلامية.

د ـ الوحدة الاسلامية هي الطريق الوحيد لمقاومة الاستعمار الكافر.

٢ ـ القومية كبديل عن الاسلامية:

جن جنون الاستعمار لما رأى المفكرين المسلمين يتحركون لإقامة الجامعة الإسلامية، وأيقن أن ساعة قيام هذه الجامعة هي ساعة نهاية وجوده في الأراضي الاسلامية، ولذلك راح يعمل كالمسعور في دراسة أحوال المسلمين، والعوامل المؤثرة فيهم، وكان من جملة قراراته: طرح الرابطة القومية كبديل عن الرابطة الاسلامية، حتى أصبح مصرع الاسلامية «قيام القومية بدلاً عنها الحلمَ الذي يحلم به كافة المستعمرين، لأنه إذا ما تم ذلك، فقد مُهدت لهم السبُل، وملكوا الزمام، فقد جاء في كتاب أعمدة الحكمة السبعة نقلاً عن محمد محمد حسين: يقول لورنس ـ منفذ سياسة بريطانيا أثناء الحرب العالمية الأولى ـ «وأخذتُ طولَ الطريق أفكر في سوريا وفي الحج وأتساءل: هل تغلب القوميةُ ذات يوم على النزعةِ الدينية، وهل يغلب الاعتقادُ بها الاعتقادَ الديني، وبمعنى أصح: هل تحل المثلُ العليا السياسية ـ يريد النابعة من القومية ـ محلَّ الوحي والإلهام؟ وتَسْتبْدِل سوريا بمثلها الأعلى الديني مثلها الأعلى القومي؟ هذا ما كان يجول في خاطري طول الطريق».

وجند لذلك الجنود من أذكياء وعلماء وكتّاب وأدباء، وكان على رأس هؤلاء من الرعيل الأول «ناصيف اليازجي» المولود سنة ١٨٠٠ م و «بطرس البستاني» المولود سنة ١٨١٩، وقد كانا نصرانيين عميلين للبعثه التبشيرية الأمريكية.

* وأقيمت المدارس والجامعات وعلى رأسها (الكلية البروتستانتية السورية) في بيروت والتي عرفت فيما بعد ب (الجامعة الأمريكية) والجامعة اليسوعية في بيروت أيضاً واعتبرت هذه الأخيرة جزءاً من جامعة القديس يوسف الفرنسية.

* وصدرت الصحف والمجلات وعلى رأسها : مجلة «الجنان» التي

أصدرها بطرس البستاني عام ١٨٧٠ م وكتب معظم مقالاتِها ابنُه «سليم البستاني» ومجلة «المقتطف» التي أصدرها «يعقوب صروف، وفارس النمر» النصرانيان من أساتذة الكلية البروتستانتية السورية، ومجلة «الهلال» التي أصدرها جرجي زيدان النصراني المتخرج من الكلية البروتستانتية السورية.

* وأقيمت لذلك جمعيات أدبية وعلمية وأحزاب وهيئات سياسية منها: الجمعية العلمية السورية سنة ١٨٧٥، وجمعية حقوق الملة العربية سنة ١٨٨١، وعصبة الوطن العربي سنة ١٩٠٤ التي أسسها نجيب عازوري النصراني، والجامعة العربية سنة ١٩٤٥ التي يقول فيها الدكتور محمد محمد حسين في كتابه «حصوننا مهددة ص ١٣٩ إن هذه الجامعة قد أنشئت أول ما أنشئت بتشجيع دولة من أكبر دول الاستعباد الغربي ـ وهي انجلترا ـ لأنها كانت تطمع وقت ذاك أن تجعل هذه المؤسسة تحت رقابتها ووصايتها، فتكون وسيلتها الى السيطرة على العرب جملة، وبذلك تتحكم في التيار الجديد ـ أقول: هو التيار القومي الذي أَوْجَدَته أمريكا في المنطقة العربية الاسلامية ـ فترسم له المصارف والمجاري، وتوجهه إلى حيث تريد، قبل أن يطغى سيله فيحطم السدود ويجرفها ويجرف معها كل دول الاستعباد الغربي ويمحو كل أثر من آثاره»، وأَسس حزب البعث العربي في الأربعينات، ميشيل عفلق النصراني، هذا الحزب الذي لعب الدور الأكبر في أيديولوجية المنطقة العربية بكاملها.

ويؤكد فيليب حتّي ـ النصراني في كتابه «العرب تاريخ موجز» ص ٢٥٦ أن القومية العربية مولود أمريكي رعته الصليبية وربته فيقول: «كان من نتيجة الاحتكاك بين العقلية السورية والنتاج الفكري الغربي أن تولدت مبادىء القومية العربية الشاملة، واستمدت وحيها بالاكثرية من النظريات السياسية الأمريكية، على يد رجال الفكر السوريين، وغالبهم من اللبنانيين النصارى الذين تثقفوا في المدارس الأمريكية في بلادهم» ولكن أول جهد منظم في

حقل القومية العربية كان في عام ١٨٧٥ حينما اجتمع خمسة من النصارى من خريجي الكلية البروتستانتيه السورية «الجامعة الأمريكية» من الذين رباهم البستاني واليازجي على تأليف جمعية سرية باسم «الجمعية العلمية السورية» وبعد تشكيلها ووضع نظامها وأهدافها رأوا من الحكمة ألا ينفرد النصارى بها، لأن انفرادهم سيعيق تحركهم، ويلقي عليهم بعض الشبهات من قبل المسلمين، فضموا إليهم اثنين وعشرين عضواً ينتمون إلى مختلف الطوائف الدينية كالدروز والمسلمين، ويقول جورج انطونيوس في كتابه «يقظة العرب» ص ١٤٩ «واستطاع مؤسسو الجمعية السورية عن طريق أحد زملائهم أن يستميلوا إليهم المحفل الماسوني ويشركوه في أعمالهم» مع أن المرجح أن يكون المحفل الماسوني قد دفع هؤلاء الخمسة النصارى الى تأليف هذه الجمعية، لأن الفكرة القومية العربية من أساسها فكرة ماسونية، ولأن الماسونية ذات تنظيم عالمي، فهي الأقوى بالنسبة للقوميين أصحاب هذه الجمعية، وقد عهدنا أن الأقوى يؤثر في الأضعف ويسيِّره، لا العكس، وكيفما كان الأمر فإنه من المؤكد أنه قد تم احتضان الماسونية للقومية وتسييرها في فلكها.

قد يقال: إن الماسونية تتنكر للقوميات وتعمل على هدمها، فكيف تتبنى هنا العقيدة القومية والحركة القومية؟ والجواب على ذلك سهل وهو أن الماسونية تعمل على هدم القومية وتتنكر لها طالما هي أداةُ جَمْعٍ وقوة، أما إذا كانت القومية أداة إضعاف وتفريق فلماذا تتنكر لها وهي تحقق لها أهدافها؟ وطرح القومية العربية بدلاً عن الاسلام هو إضعاف وتفريق بين المسلمين، بل هو إضعاف للعرب انفسهم، ولذلك فإن الماسونية هي التي صنعت هذه العقيدة الجديدة ـ عقيدة القومية ـ وهي التي رعتها.

وبين جدران هذه الجمعية وفي أحد اجتماعاتها السرية انطلق أول صوت للقومية العربية منادياً بتقويض الدولة الإسلامية وإقامة دولة قومية للعرب حين أنشد إبراهيم اليازجي بن ناصيف اليازجي العميل الأمريكي

النصراني قصيدته البائيه: ومطلعها:

تَنَبَّهوا واستفيقُوا أيُّها العَرَب ... فقد طَمىٰ الخطبُ حتى غاصَتِ الرُّكَبُ

وفيها يقول:

سنطلبن بحد السيف مأربنا ... فلن يَخيبَ لنا في جنبه الأرب

ونتركن علوج الترك تندب ما ... قد قدمته أياديها وننتحب

لا دولة لكم يشتدُّ أزركُمُ ... بها، ولا ناصرٌ للخطب ينشرِب

ومن يعش يَرَ والأيامُ مقبلةٌ ... يلوح للمرء في أحداثِها العَجَب

ونجح الشباب النصارى في عقد المؤتمر العربي الأول سنة ١٩١٣ في فرنسا ووجهوا الدعوة إلى المنظمات العربية العلنية منها والسرية، وعقد المؤتمر برئاسة عبد الحميد الزهاوي - الماسوني - وفي هذا المؤتمر ظهر اتجاه واضح - كما يقول «علي المحافظة» في كتابه «الاتجاهات الفكرية عند العرب» ص ١٥١ - إلى رفض الرابطة الدينية، وتبني بديلها: الرابطة القومية، ففي أعقاب المؤتمر أجاب عبد الحميد الزهاوي على سؤال لمراسل جريدة Temps الفرنسية: «إن الرابطة الدينية عجزت دائماً عن إيجاد الوحدة السياسية، وأنا لا أرجع إلى الوراء لأبرهن على هذا، بل حسبي ما لدينا الآن من الشواهد الحاضرة».

وكان من أبرز المتكلمين في هذا المؤتمر «ندرة المطران» النصراني الذي أشاد بالروابط القومية وهوَّن بالروابط الدينية فقال «إذا كانت النعرة الجنسية فضيلة في النفس فلست أعرف أمةً أشدُّ تأثراً بعواملها من الأمة العربية، لمّا قَدِمَ أبو عبيدة بن الجراح وخالدُ بن الوليد بجيوش العرب المسلمين إلى بلاد الشام ووجدوا حراساً على أبوابها من الغسانيين وهم عربٌ نصارى، يتقدمهم ملكهم جبلة بن الأيهم، إلا أن هؤلاء بدلاً من قتال المسلمين والوقوف في وجوههم عطفوا عليهم عطف الأخ، فتركوا الجامعة الدينيَّة والرابطةَ السياسية

اللتين كانتا تقضيان عليهم بموالاة الروم، وخطبوا ودَّ هؤلاء الناطقين بلسانهم من بني أمتهم العرب».

يظهر لنا مما تقدم:

١ ـ إن الدعوة إلى القومية ظهرت يوم ظهرت كبديل عن الاسلام لتصرف الناس عنه.

٢ ـ إن الدعوة إلى القومية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً ب:

أ ـ الصليبية، فالذين تبنوها ودعوا إليها وعملوا لها هم النصارى وتبعهم في ذلك بعض أغنياء المسلمين.

ب ـ الاستعمار: لأن الذي تبناها وأمدها بالقوة الدولُ الاستعمارية ذات المطامع في البلاد العربية وتأتي في طليعة هذه الدول أمريكا ثم فرنسا وبريطانيا.

جـ ـ الماسونية: وقد رأينا كيف دفعت الماسونية شباب النصارى مستغلة بغضهم للإسلام إلى التمسك بالقومية والدعوة لها.

٣ ـ مقومات القومية:

لا تعلم شيئاً وقع الاختلاف فيه كما وقع في مقومات القومية، فالعلماء الألمان يرون أن القومية تقوم على وحدة اللغة ووحدة العنصر، بينما يرى الإيطاليون أن القومية تقوم على وحدة التاريخ ووحدة العادات، أما الفرنسيون فيرون أن وحدة الآمال هي المقوم الأساسي للقومية.

وفي اعتبار الدين مقوماً من مقومات القومية خلاف، فربما أدخله الايطاليون في العادات وجعلوه بهذا من مقومات القومية، أما الفرنسيون والألمان فإنهم يبعدون الدين عن ساحة القومية إبعاداً كبيراً.

وهذا الخلاف في جعل الدين مقوماً من مقومات القومية قد انعكس على القوميين العرب، فقسطنطين زريق ـ نصراني أرثوذكسي ـ وميشيل عفلق

أسلوبها تستمسك به ما وسعها الاستمساك، وأحيت أخرى الشعوبية الضيقة فبعثت الحضارات الوثنية كالفرعونية والفينيقية ونحوها،وفُرِض على الجميع أن يعيشوا في قارورة القومية، وأن يجتمعوا على مائدتها، يُظلهم سقف جامعة القومية العربية، فهم لا يجتمعون إلا ليختلفوا لأن من طبيعتهم الاختلاف، ولا يتحدون إلا ليفترقوا لأن من طبيعتهم الافتراق، فصارت القومية إذن أداة إضعاف لا أداة قوة، وأداة تفريق لا أداة جمع.

٥ ـ مناقضة القومية للعقيدة الاسلامية:

أ ـ إن طرح القومية كبديل عن الاسلام ـ حيث يقول قسطنطين زريق في كتابه الوعي القومي «إن القومية هي العقيدة التي نفتقر اليها إذ أنها تولد الشعور بالمسؤولية المشتركة والارادة في خلق مجتمع، والمحافظة عليه» ـ هو كفر صريح لأن الله يقول في سورة آل عمران ﴿ إن الدين عندَ الله الإسلام ﴾ ويقول في سورة آل عمران أيضاً ﴿ ومن يَبْتَغِ غيرَ الاسلامِ ديناً فلنْ يُقبَلَ منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾.

ب ـ إن الدعوة إلى القومية هي دعوة جاهلية لا تحلّ في دين الله، قال ابن تيمية «كل ما خرج عن دعوة الاسلام والقرآن من نسب أو بلدٍ أو جنسٍ أو مذهبٍ أو طريقةٍ فهوَ من عزاء الجاهلية، بل لما اختصم مهاجري وأنصاري فقال المهاجري: يا للمهاجرين، وقال الأنصاري: يا لَلأنصار، قال النبي ﷺ (أَبِدَعْوى الجاهلية وأنا بين أظهركم) وغضب لذلك غضباً شديداً. روى أبو داود في سننه عن النبي ﷺ أنه قال: (ليس مِنّا من دَعا إلى عَصبية، وليس منا من قاتَلَ على عصبية، وليس منا من مَاتَ على عصبية).

يقول الشيخ عبد العزيز بن باز في كتابه نقد القومية العربية» ص ٧٤ «لا ريب أن الدعوة إلى أن تكون القومية العربية هي الرابطة الأولى بين العرب، دعوة باطلة لا أساس يؤيدها من العقل ولا النقل، بل هي

دعوة جاهلية إلْحادية، يهدفُ دعاتُها إلى محاربة الاسلام والتملص من أحكامه وتعاليمه».

جـ - إن في تبني القومية العربية موالاة للكفار العرب: خاصة بعد أن عرفنا أن القومية العربية صليبيةُ المولِد، ماسونيةُ النشأةِ. يقول الشيخ عبد العزيز بن باز في كتابه «نقد القومية العربية» ص ٣٤ أنها - أي الدعوةُ إلى القومية العربية - سلَّمٌ إلى موالاة كفار العرب وملاحدَتِهم من أبناءِ غير المسلمين واتخاذِهم بطانة، والاستنصارِ بهم على أعداءِ القوميين من المسلمين وغيرهم، ومعلوم ما في هذا من الفساد الكبير والمخالفة لنصوص القرآن والسنة الدالة على وجوب بغض الكافرين من العرب وغيرهم، ومعاداتِهم وتحريم موالاتهم واتخاذهم بطانة، والنصوصُ في هذا المعنى كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تَتَّخِذُوا اليهودَ والنَصارى أولياءَ بعضُهم أولياءُ بعضٍ، ومن يتَوَلَّهم منكُم فإنَّه منهم، إن الله لا يَهْدي القومَ الظالمين ﴾ وقوله تعالى: ﴿ لا تجدُ قوماً يؤمنونَ بالله واليومِ الآخر يَوادُّون من حادَّ الله ورَسولَه ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانَهم أو عشيرتَهم ﴾.

د - إن الاجتماع على أساس قومي هو سبب لتعميق الخلاف بين المجتمعين، لأن القومية وعاء بغير محتوى، والواقع أن كل واحد من القوميين ملأ هذا الوعاءَ بما يحلو له من المبادىء، وعندما يجتمعُ حاملو المبادىء المتصارعة فلن يخلو اجتماعُهم من الصِّراع، إذ يضطر كل واحد منهم إلى تبرير الخط الذي يسير فيه، والدفاع عن المبدأ الذي يأخذ به، فيقعُ الاختلافُ بينَ المُجتمعين ويحصَلُ الصراع، وينْفَضّ الاجتماع وقد أُوغِرَتِ الصدور، وشَبّتِ الأحقاد، ونحن نعلم أن توحيدَ الصفوف وإزالةَ الخلافِ بين المسلمين فريضة إسلامية، ويحرُم ويُمنَع كلُّ حائلٍ يحول بين قيام هذه الفريضة.

ـ نصراني ـ وعبد الرحمن البزاز ـ مسلم ـ يعتبرون الدين مقوماً من مقومات القومية ولا يتصورون ـ كما يقولون ـ قيام القومية العربية بغير الإسلام.

أما نجيب عازوري ـ نصراني كاثوليكي ـ فيرى في كتابه «يقظة الأمة العربية» بأن القومية العربية يجب أن تكون مفصولة عن الاسلام خوفاً من أن تتكشف القومية العربية عن شكل جديد من أشكال التسلط الاسلامي، في حين يرى ساطع الحصري ـ مسلم ماسوني ـ أن الأديان المحلية يمكن أن تشكل مقوماً من مقومات القومية، أما الأديان العالمية كالاسلام والنصرانية فهي عامل مخرب للقومية، لأنها توجد مشاعر لا قومية، فالأديان لا تنتشر إلا بواسطة أداة التعبير القومي، اللغة، ولكل دين علاقة جوهرية مع لغة معينة تنشأ عن التبشير به، وعن كتبه وطقوسه المقدسة، ولا يمكن أن ينتشر إلا بواسطة هذه اللغة، ولا ينتشر إلا إذا كان للأمة الناطقة بتلك اللغة مصلحة قومية في انتشاره فيستخدم الشعور القوميُ الدينَ كوسيلةٍ لتأكيد ذاته.

والحقيقة: أنه لا يجوز لنا أن نكون متفائلين أدنى تفاؤل بأولئك الذين اعتبروا الاسلام مقوماً من مقومات القومية العربية، لأن هذا قولهم بألسنتهم، أما صدورهم فإنها تخفي الحقد على الإسلام، وقولهم هذا بألسنتهم هو مكيدة سياسية، لكسب الجماهير إلى صفهم، أو على الأقل لتجميدها عن معارضتهم، ولو أنهم أعلنوا منذ اليوم الأول أن القومية هي البديل عن الاسلام لتفرق الناس عنهم، ولرموهم بالكفر من أول يوم، ولكن إعلانهم أن الاسلام والقومية لا يفترقان ضلل كثيراً من الناس عن إدراك الحقيقة، فانْحَازَ من انْحَازَ من الجماهير المسلمة اليهم، فكان هذا الإعلان مصيدة وقع فيها بسطاء المسلمين، ولو كانوا مؤمنين بما أعلنوه من أن الاسلام والقومية لا يفترقان فلماذا ـ وهم دعاة القومية والمؤمنون بها ـ لم يتركوا النصرانية ويعتنقوا الاسلام؟!! بل وإن الأعجب من هذا أن البابا قد منح ميشيل عفلق ـ

مؤسس حزب البعث ـ أعلى وسام، ومنحه بركاته، لأنه أدى خدمة للنصرانية لم تؤدها جيوش المبشرين مجتمعة، وهذه الخدمة هي إخراج جماهير غفيرة من الإسلام إلى القومية، يعني إلى الفراغ، مما يتيح للنصرانية أن تطرح عقيدتها عليهم.

وما أن انقضت المرحلة الأولى للقومية وأصبح لها جمهورها وحكوماتها حتى أفصح فلاسفتها والحاكمون باسمها عن حقيقة الأمر، فأعلنوا علمانية القومية العربية، واتسم الشعور القومي والرابطة القومية بسمة العلمانية، وهذا ما نشاهده اليوم في الساحة القومية.

٤ ـ محتوى القومية:

بعد أن تم تجريد القومية العربية من محتواها الاسلامي برفض كون الاسلام مقوماً من مقوماتها، أصبحت القومية مجرد رابطة بغير محتوى، إنها أشبه شيء بالقارورة، فهي تجمع، ولكنها قد تجمع المثيل إلى المثيل، وقد تجمع النقيض إلى النقيض، يقول البرت حوراني في كتابه «الفكر العربي» ص ٤١٠ «ليست القومية نظاماً فكرياً، بل فكرة منفردة، لا تكفي بحد ذاتها لتنظيم حياة المجتمع بأسرها، لكنها فكرة فعالة، فكرة من ذلك النوع الذي يقوم بدور مركز الجاذبية بالنسبة إلى الأفكار الأخرى» فإذا اجتمع في هذه القارورة المثيل إلى المثيل شكلا قوة ربما انطلقت لتأخذ مسارها في الحياة وتحطم كل من يعترض طريقها، أما إذا اجتمع في هذه القارورة النقيض إلى النقيض كان بأسهم بينهم شديداً، وعجز كل واحد منهم عن المضي في الطريق لأنه مشغول بمحاربة نقيضه.

إن هذه القارورة «القومية» قد صنعتها: الصليبية الحاقدة، والاستعمار الجشع، والماسونية الهدامة «فلا يعقل أن تُتخَذَ إلا أداة للتفريق لا للجمع، وللإضعاف لا للقوة، وللذل لا للعز». ولذلك طرحت في ساحة القومية العربية عدة مبادىء متخالفة، فأخذت مجموعة الشيوعية، وأخذت مجموعةٌ أخرى الاشتراكية، واختارت مجموعة ثالثة الرأسماليةَ، وبقيت رابعةٌ على

الشُّـــيُوعيَّـــة

١ ـ نشأة الشيوعية:

من الصعب على المرء أن يفصل بين اليهودية والماسونية كما رأينا، كما أنه من الصعب عليه أن يفصل بين الشيوعية والماسونية، وعلى هذا فمن الصعب عليه أن يفصل بين الشيوعية واليهودية. فالشيوعيةُ هي يهوديةُ التفكيرِ والتمويلِ والتنفيذِ.

أما انها **يهودية التفكير والتمويل** فـإن من المتفق عليه أن فيلسـوفَ الشيوعية وواضعَ مبادئها هو «كارل ماركس» وماركس هذا هو ابن «هرشل» ابن «مردخاي» و«مردخاي» هذا ـ جد «كارل ماركس» كان أحد حاخامات اليهود، أما «هرشل» والد كارل ماركس، فقد شب يهودياً على دين أبيه، ولكن ضيق ذات يده، وسد الأبواب في وجهه دفعه لأن يُظهر النصرانية، في مجتمع نصراني لا يجد في قلبه أي عطف على اليهـود، فأظهـر «هرشـل» النصرانية، وبدل اسمه فسمى نفسه «هنريخ» وبقي يحرقُ صدرَهُ الحقدُ على النصارى الذين يرفضون التعاون مع اليهود إلا إذا بدلوا دينهم، وسقى هذا الحقد إلى ولده كارل ماركس، الذي ما لبث أن انخرط بين صفوف الماسونية ـ تلك المنظمة اليهودية ـ فقد جاء في بيان المشرق الأعظم الفرنسي الماسوني لعام ١٩٠٤ ص ٢٣٧ ما يلي:

إن الماركسية وليدة الماسونية لأن مؤسسها «كارل ماركس» و«انجلز» هما من ماسونيي الدرجة الحادية والثلاثين ومن منسوبي المحفلِ الانجليزي. وإنهما كانا من الذين أداروا الماسونية السرية، وبفضلها أصدرا البيـان الشيوعي المشهور.

أما كيف تم ذلك، فهذا الذي يقصه علينا وليم كار في ص ١٣ من كتابه «اليهود وراء كل جريمة» فيقول: «كُشِفَ النقابُ لأول مـرة في عام

١٨٢٩ عن نوعية التخطيط الذي أعده «محفل النورانيين» بعد تنظيمه الحديثِ من قِبَل «وايز هاويت» إذ أوفد أحدَ أعضائه وهو رجل انكليزي عرف باسم المستر «رايت» إلى نيويورك في ذلك العام، حيث عقد مؤتمراً للمحافل الماسونية التي تم تهويدها. أبلغ فيه «رايت» المجتمعين بالتنظيم الجديد الذي وضعه حكماء صهيون «النورانيون» والذي يقضي بتوحيد جميع الحركات التخريبية والجمعيات الالحادية في أوروبا ضمن نطاق منظمة عالمية أو أممية واحدة تمد فروعها وشباكها وخلاياها السرية ومنظماتها العلنية إلى كل بلد في العالم،وتدعى ب «المنظمة الشيوعية» ويجب العمل من ناحية أخرى على وضع نظرية عَقَديَّة ذات فلسفة تقوم هذه المنظمة على أساسها، وقد كلف المؤتمر المذكور بجمع رصيد من الأموال اللازمة للانفاق على هذه المؤسسة أو هذا المشروع. فعينت لجنة من ثلاثة أشخاص كان أحد أعضائها «كلفتن روزفلت» وجمعت اللجنة المبالغ المطلوبة، كما وقع اختيار النورانيين من ناحية أخرى على اليهودي الألماني «كارل ماركس» وعلى زميله «انجلز» لوضع النظرية اللازمة لبلشفة العالم، واستقدموهما إلى لندن لانجاز المهمة فأقاما في لندن،ووضعَا كتاب «رأس المال» ووضعَا إلى جانبه «البيان الشيوعي» وقد صرفت اليهودية العالمية على هذين الكتابين من مالها الخاص بسخاء. هذا من ناحية التفكير والتخطيط.

أما أمر التمويل فإن اليهودية لم تبخل بالمال لضمان نجاح المخطط الذي وضعه محفل النورانيين، فقد عقد اجتماع تم فيه الاتفاق على تمويل اليهود للثورة الشيوعية في روسيا، وتم الاتصال بمصارف «ليب» و«كوهين» اليهودية التي يديرها «يعقوب شيف» كما تم الاتصال بمصارف «واربوغ» وتدفق المال اليهودي ووضع تحت تصرف «لينين» و«تروتسكي» وأعوانهما لتغذية الثورة الشيوعية «البلشفية» في روسيا. ومن هنا قلنا: إن الشيوعية يهودية التفكير والتمويل.

وهنا قد يقال: كيف تكون الشيوعية يهودية الفكر، مع أن الإلحاد أصل من أصولها؟ وهي لو كانت يهودية الفكر لدعت إلى الايمان بالله تعالى حسب التصور اليهودي له.

وإيضاحاً لذلك نقول: إن اليهودية - كما يعتقد اليهود - هي دين الصَّفْوَةِ، دينُ بني إسرائيل، شعب الله المختار، وهم لا يرضون باعتناقه من قبل غير الاسرائيليين، فهو دين لهم دون غيرهم من الناس، والمذاهب الالحادية التي يصنعونها، كالشيوعية، والقومية وغيرها، إنما يصنعونها لغير اليهود، ليترك هؤلاء أديانهم ويعودوا كالأنْعَامِ، وبذلك يتسنى لليهود حكمُهم وتسخيرُهم، وبذلك يعود لبني إسرائيل المجد والرفعه. فقد نقل الدكتور عبد الله عزام في كتابه «السرطان الأحمر» عن مجلة المصور المصرية في عددها رقم ٢٦٢٩ قرار بني بيرت (أبناء العهد اليهودي سنة ١٩٣٩ «لقد نشرنا روح الثورة التحررية الكاذبة بين شعوبِ الغيرِ لاقناعهم بالتخلّي عن أديانهم - بل بالشعور بالخجل من الاعلان عن تعاليم هذه الأديان، ونجحنا في إقناع كثيرين بالإعلان جهاراً عن إلحادِهم الكليّ وعدم الإيمان بخالق البَتَّة، وأغويناهم بالتفاخر لكونهم أحفاد القرود - يريدون الاعتقاد بصحة نظرية دارون - ثم قدمنا لهم عقائد يستحيل عليهم سَبْرُ أغوارِها الحقيقية كالشيوعية والفوضوية التي تخدم مصالحنا وأهدافنا».

وجاء في بيان المشرق الأعظم الفرنسي سنة ١٩٠٤ ص ٢٣٧ «أن الماسونية قد وجدت في المبادىء الاشتراكية خير معوان لها، فلا بد من معاضدتها» وإنما جاء في البيان المذكور «وجدت... خير معوان لها... لا بد من معاضدتها» لأن التفكير الاشتراكي وتنفيذه لم يخرج تخطيطه من المحافل الماسونية.

وأما أن الشيوعية يهودية التنفيذ: فحسبنا أن نعلم أن لينين الذي قاد الثورة الشيوعية «البلشفية» وتبنى تنفيذ تعاليمها كان يهودياً، ولما شكل المكتب

السياسي الأول للثورة البلشفية كان مكوَّناً من سبعة أشخاص، خمسة منهم من اليهود وهم: «لينين، وتروتسكي، وكامينيف، وسوكو لتكوف، وزيتونيف» واثنان من غير اليهود الأول: ستالين، غير أن ستالين كانت زوجته يهودية وهي «روزاكاجا نوفتش» وكان لها ولأخيها نفوذ كبير عليه، والثاني: يبنوف وهو ليس بيهودي.

- وكانت أول وزارة شكلت بعد الثورة عدد أفرادها ٢٢ وزيراً منهم ١٧ من اليهود، وقُلْ مثلَ ذلك في بقية المراكز القيادية في روسيا.

- تقول الكاتبة الروسية نينا اليكسيفا: ١٩٦٥ عدد اليهود في الاتحاد السوفياتي لا يزيد عن ١٪ ولكنهم يشكلون ٦٠٪ من هيئة التدريس في المعاهد العليا والجامعات و ٨٠٪ من مسؤولي التوجيه العقدي في الحرب والسياسة الخارجية.

- وجميع مؤسسي الأحزاب الشيوعية في العالم من اليهود، ولتأخذ على ذلك مثلاً الأحزاب الشيوعية الموجودة في البلاد العربية، والتي كان من المفروض أن تكون أبعدها عن اليهود.

فأول تنظيم شيوعي بدأ بالاسكندرية على يد اليهودي الروسي «جوزيف رونبرغ» الذي تصحبه ابنته الحسناء «شارلوت» ثم أسست عدة منظمات شيوعية «كالحركة الديموقراطية للتحرر الوطني» و «منظمة الأسكرا» و «منظمة الفجر الجديد» وغيرها، وكان مؤسسوها من اليهود.

وكان على رأس الحزب الشيوعي في العراق «ساسون دلال، وناجي شميل، وصديق يهودا، ويوسف حزقيل» وكلهم من اليهود.

أما الحزب الشيوعي السوري اللبناني الذي تأسس سنة ١٩٢٤ فقد كان يرأسه «جاكوب تايبر» اليهودي وكان يساعده ثلاثة من اليهود هم «ميك، أوسكار، مولد».

أما الحزب الشيوعي في فلسطين فقد أسسه اليهـودي «روز شتاين» ولذلك فإنه ما أن تسلمت الثورة الشيوعية مقاليد الأمور في روسيا حتى صدر عنها في الأسبوع الأول للثورة قرار يحمل بندين خاصين باليهود:

الأول: اعتبار عداء اليهودِ عداءً للجنس السامي يُعَاقَبُ عليه قانوناً.

الثاني: الاعتراف بحق اليهود في إنشاء وطن قومي في فلسطين.

ـ كما ذكر ذلك الدكتور عبد الله عزام في كتابه السرطان الأحمر نقلاً عن كتاب: يا مسلمي العالم اتحدوا، وكتاب التاريخ السري للعلاقات الشيوعية الصهيونية ـ

ولذلك أيضاً نرى الشيوعيين العرب بَلْهَ غيرهم يعطفون على اليهود في إسرائيل، ويعترفون بشرعية اغتصابهم فلسطينَ من أهلها، وبحقهم في إقامة دولتهم فيها.

فقد أعلن السكرتير العام للشيوعيين العرب ـ خالد بكداش ـ «أن الحكومات الرجعية العربية هي المسؤولة، لقد عـارضت الاتحاد السـوفياتي الصديق حتى اللحظة الأخيرة ولم تخطب وده، صحيح أن اليهود ليسوا أمة، لكنهم شعب له حق الحياة».

وقـال «رفيق رضا» عضـو قيادة الحـزب الشيوعي اللبنـاني السوري: «كانت قيادة الحزب بمثل حماس بن غوريون على بعث الدولة اليهودية في فلسطين، فإسرائيل في نظرها واحة من واحات الديموقراطية في الشرق الأدنى، والشعب الإسرائيلي المشرَّد لا بد وأن يلتقي في أرض الميعاد، وإن واجب التضامن الأممي في عرف القيادة المذكورة هو من صلب المبادىء الماركسية، ولذا فوجود اسرائيل له في عرفها مبرراته الانسانية التي تتخطى المبررات والوقائع القومية».

وألقى «فؤاد نصـار» سكرتـير الحزب الشيـوعي الأردني سنة ١٩٥٧

محاضرة في الجفر قال فيها: إننا نعلم ويعلم الجميع بأن إسرائيل أمر واقع، ودولة لها كيانها السياسي والاقتصادي والعسكري، وإن اليهود شعب كباقي الشعوب، له حق الحياة، وأنا اعترف باليهود كدولة، لأن الشمس لا تغطى بغربال ـ كما نقل ذلك عبد الحفيظ محمد في الصفحة ٨٨ من كتابه «هذه هي الشيوعية في العالم العربي» وإذا أردت المزيد فانظر كتاب «صفحات مجهولة عن تاريخ الحزب الشيوعي» لمرقص ورفيقه.

ولا يجوز أن يغتر أحد بتدفق الأسلحة الشيوعية ـ الروسية ـ على بعض البلدان العربية، لأن هذه الأسلحة لا تعطى إلا بشرط عدم استعمالها ضد اليهود، وإذا ما جازفت دولة عربية في استعمالها ضد إسرائيل فإنه لا يسمح لها باستعمالها إلا بالحد الذي يكون فيه تدمير هذه الأسلحة، وهذا ما هو مشاهد في الواقع، وهذا ما صرح به المراسل العسكري السوفياتي في **٢٢** يونيو **١٩٦٤** في باريس لمراسل جريدة «معاريف» الإسرائيلية حيث قال: «نحن نشارك العرب في كفاحهم الاستعمارَ والرجعيةَ العربيةَ، وما نقدمه للجمهورية العربية المتحدة من سلاحٍ إنما هو لأغراض دفاعية، ولا يمكن أن نسمح باستعماله ضد إسرائيل، فلا تقلقوا من السياسة السوفياتية في المنطقة العربية، فهذه السياسة متممة، بل ضرورية، لسلامة إسرائيل، وثقوا أن الاتحاد السوفياتي مع إسرائيل ـ وسيؤيدها».

٢ ـ الأسس الفلسفية للشيوعية:

إن أي نظام أو حركة تبغي لنفسها البقاء تسعى لأن تستند إلى أسس فلسفية عقدية، حتى إذا ما رسخت هذه العقائد في نفوس أتباعها وهبتهم حرارة التحرك، وحماس الإخلاص. ومن هنا حرصت الشيوعية على إرساء أسس عَقَدِية لها.

والأسس العقدية للشيوعية يمكن حصرها بما يلي:

أ ـ أزَلِيَّةُ المادة: يقول الماركسيون ـ كما في كتاب «أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية» ـ أن هذا الكون المادي قديم ليست له نهاية، وليست له حدود، وبما أنه يتصف بهذه الصفات فليس في الوجود غيره، وكل ما يقال عن وجود غير مادي ـ الله ـ فهو هراء، وكل ما يقال عن وجود عالمٍ غيبي غير هذا العالم المادي فهو ضرب من الأراجيف.

ب ـ الفكر موجود، ولكن المادة موجودة قبل الفكر، وهي التي أوجدته، لأن الفكر ما هو إلا انعكاس للمادة الواقعة على الدماغ، فهو يفكر بالمادة التي تنعكس عليه، فالمادة هي مَنبَع الإحساس والتصور والإدراك، يقول انجلز «لا يمكن فصلُ الفكر عن المادة المفكرة، فإن هذه المادة هي جوهر التغيرات التي تحدث».

وعلى هذا فالإله، والمُثُل، والقِيَمُ كلُّها نابعة من ظروف مادية معينة، وتتغير بتغير هذه الظروف المادية. حتى أن الخير ليصبح شراً والعكس. وكما جاء في الجزء الأول من «أصول الفلسفة الماركسية ص ٢٤٤» الإنسان ليس صالحاً ولا طالحاً، بل هو ما تصنع منه الظروف».

وبذلك يكون الشيوعيون قد أعطوا التفسير المادي للتاريخ وللحياة وللفكر وللمشاعر الإنسانية وتصوراتها.

النظر في هذه الأسس:

أ ـ إن القولَ بأزلية المادة وقدم العالم، نظريةٌ قديمة قال بها كثير من الفلاسفة القدامى، غير أنهم لم ينكروا وجود الله كما أنكره الشيوعيون، بل قالوا إن الله تعالى قديم والعالم قديم، وإن تقدم الله على العالم كتقدم المقدّمة على النتيجة، فالتقدم إنما هو بالذاتِ وليس بالزمان، وقد أفاض العلماء في الرد على هذه النظرية وتفننوا في ذلك مما لا يتسع لعرضه المقام هنا، فنكتفي بما قاله الغزاليَ في نفيه قِدَمَ العالم واثبات حدوثه بناء على ملاحظة الحركة

والسكون. يقول الغزالي رحمه الله تعالى:

إن دورة من الفلك إما أن تكون شفعاً أو وتراً، فإن كانت شفعاً: فقد أتمت عدداً فردياً، وإن كانت وتراً، فقد أتمت عدداً زوجياً، وإذن فالعدد السابق على كلا الحالتين محدود ولما كان محدوداً فهو حادث قطعاً.

ولو قيل: إن أصل العالم قديم والحركةُ طارئة.

قلنا: من أين طرأت الحركة؟ إذن لا بد من مرجح رجَّحَ وجود الحركة في العالم.

وذلك المُرَجّح هو الله تعالى. قال تعالى ﴿ أمْ خُلِقُوا من غَيْرِ شيءٍ أمْ هُمُ الخَالِقون؟ ﴾

ب ـ أما قولهم بتقدم وجود المادة على وجود الفكر فهو أعجوبة الأعاجيب، لأن ذلك يعني أن الحرم المكي ـ مثلاً على ما هو عليه من إحكام البناء وروعة التصميم وسمو الفن قد وُجِدَ قبلَ أن يُفَكر به المهندسون، أعني قبل أن يرسموا له الصورة الذهنية في عقولهم! نحن لا ننكر تأثير المادة على تصورات الفكر وحركته، ولكننا ننكر تقدم المادة على الفكر.

وإن كثرة ما لاقته هذه المقولة ـ تقدم المادة على الفكر ـ من هجوم ونقدٍ جَعَلَ أصحابَ كتاب «أسس الماركسية اللينينية» يتراجعون عنها.

٣ ـ أهداف الشيوعية:

إن الأهداف التي تسعى الشيوعية لتحقيقها هي:

أ ـ إزالة الحكومات الشرعية ـ الرجعية ـ وإقامة حكومات شيوعية مقامها، حتى ينضوي العالم كله تحت لواء الشيوعية.

ب ـ جعل الإنسان في هذه الدولة إنساناً مجرداً من جميع القيم، كالبهيمة، كالآلة، يعملُ ويعملُ ليجنيَ ثمارَ عمله اليهودُ الممثلون بالدولة الشيوعية.

٤ ـ وسائلها لتحقيق هذه الأهداف:

أ ـ لتحقيق الهدف الأول: إزالة الحكومات الشرعية، فإن الشيوعية اعتمدت على نظرية الصِّراع، صراع العامل مع رب العمل، والفقير مع الغني، والضعيف مع القوي، والمحكوم مع الحاكم، ولتحقيق هذا الصراع وتعميقه فإنهم يُغَرِّرُونَ بالطبقات الدنيا من عمال وفلاحين وفقراء (البروليتاريا) ببذل الوعود لهم: بأن الشيوعية هي السبيل الوحيد لإخراجهم من جحيم الدنيا الذي هم فيه من فقر وذل وحرمان، هذا الجحيم الذي صنعه لهم البرجوازيون، والإقطاعيون والحكام الرجعيون ـ أي الحكومات الشرعية ـ إلى جنَّتِها حيث تكون لهم المعامل والمزارع والحكم، فيظن هؤلاء أنهم إذا ما قام الحكم الشيوعي فإنهم سيملكون ذلك كله، وما دَرَوْا أن الحكومة الشيوعية اليهودية هي التي ستستولي على ذلك كله باسمهم، ليكونوا هم فيها كالبهائم التي تدور حولَ الرحى طول اليوم، ثم لا ينالون في المساء إلا أحقر لقمة عيش، وأسوأ مسكن.

ب ـ ولتحقيق الهدف الثاني كان لا بد من تحطيم الأديان كلها واعلان الحرب عليها،وفي ذلك يقول «ماركس»: «الدين أفيون الشعوب» ويقول: إن الله لم يخلق الجنس البشري، بل الإنسان هو الذي خلق الله.

ويقول لينين: الدين خُرافة وجهل، ويقول: إننا لا نؤمن بإله، ونحن نعرف كل المعرفة أن أرباب الكنيسة والاقطاعيين والبرجوازيين لا يخاطبوننا باسم الإله إلا استغلالاً.

ويقول ستالين: يجب أن يكون مفهوماً أن الدين خرافة وأن فكرة الله خرافة وأن الإلحاد مذهبنا.

وتقول جريدة البرافدا السوفياتية: نحن نؤمن بثلاثة: ماركس ولينين وستالين، ونكفر بثلاثه: الله والدين، والملكية الخاصة.

ولقد كانت وطأة الشيوعية ثقيلة على المسلمين، فقد عملت فيهم - أينما تمكنت منهم - تقتيلاً وتشريداً ويكفي أن نعلم أن الشيوعيين قتلوا عام **١٩٣٤** في تركستان الشرقية ربع مليون من المسلمين وقتلوا في الصين عام **١٩٥٢** اثنين وعشرين ألفاً، وقتلوا في القرم عام **١٩٢١** مائة ألف مسلم دفعة واحدة ثم أخذوا يتتبعون المسلمين حتى أتوا عليهم جميعاً ما بين قتل ونفي إلى سيبريا. وقتلوا في تركستان الغربية عام **١٩١٩** مائة ألف مسلم، وفي عام **١٩٣٤** قتلوا مائة ألف أخرى ونفوا **٣٠٠** ألف إلى سيبريا، وما بين عامي **١٩٣٢ - ١٩٣٤** كانت الحكومة الشيوعية الروسية تصادر محاصيلهم الزراعية وترسلها إلى الشيوعيين في الصين حتى مات منهم جوعاً ثلاثة ملايين.

وقتل تيتو الشيوعي من المسلمين في يوغوسلافيا بعد الحرب العالمية أربعة وعشرين ألفاً.

كل هذا وروسيا تدعي المحافظة على المسلمين وتقيمُ بعض المؤسسات الإسلامية البراقة للدعاية فقط، كمكتب الشؤون الإسلامية، ودار الافتاء، ومعهد الدراسات العليا للشؤون الإسلامية، والإدارة الدينية للشؤون الإسلامية، ومعهد الدراسات الإسلامية، وطبعِ القرآن الكريم ونحو ذلك.

والواقع أن كل مؤسسة من هذه المؤسسات هي معول هدم للإسلام، ونحن نسوق بعض الأمثلة للبيان فحسب.

خذ مثلاً معهد الدراسات الإسلامية - هذا الذي يظنه البعض صرحاً إسلامياً شامخاً يعد الدعاة والعلماء - وانظرْ إلى أهدافه، تجد أن النظام الأساسي لهذا المعهد - كما نشرت مجلة «الأمَّة» في عددها العشرين تحت عنوان «الاستشراق الروسي» - ينص على ما يلي:

يهدف معهد الدراسات الإسلامية لإضعاف الروح المعنوية بني المسلمين وإبعادهم عن معتقداتهم وتغذية أفكارهم بالشك في دينهم.

إغراء المسلمين بالمفاهيم المادية الجذابة بأسلوب طلي، وفتح المجال لهم حتى يندفعوا لاعتناق الاشتراكية.

أما المصحف الذي طبعته روسيا فإن شأنه شأن المصحف الذي طبعته سورية، فإنه لم يره أحد داخل البلاد، ولكنه للهدايا إلى كبار الشخصيات الإسلامية، ليقالَ إن هذا البلد مسلم ومتدين ودليل ذلك أنه يطبع المصاحف. يقول الصحفي الروسي «شاركون سايكوسكي»: «إن الاتحاد السوفياتي طبع القرآن، كتاب المسلمين، ليوزع مجاناً خارج الاتحاد السوفياتي للذين يدرسون الإسلام من غير المسلمين، ولا يوزع هذا المصحف داخل الاتحاد السوفياتي، وقد طبع بناء على توصية جمعية الاستشراق الروسي».

وقد اطّلَعْنا على مجموعةٍ لا بأسَ بها من المنشورات والدوريات التي تصدُرُ عن تلك المؤسسات الإسلامية التي أقامها الشيوعيون ـ كدار الافتاء وغيرها ـ فوجدناها في جملتها تمجيداً للثورة الشيوعية، والمبادىء الشيوعية، وهي في جملتها تدعي أنه لا تنافي بين الشيوعية والإسلام، بل أن الشيوعية هي الإسلام ﴿ كبُرَتْ كلمةٌ تخرجُ من أفواهِهِم إنْ يَقُولُونَ إلا كَذِباً ﴾.

٥ ـ فشل الشيوعية نظرياً:

لقد جرد كثير من العلماء والفلاسفة القلم لبيان زيف النظرية الشيوعية حتى أصبح ما قاله «اكسندر جر» أصدق تعبير عنها حيث قال:

«إن ماركس واضعُ أساطير، الحقيقةُ فيها أمرٌ ثانوي، وذلك لا يهم ما دامت الأساطير تُصَوِّر ما يرْغبُ أن يعتقده. وما دام في هذه العقيدة قوة تلهم العمل، أن هذه الفلسفات لا داعي لأن تكون صحيحة في نفسها، ولكنها يجب أن تتفق مع عواطف الجماهير المكافحة».

أ - يرى ماركس أن العقل الإنساني ليس له قيمة أمام أهمية المادة وأسلوبِ الإنتاج ونوع الآلة، ولكنا نسأل ماركس: من الذي فجَّر الطاقَةَ واكتشف الكهرباءَ وطوَّرَ آلةَ الانتاج، أليس هو العقل، فكيف يصح لنا أن نضع العقل في الهامش، ونجعله كالمرآة تنعكس عليه المواد، مع أنه هو الذي أوجدها.

ب - يرى ماركس أن أي تغيير حضاري إنما هو نتيجة حتمية لتغير وسائل الانتاج. وهذا ما يكوِّن تاريخ الحضارة، فهل يستطيع أن يقول لنا ماركس أي تغيير قد حصل على آلة الإنتاج حتى بعث محمد ﷺ ونزلت شريعة الإسلام؟ بل إننا إذ طبقنا مقولة ماركس هذه على نظرية ماركس ذاتها لوجب علينا أن نقول: إن النظرية الشيوعية ولدت نتيجة ظروف اقتصادية معينه، والآن قد تغيرت هذه الظروف، فوجب أن تُترَكَ هذه النظريةُ إلى نظريةٍ أخرى، فهل يُرضي هذا الكلامُ الشيوعيين، مع أنه منطوق نظريتهم؟

جـ - يرى ماركس أن الأخلاق في أي عصر هي انعكاس لآلة الانتاج، وآلات الانتاج تسجل تقدماً مستمراً، وعليه فإن الأخلاق في تقدم مستمر، ولكن الناظر في المجتمعات التي تم فيها تطور وسائل الإنتاج تطوراً كبيراً كأمريكا وروسيا وأوروبا يرى عكس ذلك، فالآلة في تقدم، ولكن الأخلاق في تأخر، حتى انحط بها الإنسان إلى درك البهيمية.

د - لقد كان برتراند روسل: رائعاً عندما تحدث عن زيف النظرية الماركسية في كتابه «الآمال الجديدة للعالم المتغير» حيث قال «لقد كانت مجازفة أن تسمح الحكومةُ الألمانية بعودة «لينين» إلى روسيا سنة ١٩١٧، ولو أن الوزير الألماني المختص قال: لا، ولم يقل: نعم، لكان صعباً أن نتصور أن الثورة الروسية كانت ستتخذ السبيل التي اتخذتها» أي الشيوعية.

٦ ـ فشل الشيوعية تطبيقياً:

لقد اغتر البسطاء بالشيوعية أول الأمر فالتفوا حولها ظانين أنها ستكون لهم المنقذَ مما هم فيه من بؤس وحرمان، ولكن سرعان ما خاب فَأْلُهُم.

أ ـ أما الإنتاج: فإنه نظراً لإلغاء الملكية الفردية وعدم إباحتها إلا في حدود ضيقة في النظام الشيوعي، فقد ماتَتْ الحَوافِزُ الدافعة إلى مضاعفة الإنتاج، وإلى جودة الإنتاج.

أما كمية الإنتاج: فحسبنا أن نعلم أن سكرتير الحزب الشيوعي الروماني أعلن في ١٩٦٦/١٢/٢٣ أن إنتاج العامل الروماني في ظل النظام الشيوعي يعادل ثلث إنتاج العامل الآخر في ظل النظام الرأسمالي.

أما جودة الإنتاج: فإن أنواع البضائع المطروحة في الأسواق اليوم تشهد بأن البضائع المنتجة في البلدان الشيوعية هي أسوأ أنواع البضائع، وما ذلك إلا لأن العامل في هذه الدول أصبح روتينياً في عمله، متواكلاً في حياته، يعمل بلا دافع محرك ولا هدف يتحرك نحوه.

ب ـ وأما المساواة: فإن الناس رأوا الحكام وأصحاب الحُظْوَة ينعمون بالحياة الرافهة في القصور الشامخة، بينما غيرهم من القوى العاملة يعيشون في أسوأ ظروف الحياة، حتى أن دخل الفرد منهم لا يكفي لغير لقمة عيشه، أما مسكنه فإنه لا يتجاوز غرفة حقيرة يحشر فيها الزوجان والأولاد جميعاً، وأما ملبسه فإنه بمعدل حذاء واحد للفرد كل ثمانية عشر شهراً ـ حسب الإحصائيات الأخيرة في روسيا ـ.

جـ ـ وأما الحرية: فحسبنا أن نعلم أن المخابرات وراء كل شخص، وأن الفرد محروم من جواز السفر، ومحروم من السفر، ولو أبيح للناس المحكومين بالشيوعية السفر لما بقي في الاتحاد السوفياتي إلا بضعة ملايين من الناس.

د - وأما الإنسانية: فإن الشيوعية تتعامل مع الناس على أنهم أدوات إنتاج، تحدِّد مشاعرهم وأحاسيسهم وفكرهم وظروف عملهم.

فهناك طبقة من الناس لا يحتاج منهم المجتمع إلى أكثر من حمل لوح من الخشب من هنا لوضعه هناك، أو شد صامولة في برغي، وهؤلاء هم دهماءالناس وجمهورهم، فهم كالبهائم التي تحمل الأثقال دون أن تدرك أية حكمة لما تحمل، وهذه الحيوانات لا تحتاج إلى أكثر من لقمة العيش التي تساعدها على المضي في العمل، ولذلك فإن النظام الشيوعي لا يبذل لها، أكثرَ من لقمة العيش التي تساعدها على المضي في العمل.

٧ - النتائج:

كل هذا... أوجد موجة من التذمر من النظام الشيوعي لا حدود لها، وأصبحت جميع الاتهامات التي كان يوجهها الشيوعيون إلى غيرهم من البرجوازيين والاقطاعيين يوجهها الناس إليهم.

أ - فالطبقة الحاكمة هي الطبقة المترفة، وبقية الناس كقطعان الماشية ليس عليها إلا أن تقدم خلاصة مجهودها إلى هذه الطبقة الحاكمة طائعة أو مكرهة، بينما لا يكون لها من هذا المجهود غير أرْدَأ لقمةِ عيشٍ.

ب - حَلَّ الحزبُ الشيوعي محلَّ الرأسماليين والاقطاعيين، فأصبح مصاصاً للدماء، بل وأكثر شراهة من الرأسماليين والاقطاعيين.

جـ - أضحى الحزب بتعاليمه أفيوناً للشعوب، يخدرهم بأجهِزَة إعلامه المضلِّلَة، بينما يمنعهم في الوقت ذاته من الاطلاع على نظمٍ غير نظامِه، وعلى مجتمعات غير المجتمعات الشيوعية، ليبقوا دائماً تحت تأثير مخدرات الحزب.

والخلاصة:

إن المعركة القادمة لن تكون مع الشيوعيين والرأسماليين أو الإسلاميين

ولكن مع الشيوعيين والثائرين على جحيم الشيوعية.

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم

الظهران - جامعة البترول والمعادن في الفاتح من محرم ١٤٠٣

المؤلفان

أ. د. محمد أبو الغيط الفِرت و أ. د. محمد رواس قلعه جي

فهرس الكتاب

الموضوع	صفحة